رواية

السواد المُر

مُعاون الخليفة الذي طعنته سبيّة يزيدية

رواية

السواد المُر

مُعاون الخليفة الذي طعنته سبيّة يزيدية

محمد سليمان الفكّي الشاذلي

عنوان الكتاب: السواد المُر

إسم المؤلف: محمد سليمان الفكّي الشاذلي

تصميم الغلاف وإخراج الكتاب: مداد للنشر والتوزيع

الرقم الدولي للكتاب: ISBN: 978-0000-00-00-0

الطبعة الأولى: مايو 2015

جميع الحقوق محفوظة

"يمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي وسيلة من الوسائل الورقية أو الإلكترونية إلّا بإذن خطي من الناشر."

مداد للنشر والتوزيع
Medad Publishing & Distribution

دولة الإمارات العربية المتحدة – دبي
P. O. Box: 445229
www.medadpublishing.com
e-mail: info@medadpublishing.com
Twitter: @medadpublishing
Instagram: @medadpublishing
Tel: 00971526777700

جميع ما ورد في محتوى الكتاب يعبّر عن آراء الكاتب، ولا يعبّر عن رأي مداد للنشر والتوزيع

إهداء

مقدمة

ليل الشرق.

وقد أطلَّ شهر يناير فامتدَّت قسوة الشتاء.

طالت العشيات واشتدَّت حلكة الظلام في أسبوعه الأول.

وسامي حمدان يترجَّل الآن من لاندكروزر سوداء، يخطو في أرض الحرب، يتفقد كراديسه تحت ضوء النجوم التي تبعثرت مثل آلاف الثقوب في صفحة السماء، تزرقُّ تارةً، تحمرُّ طوراً وهي تغمز في كل حين. مع ألسنة الظلمة، مع البرودة القاسية في الجو، انعقدرت رائحة الخطر. بغتةً! ومضت نجمة كبيرة ومضات مشعات، ومضات لاحت غامضة صافية الزرقة! واستمرت تخفق في عشية هذا السبت الموحش، هنا، في ريف الحسكة السورية حيث يمشي سامي حمدان قدماه ثابتتان في الأرض وساعداه مرفوعان كأنه يريد أن يلمس بيديه السماء، إنه ليخطو في ثقة وعيناه الواسعتان تدوران في غضب وفي حزم تتفقدان مقاتليه من المجاهدين، بينما الحدقتان المستديرتان السوداوان فيهما ترفدان ظلمة الشرق بسواد شديد.

سواد جديد.

خطا في جلباب أسود وعمامة سوداء.

على كتفه تعلق السلاح، وبيده رفع مكبراً للصوت وصاح:

"نحن الفرقة الناجية، نحن حماة الإسلام".

وأردف لصوته لون وهج يتقد أبيضَ أبيضَ مبدِّداً ظلمة وبرودة ليل الشتاء:

"ليس من مسلم إلا من كان منا. من كان معنا. نحن الفرقة الناجية

التي تحدث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم. غيرنا العدو. غيرنا العدو. الله معنا والنصر لنا والموت والهزيمة للآخرين".

وسكت فعادت البرودة إلى الجو وتكاثفت قبضة الظلام.

ساد صمت كالنذير.

ثم ارتفعت فعلت إلى عنان السماء المظلمة شعلة حمراء لانفجار تناهى بعيداً بعيدا، فتعالى لحظتئذٍ هتاف ردَّدت الأصداء منه كافة الأنحاء:

"النصر لدولة الإسلام، النصر لداعش".

هزَّ الهتاف الظلال الطويلة الممتدة من أشباح الرجال ومن قطع السلاح، ظلال بدا أنها تمتد من جدار التاريخ المبهم العاتي. وساد سكون تام ما لبث أن تحول إلى جمود رهيب، ثم، وفي البعيد، دوى مجدداً صوت انفجار جديد بينما استأنف سامي حمدان:

"والذين انشقوا منا من المسلمين الفاسدين مثلهم كمثل الكفار، دماؤهم حلال ومالهم حلال وعرضهم حلال". هتف في الظلام وقد لمع تحت ضوء النجوم المؤتلقة رغو أبيض بزاويتي فمه ما لبث أن صار إلى زبد فسال.

"لقد نصرنا الله في مواطن كثيرة، وعمّا قريب سيكون شرق سوريا كله لنا، سنضرب بعزم من حديد، سنضرب بيد من حديد كل من لم يكن منا. سنحارب قوات الأسد مثلما سنحارب المنشقين من المسلمين المرتدين، سنحارب جبهة النصرة، سنحارب أحرار الشام، سنحارب الجيش الحر، كل من ليس معنا فهو عدونا ودمه حلال

حلال".

واشتعل في عرض السماء لحظتئذٍ شهاب هائل فاستضاء منه ريف الحسكة بضوء كالدم، لوهلة صارت الوجوه حمراء، قطع السلاح والمدرعات الخفيفة واللاندكروزرات والراجمات والدبابات اصطبغت جميعها بحمرة لامعة لاهبة حية، وارتعشت الظلال.

ثم هوى الشهاب.

عاد الظلام.

بينما استأنف سامي حمدان:

"أنتم أيها المؤمنون بداعش، دولة الإسلام في العراق وفي الشام، أنتم وحدكم المسلمون، أنتم وحدكم المؤمنون، بأيديكم ستثبتون إيمانكم وتقيمون عقيدتكم، والحب الذي تكنُّونه للموت إن هو إلا آية نصركم، إني لآمركم بألا يترك أحد منكم سلاحه في الليل ولا في النهار، وعندما تنطلق صيحة الله أكبر، انطلقوا لجنة خالدة، لتأخذكم الحور العين من هذه الدنيا الفانية".

وسكت فتلألأت النجوم بزرقة محمرة غامضة في غور حدقتيه المستديرتين المسودتين.

"سنقاتل في كل الجبهات وسننتصر. نحن جند الله. نحن أُسْد الله".

وعلا من جنده المجاهدين هتاف:

"النصر لدولة الإسلام. النصر لداعش".

فصاح فيهم والحماسة المفرطة في صوته تجعل كل حرف يخرج من فمه منقدحاً مثل عود كبريت سريع الاشتعال:

"فقط تذكروا: الشجاعة صبر ساعة والحرب صبرٌ واللقاء ثبات".

وأبعد مكبر الصوت عن فمه وأتم في نفسه بصوت كتيم لا تسمعه أذن: "وإذا كان ثمة غريزة قوية راسخة في الإنسان فهي غريزة الحرب، وإذا كان ثمة سلاح ماضٍ فهو الدين".

بغتةً دنا صوت الدوي البعيد وعلا، ثم تلاه سقوط قذائف وأزيز رصاص قريب.

"إلى السلاح، إلى السلاح". صاح وصاح الرجال.

رُفعت الراية السوداء.

رمى سامي حمدان مكبر الصوت وأمسك مع جنده بالسلاح، دارت محركات المدرعات الخفيفة، صكَّت جنازير الدبابات، انطلقت المدفعية، رجمت الراجمات، وانفتق قلب الشرق عن شراسة ضارية، عن فوضى عارمة. فوضى قاسية.

وتم الاشتباك.

ومثل قائد متوحش يخرج من رحم الحقب، من ظلام القرون، راح يقود رجاله مطلقاً الأوامر التي يعلم علم اليقين أنها ستنفذ بحذافيرها.

تحول الليل من قطعة في اليوم إلى قطعة من نار.

في الظلام، من صوت الدوي، من انفجار القذائف، من انطلاق المدافع، من أزيز الرصاص، كان سامي حمدان يستطيع أن يميز إن كان مهاجموه من قوات الاسد أو من جبهة النصرة أو من الجيش الحر أو من أحرار الشام. هذا الهجوم كان لمجاهدي جبهة النصرة؛ الآن، بندقيتان مسلمتان مشرعتان كلٌّ منهما في وجه الأخرى،

لم يكن الإسلام هو القضية، بل النزعة الشخصية هي التي كانت القضية، نسوا ما ظلوا ينادون بأنه رسالة عظيمة وفريضة كبرى تقتضي الكثير من التضحيات، فريضة نادوا بها وحشدوا لها فجاءتهم الأفواج من العرب والعجم، من الشرق والغرب، ممن تركوا الأهل والولد، الغالي والنفيس، وأقبلوا مندفعين نحو القتال ومخاطره، بل إلى الشهادة المحتملة حتى الموت.

كان الصراع مريراً في شرقي سوريا.

لكن سامي حمدان قد استولى بكراديسه قبل أيام على منطقة الشدادي التي تنتشر على أراضيها آبار مهمة للنفط، ما تسبب في هذا الهجوم الذي يستمر شرساً عنيفاً الآن، الرصاص ينطلق تباعاً مثل حبال حمراء، حبال لا تنقطع، الراجمات ترمي بشعل، بكرات من نار، والدبابات ترمي بحمم غليظة انفجارها يصم الآذان، بدا المكان مثل نقطة تلتهب في صفحة عابثة من صفحات التاريخ، ثم سقط رجال وسالت دماء لتكتب كلمات وجمل جديدة على صفحات جديدة، كلمات وجمل حمراء؛ وبعد زهاء ثلاث ساعات ونصف الساعة كان سامي حمدان قد دحر هجوم جبهة النصرة، أجبرهم على التقهقر عند منتصف الليل... ثم لاحقهم... قطَّعهم فلولاً مع طلوع الفجر بعد أن أفنى ثلثيهم، ثم في الصباح راح يصول في الميدان مُعفَّر الوجه، أشعث اللحية، بيده سكين حادة كبيرة اجتث بها رؤوس ستة عشر أسيراً. كانت الرؤوس المجذوذة مدحرجة والجثث متناثرة، ساحة المعركة التي سادها الصمت لاحت مثل قطعة

من أرض تاريخ قديم تطفو الآن فوق بحر من السنين، بحر تعوم فوق موجه المضطرب جثث مقطوعة الرؤوس.

كان صباحاً شتوياً رمادياً بارداً وكئيبا.

كان ثمة حطام.

كان ثمة دخان.

ومن سامي حمدان ارتفعت يدان ملطختان بالدماء.

هتف وبذهنه تدور كل الأفكار التي تؤكد أن بوسع الإنسان أن يفعل أي شيء، أي شيء، فقط إذا كان يرغب حقيقة في فعل ذلك الشيء:

""لقد نصرنا الله. لقد قلت لكم إن الله معنا".

ثم هتف وجفناه الثقيلان ينفرجان فيكشفان الظلمة المستقرة في حدقتي عينيه الواسعتين:

"عاش داعش، لنا دولة الإسلام في العراق وفي الشام".

ثم أردف وكأن غلالة قد أزيلت للأبد من أمام وجهه:

" سننتصر. سنقيم دولة الإسلام. الموت والخزي للكفار".

وتلاحقت صيحات الهتاف من جمع المجاهدين تعلو من ورائه:

"عاش داعش، دولة الإسلام في العراق وفي الشام".

"الموت للكفار".

"النصر لنا". قال وقد تجمع بزاويتي فمه مجدداً رغو وسال زبد.

وبعُجْب، سار سامي حمدان فنظر إلى الرؤوس المجذوذة وخطا وسط

الرجال ينفض يديه من سائل الدماء، كان يعلم علم اليقين أن من قطع رقابهم الآن مسلمون، بل حتى الأمس القريب كانوا رفاق جهاد وسلاح. لكن كان انشقاق وكان خلاف كبير سفكت فيه دماء الأشقاء! لم يكن خلافاً في عدد ركعات صلاة الفجر أو المغرب أو الظهر أو العشاء، كان خلافاً حول السلطة والجاه الذي أطل، خلافاً حول السمعة التي رفعتها صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون ومواقع يوتيوب، خلافاً حول المال إذ يتراكم، يجيء من ها هنا أو يجيء من ها هناك، من العالم العربي ومن الغرب الكبير، اختلفوا خلافاً حاداً في كل ما هو محسوب من مغانم الدنيا!

وتحول الخلاف إلى قتال، إخوة الجهاد في الأمس هم اليوم أعداء.

وعليهم الآن أن يدفنوا موتاهم.

بعد أسبوع من معركة الشدادي، كان سامي حمدان يخوض حرباً ناحية دير الزور.

بعدها بيومين كانت مدرعاته ودباباته تخوض معارك شرسة في ريف حلب.

نصر من بعد نصر، وسامي حمدان يبدو كما لو كان موجوداً في كل مكان، في كل آن، منذ بواكير السحر حتى آخر الليل، بسمْته القاسي الجاد بدا رجلاً بعيد الهمة، عقب كل انتصار كان يسمع في أذنه وبكل وضوح صوتاً يناديه: "يا سامي حمدان، أنت كل شيء، أنت كل شيء". ومع تقدم الربيع، في نهاية مارس، كان قد رسخ أقدام دولة الإسلام في الحسكة، في دير الزور وفي الرقة التي صارت

عاصمة آمنة يقبع فيها الآن الرجل الأول الذي كان في يوم من الأيام زعيم كل التنظيمات الجهادية هنا، وإنه ليؤثر سامي حمدان من يوم أن تعرف إليه في أفغانستان قبل أعوام وأعوام، ولما أصيب في إحدى المعارك الضاريات في مستهل الحرب على نظام الأسد في سوريا، كان له أن يركن للتوجيه كقائد ليس في مقدوره النزول إلى الميدان، يومئذٍ دفع الطموح بأكثر من رجل لأن يتقدم فيحل محله، لكن سامي حمدان قطع رؤوس الكثيرين، انفرطت الجماعة وتشظَّت، غير أن سامي حمدان تمكن من صنع الفصيل الأكثر شراسة ودربة تحت غطاء شرعية القائد الأول.

القائد المصاب.

والآن سامي حمدان، ومثل سيل كاسح، يفلح المرة بعد المرة في اجتياح مدن وقرى، في سب أراضٍ جديدة وفي دحر هجمات المنشقين، بيده ذبح الكثيرين وبذكائه اقتطع من الأفواج فوجاً جادلهم بلسانه الذرب، بعقله المتمرس على مشاكل المنطق والفلسفة بأن فرقته هي فرقة دولة الإسلام، هي وحدها الفرقة المهدية، الفرقة الوحيدة الناجية من المسلمين.

كان متوحشاً كذئاب الصحاري الضاريات، والآن ليشعر بعد كل هذه الانتصارات بأنه صخرة وسط بحر من رمل، صخرة من نوع الصخرات، تلك الوحيدات الحزينات التي تجد نفسها مطمئنة في وحشة الصحراء، الآن، والآن فقط يشعر بأنه يخطو فوق أرض واضحة الملامح راسخة الهوية ثابتة:

"لن ترى من ورائها ظلاً، ولن تلوح من فوقها شبهات" ...، هكذا كان يعيد على سمعه كلمات الإمام وهدان في مسجد فينزبري بارك شمالي لندن أيام صباه، الكمات التي تظل تترد في سمعه وتلح على خاطره مثل مطرقة أبدية لا تكف عن الرنين، كلمات تسربت إلى دمه فجرت في الشرايين وجرت في الوريد. وقد آمن بالإمام وهدان من بعد، فقتل من أجله الشيخ عاصم في ستامفورد هيل. وعادته ذكرى زيارته الأولى لمسجد فينزبري بارك قبل تركه المدرسة بوقت، سمع به أثناء تردده إلى المدرسة العربية ناحية إدجوار رود غربي لندن لتعلم النحو والصرف، زميل له اسمه برويز، مسلم من باكستان يتعلم العربية، قال له: "لابد أن تحضر خطبة للإمام وهدان، إنه الوحيد الذي ينال من هؤلاء الكفرة الأوغاد".

فأخذ بنصيحة صاحبه الباكستاني وراح يتردد على مسجد فينزبري بارك حتى ألفه ونشأ بينه وبين الإمام وهدان شيء من ود، شيء من تعلق تلميذ بمدرس لامع. وذات جمعة ذهب فحضر الخطبة، كانت الكلمات تخرج من فم الإمام وهدان فتلامس في روحه القلقة أماكن غامضة، بعد الصلاة بقي ولم يخرج، كان مشوش الذهن جداً، في ارتباك وفي أدب راح يحادث الإمام وهدان ذا الساق الحديدية، الذي انفرد به قرب المحراب وراح يقنعه بالانضمام إلى الجماعة، إلى القاعدة:

"...، لكنني سأصبح باريستر عظيماً، أساتذتي في اللغة الإنجليزية وآدابها يؤكدون لي ذلك".

"باريستر! باريستر يعني محامي في النهاية أليس كذلك؟ مجرد محامي! مهما اختلف الاسم!".

وأطلق الإمام وهدان ضحكة خبيثة مستخفة وأردف وهو يلمس رجله الحديد:

"باريستر! من أجل ماذا؟ هه! قل لي! من أجل ماذا؟".

تلفت سامي حمدان، غام ذهنه مثل سماء لندن، نظر إلى المحراب فلاح له أن المحراب يرسل إليه بومضات من ضوء عصي، ضوء مبهم، دعك عينيه ثم نظر في وجه الإمام وهدان في حيرة وغمغم:

"باريستر يعني باريستر!".

علت الضحكة الخبيثة كرة أخرى، ورفع الإمام وهدان حاجبيه واعتدل في جلسته وهو ينفث بين رغو وزبد تجمَّعا بزاويتي فمه العريض:

"إن كان ذلك من أجل الشهرة فما الذي ستجنيه؟ لن يذيع صيتك إلا بين حفنة من المحامين والقضاة والشكاة! في القاعدة يمكن في ساعة أن يملأ وجهك جميع شاشات الدنيا، ستعرفك كل الدنيا، كل الدنياهل تسمع يا فتى؟".

وسكت، الرغو والزبد اللذان كانا قد تجمعا بزاويتي فمه العريض سالا الآن على شعر لحيته التي خالطها الكثير من الشيب، ثم مسح فمه بكم جلبابه مرتين وأردف:

"وإن كان ذلك الزهو بالباريستر الذي ستكونه هو من أجل المال والبهجة، فمعنا ستجد القوة والسبايا في الدنيا والمتعة المذهلة في

الآخرة، هل سمعت بالحور العين؟".

"نعم، في القرآن الكريم".

لحظتئذٍ لمعت عينا الإمام وهدان وهما ترمشان وتجولان في أنحاء المسجد، ثم ثبت عينيه في عيني سامي حمدان وراح ينفث وهو يبتسم ويضحك ضحكته الخافتة الخبيثة موظفاً آيات القرآن من أجل تجنيد صبي:

"عظيم، بمجرد استشهادك في صفوفنا تتلقاك عشرات، بل مئات الحور مع الملائكة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، أنهار من خمر وأنهار من لبن وأنهار من عسل مصفى، هل هناك ما هو أجلب للمتعة من ذلك؟ متعة أبدية لا تنتهي لأنك ستكون خالداً، ستمرح في خلود وفي نعيم! هل تعلم ماذا يعني ذلك؟ يعني الخلود، فقط عليك بقتل الأعداء. كل الأعداء".

وأشار بيده ناحية الباب:

"ليس في الخارج إلا الأعداء. أعداء الله. تعال معنا وستكون قائداً في الدنيا وستدخل الجنة في يوم الحساب".

وسكت ثم ضحك ملء شدقيه، ثم رمى بسخرية:

"باريستر قال! هه".

ثم أمسك الإمام وهدان بقطعة الحديد التي حلت محل رجله المقطوعة فكانت باردة.

وقال بنبرة جادة ملؤها الخطر:

"انضم إلينا، افعل وستجد معنا كل شيء. كل شيء".

"والمدرسة؟".

"عليك أن تخرج من هذه المؤسسات الكافرة، هذه المدارس تحشو الأدمغة بالكفر فقط، هذه هي أباطيل الأعداء".

لوهلة أحس سامي حمدان بخجل شديد إذ تذكر إتقانه لتلك الأباطيل، سمع صوته يصدح على المسرح المدرسي في الغرامر سكول في ستون بأبيات الشعر وهو يؤدي الأدوار الرئيسة في المآسي الكبيرات المتقنات.

"عليك أن تكون مسلماً حقاً يا سامي حمدان، ولكي تكون كذلك، ينبغي لك أن تتعلم كيف تمحو من وجه الأرض كل هؤلاء الأعداء، ولكي تمسحهم من وجه هذه الأرض وتبعث بهم إلى الجحيم عليك بالانضمام إلينا".

كان سقف المسجد يدور مرتفعاً بمصابيحه التي تضاءلت حتى صارت نجوماً صغيرة في سماء بعيدة، وكانت كلمات الإمام وهدان تتالى مثل حجارة منهارة، كان وجهه يكبر ويتضخم، وكان لصوته لون يسودُّ طوراً ويحمرُّ تارة. اختفت المرئيات وتلاشت الأصوات ولم يبقَ إلا ذلك الصوت الأسود، ذلك الصوت الأحمر، يسأله في تحدٍّ وفي ثبات:

"هه، هل ستكون مسلماً حقاً؟ هل ستقتل هؤلاء الأعداء؟ هل ستنضم إلينا؟".

بعد ذلك الحديث بخمسة أسابيع كان مع آخرين في جوف لاندروفر يشق بهم أرض الريف الإنجليزي الدائمة البلل صوب سلخانة نائية

جثمت في وسط الحقول والمراعي الخضراء ناحية ألدرشوت، هنالك أمسك بالسلاح الناري لأول مرة، هنالك تعلم كيف تكون ضربة السكين باترة وقاطعة.

كانوا أربعة، وكان السائق خامسهم، كان رجلاً كئيباً تلفه هالة من الغضب العنيف، له عينان نشطتان مستديرتان مثل عيني نسر جائع، تنطلق منهما نظرة قاسية توحي بأنه يريد أن يحطم كل ما هو أمامه، كان طويل الأنف وبإحدى عينيه تينك حَوَلٌ وبياض، وكان قصيراً نحيلاً تجاهد راحتا يديه العظيمتان الشبيهتان بمخلب طائر، في القبض على مقود اللاندروفر، بينما قدماه الصغيرتان بمنتهى ساقيه القصيرتين، تعملان على دواسة البنزين والكلتش، كان يعتمر عمامة صغيرة تبدو وكأنها رباط ضماد طبي مصبوغ بالقطران، وكان يلبس جلباباً مغربياً عليه صدرية صحراوية تحمل آثار القرون الخوالي، سامي حمدان لن ينسى ذلك السائق الذي كان قليل الكلام، طوال الرحلة لم يتكلم إلا حينما انتبه في آخر المطاف له، انتبه إليه، رآه وهو يجلس في المقعد الخلفي، فوجده يطالع صفحات كتاب ضخم بالإنجليزية:

"هه! اضبط! أنت يا ولد! ما هذا الكتاب الذي تقرأ فيه طوال الطريق؟".

"تاريخ وحياة الملكة فكتوريا"، أجاب سامي حمدان.

"ممنوع. هذا ممنوع. من الآن وصاعداً يتحتم عليك أن تقرأ كتاباً واحداً هو القرآن، ارمِ هذا الخراء من النافذة".

لم يقاوم غضبته المزمجرة فرمى الكتاب وسط الحشائش الخضراء الطويلة المبتلة.

"نعم مثل هذا الخراء لا يمسك به مسلم طاهر". بدا واضحاً عندما تكلم أنه يهدر باللهجة الجزائرية.

سامي حمدان يذكر جيداً أنه غفا في تلك الليلة الريفية فحلم بحلم غريب! رأى نفسه في مخدع الملكة فكتوريا... كانت عارية... وكانت تنظر إليه باستهزاء... خطا صوبها، فرأى وجهها قد اكتسى بقطع من الأرض من آسيا ومن إفريقيا، وفي لحظة رأى نفسه في المخدع ذاته معها، مد يده وأحس إحساساً كالزلزال... استيقظ مبتلاً فابتسم، وأحس أنه وللحظة كان يعبث بشرف الإمبراطورية.

وعندما عاد من التدريب، بدت له لندن مثل مدينة خيالية تطفو فوق بحر ساكن، الأشياء لم تعد هي الأشياء، كل شيء صار وجهاً يقهقه من فمه الأعداء، طاف في الأنحاء، وفي كبده أحس بألم موجع، بأجنحة شرسة سوداء تضرب فيه؛ ومع هرمونات المراهقة، مع تشوش الذهن وتيه الروح شعر بأنه غريب في أرض لم تجعل للغرباء، شعر بنفور من كل حي، حتى الإمام وهدان لم يعد يذهب إليه! طوال الوقت كان مع أبيه وأمه في شجار، شيء ما كان يدفعه للرحيل بعيداً، وشيء ما كان يدفعه للبقاء في البيت والانتظام في المدرسة، للاستقرار، وعاش في حال بينَ بينْ فكأنه التائه. وكان؛ جرب رهق النهارات وأرق الليالي.

كان بلا قرار، ثم انزوى في نفسه وراح يذوي في صمت رهيب.

وفي مساء جمعة مدلهم، كثيف الغيوم، شديد المطر، استقل القطار إلى إيويل في مقاطعة ساري، قصد منزل صديقه عامر محمود. وحينما فتح له عامر الباب، وقبل أن يجلسا في الحجرة الصغيرة سأل بصوت كاللهاث:

"عامر! لقد تحدثنا كثيراً عن جيفارا، لكن! كيف أصبح جيفارا جيفارا؟".

ضحك عامر محمود وقال بتهكمه الدائم اللاذع:

"تباً لهذا الهراء! هل قطعت المسافة من كلفهام جنكشن إلى هنا! في مثل هذا الجو! لتسألني هذا السؤال! انظر إلى حالك سامي حمدان! إنك تبدو مثل طائر تافه أثقله البلل!".

"لكن جيفارا كان يقود رجاله تحت مطر أكثر قسوة من هذا، أوَ ليس كذلك؟".

"سامي حمدان! أنت قرأت تاريخ وحياة الرجل أكثر مما قرأته أنا! أنت تحفظ كل يوم وكل معركة في حياة الرجل!".

وساد صمت طويل.

ثم نهض عامر محمود فوضع أسطوانة السيمفونية الخامسة على جهاز الموسيقى، مع صوت المطر والرعد الداخلين من فتحة النافذة، انطلقت المقدمة العنيفة للسيمفونية، وغمغم عامر محمود:

"هول الطبيعة في الخارج يوفر خلفية ملائمة لصراع القدر الذي تعبر عنه هذه السيمفونية".

لم يقل سامي حمدان حرفاً، لكنه فتح عينيه الواسعتين في وجه

صديقه وقال بصوت بارد محايد:

"لقد تعلمت المسك بالسلاح. تعلمت إطلاق الرصاص".

مع صوت الموسيقى وهطل المطر وانفلاق الرعد وهزيمه، صرخ عامر محمود مأخوذاً كأن صاعقة قد دخلت عبر النافذة:

"ماذا؟ ماذا تقول؟ السلاح؟ الرصاص؟".

"كما قلت. في سلخانة ناحية ألدرشوت".

ونهض.

ثم خرج.

سار مثل بائس تائه تحت المطر الثقيل المنهمر كدمع الشمع في الشوارع والأزقة الخالية في إيويل.

الرقة.

بعد أربعة أشهر.

مساء الثلاثاء.

هواء أبريل منعش...، نسماته الطرية تتسلل عبر مصراعي نافذة خشبية خضراء كبيرة لترفد بطراوتها وحلاوتها فراغ حجرة واسعة، فيها، يقف الآن رجلان، أحدهما يقبل يد الثاني على ضوء قنديل كبير ثم يرفع فمه:

"أبايعك على ما سيكون، أبايعك خليفة للمسلمين، أبايعك في المكره والمنشط"، قال سامي حمدان بنبرة واثقة واضحة ملأى بالخطر.

ساد صمت، صمت مهيب، صمت حي حتى تناهى وكأنه يتنفس أنفاساً عالية.

ثم أردف سامي حمدان:

"ستكون الخليفة، خليفة دولة الإسلام، لقد دبرت تفاصيل الخطة وأخذت التدابير والاحتياطات لكل ما يمكن أن يطرأ".

"مهارتك وكفاءتك نادرتان، وذكاؤك لا يضاهى، أما إخلاصك فهو فوق الشبهات، فوق كل شيء"، قال القائد المصاب الذي صار الآن رمزاً، وأمسك بيد سامي حمدان وشد عليها بقوة ثم قبل جبينه وهو يغمغم:

"سلمت وعافاك المولى، ستكون سندي وعوني".

"أنا في خدمة خليفة المسلمين".

"ستكون رجلاً مهماً، عرفت ذلك في أول مرة التقينا فيها في

أفغانستان، أوَ تذكر؟ كانت الطائرات تقذفنا بقنابل تساقطت علينا مثل حب المطر! أنا لا أذكرها إلا واعتراني إحساس بالنبوءة! أتذكر! أنني أنا وأنت فقط! كنا الوحيدين االذين كتبت لهما النجاة! وكتبت لهما الحياة! ودونما ريب، لم يحدث ذلك جزافاً، إنما كتبت لنا النجاة والحياة بمعجزة سماوية، معجزة من أجل شيء ما، شيء كبير، شيء عظيم، والآن فقط، وفي هذه الحجرة، أفهم السر وراء تلك المعجزة التي طوتها الأعوام. نعم إن الله قادر على كل شيء. كل شيء.".

"لدي خطط عظيمة، أقصد لدينا خطط عظيمة، خطط كبيرة، كبيرة جداً، مولاي خليفة المسلمين".

بغتةً خفقت في الجو ومضة من انعكاس ضوء القنديل ولمعانه على جناح طائر ليلي حط على إفريز النافذة الخشبية الكبيرة. معاً التفتا للطائر الذي جعل يحرك رأسه، ينفضه ويهزه وهو يرمقهما بعينين مستديرتين محمرتين، عينين مملؤتين بسر الطيور التي تعرف قسوة السماء، وقسوة الأرض.

غمغم الخليفة بنبرة عميقة لم يزل يتبادل النظرات مع طائر الليل:

"لقد قلت لك: ستكون رجلاً مهماً".

ومع سماع صوت الخليفة ضرب الطائر جناحيه وطار فارتعش من طيرانه لسان القنديل، لمعت العيون واضطربت الظلال.

ساد صمت.

ثم تنفس الصمت مثل حيوان عظيم، فانحنى سامي حمدان مجدَّداً وقبل يد الخليفة ثم خطا بتؤدة وغادر الحجرة.

الآن قد بايع الرمز، بايعه لأن الحجج المنافحة لمصلحة الخلافة بدأت تتكاثر مجدَّداً من التظيمات المناوئة، هاهو ذا قد سبقهم أجمعين وأعلن الخليفة، وعما قريب سيصنع الدولة؛ وشهق كأنه يريد أن يبتلع، ليس هواء الليل فحسب! وإنما الدنيا بأسرها! وحبس النفس لدقية أو أكثر، ثم زفر ثم ابتسم ثم خرج لليل الشرق العظيم يمشي فيه معاوناً للخليفة، رجلاً صاحب لقب جليل، لقب محدَّد؛ فهو، بالفعل كان رجلاً مهماً، رجلاً شديد الخطر، صار كما الأسطورة خلال الأعوام الأربعة التي مضت، إنه هو من قلَبَ التنظيم رأساً على عقب، وفي تلك اللحظات المشحونة بالتوتر، بكل ماهو محتمل، بادر فبايع الرجل الذي سيجعله هو خليفة، وليكن اسمه من بعد معاون الخليفة، لا بأس. إنه ليوقن بأنه فوق الجميع، يؤمن بأن ملكاته الخارقة غير المتوفرة تبرر شعوره بالتفوق، بالسمو؛ كان تنظيم دولة الإسلام أول أمره جمعاً صغيراً محصوراً في شريط ضيق بين سوريا والعراق، تنظيماً مثل غيره، تكون في إثر الانشقاقات والخلافات التي نشبت وسط الجماعة الكبيرة: القاعدة الأم، فقاده سامي حمدان من معركة إلى معركة، من بحر دم إلى بحر دم، ومن نصر إلى نصر حتى بات قوة ضاربة، قوة منها الآن خليفة عموم المسلمين في الأرض قاطبة، قوة تطمح الآن في أن تكون دولة.

ومرت الأيام.

وأكثر ما شغله في تلك الأيام التي أعقبت البيعة وأعلنته معاونا للخليفة هو وضعه الاستراتيجية المحكمة للإفادة من سلاحه الجديد:

الميديا، فكرة استعمال هذا الاختراع الساحر سلاحاً في حربه، سلاحاً فتاكاً. وراح يختار رجاله الذين سيستخدمون هذا السلاح لأقصى حدود الإمكان، كان يخرج من اجتماع ليدخل في اجتماع، اجتماعات فردية واجتماعات جماعية، وفي كل اجتماع كان يقول بصوت واثق تضطرب فيه ظلال خضراء:

"للشاشة العنكبوتية حياتها التي لا يبليها ليل ولا يمحوها نهار، وما القضية سوى الدخول في تلك الحياة الكاسحة الجارفة حتى نكون الشريان فيها ونكون منها الوريد. سنكون القوة المحركة لها. التاريخ يقول إن أفضل الأسلحة هي تلك التي يعطينا إياها العدو، نتفوق عندما نجيد استخدام سلاح العدو، نتقدم حينما نملك الجرأة".

وبينما كانت الأنفاس تتلاحق والظل والضوء يلمعان في المكان على نحو مبهم، كان هو يهتف في الرجال المستمعين إليه بمزيج من القوة والثقة والحماسة والكثير من الكراهية، بينما قبعوا هم يحدقون فيه بضرب من الطاعة المطلقة، بمسحة من الخشوع، يحفظون كلماته التي تترى كما الفتح، كما الإلهام:

"لقد ألغى عالم الاتصالات المتطور عبر الشبكات المسافات، هدم الجدران وحطم الحواجز، بمقدورنا التحدث إلى أي شخص، أيٍ كان، في أي مكان، داخل مكتبه، داخل حجرة درسه، داخل حجرة نومه، وتجنيده للعمل معنا إن أمكن، أو ترويعه وتخويفه بما يمكن أن يحدثه السلاح إن لم يذعن، سنجتذب وسنرعب، سنفعل ذلك، وسنبرع فيه أيما براعة. ليست الأفعال بذاتها في كثير

من الأحيان هي المهمة، المهم، على الأقل بالنسبة لنا في المرحلة القادمة، هو أن تعرف الدنيا أنها قد وقعت. نحن الآن لا نحتكر الماضي فقط، بل نملك المستقبل أيضاً".

ومضى يتحدث ويتحدث والرجال يصغون كأنهم مسحورون، كأنهم منومون. معه، لا أحد يشعر بتقدم الوقت، فسامي حمدان كان يمتلك تلك الموهبة النادرة: موهبة التأثير بالحرف، بالكلمة، بالجملة. كان يتحدث بنبرة تؤمن بأنها لا تخطئ مطلقاً، بينما التفوق يبدو كهالة عليه، كان اندفاعه يعدي، وكانت السلطة تشع من عينيه.

في فترة وجيزة استقطب سامي حمدان العناصر، وأكد وجود التنظيم كقوة ضاربة قد ثبتت لها في الرقة الآن قدم. ومثلما كان مشايعو جبهة النصرة يدافعون عن مراكزهم، كان سامي حمدان وخلصاؤه يدافعون عن الرجل الرمز، الرجل الذي سيكون خليفة لعموم المسلمين، وكان بوسع المرء أن يجد الحماسة عينها لتسويغ مذهب الفريقين. كانت الحقيقة مملوكة للجميع في الوقت الذي لم تكن فيه موجودة أصلاً. الجميع كان يتبع هواه بجرأة ودونما خوف، بجنون، لكن شيئاً فشيئاً صارت جماعة الخلافة في دولة الإسلام في العراق وفي الشام هي الأقوى، كانوا يؤمنون بأنهم سيعملون على تغيير حال المسلمين ليس بتفتيح عيونهم وعقولهم، وإنما بتحريضهم على الثورة والجهاد، جهاد السلاح، لأنه بالسلاح، والسلاح وحده، يمكن تحرير الإنسانية من أوهامها وتخليصها من الدجالين الذين لقنوها إسلاماً مستكيناً. كانوا يؤمنون ويحرضون على أن داعش هو رمز

النضال ضد الكذب، ضد الضلال، ضد الكفار، كفار المسلمين، كفار اليهود، كفار النصارى؛ ضد البصائر العمياء؛ وكان معاون الخليفة هو حامل المشعل الذي سيضيء للإنسانية مسيرها الأعمى.

والآن، مع معاون الخليفة سامي حمدان لم يعد النطق بالشهادتين كافياً، لابد من تقديم البيعة لخليفة المسلمين، لمعاونه، لم تعد تجدي الصلاة ولا الأركان من زكاة ومن صوم، حتى الحج الذي يتكبد رحلته رجال ونساء مخلصون لا يكفل التوبة والغفران، وأولائك المسلمون البعيدون، أولائك الذين ليسوا هم الآن هنا، هم في نظره ليسوا بمسلمين! لأنهم ببساطة عليهم أن ينتظروا لينطقوا ببيعة خليفة دولة الإسلام. ومن أجل بيعة تنصيب الخليفة لابد من دم تجريه سكاكين مسنونة، ولا بد من لحى طويلة، ولا بد من عمائم سُود، وجلاليب سُود، وأحذية ثقيلة سُود أيضاً. ومن يسأل عن لون القلوب؟ ما يهم الآن هو سلاح في الميديا، سلاح في اليد، وغضب في العيون، وطاعة لمعاون الخليفة، الرجل الأكثر امتهاناً للقتل والأكثر اشتهاء للدماء؛ وهو لا ينسى أول مرة أسال فيها دماً، كان ذلك في حوض السباحة، في المدرسة الابتدائية في كلفهام جنكشن جنوبي لندن، قطع لباس زميلته باحثاً عن زغب في أماكنها الحميمة، زغب كذلك الذي رآه بين فخذي مشرفته في الحضانة. زميلته كان اسمها دوروثي، إنجليزية شقراء، خضراء العينين، شأن عيني المشرفة. من بعد ذلك كم أسال دماءً ودماء. والآن فقط يشعر بأن نبتة وجوده تقوى وتثمر في تربة أرضه، تربة الشرق، تربة أيامه المترعة بالدماء.

بعد صلاة الظهر حاول أن يغفو قليلاً لأنه لم ينم ليلة أمس، لكن عينيه الواسعتين بقيتا مفتوحتين لا تعتريهما سنة ولا يغمضهما نعاس، حين لا ينام لأيام كان يشعر شعوراً جميلاً، شعوراً مبهماً كأنه يعيش على نحو ما خارج الزمان وخارج المكان، كانت السماء تدنو والأرض تنفتح فتختلط الأيام بالأيام... تقلب في رقدته وبغتةً سأل نفسه بنبرة عالية محايدة: ماذا لو لم يترك المدرسة؟ لماذا ترك المدرسة؟ ماذا ترى لو أنه واصل فصار باريستر لامعاً بين المحامين محققاً نبوءة معلميه؟

وظل يغمض عينيه ويفتحهما وهو يسأل نفسه.

لم يلم الإمام وهدان على تحريضه وجرفه بعيداً عن السكة المفضية لصنع باريستر عظيم في المحاكم، في الدوائر القانونية في لندن، وإنما علا صوته في نبرة ضعيفة لكنها غاضبة:

"هي، هي السبب".

ودمعت عيناه إذ ذكر دوروثي، رفضته واختارت مارتن! ما الذي أعجبها في مارتن؟ ألأنه إنجليزي أبيض؟ وفاضت عيناه بالدموع، دموع ملحها كثيف كثافة الذكريات، ارتعش فكه الأسفل وأحس ببرودة تضرب في فقرات عموده الفقري ثم تتسرب إلى نخاعه، لكم تشقيه دوروثي! لكم تسكنه، أوَ ترى كان سيذكرها لولا رفضها؟ ولحظتئذٍ ضرب طائر كبده الأسود جناحيه ضرباً لا هوادة فيه ثم راح يعمل منقاره في الكبد الجريح؛ كانت دوروثي سماءً قد بدت له لكنها استعصمت بالبعد عنه؛ لكم ظلَّ يتودد إليها المرة بعد المرة،

وفي كل مرة ترفضه، تأباه وتسرف في الإباء، كان ذلك الصدود يؤذيه أشد الأذى، ومرة صاحت فيه:

"أنت تركض ورائي مثل كلب أيها العربي! أوَلا تنتبه لنفسك؟ أنا لا أحبك ولن أخرج معك حتى ولو كنت الولد الوحيد في هذه المدرسة، كُفَّ عن الحديث إلي".

لكنه أعاد تقديم نفسه مراراً وتكراراً، ومع كل رفض يزيد الانكسار ويغور الجرح، أصبح جرحه جرحاً لا يندمل، كان يتخبط مثل خفاش ضال، ومثلما يتخبط الأفراد تتخبط الأسر أيضاً، فبعد فترة وجيزة من بدء أزمته أُنهي عمل والده في خطة لتخفيض العمالة حيث ظل يخدم لأعوام وأعوام، كان يشعر بأنه غريب في أسرة غريبة في أرض لم تُجعل للغرباء.. ودفن نفسه في القراءة ثم باغته البلوغ، مع هورمونات المراهقة لم يكن جسمه هو الذي يتغير فحسب وإنما روحه ونفسه أيضاً، كان يشعر بأن طائراً ما، طائراً شرساً قد أفرخ في كبده وراح يلتهمها شيئاً فشيئاً فيكبر فيها شيئاً فشيئاً، ودونما سبب انتظم الأرق لياليه، كان يشعر بألم عظيم يسحق نفسه.

أيامَئذٍ، راح يتجاهل واجباته الأكاديمية ومطالعة ومذاكرة كتب المدرسة، لقد اكتشف في المكتبة العامة القريبة كنزاً فتفرغ له، وراحت أيام غيابه في المدرسة تتزايد وتتراكم، قرأ المادية التاريخية، قرأ آرنولد توينبي، كان متأرجحاً بين النظريتين: الصراع الطبقي أم التحدي والاستجابة! أيهما هو الذي يحرك التاريخ؟

وكان يجيب في نفسه: سوء التفاهم هو الذي يحرك العالم، هذه

السياسات المتناقضة! هذه الحروب! ثم ذات أحد ممطر مظلم السماء اكتشف كتاب هنتنغتون ونظرية صراع الحضارات، قرأ الكتاب كأنه يقرأ قصة غرام ساحر! كأنه يقرأ قصيدة شعر! بعد أيام عاد للمدرسة وهو يرتدي جلباباً ويعتمر طاقية رأس عربية، انفجر الطلاب ضحكاً وقال له الناظر:

"يتعين عليك يا سامي حمدان الالتزام بالزي المدرسي".

لكنه لم يطع ولم يذعن، بل راح يطالب بوضع آنية للماء داخل الحمامات لأن دينه يقول إن الطهارة لا تتم إلا بالماء، وإن استخدام المناديل الورقية لا يزيل النجاسة، ثم راح يعقد أركاناً يتحدث فيها بضرورة الأكل باليد اليمنى ونبذ الشوكة والسكين، وفي إحدى ثوراته قذف من مطبخ أمه كل الملاعق والسكاكين والشوك عبر النافذة:

"نحن لسنا بأوروبيين فلماذا نأكل مثلهم؟ نحن لسنا بِيضاً". وكان يردد: "سأغير حياتي، سأغير العالم، أنا لست هاملت، هاملت كان عاجزاً عن الفعل، أما أنا فسيتلقى العالم مني الفعل بعد الفعل". كان يفكر في هنتنغتون، في توينبي، هنتغتون قال بحتمية الصراع والمواجهة، وتوينبي قال إن الحضارت التي عرفها الإنسان، كلها وعلى نحو ما، قامت على الأديان، لكل حضارة دين؛ ولم يعد ينظر لعزلته كعربي وحيد في المدرسة، لم يعد ينظر لانتمائه العربي، بل راح، وكنوع من العزاء والدفاع النفسي، يرى في كل مسلم من الهند والسند وماليزيا وبنغلاديش وأفريقيا أخاً، كانت القراءة تأخذه إلى حافة الأشياء، وفي تلك الأيام بدأ التردد على المدرسة الباكستانية في وايت شابل

في شرقي لندن، كانت مدرسة صغيرة أسست لربط أبناء الجالية الباكستانية والأفغانية بلغاتهم، تعجب المدرسون من هذا العربي الذي راح في سرعة يتعلم الأوردو والباشتو وكأنه يتذكر كلمات وجملاً يألفها! وعقدوا له فصلاً خاصاً، ولم يمض وقت حتى قرأ قصيدة شكوى وجواب الشكوى كما كتبها محمد إقبال. وراح يزداد نفوراً وحدةً وانطواء. تلك الأيام، اعتقد القريبون منه من أب وأم وصديق وزميل، اعتقدوا جميعاً أن سامي حمدان قد فقد عقله، لكنه لم يتأثر بما اعتقدوه أو قالوه، لأنه انشغل فقط بما كان يملؤه من يأس ومن غضب، بقي غريباً، يجلله الذكاء برغم سهومه العميق، برغم خياله المضطرب. وعند هذا الحد تعوَّد أن يحدث نفسه وأن يسير في البيت وفي المدرسة من دون أن يرى أحداً أو يعي شيئاً. وفجأة ودونما سابق إنذار توقف عن الإتيان بأي حركة أو نشاط، واعتراه ضرب من الذهول! وأمضى بضعة أسابيع وكأنما هو مسحور يردد بصوت ضعيف واهن أفكاراً وأوصافاً مخيفة غير آبه بعقله وفهمه لما يقول، راح يردد أبياتاً بعينها، يرددها في كل حين! أبياتاً حفظها من دوره على خشبة مسرح مدرسة الغرامر سكول في ستون:

"إن ما نبغي فعله،
يجب فعله عندما نبغي، لأن "نبغي" هذه تتبدل،
ويعتورها من النقص والتسويف،
بقدر ما هنالك من أيدٍ وألسن وصدَف.
وعندها نرى أن "يجب" هذه أشبه بزفرة مضنية،

تروِّح عن النفس ولكنها تؤذي الجسد".

حاول أبواه أن يعرضاه على طبيب نفسي فصرخ فيهما:

"أنا لست مجنوناً، أنا فقط لست من هنا. أنا من هناك".

وفي تلك الأيام راح يسمع بانتظام للإمام الخطير لمسجد فينزبري بارك: الشيخ وهدان، معه شعر بأنه قد وجد نفسه؛ لأن الشيخ وهدان كان مثله يكره حياة المجتمع الذي يعيش فيه، قال إنه مجتمع كافر، كرهه بأكثر مما كرهه هو، وراح يغيب عن البيت أيضاً فيبيت في المسجد أو برفقة آخرين، أبوه يبحث عنه ويعيده للبيت وللمدرسة فينتظم بضعة أيام ثم يعاود الغياب.

ثم خرج ذات صباح، بدلاً من أن يذهب للمدرسة ذهب إلى فينزبري بارك، فأخبروه أن الإمام وهدان قد ذهب في رحلة إلى أفغانستان، عاد إلى البيت مكتئباً كسير الجناح، وراح يكثر الشجار دونما سبب مع أمه وأبيه. غياب الإمام وهدان أشعره بوحدة قاتلة، أغرقه في ضياع نفسي انطلق فيه طائر كبده يخبط بجناحيه ويطعن بمنقاره. كان يشعر أن ثمة شيئ مستحيل يتعين عليه القيام به وتحطيم استحالته، شعوره بضرورة إتيان المستحيل جعله شديد الاضطراب، شديد الحساسية، شديد التأثر، شديد الغضب. وذات صباح وهو يدلف من باب الغرامر سكول في ستون في مقاطعة ساري لمح دوروثي برفقة مارتن.. كانا يتحدثان ويضحكان، قال في نفسه إنهما ليسخران منه، من دون أن يعي تسارعت نبضات قلبه، شعر بشيء مثل الحمى يشوي ويحرق في حشاه، شعر بطائر كبده يطعن بالمنقار

ويضرب بالجناح، من دون أن يدري وجد أنه يركض وينهال على وجه مارتن باللكمات وعلى ساقيه بالركلات، قوة شيطانية تلبسته فراح يضرب مارتن الذي سقط بلا هوادة، بينما دوروثي تبكي، تبذل جهدها أن تحمي جسم مارتن منه... ضربها... صرخت... ولصراخها تجمع الطلاب والمدرسون... كالمجنون انطلق يضرب الطلاب ويضرب المدرسين... وجاء الإسعاف فأخذ مارتن ودوروثي ومَنْ تأذى من الآخرين، وجاء البوليس فأخذه.

يومها طرد من المدرسة.

ثم في ذات يوم غادر البيت فخرج ولم يعد.

تسكع مفلساً وانحدر على حين غرة إلى عالم غريب، عالم يلهمه الحقد وتعبر عنه فنون الجريمة.

اليوم الذي غادر فيه بيت أبيه وأمه كان كالحاً مثل أيام لندن، كان ممطراً؛ اجتاز المربعات السكنية الشعبية التابعة لمجلس المدينة وراح يتسكع قريباً من أحد الميادين الصغيرة. دار دورتين ثم غذَّ الخطى صوب محطة كلفهام جنكشن حاسر الرأس مبتلَّ الثياب.

غام ذهنه مثلما تغيم السماء وانطمرت في النفس آمال عِراض.

دار حول المحطة يتناهى إلى أذنيه هدير القطارات وحك السكك الحديد بالعجل الحديد.

وعند العطفة توقف عند محل لبيع السمك وشرائح البطاطس، فاشترى قرطاسة حارة ملفوفة بورق الجرايد على شكل مخروط كبير، رشَّ من فوقها الملح والفلفل، وعطنها بالخل والليمون. نقد البائع

ورقة من فئة الخمسة جنيهات، تأمل صورة الملكة فيها بوجهها الهادئ الرزين برهة من قبل أن يفقدها للأبد.

أعاد له البائع ثلاثة جنيهات وبنساً واحداً وهو يقول:

"مئة وتسعة وتسعون بنساً".

فمد يده اليسرى وتناول قطع النقد المعدنية وهو يسأل:

"مَنْ غير الملكة يظهر وجهه في النقود؟".

استغرب البائع السؤال! وراح يحدَّق في شعر سامي حمدان الذي لم يزل يقطر مطراً، يحدِّق في ملابسه المبتلة، ثم حدجه بنظرة طاردة ولم يقل شيئاً، بل راح يبايع سيدة أربعينية بيضاء ممتلئة كانت على الصف.

في مكانه لم يزل، تذكر سامي حمدان أبياتاً كان يلقيها من على منصة المسرح المدرسي في الغرامر سكول في ستون، مضى، وفي بطء، يترنم بها:

"لو مت قبل هذا الطارئ بساعة
لكنت قد عشت زماناً مباركاً. فمنذ اللحظة هذه
لم يبقَ ما هو جاد في المصير البشري،
كل شيء أُلهية: علو السمعة قضى، والحسن مات
ونفدت خمر الحياة، ولم يبقَ إلا الحثالة،
يتباهى بها قبو هذه الأرض".

وأدار عينيه الواسعتين في وجوه الزبائن داخل محل بيع السمك

والبطاطس وقتاً ثم خرج إلى المطر الذي كان خيطاً من رماد عكر.
عاد إلى المحطة فدلف وطفق يعد القطارات الواصلة والقطارات المغادرة، يحصي المسافرين، الصاعدين منهم والنازلين، ثم أدخل يده في جيبه واستل كوبون المواصلات العامة المخصص للطلاب والتلاميذ، نظر إلى صورته فطالعته شفتان مذمومتان وعينان واسعتان تائهتان، وتأمل رابطة العنق المربوطة بدقة وعناية ونظام، والقميص المدرسي الداكن الزرقة، وشارة المدرسة المخيطة على جيبه تقول بوضوح: مدرسة الغرامر سكول في ستون.
لن يذهب إلى هناك،
ولن يعود إلى البيت.
قام واجتاز ماكينات الدخول، واستقل القطار إلى محطة كرويدون ويست، وتسكع هناك... وأثناء تسكعه رأى محل بيرغر كينغ فعنت له فكرة.
خطا،
ودخل:
"أريد العمل، هل توجد عندكم وظيفة متاحة؟".
"اذهب إلى فرعنا في بيكاديللي سيركس، ثمة شاغر هناك"، قال المدير وكان يلبس قميصاً أبيض وبنطالاً أسود.
عاد إلى المحطة فاستقل القطار حتى محطة فكتوريا، ومن هناك استقل السنترال لاين إلى أوكسفورد سيركس، ومنها غير إلى البيكرلو، صعد فطالعته بنايات القوس في ريجنت بارك من ناحية محل بيع الموسيقى

الهائل المطل على بيرغر كينغ، وانتبه لتمثال إيروس يرفع قدمه برشاقة وهو يحمل القوس والسهم يصطاد القلوب الخالية، ويرميها لتصبح مهمومة عاشقة.
"كيوبيد طفل عفريت"، قال بصوت عالٍ.
تذكر مقصده فخطا خطوات واسعات.
وصل،
فدخل:
"أريد العمل. قيل لي توجد في فرعكم وظائف شاغرة".
"نعم"، قال المدير، وكان أبيض بديناً قد انشغلت يداه الحمراوان بملء كوب ورقي بمشروب الكوكاكولا وقطع الثلج.
"نحتاج إلى منظف ليلي، وظيفة جيدة لك يا رجل"، قالها مبتسماً وهو يتأمل هيئته الرثة.
ومد يده:
"اسمي كولينز".
"أنا سامي حمدان".
"سامي حمدان! اعمل معنا منظفاً ليلياً، وظيفة عظيمة يا رجل. هه".
وأعطوه طاقية زرقاء وقميصاً مخططاً بالأحمر والأزرق وبنطالاً كحلياً.
عمل ثلاثةَ أشهر، استأجر غرفة صغيرة غاية في الضيق قريبا من محطة كويزبارك. انقضت الشهور الثلاثة متوترة طويلة ففي كل يوم

منها كان له شجار، مرة مع كولينز، مرة مع زملائه من العمال البيض، لم يحدث شيء ذو بال سوى أنه تعرف إلى فتاة دنماركية كانت تتعلم منه النطق الصحيح للكنة اللندنية، معها أمضى بعض لحظات سعيدة...، لكنه كان مشدوداً مثل وتر في آلة موسيقية حادة الصوت، مرة صفع زميلاً أبيض لأنه حاول أن يغازل البنت الدنماركية، ومرة عند منتصف الليل اشتجر مع زبون أبيض:

"عربي!غريب ذميم"، قال الزبون.

"أنا يا خنزير!"، وانهال على الرجل ضرباً حتى أدماه.

جاءت الشرطة وأخذته.

من الحبس خرج غريباً إلى المدينة التي لم تجعل للغرباء، المدينة التي كرهها، ومضى يجوب شوارعها وأزقتها؛ كان يوما مراً شديد البرد؛ دون أن إرادة منه أخذته قدماه إلى بيكاديللي سيركس حيث الأضواء المنطلقة لا تأبه لآلام أحد، عليه أن يستأنف عمله من أجل أن يعيش، دلف إلى بيرغر كينغ دافعاً ضلفة الباب الزجاجي الثقيل، كان ثمة زحام فالبرد هو رسول الجوع، شق الصفوف واتجه إلى الكاونتر وصاح في المدير:

"كولينز! كولينز! ها أنا قد عدت. لقد أطلق سراحي".

التفت إليه كولينز فبدا أكثر بدانة وأكثر بياضاً مما كان عليه قبل أسابيع، وقال وهو يخرج سلة معدنية ملئ بشرائح البطاطس من الزيت الذي يغلي داخل موقد معدني كبير وعميق:

"أنت مرفوت يا سامي حمدان. مرفوت، أخرج فأنا لا أريد أن أرى

وجهك المريع هنا. تباً".

كانت طوابير الزبائن تصغي لكلمات كولينز، بينما كان الفك الأسفل لسامي حمدان يرتعش وعيناه الواسعتان تضطربان وينطلق من حدقتيهما المستديرتين ظلام كقلب الشيطان.

"مرفوت مرفوت مرفوت"، أخذ كولينز يترنم مغنيا بالكلمة يعطيها اللحن بعد اللحن وطوابير الزبائن تهزأ وتضحك. بغتة وثب سامي حمدان وقفز على الكاونتر فسقطت ماكينات النقود، مدَّ يديه وبقوة أمسك بتلابيب كولينز، صفعه ثم حاول مندفعاً أن يغرق وجهه في الزيت المغلي، لكن العمال تجمعوا وخلصوا كولينز من قبضته. وجه كولينز المستدير المنتهي بذقن من اللغد بدا مخطوفاً شديد الإحمرار. وتمتم وهو يلهث:

"سامي حمدان أخرج من هنا. مهما كان لن أطلب لك البوليس، لكن عليك وبحق الجحيم أن تخرج من هذا المكان والآن"،

وخرج.

كانت زخات الثلج تتهاوى والهواء يدخل الصدر بارداً ويستقر فيه ذراً من صقيع. كانت ليلة مشهودة قضاها فوق الصقيع تحت تمثال إيروس. وستملأه آلامها ورؤاها لاحقا.

مرت الأيام.

النهارات بالكاد تمضي، والليالي لا تنقضي.

وذات يوم وهو يضرب كالتائه ساهم العين شارد الفكر اقتربت منه كتلة كالكرة في بالطو أسود قديم:

"هيْ يا رجل! هل عرفتني؟".

وقف وحدَّق في الوجه الأسود المنتفخ، وانفرطت شفتاه في ابتسامة مستهزئة برغم تجمدهما وقال:

"إنني لا أرى سوى إست له فتحتان!".

وضحكا.

"كيف حالك يا سامي حمدان؟ هه، زمان!".

"وأنت ماذا فعل الله بك يا جيم الأسود البدين ؟".

"جيم البدين بخير، لا، لكنك لا تبدو كما ينبغي يا رجل! تباً ماذا حدث لك؟".

"أنا بخير يا جيم البدين".

هكذا كانوا ينادونه في المدرسة التي هجرها باكراً، جيم البدين، كان أسود، مفرط السمنة، كثير الهزل، متسخاً على الدوام، لم يكترث يوماً لدرس، وكان أبواه مطلقين، وكان يعيش مع أمه في شقة صغيرة في مجمع المجلس البلدي ناحية ثورنتون هيث.

"تبدو مرهقاً يا رجل! لكأنك كنت تقاتل جيش الإسكندر طوال الليل!".

"هذا حسن، فأنت تعرف اسماً من أسماء التاريخ!".

"لا أتقن هذه الأمور مثلك، لكنك تبدو متعباً، كأن بك إعياء يا رجل!".

"لم تدخل في جوفي لقمة منذ أمس" قال باقتضاب.

نظر إليه جيم البدين بعينين ضيقتين وسبَّ:

"تباً! لمْ؟".

"لقد هجرت المدرسة".

"تباً!".

"والبيت أيضاً".

"يا للجحيم!"

ثم ساد صمت.

"حتى بيرغر كينغ طردني، وجربت الحبس".

"الحبس!"

"أكثر من مرة".

"هه! عظيم! هذا عظيم سامي حمدان!".

ووضع يده على كتفه ثم أردف بتعاطف مخلص:

"لا عليك يا رجل، لا عليك، تعالَ معي، تعال".

وسارا تحت زخات المطر التي تسارع توالي هطولها خيوطاً وحبالاً، لكأن السماء تريد أن تشنق جميع مَنْ في الأرض فأعدت للخفيف خيطاً وللثقيل حبلاً، ولما دلفا ناحية سوهو أدخل جيم البدين يده في جيب البالطو الأسود القديم، واستل محفظة جلدية بنية اللون، وهاتفاً ماركة "بلاك بيري":

"لقد نلت من أحدهم".

وفتح المحفظة فطالعته صورة لرجل أبيض في بطاقة عمل أحد بنوك

السيتي، ورخصة قيادة قذف بها جيم مع بطاقة العمل في بالوعة قريبة بجانب الرصيف، ثم راح يعبث بأحشاء المحفظة، فأخرج منها ورقتين من فئة العشرين جنيهاً، وأخرى من فئة الخمسة جنيهات، وثلاث قطع معدنية من فئة جنيه وبعض بنسات.

"أنا أمهر نشال اليوم في المنطقة بأسرها مستر حمدان"... قالها ضاحكاً وهو يدس بكرم ورقة من فئة العشرين جنيهاً في جيب سامي.

وأردف لم يزل يضحك:

"لا أحد في كل مدارس لندن بقادر على أن يتعلم عُشر ما اكتسبته من مهارة ودربة. هه".

"لابد أنك بارع جداً، ثمانية وأربعون جنيهاً وبنسات وبلاك بيري في يوم واحد!".

"لا! ليس ذلك كذلك، في خبطة واحدة، مازال اليوم حافلاً يا رجل".

"هذا ليس بالأمر الهين، عظيم جيم البدين، عظيم".

وضحكا مجدداً ضحكاً يطوف على أصدائه رنين الخيبة وظل الفشل.

"والآن دعنا نذهب إلى مكان تملأ فيه بطنك بعضَّة طيبة"، قال جيم البدين.

وانعطفا إلى زقاق ضيق فسارا فيه مسافة مئة متر، ثم دلفا إلى مطعم صغير عَلَته يافطة زرقاء كُتب عليها بالأحمر: أنيل للطعام الهندي الأصيل، وجلسا في ركن منير وطلبا صحنين من الدجاج المتبل

بالمسالا مع رغيف الشباتي وكوبين من الماء البارد.

"سامي! أنا حقيقة لا أفهم...، لا أفهم أنك..."، قال جيم وفمه مملوء باللحم والخبز.

"ما الذي لا تفهمه يا جيم البدين؟".

"أنك...".

وخنقته قطعة من صدر الدجاج جافة، فأنزلها بجرعتين كبيرتين من الماء ثم استأنف:

"أنك هكذا! يعني...، تباً يا رجل ماذا أقول؟ هل..؟".

فقاطعه سامي حمدان:

"أني تركت البيت وتركت المدرسة؟".

"هو كذلك بالضبط، نعم هذا ما أعنيه بالضبط!".

"هذا ما حدث".

"ولكنك كنت الأول في المدرسة! أول المدرسة قاطبة! وقد دخلت الغرامر سكول في ستون متقدماً الأذكياء!".

"كنت؛ هذا ما تستطيع أن تقوله، أما الحاضر فشيء آخر".

ساد صمت.

ثم ارتفع صوت هاتفات يهتفن في قلب الصمت، يرددن كلمة واحدة: اليأس. اليأس.

وفي الصمت تقدم الوقت.

وأتيا على صحنيهما فأتاهما النادل بصحنين آخرين، في صمتهما

راحا يأكلان بنهَم، سامي حمدان يدفعه خوف الجوع وجيم البدين تدفعه شهية مفتوحة للأبد، لا تهدأ في طلبها ولا تلين، لسَعَتهما التوابل الغنية الحريفة ولدغتهما الشطة الحرَّاقة، وأتاهما النادل هذه المرة، وكان يرقبهما من قريب بجك كبير من النيكل كله ماء، مع سرويس جديد من خبز الشباتي الحار، مجدداً أتيا على كل ما كان أمامهما، حتى عظام أجنحة وأفخاذ الدجاج طحناها، وصبا من الجك على كوبيهما فجرعا ماءً بارداً في جوفيهما المتخمين.

تجشَّآ عن شبع.

"والآن؟"، سأل جيم البدين.

"الآن ماذا؟"، رد سامي حمدان السؤال بالسؤال.

"ماذا ستفعل؟".

حدَّق سامي حمدان بعينيه الواسعتين بعيداً ثم زفر زفرة خافتة:

"لا شيء...، لا شيء".

دنا منه جيم محاولاً مطَّ رقبته البدينة الغليظة، وهمس في أذنه:

"صنعتي لا بأس بها، وتحتاج إلى الخفة والذكاء فقط، وأنت سيد الأذكياء وستبرع فيها عما قريب، هه، في المدرسة كانوا يلقبونك: سيد المركِّزين. فقط ركِّز معي".

"لا. لا. لا أظن النشل مما سأبرع فيه".

"لمَ؟".

"سبب غبي، يسمونه سيكولوجيا!".

"لا أفهم هذه الترهات، ولكني أعلم علم اليقين أنك سيد المركِّزين، وستكون بارعاً في كل ما تريد فعله وإتيانه".

"سأحاول أمراً آخر".

"هل ستسجل في مكاتب التأمين الاجتماعي لنيل الإعانة الأسبوعية"؟

"لا. مؤكد لا". رفع سامي حمدان ساعديه وقال بانزعاج.

"إذن ماذا؟".

"لا أدري".

"لا تكف عن الغموض حتى وأنت في حالتك المزرية هذه! ما رأيك في توزيع الصنف؟

"لا أعرف أحداً".

"سأعرفك بأحد رجال جورج".

"هل هو أبيض؟".

"تباً، لا، جورج الجامايكي يا رجل".

وضحك جيم ضحكة خبيثة وهو يردف:

"أعرف أنك تكره البيض، فكيف أعرفك برجل أبيض؟".

عندما نطق جيم البدين بتلك العبارة، تذكر سامي حمدان كلمات موحيات من صديقه الذي يكبره سناً، صديقه عامر محمود، تذكر جلسات لهما في بيت أهله في إيويل في مقاطعة ساري، تذكر أحاديث لهما في آكتون تاون بعد أن هجر عامر محمود بيت أهله

واستأجر شقة صغيرة له هناك. تذكر يوماً ذهب فيه إليه، كان المطر كثيفاً يساقط مثل دمع الشمع عليه وعلى الطرقات، على لندن كلها، لما دخل إليه وجده يسمع قطعة موسيقية لغوستاف مالر، التفت إليه ثم نظر ثم قال:

"إنها أكثر شاعرية من القصيد السيمفوني لفرانز ليست، أنت تحب الشاعرية أليس كذلك؟ تحفظ الشعر؟! سأقول لك شيئاً اسمعه ثم احفظه عني: أكثر الناس شاعرية هم أكثرهم شجاعة، وأنت منهم. ستكون يوماً شيئاً يا رجل! هه! صدقني لكني فقط لن أكون حياً لأقول لك: ها قد حدث ما توقعت".

بالفعل عامر محمود انتحر، ما ضاعف على نحو ما من غربة سامي حمدان في لندن، لندن المدينة الغريبة التي لم تُجعل يوماً للغرباء.

والآن،

في الرقة،

في دير الزور،

في الحسكة

وفي ريف حلب كان لقب معاون الخليفة قد أصبح ملتصقاً باسمه. زاد نشاطه، أحكم من أمر التمويل، وضع خططاً لوجستية جديدة لضمان الإمدادات من تموين وعتاد، غير أن أهم ما فعَله كان الانتهاء من إنشاء وتطوير كتيبة كاملة مخصصة للميديا جعل على رأسها رجلاً يُدعى أسامة، وتخرج في قسم تكنولوجيا المعلومات في إحدى الجامعات الأمريكية.

والآن، مع الثقة التي يمنحها النصر، يفكر في مجازفة كبيرة: إسقاط الموصل واحتلالها.

"ستحكم الأرض من أرض الرافدين، وستكون الخليفة الأوحد"، همس في أذن الرجل المصاب، الرجل الذي سيكون الخليفة لعموم المسلمين في سائر أرض الله.

لم يكن مؤمناً بقدرة الخليفة، لكنه كان مؤمناً بالطاقة الكاسحة التي اكتشفها في دواخله، طاقة تتفجر سيلاً وناراً.

"سنهزُّ العالم من أركانه الأربعة، سنبني مجداً وندرُّ مالاً وفيراً".

ثم غمغم بصوت خافت لم تلتقطه إلا أذناه هو فقط:

"إنني لآخذ الموصل مثلما قد أخذ جيفارا سانتاكلارا، أخذها من أجل أن تسقط هافانا، بغداد هي هافانا بالنسبة لي".

وران صمت.

"فيماذا تفكر معاوني وسندي سامي حمدان؟"، سأل الخليفة.

"سنسبي السبايا"، همس المعاون في أذن الخليفة، وغمزه بعينيه غمزةً ذات معان.

ومسح حبات العرق التي سالت من فرط جهده برغم اعتدال جو مايو، بينما قال الخليفة:

"إنَّ الملائكة لتفكر معك، لتلهمك".

لحظتئذٍ، وبغتةً انفجر في وجه خليفته ضاحكاً:

"تصور! إحداهن قالت لي وأنا بعد صبي: ليس في رأسك إلا إبليس!".

"لا، لا، لابد أنها من الكافرين، أنت الخير وأنت البركة، وليس لإبليس عليك سلطان من يوم عرفتك".

غير أن إبليس إن لم تكن له سلطة ظاهرة على إرادة معاون الخليفة سامي حمدان الآن، فقد كان له دونما ريب نفوذ على مخيلته وعلى أحلامه، كان يبدو في كل صراع جانح أنه سيكون المنتصر أبداً، لكن الروح الشريرة كانت تبرع وهي توحي إليه بالأفكار الشهوانية التي تستعبد مخيلته طوال اليوم.

غير أن الإنسان لا يعترف أحياناً بمواطن ضعف الطبيعة.

"كان اسمها دوروثي، إنجليزية، خضراء العينين، زاملتني في المدرسة الابتدائية"، تمتم بنبرة خافتة لم تتبينها أذنا الخليفة، ثم أكمل في نفسه:

"كان لها زغب ودم في حوض السباحة".

ساد صمت.

"هل من شيء معاوني؟".

"لا، لا شيء".

طرد صورة دوروثي من ذهنه واستعاد رباطة جأشه فتحدث عن خططه وهو يحلم بمجد عريض.

ثم بعد زهاء الساعة استأذن وخرج من عند الخليفة.

عاد إلى حجرته فخلع عمامته السوداء ورقد لم يزل في جلبابه الأسود، ممتلئاً بنشوة عظيمة. تنهد وابتسم ثم هنأ نفسه بنجاحه الذي حققه وشهده قبل أيام، عاده المنظر الذي منحه رسمياً لقب معاون الخليفة، هذا ما ينبغي أن يذهب إليه بفكره الآن، واستمرأ الإحساس بذكرى منظر البيعة البهيج في الرقة السورية، ابتسم في رضا، نفض يديه ورفعهما فانحسر كُمَّا الجلباب الأسود ولاح الساعدان ينفر منهما كل عرق وهو يلوح محتقناً كأنما يود الانفجار، ثم نفض رأسه من هواجس الماضي البعيد، لكن صوتاً واحداً ظل يلح في الحديث إليه ويسرف في الإلحاح، إنه صوت الإمام وهدان، إمام المسجد في فينزبري بارك:

"ستكون رجلاً مهماً وسيعرفك العالم، فلا تركن لحديث معلميك وتنتهي كباريستر، مجرد محامٍ بين المحامين، سأرتب أمورك وسأعنى بإلحاقك بالجماعة في أفغانستان، نحن، صدقني، أنا وأنت والآخرون سنقلب هذا العالم الظالم رأساً على عقب، سنحاربهم بالدم

وبالسلاح، وسنقضي على حضارتهم وثقافتهم الشيطانية. اسمع مني: حرب الحضارات وحرب الثقافات لأدهى وأمرّ، الذي بيننا وبينهم حرب حضارة، حرب ثقافة، ثم بعد حرب دم".

وحدجه بنظرة ثاقبة ثم قال بصوت عميق الحمرة:

"إنهم يكرهوننا".

ثم راحت تلك الحمرة القانية في صوته تتحول مع كل حرف إلى سواد إذْ هو يردف:

"ونحن نكرههم".

وتعين على عينيه أن تريا الحقائق التي أكدها إمامه واضحة تماماً؛ لكيلا يلمح من ورائها ظلاً ولا شبهة، وكيما تروي ظمأه إلى انتماء ما، وتطلّعه إلى هوية حقيقية لا يمكن للمرء أن يدركها إلا وهو يقترب من فرع معرفة عليا، ذلك ما اعتقده يومها، بذل ما بوسعه كيما يفهم تلك الجمل الخشنة كأسس مصدقة، حتى إن لم ينزل حلقه بعضها أو يزدردها بَلْه أن يهضمها، على كلٍّ كان عليه أن يجهد عقله الذكي في استيعابها لتمكث في نفسه مثل ظلٍّ بعيد قاتم بعض شيء ومرعب كثير شيء، ظلٍّ يطعن ويفري غلالة مشاعره البالغة الإحساس من خلال الطائر الأسود الذي أفرخ في كبده.

وقد أراد عقله أن يدحض أحياناً، وأرادت أفكاره طوراً أن تقذف بذاك الظل، لكن الظل بقي جاثماً في النفس، بل والتحم معها بحماسة لا تبارى، ما رفده بالعافية، فقهر الذل فيه، قهر الضعف والخذلان، وقرر أن يرتب حياته بحيث يمكن له أن يبلغ الثأر والارتقاء

للوصول إلى مراتب تجعله ينظر لرفقة الأمس المستعلين نظرة تشعرهم بأنهم هم اليوم الأذلاء، هم الذين على الجانب الخطأ، وهو الذي يحالفه الصواب، ولكن لحظة من لا معقولية عبثية لا تلبث أن تتنزل عليه بعض حين، فيتعين عليه نفض رأسه والاجتهاد من أجل اليقين.

كان عليه أن يقرأ، أن يسمع، أن يفعل، أن يفكر، وأن يتعذب.

ركض كالمجنون من بعد أن قتل ذلك الشيخ الواعظ الوقور المطمئن في ستامفورد هيل، الشيخ عاصم، فرَّ من دون أن يراه أحد، وفي الطريق رمى السكين في بالوعة مكسورة وراء محطة أرسنال... تلك البالوعة كانت مفتوحة بحجم بقالة منهارة تجرف كشيمة السيل قاذورات الطريق التي يدفعها المطر الكثيف المنهمر ثقيلاً كأنه يقطر من دهن ذائب... عاد لاهثاً إلى حجرته الصغيرة التي استأجرها في كوينز بارك، رمى بنفسه على سريره الضيق البارد المتسخ وأخذ بالنحيب.

وقع مريضاً وبقي بين الموت والحياة طوال أربعين يوماً بلياليها، مع أنها لم تكن المرة الأولى التي قتل فيها! ثم لما غادرته الحمى أخيراً وعاودته قواه ونهض، كان رجلاً جديداً قد بعثت فيه نفثة الحياة.

الآن يطرد سؤالاً: كيف قد قتل ذلك الرجل الوديع وآمن وانتمى بتلك السرعة إلى خصمه المريع لولا الكراهية التي جمعت بينهما؟ بل وحدتهما؟ كراهية المجتمع الذي عاشا في كنفه؟ هل كان مخطئاً في اختياره أم كان مصيباً؟ ذلك سؤال لا يجيب عنه لأنه لا يقف أصلاً عنده، ولأن الإمام ذلك الداعية المريع بذل كل ما بوسعه

كيما يؤكد له بحذق ودهاء أنه الآن، والآن فقط، يخطو فوق أرض واضحة الملامح راسخة الهوية ثابتة... فمشى، لم تخفه كثرة الأعداء، ولم يستسلم ليأس سهر، سافر وتحدث عبر مكبرات الصوت، وعبر سكايب ويوتيوب وفيسبوك، وغرد مستفيداً من ذكاء متقد، غارفاً من طاقة لا تنضب، أقنع وألَّب، وكان كسْبُ الثقة هو ما يميزه في المقام الأول، كان يُشعِر محدثه بأنه رجل دين وحرب وعلم وثقافة وأدب، على نحو لا يتسم بالغرور بقدر ما يشعر المحدث بأن هذا المحارب يكن له احتراماً وتقديراً خاصاً. كان يحرك في كل صبي وفي كل رجل ممن يستهدفهم بقعة الكراهية والانتقام النائمة في أعماقه، يريه بوضوح أن ما يحدث له إنما يحدث بسبب وجود الأعداء، الأعداء الذين يجب قتلهم.

أغفى.

وفي الساعات الأولى من صبيحة الغد، عَقَد اجتماعاً تحضيرياً مع كتيبة الميديا التي اجتذبت وعلى نحو سريع كوادر مدربة من العالم العربي، من أوروبا، من أستراليا ومن الولايات المتحدة.

كان صوته القاطع الواضح النبرات يعلو فيفيض بالعزم والتصميم، وبالحماسة:

"إذا كان ثمة غريزة قوية راسخة في الإنسانية فهي الخوف، وإذا كان ثمة سلاح ماضٍ نملكه في أيدينا، سلاح قد جربناه وخبرناه، فهو الرعب".

قال معاون الخليفة سامي حمدان ممتلئاً بالحيوية، بينما تهب على

أرض الرقة السورية الآن، هذا الاثنين، نسمة ربيعية منعشة تحفظها الرقة في أبريل كل عام.

واستأنف:

"الخوف هو نقطة ضعف أعدائنا والرعب هو سلاحنا الفتاك، وإذا كان التاريخ قد علمنا شيئاً واحداً، فإن هذا الشيء ليقول بأن ملايين الجنود لم يكونوا ليحسموا المعارك بأسلحة ألفتها النفوس وفهمتها العقول؛ لكن قنبلتين وحيدتين في هيروشيما وناجازاكي أرعبتا فأفزعتا فأوقفتا حرباً ما كانت لتقف".

وسكت ثم خلع عمامته السوداء، فبدت خصلاتُ شعره مضفورةَ البياض والسواد، لحيتُه وشاربُه مصبوغين بالحناء، ربما لأنه ليس ثمة ما يغطيهما شأن ضفائر رأسه.

ساد صمت، فلم يُسمع في الخيمة العسكرية إلا أنفاس عناصر الكتيبة الفنية المختصة بميديا التنظيم.

إنه يجلس ويتحدث الآن، ليس كسامي حمدان، وإنما كمعاون الخليفة... رفع يديه ونفضهما فانحسر كُمَّا جلبابه الأسود عن ساعدين وذراعين قويتين يكسوهما شعر كثيف تنفر منهما عروق الوريد.

ازدرد حلقه ثم استأنف:

"...، ثم هل انتبه التاريخ لحرب دبابتنا الشرسة، حربنا التي أسقطت إمبراطورية السوفييت، بقدر ما وقف وارتعب يوم التقطت كاميرا فيديو لأحد الهواة انهيار بنايتين في نيويورك؟

الحياة خوف،

والرعب لعبتنا،

أوَ لا ترون أننا قد نجحنا؟

لم ننجح بفضل الترسانات الثقيلة، وإنما بفضلكم أنتم هنا فريق الميديا المقدَّم على كل الفرق، إنني أريد ميكروفوناتكم وعدساتكم أن تظل مفتوحة على الدوام، أريد لكل همسة وخطوة منا أن تُسمع وتبث مقطعاً على يوتيوب، على جميع مواقع التواصل الاجتماعي، أريد لراياتنا ألا تخفق ها هنا، أريدها أن تملأ الآفاق، أريد لزيِّنا أن يملأ شاشات التلفزة والصفحات الأولى من الصحف التي لم نكن ولو في الحلم ببالغيها".

وسكت فلم يسمع إلا صوت الأنفاس تجرح غلالة السكون.

رفع يديه كرةً أخرى ورفعهما في الهواء، فلاحَ الساعدان القويان المحتشدان بالشعر الكثيف وعروق الأوردة النافرة، كان رجلاً نحيلاً، ما جعله يبدو كأنه يميل إلى الطول، أنفه عربي طويل رهيف حاد كالسيف، ووجهه ما بين التثليث والاستطالة، وعيناه، عيناه هما ما يميزانه، فهما واسعتان بل واسعتان جداً، وحدقتاهما مستديرتان مسودتان مثل قلب الشيطان، كانتا إذ تنظران تأسران وتخيفان في آن، كانتا تفوران بغور من القوة والحقد والحزن والغضب، وفي وقت ما، وقت غير هذا فاضتا بالضعف والحزن والذل والبكاء، غير أنهما، يومئذٍ والآن، تُضفيان على وجهه جاذبية ووسامة تلفتان الناظرين، كان في الثامنة والأربعين، ولكنه كان يبدو لقلة الشحم واللحم

وانعدام التجاعيد غضاً نشطاً مفعماً بالحيوية، مثل رجل لم يتجاوز الثلاثين.

سعل سعلاتٍ ثلاثاً خفافاً، ثم عاد فأردف بنبرة تناهت أقل حدةً وبطئاً، ما عنى أنه يُنهي الاجتماع:

"سنصنع الدنيا ونسحبها إلى حيث نريد، نوجهها كيفما شئنا، وإنا بإذن الله سنصنع دولة عروقها من دم حار وعمدها من جماجم حية، بأيديكم الآن أحدث ما تملكه الاستوديوهات الراقية من أنظمة أفيد وفاينَلْ كَتْ والنيوزكتر والميكسر والغرافيكس والمؤثرات الصوتية والكرومو وهندسة الصوت وهندسة الإضاءة، أنتم الصف الأول عندي، ولكم ما تطلبون ولكم ما تسألون، بكمْ سنصنع دولة الخلافة، بكمْ سنكسب الحرب، لأننا بكمْ سنبث الخوف والخور والخذلان في نفوس أعدائنا. ستكونون رسل الرعب. رسل الذعر".

وانفض الاجتماع.

خرجت كتيبة الميديا... وبقي معاون الخليفة في الخيمة الكبيرة وحيداً.

كانت عيناه الواسعتان مفتوحتين بكل قسوة العالم وغضبه.

ظل في عمل طوال الساعات، يعقد اجتماعاً ويفض آخر، يصدر أحكاماً بالإعدام، يراجع الحسابات، يتفقد محاربيه، يستكهن بواطن الأعداء ويراقب مكامنهم، بينما الموت يلاحقه، يطارده في كل مكان، يحاوره ويداوره من دون أن يقضي عليه بضربة من فأسه البتار، يمضي قليل النوم، قليل الشرب، قليل الأكل، وكأنه مخلوق خارق. وقبيل انتصاف الليل عاد فجلس وحيداً ساهم النظرات،

مال على ركن الخيمة ممتلئاً بنفسه، كأنه ليس ذلك الذي كان: فتىً ناحلاً فارغاً بائساً يجوب جنوب لندن ناحية كلفهام جنكشن الفقيرة قبل أعوام وأعوام، يوم دخل المدرسة الابتدائية هزت نفسه المنطوية زوابع العنف والتخويف من الأنداد والكبار، لم يكن أسودَ ولم يكن أبيضَ، هنالك بدأ المرض فأحسَّ نفسه مختلفةً صغيرةً ضاويةً ذاويةً مبعثرةً تبحث عن ركن، تماماً مثل أوراق الشجر آن تذبل وتتبعثر، آن العصف والرياح عزّ الخريف، لم تعجب هيئته التلاميذ بخاصة العينان الواسعتان ذواتا الحدقتين السوداوين الرهيبتي السواد.

وقد هتفوا به:

"اِبعد عنا".

وقد يزيدون سود وبيض:

"كل العرب قذرون".

وكان يقول لهم بصوت تملأه الحيرة، يملأه التساؤل:

"أنا لست قذراً، أنا أريد أن ألعب معكم! لماذا لا تريدوني أن ألعب معكم؟".

ولربما توسل:

"هل يمكن أن ألعب معكم؟ هل تسمحون؟".

"اِبعدْ وإلا سددنا لك لكمة في حدقتيك المظلمتين".

فيبتعد وينزوي فيصيحون فيه وهم ساخرون:

"جبان! دجاجة".

ولا يكتفون:

"أنت دجاجة فاقسة"، هكذا كانوا ينادونه.

ولم يزل صابراً.

ثم لم يزل كارهاً لهم.

وعلى نحوٍ ما ساعدته السماء! هكذا عنَّ له؛ كانوا يتفوقون عليه في الفناء والملاعب فيعلو صوتهم على صوته، ولكنه كان يبزهم في حجرة الدراسة، كان صوته هو الذي يعلو وكانوا هم يصمتون. ولما جاء الأول في امتحان الفترة الأولى، تجمع كبار التلاميذ وعتاولتهم على الطريق، وانهالوا عليه ضرباً وهم يصرخون: "اذهب إلى الصحراء، اذهب إلى بلدك". كانت هدية نجاحه من المدرسة صندوقاً من الشوكولاتة السويسرية، فانتزعوها والتهموها، ولكنه فاجأهم بأن راح يضربهم! كان يعلم أنها معارك خاسرة، فكما حذره أبوه: "الشجاعة تغلبها الكثرة"، غير أنه مع الأيام تعلم أن تكتيك عدم الاستسلام في المواجهات البدنية هو السلاح الأمضى، إنه تكنيك القتال السلبي، فكان يثبُت المرة تلو المرة كلما أحرز مرتبة استثنائية أو أُعطيَ هدية، ويقف يخلع قميصه ويقاتل عارياً يتحمل اللكمات والركلات على جسمه النحيل، مُثبِّتاً في خصومه حدقتيه المستديرتين الواسعتين الوسواستين الرهيبتين، يرش منه الدم وتأخذ الكدمات منه حتى التورم وهو صامد؛ يكل ويتعب مقاتلوه إذ يعتريهم الخوف من فداحة ما ألحقوه به من إصابات في رأسه وفي صدره.

لم يكن ليشكو أمره للمدرسين؛ ففي عُرف التلاميذ كان ذلك يُعد

جبناً وضعفاً، الكتب وحدها أعطته الأمن والسلوى فأغرق فيها.

ووجد العزاء.

الكتب علمته المزيد من الشجاعة.

الشجاعة حالة ذهنية.

والذهن حين يُشحذ يقهر الغريزة.

الشجاعة صبر ساعة، هكذا كان يردد في معاركه ضد فتوّات وقبضايات المدرسة في جنوب لندن.

ولما شقَّ طريقه إلى المرحلة الثانوية في الغرامر سكول في ستون، أدرك أنه يملك سلاحاً قاهراً شديد النفاذ، وضعه فوق الأذكياء وجعله ينتقل من مدارس كلفهام جنكشن إلى مدارس مقاطعة ساري الخضراء، لقد كان طريقاً قصيراً أفضى إلى طريق طويل بطول الطريق من الصقيع إلى الرمال، ذلك الطريق الذي سار فيه حتى صار إلى هنا.

أغفى...، وفي نومه حلم بالحضانة، كانت أمه تعمل بائعة في محل تسكو، سيوبر ماركت البقالة، فتتركه للمشرفة الزهيدة الثمن؛ ولم تكن المشرفة لتوليه اهتماماً كبيراً؛ إذ لم يكن هو المهم، بل كان المال هو المهم، وأمه ليس لها إلا أن تأتي به إلى ها هنا، لهذا المكان الرخيص، لأنها لا تملك المال الكافي للحضانات المحترمة، لن ينسى تلك السيدة الرهيبة التي كانت تتركه في بوله وبرازه إلى حين قدوم أمه، كانت سيدة شقراء الشعر، بشرتها لجينية مشربة بحمرة حية، طويلة ممتلئة الأطراف، ذات عينين خضراوين غاضبتين كأنهما

شيمتان تدوران في أغوار البحار النائية.

ومرة أخذ الأهل أطفالهم وتأخرت أمه، لأن قدمها زلت على صقيع الطريق، فأخذت المشرفة تسبُّ وتلعن الأم وولدها، حالفة بأن تأخذ منها ثمن التأخير حتى لا يتكرر ذلك منها مرة أخرى؛ وإذ هي في غضبها راحت تخلع مريلتها لتبدلها بملابس العودة إلى البيت... أمامه خلعت ولبست... وبين الخلع واللبس رآها عارية فانتبه لزغب غريب، زغب كهبو الضوء في نوافذ الصباح حين يلمع الضباب، زغب ينبت في مكان غريب، ذلك المنظر سيظل يذكره حتى أمدٍ بعيد.

وليكونَّن منه ألمٌ عتيد.

وليسيلنَّ في نفسه سيل الصديد.

لكن سامي حمدان لم يكن ليذعن، لم يكن ليستكين، كان ينفض عن ذهنه ذكريات الأمس المؤلمة مثلما ينفض الصقر المبتل عن رأسه حب المطر ليحدَّ عينيه من أجل أن ينتقي فريسته. وسامي حمدان الآن، مهما يكن، في حال أفضل مما كان عليه في أي يوم مضى، فانتصاراته تترى، ومكانته تتعزز وشهرته تعلو، وفوق ذلك، فإن خططه قد باتت واضحة، واضحة جدا، فبعد أيام من بيعته للخليفة شن حملة عنيفة أجبر فيها جبهة النصرة على التقهقر بعيداً بعيداً، ثم شن حملة أخرى على أحرار الشام، بعدها نظم صفوفه من المدد الذي تدفق عليه، من العالم العربي، من أوروبا، من أستراليا، من أمريكا، من كل مكان، درب قواته ورتب أمره.

ثم في الأيام التالية من شهر أبريل،
ومثل العاصفة زحف بقواته عابراً بادية الشام، كلمح بالبصر، وعلى حين غرة أخذ الأنبار، كانت المعارك خاطفة سريعة، لكن الدماء كانت كثيرة؛ وقد أصدر أمراً سيكون ديدنه وديدن رجاله من بعده: الإعدام بقطع الرأس بالسكين، الذبح وجذ الرأس من الأسير أو المحكوم عليه جذًّا، وهو في الأنبار، قطع بسكينه الكبيرة الحادة رأس ستة وعشرين مقاوماً، وبالطبع كانت كتيبة الميديا في الطليعة ترصد بالصوت وبالصورة مشاهد عنف غير مسبوق ورعب غير مألوف، ارتبكت قيادات، وأصيبت بالإغماء الألوف، أما الخوف فقد عم جميع النفوس.
وذلك بالضبط ما كان هو المقصود .
ثم مثل السيل اجتاح صلاح الدين، وتكررت الأحداث وتكررت المشاهد.
وعاد إلى الرقة.
وأحس أنه راسخ القدم.
باركه الخليفة.
ثم انفرد بنفسه يستنشق ربيع الشرق في الارض التي احتلها. ابتسم.
وراح يفكر في الموصل.

والآن،
الثالث من مايو،
في الرقة،
في داخل خيمة معاون الخليفة المنتظر، ينعقد اجتماع شديد الخطر، ينعقد عن قصد في الساعة المباركة القصيرة العمر ما بين العصر والمغرب.
في هذا الاجتماع وضع معاون الخليفة اللمسات الأخيرة على الخطة التي ستشب بالخليفة الغائب عن الاجتماع وثبة عظيمة.
"سنغادر بادية الشام".
تنحنح:
"لقد انتصرنا على المنشقين الذين يسمون جبهة النصرة، وهم الآن منزوون في ركن من الجنوب في درعا، أما نحن فأقدامنا راسخة في الرقة وفي الحسكة وفي دير الزور وفي بادية الشام وفي أنحاء من العراق، قريباً سيكون لنا كل العراق".
أزهقوا جميعهم أرواحاً بغير حق، ووطئوا نساءً وصبايا بغير حق، دماء عربية وأجنبية أراقوها وصبايا عذراوات صرخن تحت كهول طويلي اللحى غاضبي العيون، يهتكونهن هتكاً في الرقة، في الريف، في درعا، في دير الزور وفي الحسكة؛ سيمدونها مداً إلى الموصل، إلى الأنبار، إلى صلاح الدين، إلى البغدادي وإلى سنجار. هكذا، من جهد أسود، ستسودُّ رقعة شاسعة تمتد بين سوريا والعراق. سيكون ظلم وسيكون فساد أثيم، العدسات ستكون مفتوحة لترصد،

والميكروفونات مشرعة لترصد، وأركان الدنيا الأربعة سترى وتراقب وتتابع في ألم وجزع وخوف.

"قريباً جداً" عاد فقال.

وسكت.

ثم أردف بعد حين:

"سنحتل الموصل. وإذا أفلحنا فمن بعدها سنأخذ بغداد. الموصل بمنزلة سانتا كلارا. وهافانا هي بغداد".

وسكت ثم أردف بنبرة واثقة حازمة:

"مؤكد ستسقط الموصل في يدنا على نحو سهل، فمالنا المعطاء قد زيَّت التروس التي هناك".

وضحك برهة قصيرة على نحو ساخر ثم قال:

"أولئك المنشقون الكفرة من جبهة النصرة فليبقوا في درعا، إنهم يعوزهم الخيال وتنقصهم الآمال العريضة. الذين لا يقرؤون التاريخ تضمر عندهم ملكة الخيال".

وضحك متهكماً لدقائق ثم عاد إلى جِده فقال:

"ليلة الاقتحام سنهجم أولاً على مقار الشرطة الاتحادية، فنبسط سيطرتنا عليها على نحو سريع ومباغت. مَن تسلموا ما لنا فسيتسلمون ويسلمون، وآخرون سيقاومون. خطتنا هي أن ننطلق في شكل كراديس صوب الجنوب، كراديس قوامها أكثر من ألفين وخمسمئة مجاهد، يُوزعون على ثلاث جهات، تكريت بقوة، والدور، وسامراء، فيما تتولَّى قوة صغيرة الهجوم على مناطق الشرقاط وبيجي

والصينية".

وسلط حدقتيه الواسعتين المستديرتين السوداوين الرهيبتين على أركان حربه ثم استأنف:

"فيما يخص الاشتباك مع مشاة الكفار، يجب أن نباغتهم ونرعبهم في هجوم سريع على المكشوف في أمكنة نختارها ونلتحم بهم فيها، فنحن أبرع منهم في استخدام السلاح الأبيض. ومن أجل هذا لا بد أن يحرص حامد على توفير دعم كردوسه المدفعي مع انطلاق ساعة الصفر".

وأغمض عينيه وهو لم يزل يواصل:

"ستستمر العملية الهجومية ثلاث ساعات، وفيما يليها من ساعتين يجب أن نقطع الطرق لوقف الإمداد، وأن تسيطر بطاريات الصواريخ بشكل كامل على سماء المدينة".

ثم التفت:

"وأنت يا أبو عاتكة، ستتسلم إمرة كردوس المدرعات الذي سينحدر صوب الثكنات ومخافر الشرطة، ثم الأهمالسيطرة على آبار النفط، أنت تفهم في أمور النفط أليس كذلك؟ لابد أنك تدرك أنها ستكون درة تاجنا، ستكون شريان مستقبلنا".

وسكت ثم أردف مشيراً بعصا حربية على خريطة عريضة منشورة:

"أبو نادر سيوفر القذف بالراجمات كي نسيطر على الفضاء القريب، فلا خوف من الطائرات لأن الوقت سيكون في مصلحتنا لمركزة بطاريات الصواريخ".

وساد صمت مفهوم للجميع، فهو بنفسه سيقود الكردوس الانتحاري الذي سيجول أثناء المعركة في الساحات والشوارع والأزقة في التحام مباشر، لأنه يحب ساحات القتال التي تسيح فيها الدماء أمامه، تحت قدميه لا تحت ناظريه.

ودارت حدقتاه الواسعتان المسودتان على الوجوه وجهاً من بعد وجه:

"من المهم جداً أن نتخلص من الأفواه غير المفيدة ومن تلك الأعباء الثقيلة الأخرى: لا نريد أسرى في الهجمة الأولى. والأسرى الذين معنا الآن سنقطع رؤوسهم هناك أمام وعند معالم معروفة في المدينة تقول للدنيا إنها الموصل، وسنفعل ذلك حين نفرغ من إسقاط جميع مقار الشرطة الاتحادية، بدءاً بتلك التي على الجانب الأيمن من المدينة، وسننقل للعالم أننا قد احتللنا الموصل بأسرها، كتيبة الميديا عندنا قادرة على إنجاز المهمة. بعدها، سنداهم المخافر والسجون، وبخاصة سجن بادوش لأن الغريزة والطبيعة توجهان المسجونين للانضمام إلى محرريهم والانتقام من سجانيهم، هكذا يقول التاريخ. عدد السجناء هناك هو ثلاثة آلاف وأربعمئة بين متهم أو مدانٍ. أمور كثيرة ستجري على أرض الواقع هناك سيُسجلها التاريخ، وستُدهش الأجيال جيلاً من بعده جيل. نحن قلة قليلة، ولكن من المؤكد أن الملائكة المتأهبة ستهب لمساعدتنا، ستقاتل إلى جانبنا، نحن ورثة النبي الوحيدين، مثلما قاتلت معه في غزوة بدر، ستشتِّت شمل الكفرة الفجرة مثلما فعلت في غزوة الأحزاب".

صبيحة اليوم التالي خرج فطاف على ظهر سيارة لاندكروزر مكشوفة يعلي من روح رجاله في الرقة:

"أنتم أيها المؤمنون بالتنظيم، فرقتكم الناجية باسم الخليفة الأوحد لعموم المسلمين المهتدين، وإن ساعة القرار والامتحان قد أزفت، بسلاحكم الذي بأيديكم ستُثبتون إيمانكم وتقيمون عقيدتكم، والحب الذي تكنونه للموت إن هو إلا آية نصركم، إني باسم الخليفة لآمركم بألا يترك أحد منكم سلاحه في الليل ولا في النهار، وعندما تنطلق صيحة الله أكبر، انطلقوا لجنة خالدة، لتأخذكم الحور العين من هذه الدنيا الفانية".

في دير الزور هتف:

"جاء الحق وزهق الباطل بعد أن أقمنا حداً واضحاً بين المسلمين الفاسدين وصلاح سلوكنا. ما من طريق إلا طريقنا، وما من مقصد إلهي إلا مقصدنا، وإن الذين سينفذون على الدوام ما يؤمرون به، سيلقون حظهم من الدنيا حلالاً، وسيلقون نصيبهم من مباهج الفردوس الخالدة أجراً. نعم، فأنتم إذ ستستشهدون في سبيل الجهاد المقدس، ستلجون جنان رضوان التي تجري فيها الأنهار العذبة الصافية من لبن وخمر وعسل مصفى، ستسكنون مساكن من بلور، وتضجعون على الأرائك مضمخين بالطيب، ترفل من أمامكم ومن خلفكم حور عين يُطعمْنَكم مما تشتهون، وتقضون منهن أوطاركم كما تريدون. لن يفتح خازن الجنان رضوان أبوابه إلا لمن استمسك بنهجنا وشرع شرعنا وكان من جماعتنا. نحن سنقيم دولة المسلمين

في العراق وفي الشام، كونوا معنا وتجنبوا النصرة والقاعدة والسنة والشيعة وكل الفرق التي تقترف الموبقات بالفعل وبالقول وبالفكر أيضاً. اِلعنوا المسلمين الضالين قبل أن تلعنوا اليهود والنصارى، لأنهم سبب خذلاننا والماء الذي يطفئ نارنا. اِلعنوهم أجمعين لأنهم خطاة مذنبون، فإبليس نفسه لأشرف منهم".

وفي الحسكة صاح:

"يا من أنتم جاهزون للتضحية بالنفس باركّكم الله، قاتلوا كالأسود، واعلموا أن الحذر لا ينجي من القدر، اقتلوا الكفرة الفجرة أولئك الذين لا يؤمنون بما نقول من المسلمين والنصارى واليهود والصابئة واليزيديين، دماؤهم ونساؤهم وأموالهم حل لكم إن انتصرتم، وإن استشهدتم فلكم الحور ولكم الجنان. عاشت دولة الإسلام.. عاشت دولة الإسلام".

بعد أسبوعين، وعند منتصف النهار كانت بادية الشام تخفق آفاقها برايات سُودٍ ترفعها أيادٍ أكمُّة جلابيبهم سُود، وعمائمهم سُود، ولحاهم وشواربهم سُود. انطلقت مئات الدبابات والمدرعات وسيارات اللاندكروزر المكشوفة، عليها الراجمات والمدافع والآربيجيهات، والرجال بأيديهم البنادق والكلاشينكوفات. كان الخليفة المنتظر بعيداً آمناً في الرقة المحصنة لحين، بينما في بادية الشام لم يزل ذوو اللحى والشوارب والعمائم والجلابيب السود يغدون ويروحون وهم يزيدون في الصفوف عدداً وفي العتاد مدداً.

ها هم الآن قد صلوا العصر، وجلسوا في حلقات ها هنا وها

هناك تضج ألسنتهم لتملأ أفواههم، فتسيل بجمل عجيبة كلها عن الأعداء الذين يُرسَلون في الليل وفي النهار إلى النار.

إنهم يتحدثون بيقين عن العبقرية الخارقة التي أمدَّ الله بها طليعتهم، قاصدين دونما ريب أنها قد تمثلت في معاون الخليفة، وكان مما يذهل الأسرى من الأجانب على نحو خاص ذلك الإيمان المطمئن الذي حمله رجال الدولة الإسلامية أياً كانوا بالانتصار. ودونما يألون، كانوا يدركون الإجابة التي لا تنفك تكون واحدة: معاون الخليفة هو المبعوث مع خليفتنا لإعادة الإسلام، وإن المهدي والمسيح نفسيهما سينضويان تحت رايته، وهو الآن يضرب صوب العراق متأملاً في بادية مناجياً نفسه: "لابد أن القديس بول قد مرَّ من هنا"! قالها في نفسه، ونفذ منها إلى كل ذرة في التراب فطالعته بالصفاء، هذه هي أرض الأنبياء، أرض الأديان والرهبان والرسل، هنا الأرض التي ارتفعت فلاقت السماء، وهي الأرض التي هبطت فاستقرت من فوقها السماء، تبسَّم مطمئناً وقال بصوت عال: أنتِ أرضي، أرضي أنا، أرض آبائي وأجدادي. أي قدر قد قذف بي منك إلى البعيد! إلى متاهات البحار التي طفت وربت ثم ربضت في وسطها تلك الجزيرة! الجزيرة التي شهدت قهري، الجزيرة التي ولدت حزني!

أنا ولدت ها هناك لكنني من هنا،

أتحدث دارجتهم بلكنتهم، وأعرف فصحاهم أحسن مما يعرفون، حفظت شعرهم فملأني بأفاعيه، بجنوحه وظله الكئيب، منه أفرخ طائر كبدي الأسود مقالات الإنشاء التي كنت أكتبها تقرأ على

الجميع، والأدوار الرئيسة في مسابقات مسرحيات المواسم لا تعطى إلا لي أنا.

ولدت فيهم لكنني لم أكن قطُّ منهم.

أنا من هنا.

من هذه البادية، من هذه الشمس، من هؤلاء الرعاة، من هذه الشياه والعضاه والأفق البعيد، يوم قرأت قلب الظلام لجوزف كونراد تزلزل كياني زلزالاً شديداً؛ أنا لست من إفريقيا لكنني كرهت كيرتز، ذلك الإله الأبيض الذي صنع مملكته، مجده وثروته من أنياب الفيلة، وبنى معبده من جماجم السود والعبيد. نهار كتبت المقال التحليلي الذي طلبه منا أستاذ الأدب، مستر كريستوفر لايت، عند امتحان الفترة، ناداني إلى مكتبه بعد ذلك بيومين وسألني:

"من أين أتيت بكل هذا الكلام؟"، وأشار إلى ورقة الامتحان.

"من عندي ومن الكتب".

"هذه مقالة نقد لا يكتبها حتى أولئك الذين يرفعون أطروحات في المرحلة ما بعد الجامعية!"

وسكت.

ثم قرأ بعض أسطر مما قد كتبت، وقال عينه في عيني:

"مقالة نقد طموح لكنها تنضح بالكراهية وتفيض بالحقد!".

"أظنها تفيض باليأس والألم . اليأس والألم هما محورا هذا الكتاب، نعم هذا الكتاب له محوران بينما أختزله النقاد بأسرهم في بعد واحد: هو الرعب فقط، لأن كلمة الرعب هي الكلمة التي نطق بها

كيرتز، لكنك تعلم أن كيرتز بحسب كونراد كان فصيحا وجيدا مع الكلمات، وعليه فيمكن أن يقول شيئا ويتوقع لسامعه الذكي أن يفهم شيئا آخر. هذا الكتاب ليس عن الرعب.ليس عن الرعب. أنا أدحض كل ما قاله النقاد. الحقيقة الوحيدة في هذا الكتاب بحسب كيرتز بحسب كونراد هي اليأس ، هي الألم".

نظر إلي باستغراب.

نظرت في عمق عينه الملأى بلون ما بين لون الضباب ولون الرماد وأردفت:

"وإذا سمحت لي أستاذي أن أضيف بعيداً عن موضوعية نقد الكتاب، فإني أقول لك: إن الألم لا الرعب هو الجوهر الوحيد للحياة. ثم يأتي اليأس، واسمح لي أخيرا أن أقول لك إن هذا الكتاب مستفز وبغيض، إنه كتاب يعج بالاستعلاء وينضح بالكراهية".

وضع الورقة على الجانب الأيسر من مكتبه، ثم زمَّ شفتيه الرقيقتين الشاحبتين وقال:

"ستمزق نفسك مزقاً إن مضيت هكذا!".

ساد حجرة المكتب صمت عليل.

ثم مد يده فرفع ورقة امتحاني كرةً أخرى، فقرأها من أول حرف لآخر حرف:

"ثبت المراجع المذيَّل يقول إنك تقرأ الكثير! إضافة لأمانة استشهادك الذي لم يطالعني له مثيل طول حياتي عند مَنْ درَّست من التلاميذ والطلاب، وأجد أنك تبدع أكثر عندما تكون أنت أنت! شرحك

ضافٍ مؤسس، حُججك محكمة، قلت لك من قبل إنك ستكون باريستر عظيماً بين المحامين، ولكن فوق ذلك فإن لغتك غاية في الكمال والسلاسة وأسلوبك ناصع مبين!".

"شكراً لك ولكنني تعلمت من كتب المكتبة، من ماكولي وستيفنسون، من هازليت وجنسون، من ثاكري وسير ثوماس مالوري".

لحظتئذٍ فغر مستر كريستوفر لايت فمه كالمنصعق أكثر منه من المندهش:

"ولد! هل قرأت كل هؤلاء؟".

"قطعة سير دياندان ذي هيوميروس لمالوري، هل تحبها يا أستاذ؟".

ساد صمت هذه المرة لا بالعليل ولا بالمرح، صمت محايد.

"وتعرف أني أحفظ شكسبير، برنارد شو قال في صدر تقديمه لقيصر وكيلوباترا إنه تفوق على شكسبير! لا أظن، ولكن لماذا تراه ذكر المهدي ومعركة النهر في تقدمته للمسرحية؟ ذكياً كان".

لحظتئذٍ نظر إليه مستر كريستوفر لايت نظرة فاحصة ثم قال بنبرة واثقة مؤكدة:

"سأعيد عليك: ستكون باريستر عظيماً بين المحامين. تذكر كلامي، وإذا امتدت بي الأيام فسأحضر حتماً مرافعة مهمة لك في قاعة محكمة مهمة، الأولد بيلي! ربما! لا بالتأكيد ستصل يا بني. ستصل".

"أحب الرياضيات والعلوم يا أستاذ".

"عليك بدراسة القانون".

لكن الحياة سارت معه مساراً آخر، ومع أنها انتهت به كرجل

منتهك للقانون بدلاً من أن يكون رجلاً من حماة القانون، فقد حافظت معه على جوهرها الذي اكتشفه باكراً، باكراً جداً: الألم.

لم يدرس القانون، بل لم يكمل العام الأخير في المرحلة الثانوية في مدرسة الغرامر سكول في ستون، والأولد بيلي يوم ارتادها تبدلت غير الأولد بيلي؛ إذ صارت مداخلها كمداخل الكتائب العسكرية، يصطف حولها الجنود بخوذاتهم ومدافعهم، بعصيهم وبنادقهم، يُشددون الحراسة خوفاً من جماعات ذات تعصب وتطرف وغضب، جماعات انتظمت الشوارع وهي تهتف باسم الإمام، إمام المسجد في فينزبري بارك، الإمام وهدان الذي قتل من أجله منافسه: الشيخ عاصم في ستامفورد هيل. وجاءت عربة مصفحة وأنزل منها الإمام وهدان في السلاسل وفي الأغلال، خطا كأنما يخطو في ساحة معركة مخفوراً بالجنود المدججين بالسلاح، فعَلا لحظتئذٍ الهتاف كالهدير تطلقه حناجر جاءت من شمال لندن ومن جنوبها، من شرقها ومن غربها، من ليستر ومن مانشستر ومن بيرمينغهام.

ثمة عالمان يصطرعان الآن في قلب لندن: "عالمنا وعالمهم"، كما كان يردد الإمام وهدان في مسجد فينزبري بارك.

كان الدين هو القضية، القوة الخفية التي تحرك البشر وتحشدهم حشداً.

يومئذٍ كان في وسط الجموع.

كان واضحاً أن جرحاً قد انفتق، وأن عاصفةً قد بدأت تهب.

"الأكل بالشوكة والسكين حرام، حرام لأنه محاكاة للكفار، الاختلاط

في المدارس حرام، التنظف بالمناديل بدل الماء في الحمامات حرام، محاكاتهم في زيهم ولباسهم حرام".

تلك الكلمات ألهبت المشاعر، أذكت النار في جمر كامن فتوقد واشتعل، جمر علاه رماد نثرته القرون والحقب. انتهى صراع الملوك والأباطرة وجاء عهد صراع الثقافات، صراع الأديان.

اختار سامي حمدان أن يرسو بقاربه في ضفة الإمام وهدان بينما وقف الغرب في الضفة الأخرى... كانت قاعة المحكمة في الأولد بيلي تغصُّ بالصحفيين والشهود والمحلفين والباريسترز من المحامين والمستطلعين من النظارة... بينما وقف الإمام وهدان في قفص الاتهام، رجله التي كانت من الحديد راحت تعكس مصابيح القاعة الصفراء، تلمع منها لمعان الفولاذ للفولاذ، بينما كانت عيناه تبرقان وهما تفيضان بالتحدي، بالغضب، نظر إلى القضاة وهو يحكم وضع عمامته السوداء، ثم أخذ يربت بيده اليمنى على لحيته الطويلة الشعثاء الذاهبة من الأذن إلى الأذن، كانت لحيته مخضبة بالحناء على نحو تناغم مع بشرته السمراء، بدا وجهه متغضناً، عليه كسف من رهق ومن سهر.

"اسمك؟"، سأل القاضي.

"وهدان علي وهدان".

"عمرك؟".

"أربع وستون سنة".

"جنسيتك؟".

"بريطاني من أصل مصري".

"عنوان إقامتك؟".

ضحك الإمام ضحكة ساخرة حتى بانت نواجذه، فزجره الغاضب بحزم هادئ:

"احترم المحكمة، وأجب عن السؤال: عنوانك؟ أين تقيم؟".

"أي عنوان إذاً؟ فأنا أسكن في أربعة عناوين!" نطق بها الإمام وهدان مُطلقاً ضحكة هازئة خافتة.

وعاد القاضي فزجره بالنبرة ذاتها:

"كف عن الضحك".

هنا قام أحد باريسترز المحامين في فريق الدفاع وقال:

"سيدي القاضي موكلي متزوج من أربع زوجات يُقِمن في أربعة عناوين مختلفات".

وجلس.

التفت القاضي ناحية وهدان علي وهدان الإمام، وقال لم يزل ببطء وجلال:

"قل جميع عناوين إقامتك".

"32 فينزبري بارك – الشقة رقم ثمانية 4 ن– 8 واو
911 تفرتون رود – الشقة رقم ثمانية– 3 ن 17 د
243 بروستر غاردنز – الشقة رقم 2 – 6م 13 و
المنزل رقم 98 كريكل وود رود – 8ن – 4و"

"هل حرضت على العنف والقتل؟".

"ناديت بالجهاد".

"هل غررت بالشباب وباليافعين، ودفعت بهم إلى صفوف القاعدة وطالبان في باكستان وفي أفغانستان؟".

"لقد هديتهم إلى طريق الجهاد، الطريق القويم الذي يتعين أن يسلكه شباب المسلمين".

"هل عمدت إلى زعزعة الأمن في البلاد التي آوتك وأعطتك حق المواطنة على نحو كامل لتعيش في أراضيها متمتعاً بكل حقوق المواطنة؟".

"كنت أصدع بكلمة الحق في أرض الكفر".

"هل ناديت بما يخالف قيم وقوانين هذا المجتمع الذي قَبِلك وأعطاك حق اللجوء أنت وزوجاتك الأربع وأولادك وبناتك؟".

"لم يقبلني المجتمع! وليس من قيمٍ تفوق قيمة رفع راية الجهاد لإحقاق كلمة الحق ودحض الباطل وبسط الإسلام كيما نعيش في كنفه ورخائه".

"ولماذا جئتَ إلى هنا وهناك عواصم للإسلام كان يمكنك أن تعيش في كنفها في آسيا وفي إفريقيا، في إيران وفي السودان وفي مصر وفي السعودية؟".

"كلها دول كافرة، وأنا إنما جئت مجاهداً في أرض حرب كافرة".

"كيف تسنى لك أن تنفق معاشك على أولادك وزوجاتك الأربع؟".

ساد صمت.

"هل كنت تقوم بتأدية عمل ما؟ وظيفة ما؟ تكسب منها معاشك ومعاش زوجتاك الأربع وأولادك؟"

"لا."

"هل تنكر أنك ومنذ دخولك هذا البلد بقيت عاطلاً عن العمل؟"

"...، ...".

" هل تنكر أن المجلس البلدي لشمال لندن قد منحك أربع شقق، شقة لكل زوجة وأولادك منها، وأنك كنت تتردد وتبيت في جميع تلك الشقق؟".

ساد صمت.

"هل تنكر أنك منذ مجيئك إلى هذه البلاد كنت تتقاضى أسبوعياً من مكتب البريد المحلي في فينزبري بارك مبلغ ثمانمئة وستة وثلاثين جنيهاً وخمسة بنسات كنفقة معاش لك ولأولادك ولزوجاتك الأربع؟".

ساد صمت.

"هل تنكر أنك، إضافةً لما ورد، كنت تتلقى مئتين وسبعة وعشرين جنيهاً وتسعة بنسات من صندوق الضمان الاجتماعي بوصفك مُعاقاً غير قادر على العمل نتيجة لفقدك رجلك؟".

هنا انفجر الإمام:

"إنْ تلك إلا أموال الكفار، وهي حلال عليَّ وعلى أولادي وزوجاتي وعلى كل المسلمين".

لحظتئذٍ علت همهمات وتبادل المحلفون نظرات حائرة.

وفي يوم إصدار الحكم كانت أجهزة التلفزة ومراسلو وكالات الأنباء والصحف يحتشدون أمام الأولد بيلي، بينما اكتظت القاعة بالحضور؛ وطرق القاضي بمطرقته طرقاتٍ ثلاثاً، بدا رهيباً في شعره الأبيض المستعار، وكان الجو مشحوناً بالتوتر، خصباً بالمفارقات، غنياً بالغضب.

وانبعث صوت القاضي يقول في بطء وعلى نحو جليل:

"السيدات والسادة من المحلفين، هل توصلتم إلى قرار؟".

عندئذٍ نهضت سيدة في العقد الخامس، بُنيَّة الشعر، مستطيلة الوجه، شعرها مجموع في شكل كعكة، وشفتاها رقيقتان من غير روج محمرتان، تقدمت مع حاجب المحكمة وسلمته ورقة صغيرة مطوية، فتناولها القاضي وفردها ثم راح يقرأ:

"التهمة الأولى: مذنب.

التهمة الثانية: مذنب.

الثالثة الرابعة: مذنب مذنب.

في لحظات قضت المحكمة بأنه كان مذنباً في كل ما قُدم ضده من تهم.

وأردف القاضي:

"...، وعليه وبوصفه مهدد للأمن القومي، فقد حكمت المحكمة بالسجن المؤبد مع التوجيه بالحراسة المشددة في زنزانة منفردة".

هنا صاح أحد الحاضرين وكان كهلاً أصلع:

"الإعدام، الإعدام، الإعدام للسفاحين الإرهابيين، أعيدوا لمحاكم

هذا البلد حق الحكم بالإعدام".

وصاحت امرأة عجوز مهيبة السمت:

"كم دفعنا له هو وزوجاته الأربع وأولاده من ضرائبنا ومعاشاتنا؟".

وعلا صوت ثالث:

"وتكلفة المحامين والباريسترز التي تلتهم في كل ساعة آلاف الجنيهات للدفاع عن رجل يعادينا".

ساد هرج ومرج، وعلا لغط وضجيج وصخب، فضرب القاضي ضرباتٍ ثلاثاً قويات على منصة الحكم، بيد أن ذلك لم يُجدِ فتيلاً. لكن كان ذلكم هو القانون.

الحكومة البريطانية تدفع لتستأجر محامي دفاع للمجرمين الخارجين عن قانونها.

ولم يمضِ وقت، فما هي إلا أسابيع قليلة إلا وكانت قاعة الأولد بيلي الرئيسة تشهد جلسات جديدة بعد أن تقدمت وزارة الداخلية بطلب من الولايات المتحدة، يجيز القاضي بموجبه حق ترحيل الإمام للمحاكمة في أراضيها بتهمتي العداء للدولة، والتحريض على أعمال عنف داخل أراضيها وخارجها أودت بأرواح مواطنين أمريكيين.

وتنفست الصدور المغيظة في لندن الصعداء؛ لأن الإماموهدان سيذهب أخيراً إلى بلد لم يزل الحكم بالإعدام فيه سارياً، حقاً للمجتمع قد كفله القانون. حضر سامي حمدان المحاكمة من أولها إلى آخرها، لم تفته جلسة من الجلسات، وبعدها بأعوام طويلة تذكر مشاهدها مشهداً من بعد مشهد، كان في أفغانستان، وكانت لديه

ثارات كثيرة يخب في طلابها، وأحاسيس قاسية ظمأى تبحث عن ري، عن قطرة دم؛ كانت السماء كسفاً من دخان، والمروحيات تهدر من فوقه، والمدافع تزأر من تحته، ولكنه لم يكن ليشعر بخوف، بل كان جزلان طربان متوقداً متحفزاً. في أفغانستان كانوا يُطلقون عليه: صائد العيون الخضراء، كان يكره تلك العيون أشد الكره، وبمقتها أشد المقت. ودوَّت في أذنيه أصوات القنابل إذ تنفجر، وأصوات أزيز الطائرات إذ هي تدنو وتطلق صواريخها، واصطفاف فوهات الراجمات وهي ترمي بحمم كالحجارة، طرب للدوي، انتشى للأزيز، وتدفأ من وهج الحمم؛ كانت في نفسه مردة قد أطلقت، وجوارح ضارية قد أطعمت فشبعت. مرةً كان يحاصر ثلاثة من جنود قوات التحالف عند تخوم قندهار، واستمر تبادل النيران طوال الصباح حتى الضحى، وعندما صار ظل كل شيء مثله، بدا واضحاً أن ذخيرة الجنود قد نفدت، وفي مثل تلك اللحظات كان يتدفق عنده الأدرينالين فيمنحه نشوة هي عزيزة في حياته العادية، عصرئذٍ كان يملك زمام الأمر، وكان يريدهم أحياء، حاصرهم سبع عشرة ساعة متصلة كان يتجرع خلالها فقط جرعات قليلات من زمزمية خضراء كُتب عليها بخط أسود: اقتلوهم، لم يُصب من طعام، ولم يطرف له جفن، ولكنه كان بادي النشاط صافي الذهن شديد التركيز، يشعر بطاقة موفورة ونشاط مريد.

استسلم له الجنود، فرموا بنادقهم الخاوية الخزن أمامهم، ووقفوا مطأطئين أيديهم فوق رؤوسهم، ولكنهم دُهشوا وهو يأمرهم لما

سمعوا لكنة إنجليزيته البريطانية اللندنية، أمرهم بالسير أمامه صوب الشرق، غير أن خطواتهم التعبى ترددت، فانتهرهم مُحركاً بندقيته، فساروا أمامه مُذعنين.

بعد زهاء ساعة، أوقفهم عند كهف صغير ربضت أمامه دبابة صامتة.

لم يكن في الكهف أحد، وحده كان المقاتل عن تلك الناحية.

أدخلهم إلى الكهف وبندقية الكلاشينكوف في ظهورهم.

"هذه هي قاعة المحكمة" قال لهم ببرود.

"ما اسمك أنت الذي في الوسط؟"، وكان ممتلئاً بائن الطول.

"ألان ريد".

"عمرك؟".

"أربع وثلاثون سنة".

"عنوانك؟".

"لواء التحالف الثالث في كابول".

"لا". صرخ كالملدوغ: "هذه ليست أرضك حتى يكون لك فيها عنوان. ما عنوانك الأصلي؟".

"3- شارع سكوت- ريل – ويلز".

"لماذا جئت إلى أرض المسلمين، أرضنا، تفسد وتنهب وتسفك الدماء؟".

"أنا جندي في الجيش أنفذ الأوامر".

"اسكت يا كلب" انتهره وبصق على الأرض بصقتين.

"هه، أنت الذي على اليمين، ما اسمك؟".

"رالف مايلز" وكان نحيلاً.

"عمرك؟".

"ثلاث وعشرون سنة".

"عنوانك؟".

"1233 بيتفيلد – بوي – ميرلاند".

"لماذا جئت إلى أرض المسلمين، أرضنا، تفسد وتنهب وتسفك الدماء؟".

"أنا جندي في الجيش أنفذ الأوامر".

"هه، هه، وأنت أيها القصير الدميم، هه، أنت أيها الأخير،ما اسمك؟".

"بارت رولاند" وكان يبدو كصبي.

"كم عمرك؟".

"اثنان وعشرون عاماً".

"ما عنوانك؟"

"47- إيسترن سايد كامبوب لندن".

ساد صمت.

ثم ارتفع صوت هاتفات يهتفن في قلب الصمت، يرددن كلمة واحدة: "الانتقام. الانتقام".

وفي الصمت تقدم الوقت.

وتنهد سامي حمدان ومسح جبينه وأغمض عينيه بقوة ثم فتحهما. وتناهى صوت انفجار بعيد تخلله صوت الريح وهي تهب داخلة الكهف، فتصفر ما بين تجاويف الصخور. شهق شهيقاً طويلاً، ثم زفر، ثم جلس على حرف صخرة مدببة نتأت من جنب الكهف، وقال بصوت كرنَّة المعدن:

"على كم مرحلة تريدون أن تموتوا؟ هه، لقد حكمت عليكم بالإعدام، فاختاروا الطريقة التي تودون أن أنفذ بها حكمي".

لم ينبس أحد من الجنود الثلاثة ببنت شفة.

"على مرحلة؟ مرحلتين؟ أم ثلاث؟"، سألهم بعد صمت مشوب بالترقب مملوء بالحذر.

بصق النحيل رالف مايلز وهتف فيه:

"إعدام الجندي يكون بالرصاص وهو واقف".

بحركة درامية رفع السونكي الحاد فلمعت شفرتاه، تقدم صوب رالف مايلز وجز عنقه، ثم أتبعه الآخرين، بعدها أطلق على جثثهم النار ثم وثب على الدبابة فأدارها فزأر محركها، بجنازيرها، بثقلها سحق عظامهم، وإن كان قد طار في الهواء بعضها.

زحفت الدبابة فوقهم من أمام إلى وراء ومن وراء إلى أمام.

بعد وقت أوقفها وقفز منها مبللاً بالعرق، ملطخاً بالدماء.

وانتبه لصوت محرك اللاندكروزر السوداء تنهب الطريق في أرض الشرق العظيم، إنها تحفظ مسارها في بادية الشام، الآن يتذكر

ذلك اليوم وهو يقول في نفسه: هم الكفرة الذين انتصروا في قاعة المحكمة، في الأولد بيلي، الصراع سيستمر، وهو صراع مرير، مرير لأنه صراع دين، الدين محوري، وبحسب آرنولد توينبي كل الحضارات قامت على ديانات، الدين هو الذي سنستمد منه وقودنا وطاقتنا، نصنع منه ثقافتنا، وبحسب هنتينغتون لابد للحضارات من أن تدخل حروبا مستمرة، حروباً مبررة. وأعاده منظر بادية الشام للصفاء، ملأ عينيه الواسعتين بأفقها، ليوقن أنه الآن فوقها، أجل كان يضرب صوب العراق، اخترق الأرض التي يحفظها كما يحفظ خطوط كف يده، وعلى نحو ما كان يتذكر القديس بول! لكنه ليس في الطريق إلى دمشق، إنما هو في طريقه إلى الموصل، كان عازماً على كتابة صفحة في التاريخ، صفحة أخرى كتلك التي سطرها في الرقة. أجل؛ فسوريا من بعد أفغانستان واليمن هي التي شهدت ولادته الحقيقية.

كان اليوم جمعة.

كان ربيعاً.

التاسع من مايو بالتحديد.

لكنه في الموصل كان يوماً شاقاً على عوض محمد عوض أحمد عوض، فأمه المسنة الحاجة نظيمة تعاني منذ أمس نوباتٍ حادةً من ارتفاع وانخفاض ضغط الدم، الأمر الذي لم تفلح معه الأقراص المعتادة في ضبطه.

وهو قد خسر أول أسبوع في الشهر بسبب النوبة الحادة التي ألمت بها وأرغمته على إغلاق المكتبة والبحث عن طبيب، وقد ذهب لجارات أمه الحبيبات اللاتي يصغرنها سناً، ويواظبن على شرب الشاي والقهوة معها، فعاتبهن برفق على مواصلتهن الثرثرة عن أولئك الرجال الذين سيأتون في جلابيب وعمائم سُود، فيقتلون وينهبون ويبدلون الحياة لتكون غير الحياة. ذهب إلى كل واحدة في بيتها، وكل واحدة أبدت ندمها لأن أم عوض لا يهمها في الدنيا إلا أن يحيا عوض، وحين يكون الحديث عن مخاطر كهذه، فإن الهواجس تقول لها إن آخر السلالة في خطر، وإن الله وحده قد أراد أن تتناقص هذه العائلة حتى تنتهي هي مع ولد يموت وحيداً بعد أن يرث داراً كبيرة ومحلاً عتيقاً تملؤه آلاف الكتب التي بدأ التجارة بها جدُّ جدِّ جدِّه.

وبسبب القلق كذلك مما ظل يتنامى من تمدد السواد، كانت ظنون الحاجة نظيمة تتحول من ارتفاع وانخفاض في الضغط إلى قلق روحي مرعب مستبد.

"عوض، ولدي، لو كنت تزوجت وأنجبت ل..".
وأخذها دور من سعال.
"أصحيح أن أهل السواد قد دنوا؟ أصحيح أنهم سيأتون ليقتلونا؟"، سألت وهي لم تزل تسعل.
"لا، لا، هذا كلام، مجرد كلام، الموصل مدينة كبيرة، مدينة قوية".
"ولدي، قلبي يحدثني بغير ذلك، إني الساعة...".
فقاطعها:
"أمي أرجوك! أنت الساعة بحاجة للراحة، فحاولي أن ترتاحي، حاولي. أرجوك".
ولم يكن بوسعه لحظتئذٍ، كما أوصاه الطبيب، إلا أن يعطيها قرصاً مهدئاً، فابتلعته على مضض، ثم ما لبثت أن استرخت منها زوايا فمها المتشنج، وتباطأت التقاءات أجفانها المتسارعة، فأغمضت جفنيها واستسلمت لخدر طبي عميق مريح.
كانت في التاسعة والسبعين، وكان عوض الأعزب في السابعة والخمسين، طويل القامة، ناعم الشعر غزيرَه، كثيف الشارب، حليق اللحية، أنفه الكبير يتسق مع كبر وجهه وتمكُّن حنكه وصدغيه، يبدو قوياً كأنه في الثلاثين، هو ذا الآن ينزل الدرج الخشبي العتيق الذي يعود تاريخه إلى القرن التاسع عشر على عجل، ذات الدرج الذي صعده وهبطه أجداده وآباؤه لعشرات الحقب يبيعون الكتب ويشترون الكتب.
دقائق وكان في قاعة المكتبة: مكتبة الحرية، أكبر مكتبة في مدينة

الموصل، قريباً من المركز الثقافي الفرنسي الذي أقفل أبوابه منذ زمن. الجمعة عطلته الأسبوعية في العادة، ولكنها اليوم استثناء.
كان عليه في يوم الخميس، الأول من مايو، أن يرسل طرداً ظل يُبعث لأعوام أول كل شهر للأستاذ سلمان عائش اليزيدي في قرية استيرا، يضمنه ما قد وصل من كتب ومجلات – وقد بات شحيحاً هذه الأيام — إنه ليعز سلمان جداً، وعيد النيروز الذي مضى قضاه معه وزوجته روجين وبنتهما كاجين.
وللعيد في قمة الجبل بهجة مارس وحلاوة مطالع النار والدفء في التاريخ وفي الربيع؛ جميع مشاق المدينة وآلامها نسيها، ولكمْ كان يسعد حين يجلسون في الأمسيات لكي يتحدثوا عن فلسفة ابن رشد، أو فلسفة العلوم عند العرب، أو جمال الشعر العربي القديم، وحلاوة الفرنسية ودراما الإنجليز؛ فالكتب وحبُّ الكتب يخلقان بين الناس علاقة تفوق علاقة الدم.
لكن طرد هذا الشهر له أهميته، لأنه يريد أن يبعث بهديته الخاصة بعيد ميلاد ابنة الأستاذ: كاجين؛ وهو أمر قد درج عليه العام بعد العام، وهو يعلم أن البريد يحتاج إلى أكثر من ثلاثة أيام ليصل إلى الأستاذ سلمان عائش اليزيدي، فمن بعد أن تأخذه السيارات إلى قضاء سنجار يبقى هناك يوماً في بريد انتظار الجبل، إذ يتعين نقله على مراحل على ظهر بغال بوساطة حمدين، الحمال أصلاً في سوق السفح، وقد أطلق عليه اسم ساعي البريد لعقود من الزمان فلصق به، وهو يعمل وفق المزاج لرفع حمولته للربوات ثم القمم التي تتكئ

فوق إحداها قرية الأستاذ، وقد يستغرق ذلك منه يوماً وبضع يوم.
"ماذا سأختار هدية لكاجين في عيد ميلادها هذه المرّة"؟ راح عوض يسأل نفسه وهو يسعى بين الرفوف وأكوام الكتب.
لقد أهدى إليها العام الماضي كليلة ودمنة.
إذاً فليُعطها رسائل نهرو إلى أنديرا هذا العام، فهي فتاة ذكية، عقلها أكبر من سنها. وقد سكنت كاجين مع أبيها سلمان وأمها روجين في القرية النائية القصية العالية التي اسمها استيرا، أي النجمة، في إحدى قمم جبل سنجار؛ واحدة من تلك القرى الجبلية المنسية التي انقطعت عن بعضها خدمات الكهرباء والاتصالات منذ الحصار الأول في عهد صدام حسين في تسعينيات القرن الذي مضى، فلم تعد من بعد ذلك قط، بعضها لم تصله تلك الخدمات أصلاً، عدد البيوت في استيرا لا يزيد على ستة عشر بيتاً، تناثرت في نتوءات وهضاب وربوات صغيرة في جوف الجبل... وكان الطريق إليها من السفح شاقاً لا تقطعه إلا البغال، وكان ثمة مسيل قرب السفح في نقطة الصعود إليها، تنبت على حافاته الأزاهير والحشائش والأعشاب، وأيام امتلائه يكون له عرق قوي وصوت كالهدير، القليلون يعرفون أن ذلك المسيل ينبع مما يشبه الهضبة في أواسط الجبل.
كان عالم الجبل عالماً جميلاً بالنسبة لأهله غريباً بالنسبة للآخرين الذين عاشوا حياتهم عند السفوح، الشخص الوحيد من أهل السفح في قضاء سنجار الذي كان يألف تلك القرى الشاهقات،

بل ويحفظها كباطن كف يده هو ساعي البريد حمدين، كان يصعد الجبل مرة على الأقل في كل شهر يحمل بعض السكر والشاي والرسائل والهدايا والوصايا والكتب والمجلات التي ترسلها مكتبة الحرية لسلمان عائش والد كاجين، كان حمدين رجلاً قصير القامة مفتول عضلات الساقين واليدين، ضخم الأنف، أدروج لم ينبت له شارب ولم تنبت له، وكان كئيباً تلفه هالة من الحزن، له نظرة دليل جبلي توحي بمعرفة الجوانب المخفية والباطنة للأشياء، كان يضع على رأسه عمامة كبيرة بيضاء تبدو كأنها أوزة مطوية الجناح قد نامت عليه مفرودة الجناح لتقيه وهج حرارة شمس الصيف الذي يلهب العراق، وهو على الدوام يلبس صدرية كتان رمادية باهتة تحمل آثار العمر الذي مر وتبددت أيامه في السفح وفي الشعاب. وعلى الرغم من حبه للجبل والعوالي وواسع معرفته وحنكته، فهو ينوء بعبء إنساني يشده أرضاً ويجعله يخضع لأي إرادة يفرضها السلاح، كان يشكو القهر ويعاني مصاعبَ مالية ملحة ومزمنة، وقد توقف عن الضحك منذ وقت بعيد لأن زوجته وأطفاله الثلاثة قتلوا منذ زمن بهجمة نفذها جنود صدام حسين بالسلاح الكيميائي على الناحية مستهدفين جماعات مسلحة من الأكراد أوت إليها، وهو من يومها يخاف السلاح والرجال الذين يحملون السلاح، وعندما تقع عيناه الضيقتان البيضويتان على قطعة سلاح أو رجل مسلح فإنهما تضطربان وتلمعان وتضيئان على نحو يذكر في التو بعيون القط الجبلي الذي يتردد في الليل إلى أهالي تلك القرى الشاهقة

المستعصمة بقمم الجبل، الأهالي القليلي العدد، أولئك الذين لا ينزلون السفح لسوق قضاء سنجار أو الموصل إلا نادراً، كذلك لا يصعد إليهم أحد في أعاليهم إلا في مناسبات نادرة، كزيارات عوض صاحب مكتبة الحرية لأبوي كاجين، سلمان وروجين، في عيد النيروز مثلاً.

أهل استيرا يحبون استيرا.

وفي استيرا اليوم مناسبة، لذا فكاجين الساعة فرحة.

طولها البائن ونحافتها التي تشبه نحافة مانيكانات الغرب،ونضارتها تقول إنها أكبر من عمرها.

كان كلبها ماونت يركض من ها هنا إلى ها هناك، وهي تعدو أو تثب.. أطرافها عراقية غضة بضة حيَّة... وفي وجهها عافية تفيض بالألق، ألق يزيد من وهجه صخب الزمرُّد في بحر عينيها الواسعتين الخضراوين، بخدها الأيسر شامة غامضة، كذلك خضراء، هي وكلبها لا يفترقان؛ في روحها توقد واندفاع، وفي كلبها وفاء وحب استطلاع.

كان اليوم خميساً.

ظهيرة ربيع رفدها اليوم الثاني والعشرون من شهر مايو.

هي ذي كاجين تلعب مع كلبها ماونت داخل حظيرة البغل الترابي اللون المحجل بخطوط رمادية وعلى جبينه غرَّة بيضاء، إنه ليألفهما هي وماونت فيشخر منخاراه الأسودان ترحيباً، وتضرب حوافر أقدامه أرض الحظيرة من أجل مجيئهما.

ثلاثتهم الآن في لعب ولهو بينما أمها روجين منهمكة داخل المطبخ

البيضوي الشكل، بينما راح أبوها سلمان ينفخ البالونات الملونة ثم يربطها بالخيوط اللامعة المزينة بشرائط مقصوصة في شكل دوائر ومربعات ومستطيلات في سماء الحديقة الصغيرة وفي أركانها.. خبزت أمها كيكة هائلة، وزينتها بالكريمة والشوكولاتة والسكر المحروق.

وسريعاً ما انقضت هذه الظهيرة المتأخرة التي أعقبت ساعة الإياب من المدرسة.

ظهيرة سعيدة لم تصلها بعد ظلال السواد الرهيب فهي لا تعلم من نبئه شيئاً.

وعند العصر جاءت صاحباتها من بيوت القرية الصغيرة التي نهضت مبعثرةً تحت قمم وفوق أودية جبل سنجار، جئن وقد تركن الدرب المفضي للمدرسة المشرفة على البيوت من ربوة جميلة وراءهن، انطلقن في ممرات ضيقة مفروشة بالحصى الأبيض والأسود والملون، يلمحن بين الحين مسيل الجداول التي ذابت فيها ثلوج الشتاء في القمم الوطيئة وقد نبتت على حافاتها نباتات معتدلة الطول، مستقيمة تفتح بأوراقها البصلية صوب السماء الكاملة الزرقة أو أخرى منحنية على وجه الماء بأوراق صُفر وحُمر وبنفسجية، ما يجعل من تلك الممرات والجداول والسماء قطعة لوحة تعكسها مرآة، لكنها مرآة لها ضحكات ولغط ونداء من ها هنا ونداء من ها هناك.

دخلن إلى الحديقة في صخب ضاحك ومرح عابث تتقدمهن جيهان، ولعبن حتى تبهرج الأفق بألوان الشفق، وإذ غربت دخلن إلى حجرة المعيشة؛ على الكيكة غُرست اثنتا عشرة شمعة صغيرة

بيضاء. وانطلقت الأغاني: عيد ميلاد سعيد... عيد ميلاد سعيد... سنة حلوة يا جميل... سنة حلوة يا كاجين.

وانحنت حتى لفحت وجهها حرارة الشموع، وبرقت عيناها الخضراوان مثل زمردتين يصطخب فيهما بحر من الألق.

واحد اثنان ثلاثة، فشهقت من الهواء دفعة نفخت وجنتيها الشقراوين الناعمتين، ثم زفرتها فانطفأت جميع الشموع.

أنير مصباح الزيت الهائل في حجرة المعيشة الواسعة.

ومدت يمينها بسكينة صغيرة، فقطعت الكيكة إلى شرائح متقنة التثليث، وراحت تدفعها فوق صحون الورق المفلطحة البيضاء.

قبَّلتها صديقاتها فرحات.

حضنتها أمها وهي تدمع.

وفرد أبوها ذراعيه كما يفرد الطائر جناحيه ليضم فرخته وضمها.

وفرقعت في الجو ألعاب نارية صغيرة بهيجة بريئة.

من الهدايا قصت شرائط وفضت صناديق.

وكانت بطاقات، وكانت مناديل، فيونكات ودبابيس وبروشات للبلوزات والفساتين وبنسات للشعر، إلى جانب أقلام وكتب: أبوها وأمها قدما لها كتابين، كتاب أمها كان من قصص الخيال العلمي.

أما أبوها، فقد أهداها ديوان شعر: المركب الثمل لآرثر رامبو:

"سيكون جميلاً هذا"!

"نعم، فقد أتقنت اللغة".

"وهذه هي هدية صديقنا العظيم العم عوض".

وثبت ثم صاحت:

"صاحب أكبر كمية من الكتب في البلد".

والتقطت هديته.

كان الحفل بهيجاً لكن ما أقصر أوقات البهجة.

انفض الحفل.

وتقدم الليل، فأوت إلى فراشها شبعةً من كثرة ما التهمت من كيك.

قبلت ماونت، والهدايا قبلتها فكأنها بيديها كائنات حية.

دخل أبواها عليها، فهنآها مرة أخرى بعيد ميلادها، وقبلاهما شأن كل ليلة.

خرجا،

دخلت حجرتها حاملة معها هداياها جميعها، لسبب ما فتحت الكتاب الصغير، هدية العم عوض فطالعتها على الغلاف صورة نهرو وأنديرا بجمالهما الهندي الأخاذ، فتحت الغلاف بحب استطلاع فطالعتها أسطر دقيقة أنيقة: "رويت لك في رسالة سابقة يا أنديرا لمحات عن تقدم العلم في القرن التاسع عشر.. وأريد الآن أن أحدثك عن ناحية من نواحي التقدم في هذا القرن وأعني تقدم الفكرة الديمقراطية.

ولعلك ما زلت تذكرين حديثي لك عن حرب الأفكار في فرنسا في القرن الثاني عشر، وعن فولتير أعظم كتاب هذا العصر ومفكريه، وآخرين غيره من الذين تحدوا المعتقدات

القديمة والذين قدموا في جرأة عجيبة أفكاراً جديدة. وقد ساد هذا التفكير في فرنسا في ذلك الوقت على نطاق واسع.. أما في ألمانيا فقد كان الفلاسفة مهتمين بمسائل فلسفية أشد تعقيداً.. وفي إنجلترا كانت التجارة والأعمال في تزايد مستمر والناس هناك غير مغرمين بالتفكير ما لم تضطرهم الظروف إلى التفكير اضطراراً! ومع ذلك فقد ظهر في إنجلترا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر كتاب خطير، ذلك هو كتاب آدم سميث عن ثروة الأمم.. وهو ليس كتاباً في السياسة ولكن في الاقتصاد السياسي، فحتى ذلك الوقت كان الاقتصاد كغيره من العلوم مختلطاً بالدين وبالأدب، ما جعله عرضة للكثير من الاضطراب والخطل.. ثم جاء آدم سميث فعالج الاقتصاد معالجة علمية متحاشياً كل التعقيدات الأدبية، محاولاً أن يعثر على القوانين الطبيعية التي تتحكم في الاقتصاد والاقتصاد – كما لا بد تعرفين – يتحدث عن دخل الأفراد ونفقاتهم أو دخل الدولة كلها ونفقاتها عما ينتج الناس وما يستهلكون، عن علاقاتهم بغيرهم من الدول وغيرهم من الناس.. وكان آدم سميث يؤمن بأن كل هذه العمليات المعقدة تتم طبقاً لقوانين طبيعية محددة سجلها في كتابه.. وكان يؤمن أيضاً بأنه لا بد من إعطاء الحرية الكاملة للحياة الصناعية حتى تؤتي هذه القوانين نتائجها.. وهو مذهب جعلهم يعملون الذي حدثتك عنه من قبل، وكتاب آدم سميث هذا لا شأن له بالأفكار الديمقراطية الجديدة التي كانت تتبلور في ذلك الوقت في فرنسا.

ولكن هذه المعالجة العلمية لمشكلة من أهم المشاكل التي تؤثر في مصائر الأفراد والشعوب تدل على أن الإنسان كان آخذاً في اتجاه جديد غير الاتجاه اللاهوتي القديم.. وآدم سميث يعد الآن أبو علم الاقتصاد، وقد أثر في كثيرين جداً من رجال الاقتصاد الإنجليز في القرن التاسع عشر.. وقد ظل علم الاقتصاد الحديث قاصراً على الأساتذة وعلى عدد قليل من خاصة المثقفين، ولكن الأفكار الديمقراطية الجديدة كانت في ذلك الوقت تنتشر بسرعة.. ثم جاء نجاح الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية فكان بمنزلة دعاية واسعة أكسبت هذه الأفكار شعبية هائلة.. فقد هزت الناس تلك الكلمات الرنانة التي احتوى عليها إعلان الاستقلال الأمريكي وإعلان حقوق الإنسان الفرنسي.. كانت هذه الكلمات بمنزلة رسالة خلاص للملايين من المظلومين والمستعبدين؛ فكل من الوثيقتين تتحدث عن الحرية والمساواة وحق كل فرد في أن يستمتع بالسعادة.. ومن أن إعلان هذه الحقوق الآن لم يؤدِّ مباشرة إلى فوز الناس بها، بل إن الذين يستمتعون بهذه الحقوق الآن وبعد قرن ونصف من إعلانها ما زالوا قليلين! فقد كان مجرد إعلان هذه الحقوق عملاً قيماً باعثاً على الأمل".

"شكراً لك أيها العم عوض، لكم تتحفني في كل عيد ميلاد لي بالهدايا الرائعات"! هتفت في حماسة، ثم دعكت عينيها، أحست بأن نبضات قلبها تتسارع وقالت في نفسها لا ريب أن أنديرا هذه كانت فتاة محظوظة شأنها هي، وأن أباها كان منفتح الذهن عطوفاً

شأن أبيها هي بالذات، وعادت تقرأ: "خذي ولدين أو بنتين على درجة واحدة من الاستعداد وأعطي أحدهما تعليماً واحرمي الآخر من التعليم، وسوف ترين بعد سنوات قليلة أن ثمة فارقاً هائلاً بين الاثنين، أو أعطي الواحد طعاماً صحياً كافياً والآخر طعاماً رديئاً ناقصاً.. وسترين أن أولهما سينشأ قوياً سليماً صحيحاً في حين يصبح الآخر ضعيفاً يائساً عليلاً. إذاً فالتربية والثقافة والبيئة التي ينشأ فيها الإنسان تتسبب في خلق كثير من الفروق بين الناس إلى حد كبير. كل هذا ممكن. ولكن فيما يتعلق بالفكرة الديمقراطية نجد أنها تعترف بأن الأفراد ليسوا في الحقيقة متساوين، ولكنها مع ذلك تعطيهم جميعاً القيمة السياسية والاجتماعية نفسها. فإذا سلمنا بهذه الفكرة الديمقراطية كاملة فسوف يودي بنا ذلك إلى نتائج ثورية خطيرة".

أحست بوقع مختلف لهذه الكلمات البسيطة، أحست بأنها تتعرف إلى أشياء جديدة، ودون أن تشعر فتحت حقيبتها المدرسية وأدخلت فيها الكتاب الصغير، ثم دخلت في الفراش فأطبقت جفنيها وراحت تحلم أحلاماً سعيدة.

في الصباح نهضت نشطة، فاغتسلت ونظفت أسنانها وجلست إلى مائدة الإفطار.

بدا أن أباها وأمها كانا يواصلان حديثاً قد بدآه منذ قليل:

"يقولون إن جماعة داعش يحاصرون الموصل الآن ويبدو...،".

فقاطعته:

"أبي! ماذا تعني كلمة داعش"؟

"تعني الدولة الإسلامية في العراق وفي الشام".

أجابها أبوها، ثم أردف:

"لكن الموصل مدينة كبيرة وليست لعبة".

"في العطلة لا بد أن نحضر فيلماً في المركز الثقافي الفرنسي"، قالت كاجين.

"المركز الثقافي الفرنسي في الموصل لم يزل مغلقاً"، قال أبوها سلمان.

"إذاً نزور مكتبة الحرية لأنني أريد أن أقدم شكراً خاصاً للعم الطيب عوض".

"حسناً حسناً"، قال أبوها بينما نهضت أمها في عجلة من أمرها:

"ينبغي أن نكون الآن في طريقنا إلى المدرسة، هيا انهضا".

وفتحت لحظتئذٍ حقيبتها المدرسية وأخرجت رسائل نهرو إلى أنديرا:

"إنه أعظم كتاب"!

"نهرو من أكبر مثقفي العالم، درس في ترينيتي كوليدج في كمبريدج وكتب كتاباً جيداً سماه "لمحات عن تاريخ العالم"؛ مثل هؤلاء الرجل يصنعون ساسة حقيقيين أما...".

فقاطعته روجين:

"ينبغي أن نكون الآن في طريقنا إلى المدرسة. هيا انهضا".

وفي ليلة التاسع من يونيو،
ليلة خانقة قائظة الحر،
كانت ساعة الصفر التي حددها معاون الخليفة سامي حمدان.
مثل ظلال بسطها ألف ضلع وضلع من ظهر التاريخ، انهمرت الرايات السود فغطت سماء المدينة بظلام محسوس، ظلام ملموس، ظلام تمسك بك به وتنشره أيادٍ قاسيات، ظلام يخفق، ظلام يتحرك فلا يسكن مطلقا، ظلام تسرب من طياته مثل نخاع عليل سرُ الشرق العظيم فتحلَّب ثم قطر على نحو مبهم ثم فاض، وفي فيض ذلك الظلام الحي، في قبضته، وكما بصيص من صهد يسيل، رجمت الراجمات وقذفت المدفعية وانطلقت الدبابات والمدرعات واللاندكروزرات وانتشر المشاة؛ وفي ذلك الصخب المتعصب الهادر الطغيان، تحت ظل التاريخ وناره التي أخذت في الاشتعال، وسط كل تلك الفوضى المنظمة، الفوضى ذات القصد، الفوضى التي تألفها تلك الأرض، كانت كتيبة غاية في الجدة: هي كتيبة الميديا، توزع فرقها ورجالها لترصد وتسجل وثبة جريئة في هوة التاريخ.
كان سامي حمدان يقود المعركة بنفسه. ورجاله كشأنهم، كان مخلصين مطيعين له، فهو، كان قد حرك في كل رجل منهم بركة الانتقام الراكدة فيه، وأيقظ فيهم غزيزة التعطش للدماء على نحو من المناحي.
كلمح بالبصر، وعند مطلع شمس اليوم التالي، كان متشحو السواد المدججون ينتشرون تحت الشمس الحارقة مرابضين متمركزين عند

نقاط الهجوم في الأرض التي صارت تحت أرجلهم، أرض الموصل؛ ولاح وكأن معاون الخليفة قد تناسخ في ألف هيئة وألف شخص! فهو ها هنا! وهو ها هناك! كان يبدو مثل مخلوق كوني رهيب! وهو مشغول أكثر ما يكون مع كتيبة الميديا التي ينبغي أن تعزز للعالم حقيقة هذا الوجود، حقيقة هذه القوة على الأرض، حقيقة هذا الرعب المتشح بلون السواد. حقيقته هو.

كان وهج صيف يونيو في الموصل جهنَّماً.

وكانت ذخيرته تزيد من ذلك الوهج، بينما راحت راياته السوداء تخفق في كل ساحة، في كل شارع، في كل زقاق، في كل مكان.

لكن برغم كل ذلك الوهج لاح قلب المدينة أسود.

أشعلت نيران ها هنا.

أحرقت بيوت ها هناك.

قضى نساء وأطفال وشيوخ.

قطعت رؤوس وهدمت ثكنات.

في كل ناحية من الموصل كان ثمة شيء يحدث.

ومع تقدم اليوم وتجاوزه ساعة الضحى إلى ما بعيد منتصف النهار بقليل، تحديداً الثانية عشرة والربع، اقتيد عوض صاحب مكتبة الحرية في الموصل وهو يرسُف في الأغلال، وأُوقف أمام تلال من الكتب كانت قد نقلتها سيارات لاندكروزر نصف نقل مسلحة إلى ساحة صغيرة أطلت عليها بنايات وبيوت.

كان أسامة قائد كتيبة الميديا قد رتب فريقاً مهنياً للتصوير، كاميرات

وميكروفونات وزعت على الأنحاء.

اليوتيوب سيستقبل بعد لحظات لقطات مروِّعة.

انطلقت صيحات وانطلق هتاف:

"عاش داعش.. عاشت دولة الإسلام".

رجال التنظيم ذوو اللحى الطويلة والجلابيب والعمائم السُّود راحوا يمزقون في غضب طوراً وفي ضحك تارة أغلفة وصفحات الكتب؛ كتب قديمة وكتب جديدة، كتب بالعربية... بالإنجليزية... بالفرنسية، كتب في التراث، كتب في الدين وفي العلم، كتب في المنطق والفلسفة، دواوين شعر، ما وشى بأن المكتبة الكبيرة التي ظلت تعمل ثمانين عاماً وتوارثتها أجيال ثلاثة كانت حقاً غنية؛ فالأكوام التي تناثرت والتلال التي ارتفعت تكشف عن أنها كتب بالآلاف.

وعلا ضجيج ولغط وصخب.

ثم أقبلت تتهادى لاندكروزر سوداء صالون، فدارت دورة صغيرة ثم أطفأت محركها، ونزل منها معاون الخليفة.

"الله أكبر.. الله أكبر. عاش داعش. عاشت دولة الإسلام" علا الهتاف مجدَّداً.

انطلقت في الجو طلقات فرحة بالنصر، فخطا معاون الخليفة وركل كوماً من الكتب بحذائه العسكري الأسود الثقيل وخطب:

"الحمد لله الذي سيعقد لنا ألوية النصر عاليةً خفَّاقةً ظافرةً في العراق وفي الشام، سنأخذ الموصل، وكما ترون ها نحن نتقدم بسرعة،

فالحمد لله والشكر لله، الحمد لله الذي سيدحر الكفرة الفجرة ، فيمكننا منهم ويورثنا الموصل نملؤها إسلاماً وعدلاً، هذه الكتب هي السلاح الذي يحارب به الزنادقة والملاحدة الله، وإنا لعازمون على إبادة هذا السلاح، وما ذلك بالأمر الهين، إنه لأمرٌ لو تعلمون عظيم".

وأخرج علبة كبريت من جيبه، وجعل يشعل الثقاب من بعد الثقاب ويرميه على الأكوام؛ غير أن درجة اندلاع النار بدَتْ غير مرضية له، فصاح:

"صُبُّوا البنزين، صُبُّوا الجاز على كلمات الشيطان هذه. هيا. هيا، أيها المجاهدون في سبيل الله، أيها المجاهدون في سبيل إعلاء كلمته، أيها المجاهدون في إبطال كلمة الكفار. هيا صُبُّوا البنزين، صُبُّوا الجاز واشعلوا النار. اشعلوا النار".

وامتثلت له في التو أيادٍ امتدت إلى صفائح البنزين والجاز المربوطة على جوانب السيارات والمدرعات الخفيفة، ففتحتها وطفقت تفرغ ما فيها تصبُّه على النار المتقدة صبَّاً.

اشتعلت النار على نحو جهنميٍّ فامتدت منها ألسنة، خشخشت أوراقٌ وانكمشت في تآكل أسود مريع، قرقعت أغلفة سميكة وعاندت، ثم ما لبثت أن احترقت في دخان كثيف.

بدا واضحاً أن النار التي استعرت آخذة في الإفلات من السيطرة، وأنها لن تلتهم الكتب فحسب، وإنما ستلتهم الساحة الصغيرة بكل ما فيها ومن فيها؛ على عجل دارت محركات المدرعات الخفيفة مع

سيارات اللاندكروزر المكشوفة الظهر المملوءة بالمدافع تحمل الرجال ليباشروا ترسيخ دولتهم في أنحاء أخرى من المدينة، ودار أيضاً محرك اللاندكروزر الصالون السوداء تحمل المعاون ليستطلع هل أفلح أبو عاتكة في السيطرة على آبار النفط أم أنه يحتاج إلى مدد من كراديس جديدة.

وحده عوض صاحب المكتبة خُلِّف في الوراء لتلتهمه النار مع كتبه التي ورثها عن أبيه، عن جده، مع تلك التي استوردها من شتى بقاع الأرض وظل مخلصاً أميناً لها، يكسب من ورائها ما يُعين على العيش عيشة متواضعة مستورة.

تأ لم عوض كثيراً لمرأى اللهب في الكتب، لكنه صرخ صراخاً مفزعاً حينما امتدت لهبة صفراء إلى حذائه القماشي البُني فأحرقته، وأمسكت بقدميه فأكلتهما، ثم جعلت تزحف صاعدة عبر ساقيه وركبتيه وفخذيه وحوضه.

من على شرفة صغيرة في بيت صغير مطل على الساحة، كانت أم عوض . التي مات عنها أبو عوض . تندب وتدعو صادقة وهي تجهش بالبكاء:

"يا نار كوني برداً وسلاماً على عوض".

لكن النار لم تستجب لدعائها، بل ظلت تصعد من صدر عوض إلى عنقه، إلى رأسه، إلى شعره، صرخ صرخة وحش جريح، صرخة مدوية مرعبة، ورفع يديه المشتعلتين في الفراغ فبدتا مثل مشعالين فقدا الزيت، فراحت النار تلتهمهما وهي تطقطق في عظامه طقطقة

النار في الحطب، جثا على ركبتيه، ثم على نحو مقاوم عنيد وخرافي نهض فوقف مجدَّاً، لحظتئذٍ، أكلت النار ظهره، فبان عموده الفقري، أكلت إليتيه تماماً، ثم كتفيه، ثم رأسه حتى بانت الجمجمة وبانت أسنانه وأضراسه عارية من اللحم تساقط وهي سوداء، فاحت رائحة الشواء، شواء لحم بشري. وكانت كاميرات التصوير وأجهزة التسجيل التابعة لكتيبة الميديا ترصد وتسجل...، غير أنها بالطبع فشلت في أن تلتقط وتبعث بتلك الرائحة المريعة الغريبة غير المحتملة: رائحة اللحم البشري المحروق.

سقطت أم عوض على أرض الشرفة وكان آخر ما رأته من الدنيا ابنها وهو واقف يحترق مثل عمود راية تأكله النار، بينما كان فريق من كتيبة الميديا قد رفع، وفي التو، على مواقع اليوتيوب ومواقع التواصل الاجتماعي لأركان الدنيا الأربعة، رفع بالصوت وبالصورة المنظر الحي، منظر الحريق المريع.

ضحك معاون الخليفة وهو ينظر إلى الصور المبثوثة على الشاشة الكومبيوترية المقدمة إليه للاطلاع على جودتها من أسامة قائد كتيبة الميديا، فيما مضى يتحدث إلى عدد آخر من رجال الكتيبة الذين تحلقوا من حوله:

"لقد أحرق الغرب جان دارك باسم الدين، لكنه سيشتاط غضباً لهذا الحريق. لقد أديتم عملاً هائلاً، عملاً يفوق خيال كل الرسامين الذين رسموا جان دارك. الصورة المتحركة الملونة الصافية المتقنة هي الوسيلة الوحيدة الأكثر قدرة على محاكاة الحياة، والفضل يعود للانترنت في

نقلها، وفي ثوانٍ إلى أي مكان، مؤكد! أن أفتك الأسلحة هي تلك التي يزودنا بها العدو!".

وتناهت أصوات طلقات ودوي انفجارت في ناحية الغرب مرة وناحية الشمال مرة وناحية الشرق والجنوب مرة، فابتعد عنهم يتفقد جيوب القتال في تلك الأماكن المتفرقة من المدينة. واستمرت عمليات القتال لإخضاع الأقضية والأنحاء. راحت بنادق تؤزُّ بالرصاص، ومدافع تدوي بالقذائف وسيارات اللاندكروزر والمدرعات الخفيفة والدبابات تنهب الأرض فتمرق تخفق عليها الرايات، رايات سُود كقلب الشيطان. وسامي حمدان يُرى في كل مكان وفي كل آن يمسح بيده الدم المتخثر على شفرة سكينه الكبيرة الحادة، أو يشحن بندقيته، كان يتحرك حتى لكأنه أكثر من إنسان، بقوة ثور راح يعدو من ها هنا إلى ها هنا، ومن ها هناك إلى ها هناك، حتى كاد يصاب بضربة شمس، نهار هذا اليوم كان نهاراً أحمر، انقضى جلُّه في الميادين والساحات والشوارع والأزقة،

لابد أن تسقط الموصل في يوم واحد،

تلك كانت خطته،

لن يعطي أحدا خارجها الفرصة كيما يفكر أو يقوم بردة فعل.

وعليه، فقد كان حريصا على أن ينقل للدنيا أن الأمر غير قابل للإنقاذ.

كان يردد لرجال كتيبته الأثيرة:

"لا أريد لعدساتنا وميكروفوناتنا أن تفلت حصاراً أو اشتبكاً أو

حريقا أو اقطع رأس. مفهوم؟"

"نعم، مولانا معاون الخليفة".

ولئن كان سامي حمدان متأكداً الآن من شيء، فهو متأكد من أنه قد فاجأ الموصل، المدينة، الكبيرة فأخذها على حين غرة، وبعد احتلاله المخافر ومداهمة المواقف والسجون، خصوصاً سجن بادوش زاد عدد رجاله إذ انضم إليه السجناء من متهم ومدان، فكانوا ثلاثة آلاف وأربعمئة رجل، بهم سيسقط كافة المحافظات والاقضية المجاورة، بل وسيتوغل فيها إلى أن يحاصر التفاحة الكبرى. مضت الساعات. أنجزت المهمة وأدى كل كردوس من الكراديس دوره. لقد بعث خططاً وأسماء من قلب التاريخ، كان يقول مبدأ أمره لمن يسأله عماذا يعني بالكراديس: "إن خالداً بن الوليد كان يقاتل على طريقة الكراديس ولم يُهزم قط، لم يهزم بالرغم من أنه شهد زهاء مئة غزوة، حتى في أحُد حينما كان في صف الكفرة الفجرة انتصر على المسلمين وهزمهم". ويبتسم: "إذاً فليكن جيشنا كردوساً، ولينتظم الكردوس في كراديس". ظلت فصاحته في العربية مدهشة! مع أنه تعلم مبادئها في تلك المدرسة الصغيرة في لندن التي تفتح أبوابها فقط أيام السبت والآحاد!

والآن، مع تقدم الظهيرة، كراديسه التي التي انطلقت صوب حقول النفط يتقدمها أبو عاتكة قد فرغت لتوها من الاستيلاء على الآبار. وفي عموم أنحاء المدينة وجيوبها دمرت كل الآليات والقوى المقاومة. لقد سقطت الموصل.

سقطت تماماً في يده.

سقطت سريعاً.

وقد سجلت عدسات الكاميرات التي لا تغمض، سجلت كل ثانية من ذلك السقوط، ولذبح كرامة الانتصار الكبير، وبيده، بسكينه الكبيرة الحادة، وأمام الكاميرات والمايكرفونات، قطع سامي حمدان رأس أربعين رجلاً من من رجال الشرطة والجيش العراقي في الموصل، ثم خطب، عمداً بالإنجليزية، وهو يخوض في بحر ذلك الدم بينما سكينه لم تزل تقطر، خطب بلكنته اللندنية التي لا تشوبها شائبة:

"في نهار هذا اليوم سقطت الموصل وانتصرت دولة الإسلام واندحر أعداؤها. وإنا لننادي باسم هذه الدولة كل أولائك المؤمنين بالإسلام الحق، ننادي كل من يريدون أن يكونوا جنداً في الفرقة الناجية من طلاب وأطباء ومهندسين وعمال وموظفين وعاطلين عن العمل، ننادي كل من يطمعون إلى ان يكونوا من أهل الفردوس، من أهل جنة عدن، من أصحاب اليمين، من يطمعون في أن تحرمم جسومهم على نار جهنم، نناديهم بأن يسرعو بالانضمام إالينا، عليهم أن يعملوا معنا من أجل توسيع رقعة دولتنا، لكل واحد منكم مكان في رقعة دولة الإسلام، الرقعة التي ودونما ريب، ستمتد فتشمل المشارق وتشمل االمغارب". وكانت العدسات الهائلة التي لا تغمض ولا تفوت ومضة والمايكرفونات التي لا تفلت زفرة تسجل وتنقل صوتا بدا للبعض جذابا وللكثيرين خطيرا، مفزعا مرعبا .

ثم تقدم نهار اليوم الذي أذهل الدنيا بكثرة السواد الذي طغى مع

الدم على أوجه الشاشاشات! سوادٌ مرٌّ كان يلمع تحت وهج يونيو الحار، عمائم وجلابيب ولحى وشوارب كلها سُود، وفي آخر النهار، في طريقه إلى المدرسة الإبتدائية التي اتخذ منها مركزاً للقيادة، رأى سامي حمدان في الساحة جموعاً من الأهالي، وسمع لغطاً وجلبةً وصخباً، إذْ كان الجنود يقتسمون الغنائم والسبايا، ولم تكن الغنائم المادية بالمهمة، بل الحية.

وبينما كان الآخرون في الساحات والشوارع يقضون الساعات في الأحاديث المفعمة بنشوة الانتصار، كان هو يجلس وحيداً في حجرة القيادة يفكر في لندن، في مارتن، يفكر في دوروثي، في الأيام التي غلفها الغضب ورماها القدر لتكون عتبة لحاضره المهيب. ثم جنحت الشمس وحلَّ غروب الشرق السريع فانطلق الأذان في كل الأنحاء عالياً صافياً، ثم أودِّيت صلاة المغرب. لقد أستقر الأمر لسامي حمدان، لقد أمسك بكل شيء.

والآن، في أوائل العشي، أشعلت القناديل نتيجة لأصابة العديد من محطات الكهرباء، وعلى ضوء القناديل جرت اجتماعات حربية خطيرة وكثيرة أصدر فيها معاون الخليفة أوامر بالاستعداد للعمل على تجهيز آبار النفط للضخ السريع، إضافةً للاستيلاء على قطع الآثار المهمة في المتاحف وفي المواقع الأثرية لبيعها، مع أمر بتحطيم بعضها في المتاحف والمواقع وبثها على وجه السرعة على الانترنت، لإيهام العالم أنها أصنام، وأن المعاون لن يبيع قريبا معظمها عبر شبكة يعمل على نسجها بدقة وإحكام، في تلك الخطة أمر بأن

يستنبط الشيخ محمود خطبة تؤكد أن آراء كل الفقهاء في أن هذه التماثيل تقول إنما هي أصنام، وأشار بأنه لابد وأن يظهر الشيخ محمود أمام الكاميرات وهو يقرأ فتواه التي تبيح تحطيم تلك التماثيل. أجندة تلك الاجتماعات، كذلك قالت بإلقاء القبض على الأجانب وإرسال طلبات فدية باهظة مقابل كل رأس منهم، فقط من أجل خلق جلبة إعلامية، ثم قطع رؤوسهم بعد أن يكون كل العالم قد انتبه، وتكون كل طوحين الميديا الجبارة قد زيتت تروسها لتشارك في بث الأنباء الحصرية. أجندة الاجتماعات تضمنت أيضاً أوامر أخرى قضت بالانتشار، من ضمن تلك الأوامر كان أمر الهجوم على قضاء سنجار واحتلاله وسبي النساء اليزيديات لبيعهن مع أوامر بإعدام الأهالي من الرجال.

ولما خلا معاون الخليفة سامي حمدان بنفسه آخر الليل، لم يكن ليحس تعباً أو رهقاً، كان يشعر بأنه موفور النشاط مفعم بالطاقة والحيوية، وانهمك مجدداً في العمل يراجع الخطط ويدقق في التفاصيل، ثم بغتةً افترت شفتاه عن ابتسامة ظافرة بينما راح يردد بصوت مسموع:

"لقد سقطت سانتا كلارا يا جيفارا، ما يعني أن هافانا ستسقط عما قريب، عما قريب".

عشية الحادي والعشرين من يونيو، أي بعد مرور خمسة أيام على الحريق الذي التهم مكتبة الحرية وصاحبها عوض لم يكن النبأ قد وصل إلى قرية استيرا، هذه القرية الصغيرة النائية الرابضة في إحدى قمم الجبل.أنهت كاجين مذاكرتها المدرسية ثم أوت إلى فراشها ولكنها لم تطفئ مصباح الزيت المتلوي بالنور والظلال، بل جذبت كتابها الأثير: هدية العم عوض صاحب مكتبة الحرية وراحت تطالع في شغف بالغ الصفحات المحتشدة بكلمات نهرو إلى أنديرا:

"نعم لقد مرت ببعض البلاد عصور لامعة، مصر، الهند، الصين، اليونان وغيرها وأغلب هذه البلاد قد انتكست وعادت إلى الوراء. ولكن حتى هذا يجب ألا يفقدنا الأمل، فالعالم كبير وارتفاع أمة أو انهيارها لفترة محدودة من الزمن لا ينفي تطور العالم كمجموع. وكثير من المعاصرين يتباهون بحضارة هذا العصر وبما حققه العلم الحديث من معجزات؛ والعلم الحديث قد صنع المعجزات حقاً، ورجال العلم خليقون فعلاً بكل تقدير.. ولكن هؤلاء المتفاخرون قلما يكونون عظماء. وإنه يجدر بنا أن نذكر أن الإنسان من بعض النواحي لم يتقدم كثيراً عن الحيوانات، بل من المؤكد أن من الحيوانات ما يفوق الإنسان من بعض الوجوه.

وقد يبدو هذا القول سخيفاً، والذين لم تتسع معلوماتهم قد يسخرون منه. ولكن يكفي أن تقرئي ما كتبه مترلينك عن حياة النمل، والنمل الأبي، وسوف تعجبين للنظام الاجتماعي الدقيق لهذه الحشرات، إننا نعتبر الحشرات أدنى أنواع الكائنات الحية. ومع ذلك فإن هذه

الأحياء التافهة قد تعلمت من التعاون والتضحية في سبيل الخير العام أكثر مما فعل الإنسان، إنني منذ أن قرأت عن حياة النمل الأبيض وتضحية النملة في سبيل رفاقها وأنا أحتفظ له في قلبي بمكان عزيز، فإن كان التعاون وإيثار مصلحة المجموع هما معيار الحضارة، فيجب أن نعترف بأن النمل الأبيض من هذه الناحية أرقى من البشر، في بعض كتبنا السنسكريتية القديمة نجد شعراً يمكن ترجمته كالآتي:

"من أجل الأسرة يضحى بالفرد، ومن أجل الجماعة يضحى بالأسرة، ومن أجل الوطن يضحى بالجماعة، ومن أجل الروح يضحى بالعالم كله". وقليل من يستطيع أن يفسر ما هي الروح، وربما فسرها كل واحد على نحو مختلف، ولكن هذا الشعر السنسكريتي يلقننا الدرس نفسه في التعاون والتضحية من أجل الخير العام.

ولقد نسينا في وطننا هذا الدرس زمناً طويلاً، ونسينا أن هذا هو طريق العظمة الحقيقية، ومن أجل ذلك سقطنا. ما أروع أن نرى الرجال والنساء والأولاد والبنات يضحون باسمين من أجل الوطن غير عابئين بأي شدة أو عذاب.

إننا نحاول اليوم أن نحرر وطننا، وهذا عمل عظيم، ولكن أعظم من ذلك أن نعمل على تحرير الإنسانية كلها، ولأن صراعنا جزء من الصراع الإنساني العظيم لإنهاء التعاسة والشقاء، فإننا نستطيع أن نقول إننا بصراعنا الوطني نقوم بدورنا في العمل على تقدم العالم، أنت الآن تجلسين في أناند بادان.. وأمك في سجن ملكا، وأنا هنا في سجن نايني.. وكثيراً ما يفتقد كل منا صاحبه، وبشدَّة، أليس

كذلك؟ ولكن فكري في اليوم الذي سوف نلتقي فيه من جديد، إنني أترقب هذا اليوم.. وإن تفكيري فيه ليضيء قلبي وينعشه...".

وباتت تغالب النوم حتى غلبها. سلمان أبوها دخل حجرتها بهدوء فقبَّل خدها وربت على شعرها، ثم جذب الكتاب الواقع بين وجهها وعنقها وصدرها والفراش، رفعه ثم وضعه على الطاولة الخشبية القريبة الخضراء، عليها اكتظت دفاتر وأقلام وأوراق وألوان وكتب أخرى.

تأمَّل وجهها المبتسم في براءة نومه، فابتسم.

وتكلمت كاجين في نومها وبدا واضحاً أنها تحلم أحلاماً سعيدة، قضت ليلها في المطالعة والمذاكرة من بعد أن ركنت طول العصر للحديقة الصغيرة، فظلت تلعب وتمرح بين الأشجار الصغيرة وأصص الورد والزهور حتى مغرب الشمس، ثم تناولت عشاءها لتتفرغ للمذاكرة والمطالعة والكتابة والرسم مع كراساتها وكتبها وأقلامها، لكن النعاس غالبها فأغفت ثم نامت نوماً عميقاً.

بنفخة من فمه أطفأ أبوها مصباح الزيت المتوهج.

كان ثمة حر.

خطا خطوتين صوب الجنوب، فتح النافذة ذات الضلفتين الخضراوين.

ومع جرِّه الضلفتين تناهى إلى أذنيه صدى دوي بعيد، دوي أفزع طيور الليل فصرخت وضربت بأجنحتها جنبات الظلمة الكثيفة في ليلة الثاني والعشرين من يونيو.

تردَّد قليلاً، أوَ يسحب ضلفتي النافذة ويغلقها، أم يدعهما متباعدتين فتظل مفتوحة!

وريثما يقرر تناهى إلى أذنيه سؤال:
"هل من شيء سلمان؟".
التفت فكانت أمها روجين على باب الحجرة وقد فتحته بتؤَدة وحذر.
"لا يا روجين. كاجين بخير. أظنها في سابع نومة الآن!".
"تأخرت"!
وانسحبا في هدوء.
رقدا في ضوء المصباح الخافت داخل مخدعهما.
"أظنني سمعتُ دوياً وانفجارات"!
"ليس بغريب. يحدث دائماً، هيا نَمْ يا سلمان".
كان سلمان نحيلاً متوسط الطول واسع العينين أسود الشعر، أما بنته كاجين، فكانت نحيلة طويلة بيضاء البشرة شقراء الشعر خضراء العينين، من أمها أخذت كاجين لون العيون والطول؛ ومن أبيها أخذت النحول وسعة العين، وضعا يميناً في يسار وعادا يسترسلان في ذكرياتهما أيام الدراسة في فرنسا. ذات صباح بعيد وهما يتناولان القهوة في "كافي دو فلور"، قدحُها بالحليب وقدحه بالكريمة، يلاعبان يومئذ الطفلة كاجين التي كانا قد أنجباها قبل أشهر في باريس، قالت روجين:
"مع أنني سأفتقد هذا المقهى الذي جلس فيه سارتر وألبير كامو، أشعر بحماسة العودة لقرية الجبل".
"ليس بأكثر مني يا روجين".

ونهضا فتمشيا في جادة "سان جيرمان دي بري"، اتخذا سبيلهما مشياً على الأقدام إلى حجرتهما في الحي اللاتيني وهما يدفعان بمرح وسرور العربة الرشيقة التي رقدت فيها كاجين ممسكة ببزازتها، وهي ترفع قدميها المغطاتين بجوارب بِيض مخططة باللون الأخضر. ولم تمضِ أشهر إلا وكانا في هذه القرية القصية النائية، هذه القرية القليلة البيوت التي تتكور على نفسها في هدوء وحياء، من ناحية مقفرة في قضاء سنجار في قمة معتدلة من قمم الجبل.
"المدرسة تتوسع بفضل التبرعات" قالت روجين.
"كنت واثقاً أن أهل القرية لن يتباطؤوا بعدما رأوا ثمرة المدرسة ونجاحها في بناتهم".
وراحا يتحدثان عن خططهما المستقبلية للمدرسة التي أنشآها منذ أعوام، فنجحت برغم المصاعب وفقر الخدمات وقسوة الطبيعة في قمم الجبل.
واعتنقا نائمين.
لم يكونا يعلمان أن قضاء سنجار قد احتل بكامله وأن نساءه الآن جميعهن قد سبين وأدخلن في فناء واسع رفعت عليه يافطة من قماش كتب عليها بحبر أسود وبخط كوفي كبير: فناء ذات اليمين. نعم، لقد تابعت عناصر دولة الإسلام قصف القضاء تنفيذاً لأوامر معاون الخليفة.
كان وقع القنابل والراجمات ومدافع آربيجي قد أوقع كل أولئك اليزيديين الذين كانوا بعيدين عن حماية شِعاب وقمم الجبل.
في عناقهما، في نومهما شأن كل ليلة قطعاً، لم يكونا ليعلما أن

رجال معاون الخليفة بأيديهم خرائط لكل مدارس البنات في سفح الجبل وفي قمم الجبل، وأن اللاندكروزرات عجلت فأتت بمن هن في السفح وأن البغال صودرت لتجلب من هن في القمم.. لم يكونا ليعلما أنه ومنذ الفجر تنطلق صوبهم في استيرا فرقة من البغال فوق بعضها السلاح ومعظمها عارية الظهر إلا عشر، على تسعة منها رجال سود الجلابيب، سود العمائم، سود اللحى، سود الشوارب، ثلاثة منهم قواد وستة جنود. ويتقدمهم دليل، دليل يحفظ الشعاب والمسالك والدروب كما يحفظ خطوط كف يده: إنه حمدين ساعي البريد. البغال التي انطلقت من السفح ستكون عندهم قبل ظهر الغد وإن شِعاب الجبل لتردد الآن في صمت الليل من وقت لآخر شحيجها الساهر المضطرب. كانت المدافع الخفيفة والآربيجيهات المحمولة على ظهورها تصدر مع صوت حوافر البغال أزيزاً بارداً، ذلكم أزيز الحديد، البغال تمضي والمدافع تتمايل بينما الرجال التسعة والدليل متيقظون صامتون ينظرون يصعدون في حذر كلهم يمسك بغله من لجامه:

"الصعود أقل خطراً من النزول" قال دليلهم حمدين ساعي البريد.

ساد صمت.

"لأن شدة الانحدار تجعل البغال تهوي والحيوانات عموماً تخشى النظر إلى المهاوي" أردف.

لكن الرجال التسعة لاذوا بالصمت. فقط، كانوا يلقون بين الحين والآخر نظرات ترقب باتجاه نقطة محددة بالأفق، نقطة لقرية صغيرة لم تبن، قرية اسمها استيرا.

في الليلة ذاتها كان في الموصل اجتماع مهم قد وصل إلى نهايته.

نهض أبو عاتكة ورضوان بعد أن ناقشا مطولاً مع معاون الخليفة آليات ضخ النفط من الآبار الغنية التي باتت تحت قبضتهم، كلاهما مهندسان؛ وقد عملا قبل التحاقهما بالقاعدة ثم بتنظيم دولة الإسلام في عدد من حقول النفط في البر وفي البحر في العديد من البلدان، هما اللذان أشرفا على آبار النفط في شرق سوريا ودربا من سيواصل تسيير العمل فيها. أسامة، قائد كتيبة الميديا كان حاضراً، فهو كما يثق معاون الخليفة له دور في كل ما يختص بإرساء وترسيخ دعائم الدولة الجديدة.

الاجتماع انتهى بتحديد قائمة بأسماء ممن يمكن أن يصلوا إلى الحقول على وجه السرعة من منسوبي الدولة مع البدء عبر الإنترنت في استقطاب عدد من مهندسي البترول والعمال المهرة من عدد من البلدان ممن لهم ميول للدولة، كما أقرَّ الاجتماع إغراء وإرهاب العاملين أصلاً في المربعات والحقول من كافة قطاعات المهنيين ليواصلوا عمليات الضخ، كذلك تم تحديد التجار المنتسبين للدولة، المتسترين الآن في الخارج تحت غطاء عدد من الشركات الشرعية، أولئك الذين سيقومون بعمليات البيع والسمسرة، داخل أرض العراق وفي عرض البحار.

خرج أبو عاتكة ورضوان.

بقي أسامة فثمة عمل آخر له:

"أولاً، كيف تسير عمليات الرسائل المشفرة"؟

"كما أمرت معاون الخليفة".

"تحدثنا عن كيف يمكن لنا إقامة الجهاد في بريطانيا وفرنسا وأستراليا وأمريكا".

"بدأنا تشكيل جماعاتنا الموالية لدولة الإسلام، أعني بجماعات ما يمكن أن يُوصف بالخلايا النائمة، بعد وقت وجيز سيكون هناك من يقوم بقتل الكفرة الفجرة في عقر دارهم، سيكون لدينا من يقتل الرئيس الأمريكي نفسه".

"هذا حسن، حسن جداً، الآن دعنا نرتب لموضوع تغطية عملية الآثار".

باغتته نوبة سعال طويلة دمعت عيناه الواسعتان من شدتها.

هنيهة ونظف حلقه وقال:

"أسامة، تقريباً حددنا القطع الأثرية في متحف الموصل والمواقع الأثرية التي تحت أيادينا، تلك التي ستباع". قال معاون الخليفة ورفع عينيه الواسعتين فامتزج في حدقتيهما السوداوين مزيج غريب من الضوء والظلام، من السهر والنشاط.

كان الليل قد تقدم.

وأخرج أسامة دفتراً صغيراً وأملى عدداً من عناوين البريد الإلكتروني، ثم قال بنبرة خافتة هادئة:

"إنها لرجال في لندن يلعبون بالبيضة والحجرة. سيشترونها وسيدفعون جيداً".

"وتريد مني توفير ضمان المكاتبات بيننا وبينهم بحيث لا تستطيع

استخبارات في الدنيا اختراقها، أوَ ليس كذلك"؟

"بلى. وأكثر. ستكون شريكي في تنفيذ العملية برمتها؛ فالجزء الثاني سنأتي فيه بالشيخ محمود ليقف داخل المتحف وفي مواقع الآثار الأخرى ليلقي خطبة تقول إنها أصنام تُعبد ويجب تحطيمها وتدميرها. أريد لميكروفونات كتيبتك أن تكون منتقاة مع أنصع عدسات الكاميرات لتنقل كل حرف للشيخ محمود، أريد لكل ضربة فأس أو عصاً أن تظهر على شاشات أكبر محطات التلفزة في هذا الكوكب".

ورفع يديه ونفضهما في الهواء، فلاح الساعدان القويان المحتشدان بالشعر الكثيف وعروق الأوردة النافرة.

وأطلق ضحكة مرَّة ثم أتم:

"صدقني، هذا المنظر لن يقل رعباً عن منظر قطع الرؤوس والحرق وجريان الدماء، صدقني سيرتعد العالم ارتعاد اللهبة في قلب النار، بعض الناس سيغمى عليهم والبعض سيموتون وكثيرون سيقضون بقية حياتهم كمداً وأسفاً".

ساد صمت عميق من قبل أن يردف:

"الإنسان كائن غريب! والعالم يسير بقوة سوء التفاهم".

وعاد الصمت فساد من جديد.

انقضت ثلاث دقائق من التأمل حين قال:

"ثم هناك اليونسكو، هناك المنظمات الأثرية الإقليمية والمحلية، تلك كائنات حية، شأنها شأن الإنسان تصاب بالدوار والإغماء والجنون،

وهي كالإنسان تبحث في التاريخ وفي أثر القرون عن مفتاح للسر، سر وجودها الملغز، وكلما ضاع أثر قد كشفت عنه قطعة ما، في مكان ما، ضاعت حلقة من ذلك المفتاح". كان يرفع يديه وينفض كميه وهو يتحدث بصوت بدا على نحو ما يتحول من الغضب والفَوَران والحزم والأمر القاطع، إلى صوت خافت بعيد كأنما يَصَّاعد من غور وادٍ سحيق:

"أذكر جيداً أيام حطمنا تمثال بوذا في تلك الذرى الشاهقات، صعق العالم كأننا قد لسعناه بمليار فولت كهربائي، أذكر ذلك، كنت في صفوف القاعدة في أفغانستان. هناك ألفت الجبال".

وتنهد.

ثم سكت.

رفع يديه ونفضهما فانحسر كُمَّا الجلباب الأسود عن ساعدين نافري الأوردة، أنزلهما.

وسكن.

ثم أطفأ عينيه كما تُطفأ مصابيح شاحنة كبيرة ثم اعتدل في جلسته ثم غاص في نفسه ممتلئاً بأفغانستان، بأيام قضاها الشباب هنالك، أيام يفاعته وفراره من لندن بعد ارتكابه جريمتي قتل فيها، أيام ما قبل تشويه تمثال بوذا في تلك الذرى السامقات، لأنه أيام حادثة التمثال كان قد شبَّ عن الطوق وأصبح قائداً شرساً لا يُشق له غبار. لقد أتقن الفرار من بلد إلى بلد حتى صار إلى قندهار؛ هنالك، أول وصوله، طالعته بيوت وطيئة من الطين والجير الأبيض،

بيوت غير بيوت لندن، بيوت لم تزل رائحة الطبيعة فيها عابقة لأنها شيدت من التربة نفسها التي عليها تقف، لأول مرة امتلأت أذناه بصهيل حصين ونهيق حمير وثغاء معزات ومأماة حملان وهي تسعى في البيوت وبين البيوت تزحم أزقتها، هنالك، تحت تلك البيوت القليلة المتناثرة، عند ربوة صغيرة تعرَّج درب ضيق فانحدر مفضياً إلى مدرَّجات الحقول التي قبل تسعين يوماً كان مضيفه أجمل الأفغاني ذو العينين الضيقتين والأنف الحاد قد نثر فيها البذور من تلك الجوالات الدوبارية ذات الستة كيلوجرامات؛ بحرص وزعها على هكتار كامل وهو يخلطها بحنو مع الرمل قبل ذَرِّها على تربة المخططات الجبلية، التي تتدرج في ارتفاعها من ثمانمئة إلى تسعمئة متر، ما يضمن كثرة تعرضها لأكبر كمية من أشعة الشمس، مع حجزها لأقل كمية من القطر آن يهطل المطر.

تسعون يوماً وأجمل الأفغاني يُعنى بالنبتة العزيزة في الحقول المدرجة، يطرد الحشرات ويجز الحشائش. كان الربيع حلواً، وفي أبريل برعمت ثم فتحت أزهارها، ومع حرارة يونيو ويوليو نضجت فاكتملت واستدارت ثمارها، وثقلت حتى انحنت رأساً على عقب؛ وإنها لتقوى وإنها لتنتعش كاشفة عن بيضات خُضرٍ مستديرة الشكل بطول أربعة إلى ستة سنتيمترات، لها قطر ما بين ثلاثة وأربعة سنتيمترات، ما يجعل بعضها بحجم بيض الدجاج، وكل نبتة تحتوي على ثلاث إلى خمس بيضات. وها هو ذا سامي حمدان الآن تحت ضوء القمر، تحت هذه السماء الصافية في قندهار، في الأرض الندية بين النسمات

الطرية، يشهد الجراحة الدقيقة لحقول الليل التي احتشدت ببيض الأرض حتى الأفق؛ فالنبتة العزيزة بعد سقوط بتلات أزهارها وتحول بيضها إلى الخضرة الداكنة وكبر حجمها وانفصال مياسم تيجانها عن جسمها زاد من حرص أجمل على الدقة في إحداث الجرح الشفيق؛ إنه ليجرح غلاف البيضة في منطقتين أو في أربع، وذلك على نحو عمودي بغية الحصول على تركيز أعلى من العسل البني.

كان الرشح بطيئاً.

وإنه ليعلم علم اليقين من طول تجربة السنين أنه لو غوَّر أو تعدى لآذى عصارة النبتة التي هي عصارة حياته،

بمعنى الحياة،

لا بمعنى المجاز.

وهي بعد ذلك ضرب من متاع.

والحياة في جوهرها متاع إلى زوال.

"إنه جيد لإسعاد الزوجة في الفراش"، قال أجمل الأفغاني وهو يجرح ما بدا مثل بيضة مخضرة منتفخة تشبه بيض الإوز لا بيض الدجاج، يحرك الشفرة الصغيرة الحادة بين أصابعه كما يحرك الجراح مبضعه بدقة وحرص وعناية مهنية فائقة.

انبثق السائل البني مشرباً ببياض القمر، وراح يتجمع في شكل بقع ونقاط ولا يقطر أو يسيل هدراً.

"نعنى به في المساء كالعروس لتمنحنا ضحكتها في الصباح"، قال أجمل الأفغاني وهو يضحك ضحكات حذرات.

كانت السماء راضية دانية قد رفدتها أشعة البدر المكتمل الآن برعشة قاربت النشوة.

العمل الذي بدأ بعيد صلاة العشاء كان دؤوباً مضنياً وطويلاً.

والآن، في الثلث الثاني من الليل برد الجو.

"هه، ينبغي أن نعود الآن للبيت يا سامي حمدان"، قال أجمل الأفغاني.

وشقا طريقهما بحذر صوب الدرب المتعرج الصاعد صوب البيوت، فتناهى إلى أذنيهما صوت كلاب تنبح من ها هنا ومن ها هنا، وصوت طلقات من ها هناك ومن ها هناك، تتوالى أو تتقطع:

"اشتباكات"؟ سأل سامي حمدان.

"لا. تدريبات المجاهدين، الزمرة التي سبقتك".

"ومتى سيأخذونني إلى هناك"؟

"بعد أن يصل الأحد عشر الآخرون، التدريبات تجري على دفعات".

"ومتى يصلون"؟

"تبدو في عجلة من أمرك أيها الولد الطيب! متشوق"؟

لم يقل سامي حمدان شيئاً.

سارا في صمت، فاجتازا ساحة ثلاثية لعبت فيها الريح الباردة مع الحمير والمعزات والكلاب والقطط، ثم دلفا إلى عطفة ضيقة بالكاد تسمح بمرورهما متحاذيين. وعلى جانبي العطفة نهضت أبواب ونوافذ من خشب قديم مشقق قد طلاها بأخضر اللون طالٍ، بيد أنها بدت

كابية تحت ضوء القمر المكتمل، عند منحنى العطفة تناهت إلى سمعيهما تأوهات امرأة وهي تطلق مع صرخات الألم أصداء اللذة.

"هه، إنه عمران! لابد أنه قد تعاطى الكثير من العسل البني هذه الليلة، ها".

"هل تتعاطونه على الدوام يا شيخ أجمل"؟

فضحك وقال:

"أنا لست مثل عمران".

وضحك سامي حمدان.

"هل أنت متزوج"؟ بغتة سأله أجمل الأفغاني.

"لا".

فوقف وسأله باستغراب حقيقي:

"أوَ تعني أن شاباً مثلك لم يعرف النساء؟".

"بلى. عرفت الكثيرات".

"زنيت؟".

"نعم".

"إذاً، فليغفر الله خطاياك. زنيت!".

واضطرب جفنا أجمل الأفغاني وارتعش فكه الأسفل وهو يتمتم:

"أعوذ بالله! الزنا هذا من أكبر الكبائر يا ولدي!".

وتذكر سامي حمدان أيام انغماس عابث في الجنس وفي المخدرات، تذكر أول مرة تعاطى فيها الأفيون، كان ذلك في لندن، مع تلك

العاملة، زميلته التي تعرف عليها أثناء الأشهر الثلاثة التي خدمها في مطعم بيرغر كينغ بيكاديللي سيركس، كانت دنماركية وكان اسمها بياتريس، أهلها من الطبقة الوسطى، وقالت إنهم يسكنون في بيت له حديقة كبيرة في ضاحية من كوبنهاغن، كانت عيناها خضراوين، جاءت إلى لندن في عطلة الصيف من أجل المرح، من أجل تحسين نطقها للإنجليزية، كانت تطمح في اكتساب اللكنة اللندنية.

كانت تعمل في ورديات الليل، وحين كانت تحادثه وهما يمسحان البلاط أو يرفعان الصواني من الطاولات، كانت تبدو جادة في التخلص من لكنتها الدنماركية الثقيلة التي تطغى على كل كلمةن على كل جملة لها في حديثها بالإنجليزية، غرر بها فوعدها بأنه مستطيع تخليصها من تلك اللكنة المعيبة في نحو أسبوع أو أسبوعين... وبين التقاط بقايا سندويتشات البيرغر والوبر ميلز وجمع الأكواب الورقية الفارغة الملطخة بسواد الكوكاكولا، كان يلقنها أبياتاً من الشعر الإنجليزي الصعب وهو يقول لها:

"اسمعي أولاً ما أقوله كمجموعة أصوات، لن تفهمي المعنى، فاللغة في البدء صوت، واللغة أخيراً مدارها الذاكرة، اسمعي ثم رددي كما الطفل ورائي، فالطفل يحفظ الصوت ويعيده كما هو دون أن يدرك له فحوى أو معنى، حتى يمضي وقت طويل يكتشف بعده الأشياء، يكتشف فيه مدلولات الأصوات التي تسمى اللغة، كما ترين اللغة ليست سوى لعبة! لعبة من الأصوات".

وكانت تصغي إليه وتفعل ما يأمرها به، تحاكيه ثم تغرق في الضحك،

كانت كثيرة الضحك مهذاراً متحررة، لا قطرة خوف في روحها، لا هاجس ولا ملل؛ كانت عكسه غاية في البساطة، مثل سهل منبسط مخضر، بينما كان هو معقداً مثل دغل متشابك الأغصان نهضت من حوله الحُزون.

ومال إليها مأخوذاً أكثر ما يكون بالعينين الخضراوين، راحا يخرجان معاً، شاهدا معاً فيلم الحارس لمادونا، وكانت فيه مشاهد هيجت كوامن الرغبة في الظلام، خرجا وذهبا إلى حجرتها في التخوم ما بين كيلبرن وميدافيل. هناك في حجرتها أعطته قطعة من الأفيون وهي تغمغم:

"يزيد من وقت النشوة، يجعلها طويلة طويلة طويلة".

بياتريس كانت تحب الجنس، لم تكن مثله تحب القراءة، كانت تحب الرياضة فتقتطع كثيراً من الوقت للسباحة والجري والمشي. طاف هو وهي حديقة الكيو غاردن شبراً شبراً يتأملان نباتات الدنيا وقد جُمعت في مكان واحد، نباتات استوائية جامحة، وأخرى من أماكن قصية باردة. كانت تميل برأسها وتسلط عينيها الخضراوين بعد أن تضغط عضلاتهما فتنفتح الحدقتان منهما نصف فتحة وتأخذ في تأمل الأوراق والبتلات والبراعم الدقيقة المحفوظة خلف الزجاج، يعلقان ثم ينطلقان يجوبان أرجاء الحديقة، وقد يقفان عند الكافتيريا فيتناولان مشروباً منعشاً، أو الشاي المثلج، ثم ينطلقان ليقفا بعد حين عند كشك صغير يبيع الآيسكريم، فيأخذا كأسين: واحدة بالفانيلا وأخرى بالكاراميل، ملعقة هذا تدخل في كأس هذا، وفي

العشب من تحتهما عرق من لهاث، وفي فم كليهما برودة عذبة يستعيدانها فيستمرآنها وهما يمشيان ويمشيان، كانت مولعة بالمشي جداً.

وفي أمسيات كثيرة أخذته من بيكاديللي سيركس حتى النهر سيراً على الأقدام كيما يقضيا الليل في واحد من تلك الديسكوهات العائمة، هنالك كان ينظر إلى نهر التايمز ويسرح من أجواء البهجة والمرح إلى ذكرى مارلو يروي للرجال قصته في قلب الظلام، قصة كيرتز، الرجل الأبيض الذي صنع من نفسه نصف إله، بل إله في مجاهل إفريقيا فعاش معبوداً بين العبيد، الرجل الأبيض الذي رفع قوائم معبده الموهوم بين أكوام العاج التي قتلت من أجلها مئات الأفيال. كان يرى نيلي، مركب مارلو يتأرجح فوق الموج بين مراكب المرح الغاصة بالراقصين وبالشاربين، وكان يصيح:

"نيللي! مركب قلب الظلام! مركب مارلو الذي التقى الإله!".

وانتبه ثم التفت بعد أن شعر بيد ثقيلة تضربه في كتفه وصوت أجمل الأفغاني يقول له:

"لا تبتئس، سيغفر الله لك خطاياك، ستصير مجاهداً، أوَ ليس كذلك؟ إن الله يغفر الذنوب جميعاً".

فتمتم في رجاء:

"فليغفر الله لي. فليغفر الله لي خطاياي".

ساد صمت علا فيه صوت خطاهما حين سأل سامي حمدان:

"وحدك زرعت الهكتار؟".

"قبل الأمريكان كنت أزرع عشرة".

وسكت، فعَلا صوت صرير جندب فقطعه:

"اسمع سامي حمدان: اسمع، لدي تسع بنات يمكنني أن أزوجك إحداهن، هه! ما رأيك؟".

لحظتئذٍ كانا قد بلغا باباً ذا ضلفتين خشبيتين مطليتين باللون الأخضر، دفعه أجمل بقوة، كان في نحو الستين من عمره لا يزيد طوله على خمس أقدام إلا بوصة واحدة أو ربما بوصتين، ولكن فمه الكامل الأسنان وجبينه الخالي من التجاعيد واستقامة ظهره واعتدال كتفيه ونحوله، كل ذلك جعله يبدو كأنه قد تجاوز للتو الخمسين، وأنه أطول مما هو عليه.

أدخله إلى حجرة واسعة، ثم غاب وآب بكوبين من اللبن وقطع مشوية من لحم الضأن، مع أرغفة من خبز التميس الحار.

غسلا أيديهما بماء من إبريق، وجلسا على إكليم مهلهل أحمر وأخذا يصيبان باليد اليمنى من طعامهما.

"جميل"، قال سامي حمدان في نفسه، لا شوكة ولا سكين، بل لا طاولة، الأكل هنا على الأرض والجلوس والنوم على الأرض، على نحو ما أحس بأنه يسير في الطريق الصحيح، الزي هنا مختلف، اللغة، كل شيء، كل شيء، نعم ليس من أثر واحد لثقافة الغرب ها هنا، والغرب الآن بعيد بعيد. وهو في نظر الغرب الآن أصولي ويقول في نفسه: "الأصولية ليست في الشرق، هي في الغرب أيضاً، هي القاسم المشترك، لأن الأصولية بكل أنواعها وشعاراتها ما هي إلا

نزعة ثقافية"، وحدَّق في وجه أجمل الأفغاني فبدا له أليفاً حميماً، هذا الرجل الذي تفصل بينه وبينه عشرات الأعوام في العمر، وتجربة حياة مختلفة، لكنه برغم ذلك قريب من نفسه وقد أنس إليه واطمأن، إنه الآن ليس ثمة رجل غريب، إنه الآن صديق وغمغم في نفسه: "طالما هناك أعداء حقيقيون فهناك أصدقاء حقيقيون، وإن كان ثمة رابطة قوية تربط بين اثنين فهي الدين".

وأعاده من تطوافه الذهني صوت أجمل الأفغاني:

"تبدو مشغول البال يا ولدي! تبدو حزيناً!"

"أنا أتفق مع هنتنغتون في أن الدين هو محور التصنيف!".

مسح أجمل الأفغاني وجهه بيده اليسرى وفتح عينيه في حيرة وهو يسأل سامي حمدان مستغرباً:

"من قلت؟ ماذا تقول؟ لم أفهمك جيداً!".

"لا. لا شيء يا أجمل، لا شيء".

"غداً صباحاً أزوجك إحدى بناتي، فيزول همك، هه، ماذا ترى؟".

"تزوجني؟".

"أنت لا تعلم أن تراكم المني في خصيتي الرجل يورث الكآبة والسأم، وقد يفضي بك إلى الجنون!، هه! هل تعلم ذلك؟ خصيتا الرجل تتحملان إلى حد معين، ثم بعد ذلك ترسلان بالمني إلى الدماغ! وهذا ما يسبب الجنون. نعم هذا مؤكد".

علا صوت مضغ الطعام فقط.

"على الرجال أن يتزوجوا ويسعدوا. أنا عندي أربع زوجات".

وجرع أجمل الأفغاني من كوب اللبن وتجشأ جشوتين ثم قال:
"ليلة زفافك سأعطيك بنفسي فصاً من العسل البني في كوب من الحليب الدافئ، هه، هل هناك ما هو أفضل من ذلك؟".
"أهو جيد مع الحليب؟".
"الدافئ من الحليب".
"جربته حاف. في لندن".
"إذا كنت قد زنيت، فلابد أن تكون قد فعلت كل شيء. الزنا أكبر الكبائر. لا إلاه إلا الله، فليغفر لك المولى يا ولدي".
"سأموت شهيداً".
"ليس أمامك إلا هذا كيما تتخلص من ذنب الزنا، إنه ذنب كبير، نعم الزنا من أكبر الكبائر".
ثم ساد صمت علا فيه مجدداًصوت مضغ الطعام وجرع اللبن.
وأقبل صقر ليلي، فحط على فتحة الباب وصرخ وهو يضرب جناحيه بقوة.
طرداه، فأفرد جناحيه وطار لم يزل يصرخ.
عادا فأصابا من طعامهما وشرابهما، حتى إذا فرغا نهض أجمل وقال وهو يمضي صوب باب الحجرة دافناً بحذائه زرقة من براز خلفها الصقر الذي مضى:
"سأوقظك لصلاة الفجر، السلام عليكم".
"وعليكم السلام ورحمة الله".

وتكور سامي حمدان في الحشية الخفيفة. ولما كان الجو معتدلاً، فلم يشعر بحاجة لجذب الغطاء. ولم يمض سوى دقائق خمس إلا وتناهى إلى أذنيه صدى تأوهات وصرخات تصدح بالجنس، ثم علا شخير طويل وهادر لأجمل. شدَّ سامي حمدان ركبتيه حتى بلغتا حنكه وأطفأ عينيه.
ولم ينم.
عند الفجر جاءه أجمل يحمل سطلاً وإبريقين مملوءين بالماء، فوجده جالساً على الحشية يتمتم:
"أجل، من لوح ذاكرتي
سأمحو كل تدوين سخيف أحمق،
حِكم الكتب كلها، كل شكل وكل انطباع مضى،
مما نسج الشباب هناك وسجلته الملاحظة،
ولن يبقى في كتاب ذهني إلا
أمرك وحده دون غيره،
لا تخالطه مادة رخيصة".
"هل تقرأ القرآن بالإنجليزية؟". سأله فاغراً فاهُ.
"لا. هذا هاملت".
"من هاملت هذا؟".
"إحدى الشخصيات المهمة التي وضعها شكسبير".
"ومن هذا الآخر؟ كان الأجدر بك أن تقرأ القرآن! بدلا عن هذا

ال...".

"صدقت، لم أنم طوال الليل، وكان الأجدر بي أن أقرأ القرآن".

"إذاً، لو فعلت لعُدَّ لك قيام ليل، أنا أقوم الليل".

وصمت ثم أردف:

"بالجماع".

"هذا يفسر شخيرك العالي".

"نعم، إذا أتى الرجل الزوجة الحلال، فله أجر، أما الزنا فإثم كبير".

"فليغفر الله لي".

وضع السطل والإبريقين المملوءين بالماء، فاغتسل سامي حمدان بأحدهما على السطل، ثم توضأ بماء الآخر، ثم نادى:

"هيا بنا الآن إلى الصلاة يا شيخ أجمل".

وخرجا إلى المسجد القريب.

بعد انتهاء ركعتي الرقيبة والفجر والتلاوة كان أجمل الأفغاني وسامي حمدان ينحدران مع طلوع قرص الشمس الدرب المتعرج المفضي إلى مدرجات حقول الخشخاش، وكانت جروح الليل تضوع بفوح ملغز بينما طير الصباح يغني قريباً من تجمع السائل البني المشرب الآن بطيف من السواد، إنه الحصاد، أجمل يعرف الوقت المناسب للكشط، فكل جرح قد صار الآن فتقاً نازفاً جفت فيه العصارة خلال الليل، وستظل تجف مع حرارة الشمس حتى الظهيرة، لتُجمع في صبر وفي أناة مثلما تجمع ذرات الذهب من وسط المياه، سيعملان طوال النهار.

"كشط الحصاد يتطلب أيدياً خبيرة ومدربة وعلى درجة عالية من الإتقان، ولكنك تبدي براعة فائقة يا سامي حمدان! لابد أنك ولد ذكي للغاية"!

وكان قد أعطاه إناء الجمع مع سكينتين صغيرتين، إحداهما معدنية أحادية والأخرى زجاجية متعددة الشفرات، وكلتاهما بمقبض خشبي. سيحصدان الهكتار.

بحرص لكن بخفة راحا يكشطان الخطوط والدوائر التي لم تكن أمس على جسم البيض الغامض إلا جروحاً، في الإناءين الصغيرين، كانت تتقاطر أو تتساقط قليلة ولزجة.

وبعد ساعة قد يعيد أجمل الثرثرة ذاتها التي ملأ بها أذني سامي حمدان في الليل:

"أجود ما يؤخذ قبل ساعة من الجماع"، وقد يصمت لأن جرحاً يحتاج إلى تركيز ومهارة وجسارة، فإذا ما نجح راح من بيضة إلى بيضة، ونظر إلى ارتفاع السائل في إنائه وفي إناء سامي حمدان وراح يغمغم:

"وأحسن ما يكون عندما يخلط في نصف كوب من اللبن الدافئ أو الساخن".

"لقد قلت لي ذلك يا شيخ أجمل! فدعني أقول لك إنه يصيب بالحمى ويرفع الضغط ويزيد من نبضات القلب"، بكلمات سريعة قال سامي حمدان.

"نسيت أنك قد جربته. وحاف! أعذرني يا ولدي.".

"شيخ أجمل أوَ ليس الأفيون حراماً؟".

"إنه...، إنه نبات! مجرد نبات ياولدي! نبات ينبته الله في الأرض!"، قال أجمل الأفغاني وقد تسربت إليه من كلمات سامي حمدان شكوك فطالت منه معتقداً راسخاً لم تأته الشكوك ولا الهواجس من قبل من قريب أو من بعيد، لعشرات السنين ظل ذلك المعتقد راسخاً. وبينما تشوش ذهن أجمل الأفغاني استطرد سامي حمدان في الحديث فقال:

"إنه أمامي وبين يدي! نعم إنه نبات، لكن سؤالي هو: هل الأفيون حرام يا شيخ أجمل؟".

"الأمر بالغ التعقيد في أفغانستان يا سامي حمدان! الأمر ليس ببساطة هذا السؤال! إنك بالفعل ولد ذكي! لم يسألني أحد من قبل مثل هذه الأسئلة! لكني أقول لك: إنه نبات ينبته الله في أرضه!".

"لكن أعتقد أن علينا ألا نتعاطاه يا شيخ أجمل، أليس كذلك؟". سأل سامي حمدان بنبرة حازمة.

"صحيح! صحيح! نحن نبيعه للكفار وهم يصنعون منه سموماً قوية تفتك بهم، ولكنه يطيل فترة الجماع جداً يا ولدي، حتى إن بعض النسوة يقلن إنه يعذبهن، هه! إنهن يكذبن. النسوة دائماً كاذبات". وأردف أجمل الأفغاني وهو يطلق ضحكات قصيرات متوترات محاولاً تغيير مجرى الحديث:

"مهما يكن أنت لا تعرف النساء! صدقني يا ولدي!ستحتاج لمثل عمري هذا لتفهم النساء! النسوة يكذبن على الدوام، نعم إنهن

كاذبات، كاذبات، ستفهم عندما تكبر يا سامي حمدان، ستفهم، نعم ستفهم وستتذكر كلامي هذا إليك، لكن قل لي كيف هي الحياة في بلاد الكفار؟ أنت ولدت هناك أليس كذلك؟ يقولون إن كل شيء هناك هو حرام في حرام!".

وراحا يتبادلا أحاديث خفيفة مرحة، ومضيا يجولان بين أشجار الخشخاش ذات الغصون الملساء والألوان الضاربة ما بين الخضرة الشاحبة إلى الرمادية المائلة للزرقة، بعضها كان قصيراً يحاذي منطقة الخصر منهما فلا يزيد على نصف متر، وبعضها كان يلمس صدريهما إذ يرتفع إلى نحو متر ونصف متر، كانا يلمسان الأوراق المستنة الأطراف المتراوحة بين البيضوية والاستطالة، حريصين على قمة سويقاتها الحاملة للبيض المجروح تلك التي كانت خلال التسعين يوماً التي مضت زهوراً وبتلات، منها الزهري والبنفسجي والأحمر والأزرق والأبيض، فانغلقت مع الأيام والأسابيع، وتكورت تنضج مثل أنثى تنزل بويضاتها راغبة تدعو من يخدشها، من يفصدها.

"هل تعلم أن الشاعر الإنجليزي كولردج كان يتعاطى هذا الذي نكشطه؟ وقد صنع بفضله أدباً عظيماً. تخيل معي يا شيخ أجمل لو أنك حلمت بالجنة! ورحت تجول في بساتينها وفي حدائقها! ثم إن زهرة بذاتها أعجبتك، زهرة تتفتح طياتها على نحو ناعم كله انحناءات موحية، طيات تذكرك بعضو امرأة قد نضجت، فمددت يدك وقطفتها ثم شممتها فاستيقظت في الصباح فوجدت أن العبير ينبعث من تحت وسادتك! فلما رفعت الوسادة وجدت الزهرة تحتها!

ها! ماذا تقول؟".

"أقول هذا من وحي الكشطة! الكشطة يا ولد!"، وأطلق أجمل الأفغاني ضحكات عميقات صافيات.

"أنت رجل خفيف الظل يا شيخ أجمل. أنت رجل ظريف".

"وأنت ولد ذكي، أذكى من قابلت، هه، انظرْ إلى الطريقة التي تكشط بها وأنت تتحدث، لكأنك مارست المهنة عشرين عاماً! هه! هنا رجال في مثل عمري يهدرون هذا الذهب السائل".

وضحكا.

وقال سامي:

"أفغانستان تحصل على ما لا يقل عن سبعمئة مليون دولار من ذهبك هذا في العام".

"هذا خير كثير!".

"أتدري لماذا؟".

"لماذا؟".

"لأنهم في الغرب يحولونه من ذهب إلى هيروين ومورفين و..".

"لا أعرف شيئاً مما تقول، لكن البعض من الشباب يستخرجون مما تبقى من النبتة: السكر الأسمر".

"أعرفه".

تعرف السكر الأسمر.

"نعم"

"أنت تعرف كل شيء! ألم أقل لك إنك ولد ذكي، حينما نعود إلى الدار سأريك بناتي، إذ لا بد لمثلك أن يخلف ذرية تملأ قرية، كل نسلك سيكون من النابهين الأذكياء".

"هل فيهن من هي ذات زغب؟".

"ماذا؟ ماذا قلت؟".

"لا شيء. لا شيء يا شيخ أجمل".

كان الليل قد تقدَّم جداً حين انتبه لصوت أسامة قائد كتيبة الميديا الذي لم يزل ماثلاً عنده:

"مولاي المعاون! يبدو أنك تعب، تعب للغاية، أظنك قد غفوت، تحدثت إيك ولم تسمعني!".

فرفع يديه ونفضهما فانحسر كُمَّا الجلباب الأسود، وقال وقد عادت عيناه الواسعتان تشعان وحدقتاه تبرقان بظلام رهيب مثل ظلمة قلب الشيطان:

"نفذ ما قد قلته لك، عملية الآثار عملية في غاية الأهمية، انتبه لتوجيه الشيخ محمود ليقف بالزاوية المثلى ويقرأ خطبته وفتواه بالنبرة الملائمة. لابد أن يكون مقنعاً".

"مؤكد، مولاي معاون الخليفة. والآنالسلام عليكم".

"السلام عليكم ورحمة الله"

وخرج أسامة.

بقي وحيداً، وتناهى إلى أذنيه لغط المجاهدين: رجال السواد.

نهض وخرج يستطلع باعث الضجة في آخر الليل.

كان ثمة جمع غير بعيد، خطا صوبه فرآهم يتشادُّون ويتنازعون صبيةً بضَّة تميل للبدانة سمراء البشرة سوداء العينين، وقفت وسط الدائرة التي أحاطوها بها دامعة العين منكوشة الشعر ممزقة الملابس.

قال الممسك بمعصمها:

"أنا أسرتها، فهي لي".

"أشتريها منك بمسدس".

"أنا أشتريها ببطانية".

"هذه لي أنا، امشِ من هنا".

"لا، هي لي".

"إذاً أشتريها منك ببطانية ومسدس".

"أنا أشتريها بطلقات كلاشينكوف وعشرين ألف دينار".

ابتسم ومضى، ولكنه حينما سمع أحدهم يشتم صاحبه زم شفتيه ووقف.

انتبه المجاهدون لوجوده فخفتت الأصوات، ثم لبث واقفاً مثبتاً عينيه الواسعتين في الجمع في سمت قائد مهيب.

ساد صمت.

ثم بخطى واثقة متئدة عاد صوب الحلقة التي أحكمت حول الصبية.

قال بمزح وقد حافظ على صوته القوي، وعلى نهجه المباشر، وعلى تلك اللهجة الإرادية التي تكون حماسية لاهبة طوراً، وتارة تكون ساخرة تنم عن خلفية تهكمية مرَّة:

"من هذه التي تغضب مجاهداً؟ أحورية نزلت من السماء".

انشرح الجمع وأطلقوا ضحكات بعضها حق وبعضها مجامل.

وبغتة، ملأت رأسه صورة أخرى لفتاة أخرى، فتاة ليست بدينة، ليست سمراء ولا سوداء العينين، فتاة نحيلة شقراء خضراء العينين؛ آخر مرة رآها كانت بعد أن هجر بيت أبيه وأمه وأقلع عن ارتياد المدرسة، حدث ذلك خلال تلك الأيام التي استأجر فيها الحجرة الصغيرة في كوينز بارك، قضى ليله مؤرقاً يعصف به ريح الحنين، وفي الصباح، من دون أن يتناول طعاماً ولا شراباً خرج يتمشى، ثم لما انتصف النهار دلف إلى محطة كوينز بارك فاستقل قطار البيكرلو من الرصيف المخصص له، غيَّر الخط في محطة أوكسفورد سيركس لفكتوريا لاين فأوصله إلى محطة فكتوريا... سار وسط الضجيج وإعلانات مكبرات الصوت عن مواعيد القطارات المغادرة وتلك المقبلة، مُحددة لكل قطار رصيفاً له رقم.

وقف مع الحشود ينظر إلى اللوحة السوداء التي تتقلب مربعاتها بالأرقام، والأحرف البيضاء تشير هي أيضاً إلى أسماء المحطات والاتجاهات وساعات ودقائق الإقلاع؛ وعلى الركن الأيمن قرأ: رصيف رقم سبعة- إلى ستون- الساعة الواحدة وثماني عشرة دقيقة.

واتخذ سبيله فاستقل العربة الأخيرة في الدرجة الثانية، واختار مقعداً قرب النافذة، ثم انطلق القطار، فجلس يرقب المحطات تترى، باترسي بالهام، وغامت عيناه عند كلفهام جنكشن.

وأفاق ناحية سلهرست وثورنتون هيث وكروريدون وهبط في ساتون، تلك لعمره أماكن يحفظها عن ظهر قلب. خرج من المحطة، فسار حتى وصل إلى مدرسة الغرامر سكول، اختبأ أمام جرافة هائلة وقفت

ناحية بناء يُهدم ليعاد تشييده، قبَع لساعات كان يعرف عن تجربة أي مدرس قد دخل الفصل في هذه اللحظة، يعرف أي مادة تتلقاها من فمه أسماع الطلاب وأي خط طبشوره تتابعه الآن أعين الطلاب.

تكتكت ساعات وانقضت ساعات فانتهى وقت الدراسة وفتحت الأبواب.

ثم عمَّ صخب وعلا ضجيج تدافع ولغط كلام... واندفع الطلاب فتفرقوا على الشارع مدركين أن الجميع، من المارة، من أصحاب المحلات ينظرون إلى مرتادي هذه المدرسة على أنهم طلاب نبهاء، طلاب خطروا بياقتهم النظيفة، ورابطات العنق منهم محكمة، وعلى جيوب القمصان الشارات ذات المثلث عليها الأحرف الأولى من اسم المدرسة... من بعيد لمح دوروثي تخطو رائعة الشقرة، عيناها الخضراوان تشعان وتبرقان بنداءات غامضة حلوة؛ وإلى جوارها مارتن. حدَّق من بعد، حدَّق طويلاً طويلاً، ثم شهق، ثم زفر زفرة يائسة واغرورقت عيناه الواسعتان ثم فاضتا بمالح الدموع.

ومن غير أن يدري سبَّ بصوت غاضب:

"تباً. تباً لهذه الحياة".

وتلبَّدت السماء المكفهرة بغيوم جاءت تعدو من ها هنا ومن ها هناك.

وأمطرت بغزارة شأن سماء إنجلترا.

في الصباح الباكر من الغد في قرية استيرا، امتلأ البيت الصغير بأشعة أواخر يونيو الساطعة ودب في البيت ألق الحياة.

''لماذا فعلُ القراءة، أعني الفعل: اِقرأ، غير منتظم في الفرنسية يا أبي''؟ سألت كاجين بالفرنسية، شأنها كل صباح مع أبيها.

"نعم، إنه فقط فعل غير منتظم. فقط هكذا"! أجاب سلمان بالفرنسية.

وراحت تصرف الفعل في المضارع.

"لقد كبرت على هذا يا كاجين، أنت تقرئين الآن كتباً"!

كانت قد أحرزت نجاحاً باهراً في امتحانات العام الذي مضى، تقدمت في العلوم وتفوقت في الرياضيات، ولكنها أحبت مع أبيها اللغة الفرنسية، كانت تحس بولع وشوق للحروف والجمل، للنحو وللأدب، وكانت كراسات صبيانية صغيرة قد احتشدت بخربشات واجتهادات كبرت معها، منذ أن كانت في السادسة وهي تأنس للكتب والأوراق والأقلام.

"لقد كبرت على هذا يا كاجين، أنت الآن تصدعين دماغي ليل نهار بكتاب نهرو".

لكنها مضت فاسترسلت في المعابثة:

"ومع أي فعل نستعمله للماضي؟ فعل الكينونة أم الفعل يملك"؟

"كفي كاجين، وتعالي لاحتساء قدحك وتناول إفطارك" صاحت بها أمها روجين.

غير أنها أمعنت وهي تضحك:

"بالتأكيد لا يصرف الفعل (يقرأ) مع فعل الكينونة يا أبي، مع فعل الملكية تعتقد؟ صحيح. برافو. برافو".

وأقسرها فجلست إلى الطاولة الصغيرة المغطاة بفوطة كبيرة بيضاء، فأفطرت ثم تناولت قدحها المملوء بالشاي والحليب.

"متى سأشرب القهوة؟ لقد كبرت! هه، عندما يكون عمري عشرين عاماً؟ ربما ثلاثين عاماً! حسناً فلنعدْ لرسائل نهرو إلى أنديرا، ما رأيك في الفوضويين؟ لا أنت تحب فرنسا، هل توافق نهرو في أنها دراما؟"؟

"ما أصعب الكتابة عن الثورة الفرنسية يا كاجين!".

"حسناً خذ هذه: نهرو يقول: كل الأفكار الجريئة تصبح عادية بمرور الزمن!".

"صحيح! وثيقة حقوق الإنسان مثلا!".

وعلا صوت روجين:

"كفى. كفى. المدرسة، وقت المدرسة قد حان وإلا فستتأخر في الدرب".

وانهمك أبواها في تحضير حقائبهما، ملأ سلمان حقيبته بكراسات اللغة الفرنسية التي صححها مساء أمس، ووضعت روجين في حقيبتها كراسات الرياضيات والعلوم. كان الوقت لا يزال باكراً، لكن وهج أواخر شمس يونيو كان قوياً ضارباً مثل بحر، سبحت فيه حمامات الدار وعلا منها صوت الهديل مختلطاً بزقزقة الطيور في حديقة البيت الصغيرة.

وبفرحٍ دلف إلى حجرة المعيشة الواسعة ذات النوافذ الخضراء كلبها

ماونت، فأطلق نبحتين سعيدتين وهو يقفز ويحرك لسانه الوردي؛ وعدا فالتصق بقدميها وساقيها وراح يدور فيدعكهما وهو يهز ذيله هزاً.

"ماونت"! صرخت كاجين، واحتضنته ثم عادت تعابث أباها من جديد:

"هه! والصفات!".

لكنَّ أباها سلمان لم يزل مشغولاً بترتيب الكراسات والأقلام والمعدات والطباشير في حقيبته الكبيرة البنية اللون.

"أبيض بيضاء" استمرت تقول.

وسكتت ثم صاحت:

"أبي الفرنسية تشبه العربية".

"صحيح".

"لكنَّ الشمس في الفرنسية مذكر! وهي في العربية مؤنث!".

"صحيح".

"والباب في العربية مذكر! وفي الفرنسية مؤنث!".

"برافو كاجين، ليس لدينا وقت الآن لمقارنة اللغات، هيا إلى المدرسة".

وانفلت ماونت ونبح نبحات خافتات، ثم لعق تنورتها الزرقاء وشدَّها، فقامت من مقعدها وعدت معه في الدرب إلى المدرسة مع أبيها وأمها.

"شقية حلوة"، همست أمها روجين.

"ذكية، سيكون لها مستقبل باهر"، تمتم أبوها سلمان.

وأردف وقد اتسعت ابتسامته:

"هه، صديقتها تربض لنا في الدرب شأن كل صباح".

ومن طرف الدرب علا صوت ينادي:

"كاجين".

"جيهان! صباح الخير يا حبيبتي".

"اشتقت إليك".

وأقبلت جيهان تعدو صوبهم في قميصها الأبيض وتنورتها الزرقاء.

"صباح الخير أستاذة روجين".

"صباح الخير جيهان".

"صباح الخير أستاذ سلمان".

"صباح الخير جيهان".

وراح ماونت ينبح نبحات خفيفات سعيدات وهو يجري مبعداً ثم يعود؛ وكاجين وجيهان انطلقتا تثبان وتحطان فلا تفلت منهما حقيبتاهما المدرسيتان. كان نحول وطول كاجين يزيد من امتلاء جيهان وقصرها. متناقضتان في الحجم والقامة غير أنها متحابتان. وانتظار جيهان لها كل صباح ما هو إلا تنفيذ لوعد بينهما، وعد له حرمته لأنه وعد موثق بيمين، عهد كله إيمان وعشق بريء ولكنه جارف؛ حيث: "كاجين أختي وحبيبتي طول العمر" تقول جيهان؛

فترد كاجين العبارة: "جيهان أختي وحبيبتي طول العمر، أقسم على ذلك". قسم وعهد ومشاعر جياشة وعواطف سخية لا تعرفها إلا مدارس البنات.

"اهدأ ماونت" قال سلمان وقد قفز الكلب يشد من يده حقيبته الكبيرة الجلدية البنية.

وبلغوا المدرسة، ففتح لهم عم كامل الفرَّاش بابها المعدني القصير ذا الطلاء الأخضر.. وفي الفناء طارت من التلميذات شقاوة، فانداحت مثل سحابة جزلة بيضاء، وانعقد هرج ومرج مثل ضجة الزرازير في الصباح الباكر، فانخرطت كاجين وجيهان في وسط حشد صغير عند الركن الشمالي الشرقي، بينما غذَّ سلمان وروجين الخطى صوب مكتب المدرسين.

دق الجرس وانتظم الدرس في الفصول.

بعد حصتين حانت فسحة الراحة الصباحية، الفسحة الأولى للتلميذات والمدرسين فاكتظ الفناء كرةً أخرى وعلا الصخب واشتدَّ اللغط.

خرجت كاجين وبيدها هدية العم عوض صاحب مكتبة الحرية في الموصل، وراحت تغتنم دقائق الفسحة في مطالعة الصفحات التي أحبتها، الصفحات التي أخذتها عبر القرون والحقب فعرفتها بثورات الشعوب، ثورات العلم والفكر والأدب.

وتناهى إليها صوت يناديها:

"تعالي يا كاجين، تعالي"، معاً، هتفت بها جيهان ورندا.

"هيا نلعب. كفاك قراءة"، قالت رندا.

وأقبلتا صوبها عابثتين ساخرتين:

"رسائل نهرو إلى أنديرا! أليس كذلك"؟ سألتا معاً.

رفعت عينيها الخضراوين، بكل جمال عينيها في وجه صديقتيها، وأجابت:

"بلى".

"لقد حفظت هذا الكتاب"، قالت رندا.

"منذ حفل عيد ميلادك وليس لك من شاغل ولا حديث إلا هدية العم عوض! نعرف ولعك بالقراءة ولكننا لم نرك تحتفلين وتحتفين بكتاب احتفالك واحتفاءك بهذا الكتاب! إنك...".

فرفعت كفها اليمنى وأشهرت سبابتها ثم وضعتها على فمها مقاطعة:

"هش. هس يا بنات".

لكنها هتفت فيهما بحماسة والخضرة التي في عينيها تتألق وهجاً ثم تلمع كالبريق:

"هيا أرجوكما اسمعا هذا الفقرة: "كان جون ستيوارت ميل مدافعاً قوياً عن الفكرة الديمقراطية فيما يتعلق بالحرية الفردية، وقد وضع كتاباً صغيراً سماه: "في الحرية" لم يلبث أن ذاعت شهرته، وسأقتطف لكما منه فقرة عن حرية القول والرأي: إن أسوأ ما في كبت الرأي هو أنه يعد سرقة للجنس البشري، فما زال الخير الناتج عن الفكر أكثر بكثير من الشر. والرأي الممنوع إذا كان صواباً، فقد أضعنا فرصة استبدال هذا الصواب بالخطأ القائم. وإذا كان خاطئاً فقدنا ما هو

أهم، ألا وهو: الاقتناع بالصواب الذي نحن فيه بمقارنته بالخطأ. إنه لا يمكن أبداً الجزم بأن الفكر الممنوع خطأ. ولو جزمنا بذلك فإن منعه يعد شرًّا، بالرغم من ذلك".

وصاحت وابتسمت فضاء وجهها وهي تهتف:

"إنه كلام جميل، لكَمْ أشكر للعم عوض هديته!".

ورحن يتحادثن أو يتجادلن.

"إنك لمفتونة بهذا الكتاب"، قالت رندا.

ودق الجرس معلناً انتهاء الفسحة الأولى فعُدن مع بقية التلميذات مسرعات يأخذن أماكنهن في الفصول.

لم يكنَّ ليعلمن في تلك اللحظة فداحة الخطر المحدق بهن، الخطر الذي سيأخذهن أخذ السيل للقصبة في مهوى السيل.

الخطر الذي أضحى قاب قوسين أو أدنى.

ودق الجرس كرة أخرى فاستؤنفت جداول الدروس.

في الموصل كان الصباح خطراً.

هتافات تعالت:

”قبضنا على أجانب. قبضنا على أجانب“.

"الله أكبر على الكفرة الفجرة".

كان معاون الخليفة قد تناول إفطاره مع قدح من الشاي والحليب، واطلع على خطط اليوم. وعند توجهه نحو سيارة اللاندكروزر الصالون السوداء، وقفت سيارة جيب صغيرة، وقفز منها رجل مهمل اللحية في جلبابه الأسود بقع طعام ومني وشراب.

"قبضنا عليهم"، قال الرجل.

"عظيم آتوني بهم في مركز القيادة".

انطلقت سيارة الجيب صوب الأجانب المحتجزين، بينما توجهت سيارة اللاندكروزر الصالون السوداء إلى المدرسة الابتدائية التي اتخذ منها المعاون مركزاً.

على عجلٍ لملمت الأدراج المدرسية ورُصت كمنصة القضاء داخل أحد الفصول. وسيق الأجانب يرسفون في الأصفاد والأغلال والسلاسل، وكانوا خمسةً: بريطانيين وأمريكيين وأسترالياً واحداً، فمثلوا، ثم سأل المعاون بإنجليزية سليمة ذات لكنة لندنية قحة:

"لماذا جئتم إلى بلادنا تنهبون وتسرقون وتفسدون"؟

دون الوجوه تعلقت عينا المعاون الواسعتان بوجه بدا شاحب الشقرة.

"مارتن"؟ صاح المعاون ناهضاً كمن لدغته عقرب.

"نعم! هل أنت...؟ هل أنت سامي حمدان"؟
"مؤكد أنني هو يا مارتن، وأنا اليوم الأعلى وأنتم الأدنون".
وانطلقت ضحكة ما لبثت أن فاضت، فتدفقت قهقهات عاليات مجلجلات فيهن من المرارة أكثر مما فيهن من أي شيء...
وفي تلك اللحظة دخل ستة من رجال السواد وهم يقتادون رجلين يابانيين ينزفان نزيفاً غزيراً.
أغمض مارتن عينيه الرماديتين ثم فتحهما، أشاح عن منظر الدم المتدفق وأخذ يُحدِّق في لحية سامي الهائلة، في عمامته السوداء، في جلبابه الأسود الطويل.
لحظتئذ كان اليابانيان قد أوقفا في صف قرب مارتن الذي ودون أن يدري سأل فاغر الفاه:
"ولكن ما الذي تفعله هنا؟! ما الذي..".
فقاطعه:
" أنا معاون الخليفة يا مارتن".
وأمسك بلحيته، وسلط عينيه الواسعتين وأردف:
"يمكنك أن تقول بمنزلة رئيس مجلس الوزراء".
وعلت الضحكة مجدداً، ثم انفرطت فصارت قهقهى عالية مجلجلة.
"الخليفة بمنزلة الملكة، ولكنه ذكر وأنا المعاون. هيزْ ليوتنينانت، كذلك ذكر".
وعاد فضحك، فبدا واضحاً أن جنوناً عظيماً قد انطلق يعصف بماء

عينيه الواسعتين.
كانت وجوه الأسرى الخمسة كالحة.
معاون الخليفة بدا مهتماً بمارتن فقط.
"آخر مرة قابلت فيها أبويك حمدان وفاطمة في كلفهام جنكشن أبديا قلقاً شديداً بشأنك".
"بشأني! ها، ماذا قالا"؟
"قالا إنهما سمعا قبل أعوام أنك قد سافرت من باكستان إلى سوريا".
بغتة نهض المعاون وصفع مارتن في وجهه.
ساد صمت.
نظر معاون الخليفة بعيداً، بعيداً جداً، فقد أدار وجه مارتن مع ذكرى أبويه عجلات الزمان القهقرى، زمان انتابته فيه المخاوف وسكنته الظنون؛ زمان فيه كره شعره الأسود والدكنة الغامقة في سمرة بشرته ولم يعد يحفل بالهتاف الذي ظل يردده مع أبيه طفلاً: أنا الأخضر لمن يعرفني، لوني السمرة ألوان العرب، بل وجد في نفسه انقلاباً على أبيه ولمس فيها نفوراً من أمه شديداً. ولم يمض وقت قصير إلا وكانت أمه قد بعدت من الفؤاد، فبات يسهر وحيداً، واجداً في نفسه ظلمة، مغالباً في ذهنه سؤالاً من بعده سؤال. ظلَّ يعاتب أمه وأباه في خياله وكأنهما يملكان إجابة: لماذا لم تلداني إنجليزياً؟ لماذا لم تكونا إنجليزيين؟ وينقضي الليل فيسلمه إلى صباح كدر يتلقى فيه الضحكات والاستهزاء من قرنائه:
"العربي... الإرهابي".

والأسر شأنها شأن الجسم تمرض، تباغتها أدواء لا سبب لها ولا قبل لها بها، فتصاب بالحمى والقيء والألم، ذلكم ما حدث لأسرته؛ فمن غير مقدمات راح أبوه يعاني نوباتِ اكتئاب أثرت بدوامه في العمل، ثم ما لبث أن أدمن الجلوس في الحانة القريبة مُغرقاً نفسه في سيل من الكحول يأخذه أخذاً ويجرفه جرفاً، وتدهورت صحته واضطرب نظام نومه وصحوه، وانتهى بأن فُصل من العمل. وتحولت أمه طائراً حزيناً، طائراً مهيض الجناح يقبع تحت مطر المحن، مُدخلاً رأسه تحت جناحيه، وهو كان يعي، وكان ينظر، وكان يتألم، وأحياناً كان يردد في نفسه علَّه يقوى: "الحياة مملوءة بالألم، لكن يجب علينا أن نتفاءل ونواجه قدرنا بشجاعة".

وكان يردد:

"هل يخيفك

أن تكون في فعلك وشجاعتك

ما أنت في التمني.

لن أسلم نفسي

لأقبل الأرض أمام الصبي مالكولوم،

وتقذفني الدهماء بلعناتها.

رغم أن غابة بيرنام قد جاءت إلى دنسينان،

وأنت غريمي الذي لم تلده امرأة،

فإني سأحاول المحاولة الأخيرة قدام جسمي.

ها أنا أقذف ترسي الحربي: تهيأ مكدف!

وليكن ملعوناً من يصيح أولاً: قف. كفى".

واستفاق فكسر حدة الصمت المتوتر إذْ صاح:

"ما الذي أتى بك يا مارتن إلى بلادي لتسرق وتنهب وتفسد؟".

"أنا لا ولم أسرق أو أنهب أو أفسد، أنا هنا من أجل أن أكتب مقالات وتقارير لبعض الصحف البريطانية والأمريكية مع عدد من محطات التلفزة".

"جاسوس في أرضي إذن".

"أنا صحفي ولا علاقة لي بالتجسس".

"ياه، أصبحت صحفياً إذاً يا مارتن! ساد صمت من قبل أن يستأنف معاون الخليفة:

"هل تحسَّنت كتابة الإنجليزية لديك؟ فقد كنتُ أنا برغم أصولي العربية أكثر منك إتقاناً للغة. كنتُ الأول في المخاطبة وفي الكتابة. مستر كريستوفر لايت كان يقول على الدوام: "سامي حمدان: ستصبح ذات يوم بين المحامين باريستر لامعاً، تذكر كلماتي: ستصبح ذات يوم بين المحامين باريستر لامعاً. هل تذكر ذلك يا مارتن؟".

"نعم، أذكر".

"واحد وعشرون عاماً قد انقضت منذ اليوم الأخير لي في الغرامر سكول في ستون!".

"لم يكن لأحد أن يخيل مطلقاً أنك لن تكمل".

"كنت تجلس على الدرج المجاور لي يا مارتن، هل تذكر؟".

"نعم. وكنت معك على خشبة المسرح غالباً أنا ودوروثي".
كأن برقاً قد انقدح فزاد من ضوء حجرة الفصل التي ملأها وهج يوليو، حتى إن معاون الخليفة سامي حمدان ليحس بجرح في عينيه الآن.
" دوروثي!" قالها بنبرة غير نبرته، قالها كأنه يلمس جرحاً قديماً، جرحاً عميقاً لم يندملْ.
"نعم دوروثي، هل تذكرها؟".
ساد صمت وزمجر في رأس معاون الخليفة لا في حجرة الفصل، زمجر زمجرة الرعد الذي يعقب البرق.
بعد هنيهة استعاد رباطة جأشه، فقال بنبرته الواثقة الملتهبة دوماً:
"كنا معاً وهذا صحيح، ولكن لم يكن أحد يمثل كتمثيلي على خشبة المسرح المدرسي".
"أديتُ أدواراً كبيرة لشخصيات شكسبير وشو بإبانة ونصاعة واقتدار باهر".
عادت الضحكة مجدداً وتحوَّلت قهقهةً مجلجلةً:
"أنت تذكر جيداً يا مارتن. أنت تذكر أوَ ليس كذلك؟".
"بلى، الجميع كان يعترف بتفوقك".
أشاح عن مارتن، وغمغم بصوت خفيض كأنه يسأل لا أحد:
"دوروثي! أوَ تراها كانت تعترف؟".
ساد صمت الدهور طويلاً طويلاً.

لحظتئذٍ دخل رجل من كردوس إشارته وهمس له بتؤدة مبتهجة:
"رجالنا أخذوا قلب قضاء سنجار".
ابتسم المعاون ورد الهمسة بالهمسة:
"فلينتشروا في أصقاع القضاء قرية قرية وشبراً شبراً، وليتذكروا: نريد النساء سبايا والرجال أمواتاً".
ثم كما يفعل الممثل على خشبة المسرح، ثبت عنقه وأدار رأسه ملتفتاً ناحية مارتن وسأل:
"وأين دوروثي الآن؟".
"إنها زوجتي".
اضطربت العينان الواسعتان، ولاح في حدقتيهما المستديرتين ضعف وحزن، فأغمضهما ثم رفع يديه في الهواء ونفضهما فانحسر كُمَّا الجلباب الأسود وبرز الساعدان قويين نافري العروق، ولكنهما على نحو ما رخوان. مضى وقت قبل أن يستعيد رباطة جأشه ويستأنف استجواب بقية الرجال.
أثناء جلسة الاستجواب علا صوت أذان الظهر فرفعت الجلسة من أجل الصلاة.
في الأثناء كان لم يكف مارتن ولا سامي عن التفكير.
كلاهما كان يفكر في الآخر.
في الظهيرة ذاتها، في مدرسة قرية استيرا، كان الجرس قد دق مُعلناً بدء الفسحة الثانية لتستريح التلميذات ويستريح المدرسون.

"سأدرس الطب حينما أكبر، لن أذهب إلى جامعة الموصل".
قالت جيهان وقد تناهى إلى المدرسة من بعيد أزيز رصاص وانطلاق قذائف.
ساد بعض صمت ثم انقطع.
"إلى أي جامعة ستذهبين"؟ سألت كاجين جيهان.
"ربما إلى أمريكا، ربما إنجلترا. وأنت ماذا ستدرسين؟".
"الآداب".
"في الموصل؟".
"لا، في فرنسا. أبي يعرف أناساً كثيرين بالإدارة العليا، يعملون من باريس في الشعبة المختصة بالمركز الثقافي الفرنسي في العراق".
ودق جرس الفسحة، فتخللت دقاته طلقات دانيات، وكانت التلميذات بريئات، لكنهن لم يكنَّ ليدركن فداحة الخطر المحدق.
سِرن مع الأخريات من الفناء إلى حجرة الفصل. لم يدخل المدرس، وإنما دخل عم كامل الفرَّاش مذعوراً وهو يصرخ:
"إلى البيوت، إلى البيوت يا بنات. الناظر يقول إلى البيوت".
وسمعن أزيزاً قريباً لرصاص قد دنا، تلاه مروق لقنابل. لحظتئذٍ ذُعرن حقاً، فتدافعن إلى الأبواب.
سقطت قذيفة على الفناء، وأعقبتها ثانية أطارت السقف من مكتب المدرسين.
"أبي! أمي!"، صاحت كاجين.

لكنَّ أباها وأمها كانا مع المدرسين تحت السقف الذي تهدم.
عم كامل الفرَّاش كان منهمكاً وحريصاً على إجلاء التلميذات سالماتٍ.
"اذهبي مع رفيقاتك صوب البيوت يا كاجين".
جاءها صوت عم كامل الفرَّاش.
"تحركي حالاً، لا تخافي، لا تخفن يا بنات، كل شيء سيكون على ما يُرام ناحية البيوت".
واندفع سيل البنات الفزع مثل سيل منهمر، إذ كن جزعات جافلات صارخات.
اجتزن الفناء فالباب الخارجي القصير، فيهن كاجين وفيهن جيهان.
ولما كانت المدرسة قد نهضت بجدرانها وفصولها على كتف ربوة صغيرة بمنبسط القمة، فقد انحدرن مُسرعاتٍ صوب درب البيوت الضيق، ولكن فرقة بغالٍ كثيرة كان قد سدَّت كلَّ منفذ للهرب؛ من بعضها القليل قفز رجال مرسلو الشوارب واللحى، ذوو عيون قاسية، يكسوهم السواد من قمة الرأس إلى أخمص القدم، في أيديهم أشرعت بنادق، ومن أفواههم انطلقت الكلمات تترى:
"قفن ياكافرات".
"قفن يا عدوات الله".
"هه، أتسمعن يا فاجرات".
على أشداقهم سال رغو وسال زبد.

وقفن حائرات!

هنيهة ثم جفلن صوب المدرسة راجعات.

ذعرن فصرخن وانفرطن مثل قطيع من الغزلان الشاردة ومن خلفهن انطلق الرجال.

في الهواء فرقع الرصاص فظننَّه فوق الرؤوس.

ودخلن الفناء.

لكن كاجين انسرقت فلبدت عند كتف الباب، وعندما اجتازها الرجال انسلت فعادت فخرجت.

لم تتجه صوب درب البيوت وإنما صعدت باتجاه الربوات المفضيات للقمم الشاهقات.

لمحها ثلاثة منهم فانطلقوا خلفها غاضبين.

في الحياة مزالق تعلق بها القدم على حين غرة، فتمسكها، تفعل بها فعل مهوى السيل بالسيل، لا فكاك، وإن أجهد الإنسان نفسه.

فهل كان يخطر ببال الصبية كاجين لحظتئذٍ أن ذلك الصباح الجميل هو آخر صباح سعيد لها في هذه الحياة، آخر صباح حلو مع أم رؤوم وأب حنون؟

أن هذه الظهيرة هي آخر ظهيرة لها في المدرسة؟

كانت تعدو وتثب وهي تلهث.

سقطت حقيبتها وانفلتت فردة حذاء.

توقفت، فتحت حقيبتها وبسرعة استلت هدية العم عوض صاحب

مكتبة الحرية في الموصل، رفعت تنورتها الزرقاء وأدخلتها في لباسها الداخلي.

استأنفت العدو من جديد، انطلقت بكل ما تملك من قوة، بغتةً جاءها من ناحية درب البيت كلبها ماونت فقفز عليها ثم راح يركض أمامها فيسبقها، ثم يعود فيلعق تنورتها الزرقاء، ينبح، يستحثها على أن تسرع وتسرع.. لكن أصوات الأحذية الثقيلة كانت تضرب الأرض وتقترب أكثر وأكثر.

وقادها ماونت إلى صخرات نتأت من ضلع الربوة، ثم تسلق وناداها للتسلق.. ومن شدة إرهاقها وتعبها شعرت بخفة سراب عاتٍ تطوف بعينيها وبدت لها الأشياء على السفح نصف واضحة.. تبين وتختفي، بين النور والظلام، كذلك ماونت الذي كان في قمة الربوة.

كان الجبل صامتاً صمته القديم المألوف، ساكناً كأنه متحرك، تزعجه طلقات الرصاص غير البعيدة.. دعاها ماونت وألح في الدعاء، فأخذت تتسلق نحو الأعلى بلا كلل، بلا ملل.. وانفلتت قدماها فهوت حيث كانت، فراحت تبكي وتبكي وجسمها يرفض فيهتز في تشنج مريع.. اختلط زفيرها بقطرات رعاف من أنفها، اختلط بصمت الجبل، بأزير الطلقات، بصوت البنادق تطقطق عند السفح.

قفز ماونت وعوى بأنين حزين وجاء يتمسح بها يلعقها ويشجعها فضمته إليها؛ انتابها ما يشبه الدوار، فأحست كأنها في يم واسع يعلو موجه فيصطخب وتتجاوب أصداؤه فتضطرب، والآن فقط عملت

السقطة عملها، فعكرت بصرها أول الأمر، ثم صارت إلى غشاوة من ظلمة فإغماء خفيف، ثم أصبحت بين العمى والبصر، وعنَّ إليها أنها تسمع مع لهاث ماونت صوت خطى مقتربة.

أمسكت ماونت بقوة وربتت على شعره وأمسكت بفمه كيما يصمت.

كانت تعي ولا تعي.

همدت.

أوَ هي نائمة أم يقظانة؟

أوَ هي حية أم ميتة؟

ومع ذلك طفقت نفسها تمسك بخيط رفيع واهن اسمه الأمل، وهيمن عليها الإحساس بأن تنهض، بألا تنزل إلى أسفل، بأن تتحرك فتتسلق إلى أعلى وتتسلق، ولكن خدراً سرى فانتظم ساقيها فذراعيها.

ودوى في رأسها طنين قوي كطنين نحل الجبل، دارت أمواج الطنين في ذهنها وفي ثنايا الجبل فتضاربت ثم التطمت ثم رنت الأصداء.

ثم ساد السكون والظلام فترة كأنها الدهر.

بعدئذٍ لمحت السماء تنأى وتدنو، ونتوءُ ضلع الربوة يعلو بها طوراً، وتارة يهبط.. ثم عادت فاستقرت تمسك بيديها وقدميها من جانب الصخرات.

كان ماونت قد تسلق إلى قمة الربوة وراح يناديها ويسرف في النداء.

بغتة وبقوة لا تدري من أين جاءتها، رفعت نفسها في الهواء، وبعزم

أمسكت بالنتوءات وراحت تتسلق الصخر من جديد. عادها أزيز الرصاص وعادتها طقطقة البنادق، تلفتت يمنة ويسرة، فإذا هي في منتصف المسافة بين قائمة ضلع الربوة وقمتها.

ظلت ساكنة.

استنجدت بكل خلية فيها كيما تمدها بالقدر الذي يمكنها من الاستمساك مُعلقة حيث هي، وعنَّ لها أنها لن تستطيع المضي ولن تستطيع العودة، لكنها عاندت فراحت تحرك ذراعيها وقدميها بصعوبة. كانت تحس بقوى قاعدة الضلع الناتئ تشدها إلى أسفل. وهبَّت هبَّة من هواء غير منتظر في هذا الوقت من يوليو، وراحت تضربها كما السياط وهي تدور متلوية بين تجاويف الصخرات في زوايا منحنيات وأخر قائمات، وأحس جسمها لفح السموم الذي هبت به الهبوب.

ظنت أنها لن تستطيع الحفاظ على توازنها مدة طويلة وأن قوى القاعدة ستشدها إلى السفح شداً، كان ذهنها قد تشوش لحظتئذ وتحددت علاقتها بالكون: صبية معلقة على صخرة، وأحست أنها ستستسلم إلى قوى هدامة.. وفي حالة بين الموت والحياة رأت خيطاً أسود يصعد الصخرات متسلقاً في عناد، فأمعنت النظر، فتبينت جيشاً من النمل يثابر بدأب.

لكن علا صوت الخطى المقتربة.

في لحظة كلمح بالبصر تحول أزيز الطلقات ضوضاء عاتية، وفي اللحظة عينها لمع ضوء حاد كأنه برق جديد، أعقبه ارتفاع ألسنة

من نار تشتعل، فحركت ذراعيها وقدميها مجدداً، لكن الأمر كان أصعب مما كان، ثابرت حتى صارت قامتها إلى أعلى ويداها أسفل منها.

لكنها سقطت.

سقطت هي وحقيبتها على الأرض من شدة الغثيان والدوار واعتصار الألم وهول الفجاءة وقبضة الإعياء.

وبكت بكلِّ ما تملكه من طاقة البكاء.

بينما علا صوت الخطى المقتربة.

عوى ماونت وأمسك بطرف قميصها الأبيض تارة، وبطرف تنورتها الزرقاء تارة فنهضت، حاولت العدو، لكنها تعثرت فسقطت سقطة قوية.

ثم لم تعد ترى من الكون شيئاً.

ولما أفاقت رأتهم فوقها.. وجوهاً قاسية تسيل بالشعر الأسود شوارب ولحى.. انتهروا ماونت فأجفل وجرى، ثم أقبل يئنُّ فلا ينبح، وجعل يلعق شعرها والدم الذي سال على وجهها من أثر السقطة، لكن أحدهم صوب فوهة بندقيته وأطلق على رأسه ثلاث رصاصات، فهوى وسال الدم فوق صخر الدرب.

صرخت:

"لا".

وأخذها الإغماء.

ضربوا وجهها حتى استفاقت، رفعوها وحملوها على المسير معهم.

"فالحة، هه، أحسبت أنك تستطيعين الفرار منا"؟

ماذا تقول؟ ولمن تشتكي؟ صبية لم تعرف الهموم ولم تجرب الخطر هي الآن أمام أخطار ليس في الحياة مثلها! ضحية لصدام ونزاع خيوطهما من ديانة وحروب موشحة بحكم الدم، بحكم الحسم، ماذا يعتقد الناس في الحياة؟ ربما شيئاً واحداً هو أنه لا رحمة فيها.

ولا أمل.

جبروتها الآن مرسوم على وجوه يملؤها شعر أسود وشوارب ولحى، رجال في جلابيب وعمائم سود يسيرون بها في قلب الجبل بأقدام لا تبطئ، بقلوب لا تلين.

اقتربوا من باب المدرسة.

اجتازوه.

وأدخلوها الفناء.

كان حشد البغال قد أدخل الفناء.

رأت ذوي السواد يقتادون عم كامل الفراش ويضعون على عنقه ويديه ورجليه السلاسل والأغلال والأصفاد.

"عم كامل"! صرخت.

صفعها أحد المجاهدين بقوة.

لكنها برغم شدَّة الألم لم تُدر وجهها، فرأت ثغر أبيها يبتسم ورأت يديه ترتفعان بالأصفاد وإصبعاه تنفرجان ترسمان علامة النصر من قبل أن يدفعه المجاهدون نحو الباب ويختفي مع الرجال على ظهور البغال.

توزع المجاهدون التسعة إلى فريقين: قائدان وجنديان بقوا في فناء المدرسة بينما صعد قائد وأربعة جنود إلى أعلى الجبل متخذين عم كامل الفرَّاش دليلاً لهم، سيصعدون إلى القمم لجلب المزيد من السبايا من تلك القرى الصغيرة النائمة في الأعالي.

مع اختفاء القافلة الصغيرة وعدم رؤيتها لوجه أمها وأبيها، بعد أن سقط عليهما سقف المكتب، بكت كاجين أحر البكاء.

وتلفتت.

ثم صرخت:

"أمي! أبي! أين أمي؟ أين أبي؟".

في الموصل،

بُعيد الظهيرة وقبيل الأصيل،

كانت جموع من المسيحيين تتراكض على أطراف الموصل، فارَّةً في ذعر من أنحاء المدينة.

أطفال سقطوا.

نساء سقطن.

ثم من بعد مسيرة زهاء ثلثي الساعة أزَّت في الجو شفرات لمروحيات حذرة تدلَّت من داخلها أيادٍ بحبال تلتقط من تستطيع التقاطه.

كانت النسوة يصرخن رافعات مواليدهن وأطفالهن؛ ومنهن من تفلح في الصعود في إثرهم، ومنهن من تسقط. من بعيد، وجهت قوات داعش بطاريات صواريخها وفوهات مدفعيتها فأطلقت ما أطلقت.

سارعت المروحيات إلى الصعود والملاحة جنوباً تلوذ بالفرار.

وانقطعت عن الأمل جموع.

وكان ثمة قسيسون مع الجموع التي فرَّت تبكي وتجأر، فهي تدعو وهي تسرع لا تدري إلى أين! ففي كتمة الحر التي تخنق نهاية يوم حزين، لهث القسيسون ولهث من معهم. كان عليهم السير زمناً طويلاً كيما يشعروا بشيء من السلامة؛ بينما معاون الخليفة يخط الخطط ويدبر التدابير من داخل حجرة في مدرسة ابتدائية؛ في المدينة كان رجاله يملؤون الطرق ويخرجون من الأزقة والدروب وهم يلهجون بذكره.

"مولانا عون وسند خليفة المسلمين هو أكثر الناس صلاة وسجوداً"،

قال أحدهم.

وبالغ آخر:

"وكثيراً ما رأينا الطير على ظهره في أثناء الصلاة"، قال ثالث.

وقال ثالث:

"عندما يصلي تظنه حائطاً لسكونه ولطول سجوده".

وقال عبد الله:

"إنه بالفعل ليطيل السجود، بدعائه وفعله قد نصرنا الله تعالى"، قال الذي قد بالغ أول أمره.

وقال الذي استهل الحديث:

"أما أنا، فقد صحبته طويلاً فرأيته يقضي لياليه على ثلاث: ليلة يقضيها قائماً إلى الصباح، وليلة راكعاً، وليلة ساجداً؛ فضلاً عن صومه، فإنه يصوم الدهر كله إلا ثلاثة أيام يفطرها من كل شهر".

وسكت ثم أردف:

"يجدر بمن كان كذلك أن يكتب له النصر. إنا بحمد الله نؤمن بصدق دعوته، وإنه على الحق. وقد قتلنا معه حتى لم نجد مقيلاً".

وهنأ بعضهم بعضاً:

"بورك فيك أخي، بورك في رجل بايع وثبت على بيعته".

كانت تلك الأحاديث تتردد في ساحات الموصل، في شوارعها وفي أزقتها، بينما في جبل سنجار كانت الساعات حبلى بالشر، حبلى بالخطر. فالنزول من القمم، حيث قرية استيرا، مسيرة يوم أو بعض

يوم على ظهور البغال، ليس لشدة العلو والارتفاع وإنما لوعورة المسالك، لهشاشة الصخور التي تحتاج دوماً لمن يعرف الشعاب.

وهم قد غادروا المدرسة واجتازوا الدرب الممهد منذ ساعات ثلاث.

الشمس جانحة على عجل صوب غربي السماء.

ثم اضمحل الأصيل.

فاستطالت الظلال.

وها هم الآن ينحدرون من الدروب صوب الشِّعاب.

للحظة كان حمدين ساعي البريد قريباً من جهة كاجين وجيهان ورندا.

فحدجته كاجين بنظرة عتاب طويلة حزينة فأشاح بسرعة، ذات السرعة التي اختفى بها من ناظري أبيها في المدرسة فلم يره، والآن لما أشاح نقلت كاجين عينيها الخضراوين إلى يديه الممسكتين بلجام البغل، كأنهما ليستا ذات اليدين اللتين صافحتا يدي أبيها سلمان وأمها روجين! كأنهما ليستا ذات اليدين اللتين حملتا الكتب والمجلات من مكتبة الحرية، مكتبة العم عوض، شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام! كأنهما ليستا ذات اليدين اللتين حملتا لها هدية عيد الميلاد الغالية: رسائل نهرو إلى أنديرا. وتذكرت لحظتئذ الكتاب الصغير فأدخلت يدها بين ظهر البغل وتنورة المدرسة الزرقاء واستلت من لباسها الداخلي كتاب نهرو.

تلفتت يمنة ويسرة.

كان أحد المجاهدين قريباً، لكنْ لحسن حظها حرن البغل وشخر

شخيراً ذكَّرها شخير بغلهم في الحظيرة آن تلاعبه مع كلبها ماونت، كلبها الذي قضى.

وأسعفها انشغال البنات والرجال، ففتحت صفحات الكتاب وقرأت على أضواء الشفق المزدهية ألوانه كأنما هي في شغل عن الجبل الحزين: "والفاشية، وإن لم يكن لها أي مبدأ أو عقيدة، إلا أن لها أسلوباً أكيداً في العنف والإرهاب. وإنه ليكفي أن نعرف نظرتها إلى التاريخ حتى نفهمها على حقيقتها. أما رمزها فأخذته من رمز قديم كان يحمله الأباطرة الرومان القدامى، وهو عبارة عن حزمة من العصي في وسطها بلطة. وهذه الحزمة اسمها اللاتيني "فاشيس"، ومن هنا جاء اسم الفاشستية، أما المنظمات الفاشستية فقد أخذت نظامها أيضاً من التشكيلات الحربية في روما القديمة". ونظرت إلى الرجال وتساءلت في نفسها: "أوَ تكون العمائم والجلابيب السود وأسلحة النار قد صارت الرمز الجديد؟ حلت محل حزمة العصي والبلطة الرومانية القديمة؟".

"كأننا ننحدر من السماء" سمعت صوتاً يصيح فانتهت، رفعت تنورتها الزرقاء وأعادت الكتاب إلى لباسها الداخلي بينما انحدرت البغال. الوصول إلى قضاء سنجار كان سهلاً، أما وضع اليد على البغال ومعرفة من يدل على القرى النائيات فكشفا عن أن رجال السواد ينفذون أوامر معاون الخليفة بحذافيرها وعلى نحو يفوق الخيال، يفعلون ذلك لأنهم يفهمونها جيداً، بالإشارة يفهمونها، فهو قد دأب على أن يكرر لهم: اللبيب بالإشارة يفهم؛ وهو يريد سبي

وبيع اليزيديات. وفي قضاء سنجار سمعوا أن أجمل البنات يسكن القرى العذراء التي تستعصم بقمم الجبل، هنالك سمعوا أن بتلك القرى الشاهقات فتيات صغيرات حسناوات، هن الآن على ظهور البغال، مردوفات مثنى وثلاثَ ورُباعَ في الهزيلات ينحدرن نحو سفح الجبل.

على حين غرة حرنت البغال.

أمروها فشححت ثم امتثلت ثم انطلقت تنحدر الشعب الصخري الخطر في تردد وفي حذر.

كانت الراية السوداء مرفوعة ترفرف؛ ساروا بهن أول الأمر في صف واحد في الدرب الذي راح يضيق حتى صار إلى شِعب، ثمَّ مع ضيق الشعب أرغموا على أن يضرب الواحد بإزاء الآخر، ثم بعد ساعات ثلاث تحتم عليهم أن يمضوا في طابور ضيق، الواحد في ظهر الآخر. هذا هو الطريق الذي سلكه رجال السواد صعوداً يقودهم الآن هبوطاً حمدين ساعي البريد الذي أخذ بغله مكانه في المقدمة بعيداً عن كاجين وجيهان ورندا وبقية البغال المثقلة بالبنات.

"انتباه، جميعاً انتباه. ثمة صخرة ناتئة عندها انحراف"، صاح ساعي البريد: حمدين، الرجل ذاته الذي ظل يحمل على البغل لأعوام وأعوام طرود مكتبة الحرية من صاحبها في الموصل عوض للأستاذ سلمان وزوجته روجين.

اجتازوا الصخرة الناتئة وانحرفوا يساراً في زاوية تكاد تكون قائمة. وانحدروا إلى شِعب سهل المبتدأ، أما أوسطه فخطر، وأما آخره فجمٌّ

الخطر.

"ثمة عتبتان لهذا الشِّعب، ستدركنا الأولى بعد قليل"، صاح الدليل: حمدين ساعي البريد.

هبطوا عتبة الشِّعب الأولى في تناسق تام على الرغم من كثرتهم ومن ثقل وحذر البغال يتقدمهم رجل البريد حمدين. عند المنعرجات الحرجة شديدة الانحدار أخذت البغال تقف بعض حين أو تجفل أحياناً خائفة من السقوط في مهوى المنحدر، ما يقتضي وقتاً لحثها على المسير من جديد.

غير أنهم عندما هبطوا العتبة الثانية من شِعب الجبل حرنت البغال وصرخت البنات بعد أن بدا الشِّعب الضيق شديد الانحدار ناتئ الصخرات على نحو يبعث على الفزع. كانت ظهور البغال المثقلة بأحمالها ترتجف بتوتر ملموس ظهر برغم الحر في شكل موجات من قشعريرة متصلة على سلاسلها الفقرية، ثم على بطونها ثم انتقل إلى أشداقها الثخينة.

مرَّت الثواني مرور الساعات وانتقلت عدوى التوتر من البغال والبنات إلى وجوه وأيادي المجاهدين.

تبادلوا بضع كلمات.

"هل من عاقل يسكن في مثل هذا المكان"، قال أحد القائدين وكان اسمه أبو نورة.

"اليزيديون قوم حذرون" قال القائد الثاني وكان اسمه عمار.

وانتهروا البغال ثم ساطوها، فلما لم تستجب أطلقوا أعيرة نارية في

الهواء فارتعبت من بعدما فزعت وراحت تثب وتقفز وتلقي بالبنات، فدبت فوضى ردَّدت صداها الصخور في الشِّعب إذ تموج أو ترن، المجاهدون أنفسهم أُخذوا فزادهم ذلك في إطلاق الرصاص جزافاً.

بدا مشهداً غريباً! رجال في جلابيب سود طويلو اللحى طويلو الشوارب بأيديهم أحدث الكلاشينكوفات، بغال راكضة سقطت من ظهرها المدافع الخفيفة والآربيجيهات، رجل بريد عجوز وصبايا سبايا على الصخرات ساقطات وشعاب متعرجة تضرب في عمق الجبل.

بعد حين، كانت البغال جميعها قد غابت في شعاب التاريخ.

وتعين عليهن المسير.

كل تلك المسالك الجبلية ذات الصخرات والحجرات الناتئة مثل النصل ستخطو عليها تلك الأقدام اليافعة الغضَّة من القمة حتى السفح.

"تحركن" صاح أبو نورة.

ارتعدت جيهان وتمتمت:

"أشعر برغبة في التبول".

فهمست كاجين في أذنها:

"هذا من الخوف، تشجعي، تشجعي يا جيهان، لقد بدأت المرحلة الثانية".

"أنا تعبة، تعبة ومجهدة للغاية. أوَ تظنين...؟".

فقاطعتها:

"تماسكي يا جيهان. سنصمد".

"أكيد"! قالت جيهان، ولكنها على نحوٍ ما كانت تسأل: "وهل أستطيع؟".

"فليكن تكلك علي".

ورأت التردد بادياً في عيني جيهان الخائفتين، فوضعت راحة يدها السائلة بالعرق على ذراعها وقالت:

"أوَ لم نتعاهد؟".

فتمتمت جيهان:

"على الموت وعلى الحياة".

استنشقتا هواء يونيو الحار.

وبدأ المشوار.

وكانت الحوادث الجديرة بالذكر خلال المسيرة كثيرة.

بعد زهاء ثلثي الساعة شعرت جيهان برغبة ملحة في التبول فطلبت أن يُؤذن لها بالذهاب إلى جانب من الطريق، ولكن عمَّار لطمها بعقب كلاشينكوفه وهو يضحك هاتفاً:

"سنحب رائحة ذلك العطر. هه، سنسعد بقوته، هيا تبولي وأنت سائرة".

فأذعنت.

سرن الواحدة وراء الأخرى في شكل طابور متعرِّج طويل، سرن وفي كل رأس سؤال وسؤال: كيف سيُعاملْنَ كسبايا؟ ماذا سيحدث

لهن؟ ماذا سيفعلن، هل يعدن إلى بيوتهن يوماً؟ أسئلة كثيرة كانت تجول في الأذهان بينما الجدران الصخرية السوداء للجبل، راح ينعقد منها في مرعب الفراغ وفي مزالق المسالك صدى مريع لخطو الأحذية العسكرية الثقيلة لحارسيهن من المجاهدين.

بغتةً، لا إرادياً صرخت جيهان، فأحست كاجين بجرح في حلقها وقلبها بينا استمرت جيهان تصرخ:

"لن أقوى أكثر من ذلك على إمساك البول! لن أقوى!".

ولطمها عمَّار بظهر كفِّه وهو يعيد عليها:

"قلت لك سنحب رائحة ذلك العطر. هه، سنسعد بقوته النفاذة، هيا تبولي وأنت سائرة، لا أريد أن أسمع صوتك مرة ثانية، هل سمعت؟ هل فهمت؟".

وعلى نحو سريع تدهورت أعصاب جيهان، فلم تكف عن الصراخ، بل تحول الصراخ إلى عويل فنشيج فبكاء.. وجاء عمَّار مُغاضباً وصفعها صفعة قوية بيمينه بينما راحت يده اليسرى تعصر ثدييها الناهدين الصغيرين بلا رحمة، بلا شفقة وهو يتمتم في دعاء:

"اللهم اجعلها لي سبية هدية رضية طائعة مطيعة".

تلفتت جيهان.

كُن مخفوراتٍ محروساتٍ من وراء ومن أمام، ولم تقصِّر الصخور والحجارة! فقد أحاطت بهن من جميع الزوايا.

وتبولت جيهان في رجليها، فوثب عليها عمَّار الذي تستثيره رائحة البول والأمونيا، طرحها أرضاً ومزَّق سروالها، قاومته فعضَّ أذنها حتى

كاد يقطعها، ضربها برأسه في جبهتها، فسقطت تحته كاملة، ثم فتح ساقيها وارتمى فوقها.

وتناهى من تحته صوتها:

"لا. لا. لا يمكن".

لكن هيهات هيهات.

تألمت كثيراً.

وبكت كثيراً.

كان صوتها يتقطع خفيضاً مرتعشاً مثل قصبة في مهوى السيل يجرفها السيل.

ونهض عنها فبقيت مكانها بلا حراك، بقيت مفتوحة مكشوفة مشرعة لصخر الشِعب، للسماء والهواء.

"انهضي يا كافرة".

لم تنهض لأنها لم تكن لتستطيع رفع رأسها حتى.

وعاد عمَّار، فرفعها وحملها على ظهره وسار.

مع تأرجح خطواته كان رأسها يضرب كعب السلاح.

"يبدو أنها قد راقتك جداً!"، قال أبو نورة.

"لقد نلتَ منها فماذا تريد منها بعد"؟ قال واحد من المجاهدين الاثنين المصنَّفين كجنديين، واللذَين تم اختيارهما من بين الجنود الستة في فناء المدرسة. الأربعة الآخرون يرافقون القائد أبو ورد وسلمان والد كاجين مع بقية المدرسين. كان اسمه ناصر.

"في المشمش. إنها سبيتي، ملكي وحدي. ملكي أنا"، أجابه عمَّار.

فتعالت ضحكات المجاهدين غليظة وخشنة.

"لابد لنا أن نجرب مما جربت" قال أبو نورة.

كانت جيهان تبكي فتسرف في البكاء وهي تهتز مع كل خطوة من خطوات عمَّار الواسعات، وكعب الكلاشينكوف لا يكفُّ عن أن يُهيل لها اللكمات.. اشتد البكاء ولم يعد في الأنحاء مما تردده الأصداء إلا بكاء صبية فقدت عذريتها لرجل لا تعرفه، رجل قد فرض بطشه وقوته وأعمل رغبته وقسوته.

رماها فأتاها كرةً أخرى مثل لهيب يجرفه إعصار، ثم اهتز في بحر النشوة مثل موج خرافي عظيم.

ثم كرة أخرى حملها على كتفه وانتظم المسير.

ولما حل الليل خيموا عند ربوة من تلك الربى ذوات الصخرات الناتئات، بمنتهى المهارة عسكروا في وضعية مستترة، غير أن هذه الربوة كانت تشرف على هوَّة صخرية عميقة ليس لها قرار، هوَّة لها فوهة كفوهة البئر وقعر ذو تجاويف مظلمات تلمع فيها جنادب ويراعات رهيبات لمعان الشرار.

"لا أظن أن هوَّة جهنم ستكون أعمق من هذه الهوَّة!"، قال الجندي الثاني وكان اسمه ليث.

أرقد عمَّار جيهان قريباً من حذائه العسكري، كانت عيناها ممتلئتين بتلك النظرة الغريبة التي تراها في عيون المجانين، إنها الآن لتنظر إلى نجمة كبيرة حمراء في الطرف الغربي للسماء، والنجمة مع كل ثانية

تتبدَّل فتكبر أو تلتهب على نحو بدا كأنه يخصها وحدها.
"إنها لتلوح كما الخيال! إنها لكما الخيال! آه! يا للمشهد الإلهي!"، قالت في نفسها.
استقر في قلبها لحظتئذٍ إحساس غريب من الطمأنينة، حدَّقت في البريق الغريب المتقد للنجمة، البريق الهائل الجميل فاعترفت بجمالها وفي الحين ذاته اعترفت بضآلتها هي، فهي في نفسها لم تكن إلا تلك النجمة: نقطة هائمة في الكون، وكان ذلك الشعور بالنسبة إليها شعوراً جميلاً.
لكن بغتة اشتعلت النقطة واحترقت ثم هوت!
لم تكن نجمة.
كانت شهاباً.
واستفاقت من شأن السماء فسمعتهم يتحدثون بصوت خافت ويضحكون بجذل بينما البنات مكورات على أنفسهن نائمات من شدة التعب. لم تكن تعرف أين كاجين وأين رندا.
بكت.
الجنديان، ليث وناصر، أوقدا ناراً وشويا مما اصطادا من لحم طير الجبل، فأكلا مع قائديهم عمَّار وأبو نورة وساعي البريد حمدين وشربوا معاً بعض ماء وهم بعد يتحدثون بصوت خافت ويضحكون بجذل. مضى وقت فتقسَّموا حراسة البنات على أربع مجموعات، كل مجموعة عليها مجاهد، جندي أو قائد ولها مشعل؛ كانت فراشات الجبل تحوم حول اللهب وتحترق فيه.

كانت أوامر،
كانت كلمات،
كانت ضحكات تنتشر مرجِّعة أصداء الصخر والسواد، طاغية على الوجود بأسره.
كانت أشباح بشرية مضناة متناثرة أو مطوية، مكورة، أو منشورة، مشرعة أو مباحة لجسم الليل قد تنفست فتردَّدت أنفاسها ثقيلة مخنوقة ها هنا أو ها هناك. وانعقدت رائحة القرون التي تبعثها كهوف الجبل. كانت ليلة تضيئها النجوم، واحدة من تلك الليالي التي تمنحك الإحساس بأنك تسمع خفقات قلب المجهول. النسمة الباردة التي تهب من قمم الليل والصخور المكسوة بالظلمة تمتزج الآن بالحرارة المنبعثة من باطن الأرض التي أحرقتها شمس النهار.
في الصباح وجدوا جيهان منتحرة.
لقد ألقت بنفسها إلى جوف الهوَّة.

كذلك كان الصباح في الموصل مرَّاً.

والفجر الذي سبقه كان مشهوداً.

فبعد الصلاة، كان أمهر أعضاء فريق الميديا يجهزون أنفسهم ومعداتهم. ومع شروق الشمس كانوا يسرعون على ظهر سيارات لاندكروزر مكشوفة.

لقد تلقوا أمراً بالتوجه إلى معاون الخليفة في مركز قيادته في المدرسة الابتدائية.

"رمضان على الأبواب، سيكون حاراً جداً هذا العام "، قال أحدهم.

"لكن كلما اشتدَّ الحر زاد الأجر وثبت بإذن الله"، قال آخر.

وإذ ذاك كانوا قد دلفوا عبر البوابة القصيرة المخفورة إلى فناء المدرسة.

ومن قبل أن يهبطوا من ظهر السيارة رأوا معاون الخليفة يجر مارتن بسلسلة قد أحكمت حلقاتها على العنق.

بنطال وقميص مارتن أُبدلا بقميص وسروال برتقاليين.

بدا واضحاً أن ذلك هو الزي الذي اختارته الدولة الإسلامية لمحكومي الإعدام.

نصبت الكاميرات وأشغلت أجهزة الصوت.

واقتاد معاون الخليفة مارتن إلى الركن الجنوبي الشرقي من الفناء.

حل عمامته السوداء وأعاد ربطها بحيث جعل نصفها يغطي فمه وأنفه.

مضت اللحظات بطيئة ثقيلة متحفزة وصامتة.

أدخل معاون الخليفة يده في جلبابه الأسود، ذلك الذي راح يشرب ويعب من وهج الشمس عباً، قصدت يده من الجلباب جيبه الأعلى ناحية الشمال، ذاك الجيب الصغير القريب من القلب، واستلَّ قصاصة مطوية صغيرة مدَّها لمارتن.

"واحد، اثنان، ثلاثة، كيو"، صاح مخرج الفريق.

شد المعاون السلسلة فجثا مارتن على ركبتيه، في عينيه قرص الشمس الحارق المتوهج، وعينا معاون الخليفة الواسعتان اللتان حفظهما منذ أن كان جاراً له في حجرة من حجرات مدرسة الغرامر سكول في ستون، حينما لم تكن له صفة أو قداسة أو سلطة، وكان مجرد صبي حزين منطوٍ يُنادى بـ "سامي حمدان" فقط.

وراح مارتن يقرأ:

"إلى الملكة، إلى رئيس الوزراء البريطاني، إلى البرلمان، أقول لكم إنكم قد تسببتم في موتي بدفعكم الجواسيس والجنود إلى سوريا والعراق وأفغانستان. إن دولة الإسلام في العراق وفي الشام ستقف شوكة في حلقكم قبل أن تقف أمامكم في الميدان أنتم ومن والاكم من المرتدين من المسلمين، ستقاتلكم، ستضربكم بيد من حديد في جميع أصقاع الدنيا وستنتصر، ستنتصر لتملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملأتموها ظلماً وجوراً، وذلك بفضل خليفة المسلمين وما عقده له الله من لواء لا يندحر".

لم ينتهِ مما في القصاصة، لكن مارتن رفع عينيه إلى العينين الواسعتين القاسيتين.

ساد صمت.

أعاد مارتن عينيه إلى القصاصة وقرأ ببطء:

"مع كرهي إلى دوروثي".

ساد الصمت مجدداً.

بغتةً راح مارتن يتمتم بدفء وهو يرتجل:

"حبي الأكيد الصادق وقبلاتي الحنونة لك زوجتي دوروثي وللأولاد. مع الأمنيات".

لكن معاون الخليفة لحظتئذٍ كان قد استشاط غضباً.. صرخ كالوحش.. وثب واستلَّ من حزامه العسكري الغليظ سكينه فلمعت شفرتاها كالهول تحت شمس يوليو.. انقضَّ على رقبة مارتن وجعل يحز ويحز ومارتن يشخر بين يديه شخير الخروف ويرفس، يرغي دماً ويزبد دماً.

"الموت للكفرة الأعداء" صاح وهو يشعر بأنه لا يذبح الآن مارتن فحسب، إنما يذبح لندن بأسرها، مدينة قد كرهها. وأحس إحساساً غامضاً لكنه كان غامراً، إحساساً تشوبه لذة تعادل لذة النصر، لقد نال من غريمه، فاز وانتصر. وزمجر مثل حيوان خرافي يُعيد في ذهنه كلمات قد حفرت فيه حفراً: عالم اليوم، لن تكون الصراعات الملحة والخطيرة فيه بين الطبقات لأنها ستكون بين أفراد ينضوون تحت رايات ثقافات وديانات مختلفة، أفراد تحركهم كراهية بعضهم بعضاً حركة عنيفة وقودها سوء التفاهم.

صرخ مجدداً كالوحش:

"الموت للكفرة الأعداء".

اجتثَّ رأس مارتن تماماً ثم رفعه يقطر ويسيل.

لبرهة، شمَّ لدم مارتن رائحة تشبه رائحة دم دوروثي المسفوك في حوض السباحة، ولم تبرح تلك الرائحة الغامضة النفَّاذة ذاكرته:

"هذه رائحة الكفار"، هتف من دون أن يعي.

وكيما يبعد عن أنفه تلك الرائحة الطاغية وثب فهتف وهو يرغي رغاء أخضر ويزبد زبداً أبيض:

"النصر للخليفة. الموت للكفرة الفجرة".

ساد صمت.

"نحن المؤمنون وهم الكافرون، نحن الأعلون وهم الأسفلون، علينا أن نمقتهم لأنا إن لم نكره ما ليس نحن، فلن نحب ما هو نحن".

كان يتحدث وكأنما هناك حقائق قديمة يعيد هو الآن اكتشافها.

"من لم يكره الكفار فهو كافر، ومن يهفو إليهم فلن يُغفر له".

كان يبحث عن هوية، وهو إن لم يجدها فقد اخترعها الآن، هوية تثير العداوة المحتملة الخطر، بل الكثيرة الخطر، فالغربيون، في تجربته، يتعاملون وكأن حضارتهم هي الحضارة الوحيدة، يتحدون من أجل الحفاظ عليها وتجديدها لمناوأة كل ما سواها، كان يفكر في كل ذلك وهو يتأمل رأس مارتن الذي تدحرج واستقر بعيداً، ينزف، مثلما تنزف أصول عنقه في الجثة الهامدة المنتهية عند الكتفين.

"الموت للأعداء" صاح ثم رفع سكينه تقطر دماً وهتف:

"هذه أرضنا. لقد أقمنا دولة الإسلام".

بعد لحظات نقلت العدسات والميكروفونات كل ذلك الرعب إلى أركان الدنيا الأربعة فأدهشتها اللكنة الإنجليزية الفصيحة التي لا تشوبها شائبة، تلك التي ترافق مشاهد الدم في ملاحم التاريخ والمسرح لا على الواقع أبداً؛ ظهر للعالم واقفاً شامخاً كالطود، لبرهة ضربته ذكرى أفغانستان، ذكرى أيامه وحياته فيها، أفغانستان الأرض التي شبَّ فيها عن الطوق فصار رجلاً، إنه ليحب أفغانستان فهي الأرض التي جعلت الإمبراطورية السوفييتية تجثو على قدميها ثم تنهار، هي الأرض التي التفتت من بعد ذلك لتحارب حليف الأمس، أمريكا، فبعد الشيوعية، بعد الحرب الباردة، لم تعد الفروق إيديولوجية أو سياسية أو اقتصادية، إنها اليوم فروق دين وثقافة، ومارتن قد قتل نفسه لأنه جاء إلى أرض ليست أرضه، جاء غريباً في أرض لا تقبل الغرباء. هكذا راح يفكر ويحدث نفسه بينما كتيبة الميديا تنقل للعالم المتاهات الشاسعة في حدقتي عينيه المستديرتين السوداوين.

لوهلة ترنح سامي حمدان في وقفته ترنح السكران، لقد ألم به دوار رهيب.

مضى وقت من قبل أن يعلو صوت أسامة قائد كتيبة الميديا يأمر رجاله:

"أوقفوا التصوير. أوقفوا التسجيل".

ودنا من سامي حمدان:

"هل من شيء معاون الخليفة؟! أنت مرهق".

فاستفاق سامي حمدان ورفع سكينه لم تزل حمراء وقال:

"لا. أنا بخير. انصراف".

وانصرف الجميع وبقي هو مع رأس مارتن المقطوع، رفعه، حمله بين يديه وجعل يحدق في عينيه، تماماً كما كان يفعل آن الشجار في مدرسة الغرامر سكول في ستون! قال في نفسه وعيناه في عيني مارتن بينما عادت لذهنه الأفكار والرؤى ومر الذكريات: "ربما سار كل الطريق لينتقم من غريمه سارق العيون الخضراء، شيء قاد إلى شيء وحدث أفضى إلى حدث"، غير أنه ليوقن أن أهمها على الإطلاق تعرفه إلى الشيخ وهدان إمام المسجد في فينزبري بارك، كانت كلماته تهوي كالسيوف وحروفه تقطر سُماً ودماً:

"لقد قتلوا أطفالنا ونساءنا وشيوخنا في أفغانستان، في باكستان وفي العراق والشيشان، وقد ظلوا أكثرَ من نصف قرن يسجنون ويقتلون ويشردون العرب والمسلمين في فلسطين، أرضنا المغتصبة، يدنسون قدسنا أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، إنهم يهدمون قدسنا السليب".

وصرخ صرخة اهتزت لها جنبات المسجد في فينزبري بارك:

"وا إسلاماه... وا إسلاماه... وا إسلاماه".

فتحشرجت صدور وتقلبت حناجر واغرورقت عيون وفاضت دموع.

"نحن في دار الحرب، دار الكفرة الفجرة، خذوا من أموالهم ما تحتاجون، وانظروا وجوههم فلا تستحون ولا تطرفون، وخذوا بحقكم وأنتم غاضبون، لا تغرنكم حياة الرغد التي هم فيها ينعمون، فأنتم

الوارثون، أنتم الأعلون وهم الأسفلون، وإنكم وهم إلى ربكم لمنقلبون، إلى جنان الخلد أنتم وإنهم لصالو الجحيم في قعر السعير، يأكلهم لهبها ويزجرهم صخبها".

"انفروا ولا تثاقلوا إلى الأرض، فالأرض فانية يطويها الله مع السماء يوم القيامة طي السجل، انفروا فأنتم جند الله. أنتم فرسان الله. الجهاد... الجهاد".

"لا تصغوا إلى كلام ضعافنا وخطبهم فأولئك هم الذين اتخذوا من اليهود أصفياء وجعلوهم أولياءهم، هؤلاء ليسوا بمسلمين، هؤلاء هم المنافقون فاحذروهم قاتلهم الله أنى يؤفكون، واعلموا أنما الدنيا فريقان: فريق نحن وفريق هم، فاضربوهم في كل مقتل، اِملؤوهم بالألم مثلما ملؤوكم بالألم، اِرفعوا السلاح، اِرفعوا السلاح، اِرفعوا السلاح... الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر".

ورددت جدران المسجد أصداء الهتاف.

وسكت ثم قال:

"استغفروا الله يغفر لكم، وقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

ونزل الإمام درجات المنبر رجله اليمنى ماسورة من حديد، وقف فأمَّ بحراً من الجيَشَان.

بعد الفراغ من صلاة الجمعة جلس الإمام عند المحراب متكئاً على جانب المنبر مبتسماً ابتسامةَ عدَّاءٍ قد فاز بالسباق، تحلق حوله رجال وشبان متقدو العيون مطلقو اللحى.

"جزاك الله عنا كل خير شيخنا" تمتم أكثرهم.

"لو وجدنا من أمثالك ثلاثة لتغير حالنا" قال شيخ كبير.

وسط الحشود لمح الإمام وجه سامي المتعب المرهق البئيس، فحدَّق فيه طويلاً ثم أومأ له بذقنه ثم صرف عنه عينيه.

بعد زهاء ثلثي الساعة نهض المصلون وأخذوا في التفرق والانصراف، خرجوا من الأبواب الكثيرة من وراء ويمين وشمال، سار بعضهم صوب السيارات المركونة في الشارع الرئيس، وبعضهم دلف إلى الأزقة الجانبية، بينا سار معظمهم صوب محطة قطارات فينزبري بارك، التي فيها القطار الكبير البريتش ريل الذي ينهب سطح الأرض وفيها قطارات الأنفاق؛ دخلوها، منهم من أتى من جنوب لندن، ومنهم من أتى من شرقها وغربها، وهناك الذين جاؤوا بالقطار السريع من ليستر ومن مانشستر ومن بيرمينغهام.

ولما صار المسجد شبه خالٍ حرق المؤذن حزماً صغيرة من عود الصندل على مباخر من النحاس زينتها الزخارف العربية والفسيفساء الإسلامية.

"بارك الله فيك يا أبو حامد وأدخلك جنة رضوان"، قال الإمام مخاطباً المؤذن.

"آمين".

ومدَّ الإمام حينئذٍ رجله اليمنى التي هي ماسورة من حديد وقال بحنو:

"أقبلْ يا سامي حمدان، أقبلْ يا ولدي، لم نرك منذ زمن!".

وقهقه في سخرية ثم أردف:

"هل أخافتك أيام التدريب على السلاح في ضواحي ألدرشوت؟".

نهض سامي حمدان من عند عمود قريب وخطا فوق السجاد الأحمر ببطءٍ وحزن وهمس وهو يجلس:

"لم يخفني شيء"، واتسعت حدقتاه المستديرتان المظلمتان وهو يقول: "لقد صليت وراءك بهذه الأسمال وهذه القذارة، عليَّ أكثر من جنابة".

"إن الله لا ينظر إلى صورنا، إنه ينظر إلى قلوبنا".

"لم أغتسل".

حدجه المؤذن لحظَتئذٍ بعين حائرة.

"ولم أتوضأ".

"هل سمعت الخطبة؟".

"حضرت من قبل أن تصعد المنبر فسمعتها كاملة، من أولها إلى آخرها، وقد غسلت مني بعض حزن وبعض شقاء".

لمعت عينا الإمام وهتف:

"هذا عظيم. هذا هو المهم".

وتلفت ذات اليمين وذات الشمال وهمس في أذنه:

"متى ستنضم إلينا"؟

"كيف يقبلني الله وأنا في سطل وسكر دائمين وفسوق لا ينقطع؟".

"الله يغفر لأولئك الذين يستشهدون مجاهدين في سبيله، أولئك الذين يقتلون أعداء الدين".

ساد صمت.

"الجهاد حتى الموت هو الذي سيُفرج كربك، ويزيل همك، ويبعد غمك، ويغسل حزنك، ويضمن لك الرضوان وغفران الخطايا، كل الخطايا".

ساد صمت.

ثم سأل الإمام:

"كيف وممَّ تعيش الآن"؟

"أوزع الحشيش والكانبي".

"ولماذا لا تأخذ من مال الضمان الاجتماعي؟ مال الكفار حلال"!

سأل الإمام مستغرباً؛ فهو يعيش مع زوجاته الأربع، كل في بيت مع أولادها، من مال الضمان الاجتماعي.

بصوت قاطع أجابه سامي حمدان:

"الإعانة! إعانة العاطلين؟ لا. لا أريد من مالهم بنساً وحداً".

"عليك أن"... فقاطعه رافعاً يده:

"أستطيع تدبير حالي".

"وأين تسكن الآن"؟

في حجرة صغيرة في كوينز بارك".

"ما رأيك في الشيخ عاصم؟".

"لم أسمع به".

"عظيم. فإني أحذر من أحبهم منه، إنه لأفعى ناعمة تفحُّ ضلالاً

وتلدغ كفراً، وقد اتخذ من بين بيوت اليهود في ستامفورد هيل مسجداً للتبشير بإسلام منحرف اسمه التصوف!".

"ستامفورد هيل ليست ببعيدة من هنا! بعد محطة مَنَرْ هاوس بقليل!".

"نعم إنه قريب مني ليصرف الناس مني إليه. إنه يغار مني. تصوَّرْ أنه جاء من أدنبرة ليبشر بدعوة تنفر الناس مني! معه حفنة من المسلمين المرتدين عن جادة ديننا الحنيف، ثم إن الشرطة والاستخبارات هما اللتان تدعمانه".

وابتسم ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة خفيفة، وأردف:

"لكن هيهات هيهات أن يبلغ ما قد بلغت".

وسكت.

ثم تلفت ثم وسوس بصوت كالهسيس:

"الشيخ عاصم أخطر من الكفار، إنه متصوف إنه منافق مفسد يقول ويروج للمتصوفة، ويفتي بأن الجهاد هو جهاد النفس وليس جهاد الكفار، وأن خمول الذكر أفضل من الشهرة وذيوع الصيت، نعم يقول كل ذلك لأن الكفرة سنده. التصوف ليس من الإسلام. التصوف يدعو للخنوع، وهذا الرجل يفسد علينا الشباب بكلمات مثل السلام وصفاء الروح وخطرفات وأباطيل يستفيد منها أعداؤنا الذين يشنون علينا المعارك ليل نهار، هنا وفي كل مكان، إنه رجل خطير. هل تسمعني؟ إنه عدو.".

ساد صمت ميت قطعه سامي حمدان بنبرة خافتة:

"هل تريد مني أن أنال لك منه؟"، سأل بحزم وغضب واقتضاب.

اضطربت رموش الإمام والتقت أجفانه في سرعة وتباعدت، امتقع لونه، دارت حماليق عينيه ودارت تفاحة آدم في عنقه فصعدت ثم نزلت.

"هل تريد مني أن أنال لك منه؟"، أعاد سامي حمدان السؤال وهو يضع يده على الماسورة الحديد التي قامت مقام الرجل اليمنى للإمام وهدان. ثم أردف: "لقد قتلت رجلاً من قبل"، وأدار حدقتي عينيه المستديرتين السوداوين كقلب الشيطان وهو ينطق الكلمات في برود كبرود ماسورد الحديد في رجل الإمام وهدان:

"قتلت رجلاً هنا في لندن".

"هنا في لندن"؟ سأله الإمام وهدان بنبرة مرتعشة.

"نعم".

"ولم يقبض البوليس عليك؟".

"ولم يقبض البوليس علي".

"جريمة كاملة إذاً؟".

"لا أدري".

ساد صمت طويل.

ثم انطلقت أسارير الإمام وهبَّ برغم الماسورة الحديد واقفاً وهتف:

"الله أكبر... الله أكبر".

ثم انحنى فقبل رأس سامي حمدان ووجهه.

"لم أخبر أحداً من قبل، أنت وحدك من يعرف الآن".

"الله! سرك في بئر".

"والله لقد ذكرتني بشبابي يا فتى، هذه الرِّجل أخذها مني لغم في أفغانستان، لم تضِعْ لأنها ذهبت في سبيل الله؛ إنها الآن في الجنة تنتظرني".

"هل قاتلت في أفغانستان؟".

"نعم. تلك كانت أجمل أيام حياتي يا ولدي".

ساد صمت.

ونظر الإمام في عيني سامي حمدان الواسعتين، وأمسك بكفه اليمنى وقال يمط الكلمات مطاً:

"ولا تحسبن أني كففت عن القتال أو أني سأكف عنه، فأنا الآن في غزوة شريفة. أجل لقد شددت حزيم صدري وعقدت رأس أمري وأطلقت فرسي صوب دار الحرب هنا، معقل الكفار، وعما قليل سأضرب ضربتي. لسوف، لسوف ترى".

المؤذن الذي ظل صامتاً طوال الوقت نهض الآن، وخرج فغاب ثم آب يحمل لفافات من سندويتشات الدونرز كباب من المطعم التركي القريب. وأغلقوا أبواب المسجد، الذي كانت نوافذه أصلاً مغلقة، وانهمكوا في التهام اللحم الملفوف بالخبز المحمص.

فرغوا.

وأتى المؤذن بقارورة من البلاستيك سعة لتر ونصف لتر، وجرع منها ولغلغ وهو يشرب:

"ماء زمزم مبارك والدعاء عند شربه مستجاب. اللهم انصرنا على القوم الكافرين".

وقال الإمام:

"ماء زمزم لما شُربت له".

وجرع، ثم مد القارورة لسامي حمدان:

"اشرب وقل اللهم اجعلني من المجاهدين، وهبني الشهادة في أرض المعارك تحت أزيز الطائرات وقذف المدافع وطلق الرصاص".

جرع سامي من ماء زمزم مُردداً ما قاله الإمام.

امتلأت البطون لحماً وخبزاً وماءً، فتجشأت عن شبع، تحدثوا وقتاً، ثم أغفوا على رائحة البخور المنعقد ألسنةً من الصندل في فوهات المباخر ذات الزخرف والفسيفساء والجمر المحترق، وفي غفوته رأى سامي أنه قد نزل غور وادٍ بعيد تلمع شمسه في أنهار السراب، فركب فضرب فيه فسار فهو لا يلوي على أحد.

وأكد سامي حمدان للإمام وهدان أنه سيقضي له على غريمه المتصوف، الشيخ عاصم، الرجل الذي يدعو في خطبه للاستكانة للبيض، للكفار باسم الدين والتصوف، الرجل الذي يدعو للأمن والإخاء والسلام مع الناس الذين يكنون لنا الكراهية والعداء..، ولم يكن سامي حمدان يعرف الشيخ عاصم إمام مسجد ستامفورد هيل أي نوع من المعرفة، غاية الأمر أنه تسكع مرات قريباً من تلك الأماكن عند ناحية مَنَرّ هاوس، أو في منعطف ستامفورد هيل بلا تركيز بلا اهتمام، لكن عليه الآن أن يعرف عن المكان وعن الرجل كل شيء، وبخاصة الضروري لإنجاز مهمته. وأثناء مراقبته لضحيته اهتدى إلى بيته الصغير بالشارع الصغير المتفرع من ستامفورد هيل، مثلما اهتدى إلى مسجده الصغير الذي لم يبعد عن البيت سوى عطفتين، حامَ مرات حول البيت ودخل الجامع، صلى وراءه وحدَّق فيه حتى انطبعت صورته في ذهنه، وبخاصة وجهه الطويل النحيل المضيء شيئاً ما، لم يكن الشيخ عاصم يلبس جلباباً وإنما يرتدي قميصاً وبنطالاً من فوقهما بالطو من الصوف الرمادي، والتقت عيناهما مرةً فاشتبكتا، وتساءل في نفسه: ترى هل الأسباب التي ذكرها الشيخ وهدان كافية للقضاء على حياة هذا الرجل؟ هل كان عليه أن يتريث في عرضه؟ أو أن يعرف أكثر ما يسوغ ويسهل له إنجاز مهمته؟ وخفف عن نفسه القول إن هذا هو القضاء وهذا هو القدر، وإن الله لن يحاسبه على الأقل هذه المرة لأنه ينفذ فتوى ضد مرتد كافر.

وذات ثلاثاء، بعد ثلاثة أسابيع من رسم الخطة ووضع تفاصيلها بدقة ترقى إلى الكمال حدد ساعة الصفر.

نام النهار.

وفي المساء سكر وفي مرقص في سوهو سهر وعند بولندية لا تعرف من الإنجليزية حرفاً بات ليلته وحلم بين ذراعيها بامرأة أخرى، امرأة إنجليزية خضراء العينين مكتنزة الشفاه، حلم ببيت وحب وأولاد، وقال في حلمه: ليت الحياة تمضي هكذا بلا قتل بلا مشقة. واستيقظ فلبس وخرج واستقل قطار الأنفاق من بيكاديللي سيركس ذي الخط الأزرق إلى مَنَرْ هاوس، وتساءل: ترى ماذا ينتظره اليوم؟ ولكن ماذا كان ينتظره منذ أن هجر بيته وهجر المدرسة المحترمة في ستون؟ منذ انطلق لليل والمطر، منذ تعلم النشل مع جيم البدين، منذ تعلم التجارة بالكانبي والحشيش؟ ماذا كان ينتظره؟ وعاد للشيخ وهدان وقال له: سأقتله يوم السبت عندما تخف حركة اليهود ويكون يوم الجمعة قد مضى بصلاته وزحامه. وانطلق إلى سوهو وكينجز كروس وكامدن يشرب كأساً من الفودكا بالماريتني هنا، وكأساً من الجين بالتونيك هناك، وأحياناً يجلس فيحتسي البيرة أو الآبوت، وأحياناً الويسكي، يشرب آناء الليل وآناء النهار خائفاً من صحوه متحاشياً وعيه ومرتعباً من عقله.

وجاء اليوم الموعود، فاستيقظ مبكراً متحفزاً بإحساس دافق بالحياة نبعه الخطر.. وملأ أحد جيبي البالطو بقطع من شرائح سلامي البقر الإيطالي المدهن، ودس في الجيب الثاني زجاجة سميرنوف، وخبأ في

جيبه العلوي سكيناً حادة النصل. واستكان وراء صندوق للقمامة على بعد أمتار من بيت الحاج عاصم، وجعل يختلس النظر حتى فُتح المغلق وخرجت من الباب بنتان وصبي، ولفت نظره بصفة خاصة شَبَه كبرى البنتين بأمه، فأحس في كبده طعنة من الألم، وتذكر بيتهم وأمه في ساعات السعد التي انقضت فولت للأبد.. وما لبث أن بدا الشيخ عاصم وهو يتقدم من الداخل، وفي الحديقة الأمامية الصغيرة للبيت استدار إلى الوراء وراح يخاطب زوجته التي لا يراها من موقفه ذاك، ثم لوح، ثم اتجه نحو باب الحديقة الوطيء ففتحه متمهلاً متهللاً يأتلق في وجهه طيف ساحر من هدوء وابتسام، وتساءل عما يجعله يبدو مبتهجاً بل وطيباً؟ ولكن من أدراه أنه ليس كالآخرين، كلهم مناكيد لا يبتسمون ابتسامة حلوة إلا لذويهم، ناظر المدرسة مثلاً! يا إلهي، هل يمكن أن ينسى ذلك الرجل؟ مع ذلك دُعي مرة إلى حجرته، فوجده يمازح زوجته التي جاءت لزيارته ويغرقان في الضحك معاً كأنما هو آدمي كالآدميين. تبع الشيخ عاصم عن قرب وهو يشعر بقلق ودَّ معه لو ينتهي كل شيء في غمضة عين، والشيخ عاصم يسير في اطمئنان عجيب، فلن يخطر له ببال أنه لن يرى أسرته وأولاده مرة أخرى، وأن هذا اليوم هو آخر عهده بالحياة، وأن الفتى المسكين الذي يتبعه وهو غافل عن وجوده، هذا الفتى، هو الذي سيقضي عليه، هو الوحيد الذي يستطيع أن يتنبأ بمصيره القريب، الذي ارتضى أن ينفذ فيه القضاء نظير أن يغفر الله له ويتوب عليه ويدخله الجنة. وتخلص من أفكاره منتبهاً إلى

الطريق، فتساءل: أين يمضي الشيخ عاصم؟ ليس هذا هو السبيل إلى المسجد، ولعله يقصد محلاً يبتاع منه شيئاً، ولكن الرجل اتخذ طريق الأسفلت الذي يسلكه البص، فصعد حدبته العالية وانحدر منحرفاً إلى الطريق العريض، مُتجهاً صوب محطة قطارات الأنفاق في مَنَرّ هاوس، هناك توقف عند محل صغير لبيع أجنحة الدجاج، فابتاع منها كيسين ومضى صوب المتشردين السكارى الذين يعزفون ألحاناً نشازاً على غيتارات قديمة ناقصة الأوتار، قسم عليهم الطعام، ثم راح ونزل السلالم، واستقل القطار محطةً واحدة ليُغادره عند فينزبري بارك، صعد وانعطف لشارع جانبي تراصت فيه محال بيع اللحم الحلال والأطعمة العربية والشرقية، ثم دخل أحد الدكاكين وتحدث في أريحية ومرح مع صاحبه، ثم خرج وهو يحمل كيسين كبيرين، ثم يا للسخرية، فقد لاح عند ذاك الشيخ وهدان يعرج على قدمه الحديد، وصاح مُهللاً:

"والله زمان يا شيخ عاصم! تأتي إلى هنا ولا يعنُّ لك أن تزورني"؟

"لا والله، هي المشاغل يا شيخ وهدان، كيف حالك والأهل"؟

"كلهم بخير".

وتعانقا.

وأثناء عناقهما وقعت عينا الشيخ وهدان على سامي حمدان فغمز له، كابتسامة خاطفة منذرة باختفاء إنسان نهائياً من الدنيا؛ وهو ليس غيره من يحمل المنجل الذي سيقص روحه. وكان الشيخ الرهيب وهدان الذي سيقتل لمصلحته يتبادل مع ضحيته القفشات

والضحكات.

"آن لي أن أذهب حتى لا تفوتني صلاة الظهر". "وأنا كذلك".

وتوقف سامي يلمح كوكبة من المجاهدين مسرعين قاصدين مسجد فينزبري بارك، فوقف مأخوذاً بشدة الرجال وسرعة خطوهم واكفهرار الوجوه منهم ورهبة المنظر، لبث هنالك بعض الوقت وأدخل يمينه فأصاب من السلامي المالح، وشرب جرعة فودكا سميرنوف.

وجاء رجل في بدلة كحلية، فوقف وحيَّا الشيخ عاصم، وانصرف والشيخ عاصم يلاحقه بصوته:

"لا تنس أن تحضر معنا درس يوم الجمعة المقبل".

واضطرب سامي حمدان لما سمع كلمات الشيخ عاصم المملوء باليقين.

إنه ليعلم أن الشيخ عاصم سيكون يوم الجمعة المقبل في سابع موتة.

وعاد الشيخ عاصم إلى الشارع الرئيس العريض، فاتجه هذه المرة صوب محطة البص، ولما ركب، ركب سامي حمدان وراءه، وفي ستامفورد هيل نزلا.. قصد الشيخ عاصم بيته، فأعمل المفتاح في بابه فدخل بينما مضى سامي حمدان يلتهم قطع السلامي ويحتسي من السميرنوف قطعاً للوقت.

برهة ثم خرج الشيخ عاصم، واتخذ طريقاً صوب مسجده القريب، ثم دخل فدخل سامي حمدان وراءه، وبعد لحظات جاء تلاميذه وحواريوه من أعمار شتى، فصلوا وراءه ثم تحلقوا حلقة صغيرة، وراح الشيخ عاصم يحدثهم بصوت هادئ، فكأنه يخطب:

"فليهدِ الله إخواننا من المتشددين، أولئك الذين يختفون وراء التعميم خوفاً من النصوص والواقع والوقائع أيضاً، يصورون أنفسهم رجال دين، بعضهم تعرف إلى الدين في مصادره، وبعضهم لم يفعل، ولكن قد فاتهم قصد الدين وعميت بصيرتهم فلم يدركوا كنهه ولم يعرفوا جوهره، بله وليس في الإسلام مهنة رجل دين تراتبية وقدسية إكليريكية، نسخوها عن الكنيسة وهم للكنيسة رافضون. الإسلام دين سهل بسيط تدخله وقتما نطقت بالشهادتين، فتصير لك كل الأرض مسجداً تصلي أينما تشاء، لا وساطة في الإسلام ولا باب، لا اشتراط بمكان أو مسجد للعبادة، في الإسلام عملك عبادة، وعلمك عبادة، ونكاحك بالحلال عبادة، فاعبد الله أنى شئت تُجزَ. الدين كلمة مرادفة للرحم والمحبة والعدل والإخاء والإحسان، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا"، جاهدوا بترقية أنفسكم، فذلكم هو الجهاد الأكبر، ذلكم هو الجهاد، واعلموا أنَّنا هنا ضيوف قد أحسنت وفادتنا، وأننا بين ظهراني أهل الكتاب، والنصارى همو أقرب الناس إلينا بنص القرآن...".

كل ذلك الكلام الطيب لم يدخل في ذهن سامي المظلل بسحائب الفودكا إلا نكران جهاد السلاح والقوة، وقصره على نفوس في حجرات:

"لقد صدق الشيخ وهدان، هذا الرجل يدفع للخنوع" قال في نفسه.

بعد صلاة العشاء تحسَّس السكين في جيب البالطو، والشارع وما

حوله نائم، لا أصوات ولا مارة، وثمة صندوق للقمامة عند الركن فلبد عنده، من مخبئه لبث يربض ويده على السكين. وبعد زهاء الساعة لاح الشيخ عاصم من بعيد، ولكن كان بصحبته آخر. تراخت يده وأبطأت دقات قلبه، وقال في نفسه: إذا لم يجهز عليه الليلة، فستكون خيبة وخيمة. تقدم الرجلان حتى توسطا شارع المسجد ولم يزل يأخذهما المسير حتى أخذه القنوط، فأوشك أن يتقهقر من مكمنه مغلوباً على أمره، ولكنْ بغتةً توقفا عن المسير، ثم تصافحا ومال الآخر إلى زقاق جانبي صغير، وتقدم الشيخ عاصم وحيداً، فشد على أعصابه مرة أخرى وهو يسدد نحوه النظر، تحفز بكل قوة وجارحة، وكان الشيخ عاصم يسير متمهلاً يدٌ قابضة على العصا والأخرى تعبث بلحيته والهدوء يكسو مع السكينة وجهه، وخُيل إليه أن شفتيه افترتا عن ابتسامة خفيفة لطيفة، ومازال يتقدم حتى اجتاز مصابيح البيوت المستيقظة، فاستحال شبحاً يسير في حلك الظلام، اقترب من صندوق القمامة، فلم يعد يفصل بينهما إلا خطوة، فاستل السكين من جيب البالطو وشدد عليها قبضته، واستجمع كل قواه ثم انقض على الشيخ عاصم بسرعة خاطفة كلمح بالبصر، طعنه طعنة قاسية لا مهادنة فيها ولا رحمة ولا أمل بنجاة أو حياة.. وندَّت عن الشيخ عاصم صرخة خافتة، وترنح جسده المبهوت مرة ومرة ثم هوى.. واندفع سامي حمدان هارباً وهو ينتفض، ركض حتى بلغ حدبة ستامفورد هيل، ثم سار حتى نزل سلالم محطة مَنَرّ هاوس، واستقل خط البيكاديللي.

توهجت شمس النهار وتوقدت فتفصَّدت صهداً وعرقاً في أرض العراق، خاضت فيه السبايا اليزيديات.

كاجين ورندا خاضتا في دموعهما، راحتا تذرفان حرَّ الدموع ناشجتين منتحبتين باكيتين.

إنهما تبكيان جيهان، صديقتهما التي قضت.

وصاح فيهما عمَّار وهو يطلق أعيرة النار:

"اصمتن يا بنات، أنتما هناك، من تبكي منكما فسأجعل من رصاصي لها عَبرَات، سأنشن على الحلق هل فهمتما"؟

وقال أبو نورة:

"عندما نصل السفح سنأخذكنَّ إلى فناء ذات اليمين، نأخذ متاعنا ممن نريد، ونبيع من لا نريد".

"ستكون راحة وسيكون عيد" قال الجندي ليث متبسماً.

وأمرهن الجندي ناصر بصوت عسكري النبرات:

"هيا انطلقن: اعتدال ..مارش .. هوب هوب هاع .. هوب هوب هاع".

الوكزات والدفعات من أيدي رجال السواد كانت تسرِّع من خطى حتى أولئك المنهكات. وقد يقفن كرهاً أو رهقاً، فتتحول الوكزات والدفعات إلى لكمات، وتبدأ حركة الذهاب فلا تنتهي الخطى إلا إلى سراب.

سرن ضاويات لاهثات.

كاجين قد فقدت الآن حتى القدرة على البكاء، حلقها جاف مثل صخرة الجبل تحرقها شمس هذا النهار.

بالقرب منها لم تزل رندا فسألتها:

"أين هذا السفح"؟

ومن قبل أن يأتيها رد، تعالت الأصوات تدفعهن دفع الرعاة للشياه:

"سكوت. هيا سرن: اعتدال ..مارش .. هوب هوب هاع .. هوب هوب هاع "، قال القائد عمَّار.

"لتجدن راحتكن في ذات اليمين، هه"، قال الجندي ليث.

من زمزميات عسكرية سقوهن جرعة ماء وهنَّ ماشيات.

واستمرت المسيرة ثلاث ساعات، ثابرت فيها كاجين مع رندا والأخريات، شقين وهن يحاولن الوصول إلى إيقاع خطى ثابت دؤوب الحركة، يرضي القواد والجنود. ومن أجل الوصول إلى آلية هذه الحركة العصية الصعبة الصبور، تعين عليهن ألا يغفلن الأوامر الصارمة، تلك التي تترى قاضيةً بخفض الرأس تارةً، آمرةً بليّ اليدين خلف الظهر تارةً أخرى؛ كذلك تعين على الخطوات أن تكون متساوية المسافة، كُن أحياناً حين يجدن غفلة من عمَّار وأبو نورة وليث وناصر، أو انشغالاً منهم بجدال، يملن آلياً إلى كعب القدم اليسرى ثم إلى كعب الأخرى، القدم اليمنى التي حملت من العبء أكثر من اليسرى في طول الطريق.

وينتبه الرجال الأربعة إلى بطئهن فتعلو مجدداً الأصوات:

" اعتدال ..مارش .. هوب هوب هاع .. هوب هوب هاع... هيا

أسرعن".

وعند انقضاء الساعة الرابعة من المسير كانوا وصلوا بهن إلى السفح فسرن في الأرض المنبسطة ساعة أخرى.

"وأين ذات اليمين"؟ سألت كاجين.

"يبدو أنه هذا الذي هناك"! أجابتها رندا همساً.

" لا أرى شيئاً!".

بعد زهاء ثلث ساعة أو نصفها كانوا أمام بوابة حديدية كبيرة لبناء عالي الجدران قديم الهيئة، ربما كان ثكنة في ماضي الدهور، شيد ربما عن قصد في ربوة انبسط ظهرها، ونهضت فيه حظائر معروشة بالقماش السميك الكاكي، ذلك الذي يستخدم في ستر الدبابات والمدرعات. وفي ناحية قصية، ناحية الشرق، تلاصق حشد من الكرفانات.

ما كدن يصلن حتى أدخلوهن إلى فناء واسع، فلم يدركن بل أيقنَّ أنهن الآن في ذات اليمين؛ أفواج أخرى كانت تدخل الفناء: نساء أثداؤهن بارزة وهن يرضعن مواليدهن، فتيات في العشرين، مراهقات، نساء ناضجات تخطين الثلاثين، ولكن المجاهدين كانوا يتشادُّون ويتنازعون صبيةً ممتلئة بضَّة وقفت في آخر الصف.

كان واضحاً أنها ما بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة.

قال الممسك بمعصمها:

"أنا أمسكتها، الكافرة الشقية فهي لي".

"أشتريها منك بمسدس".

"هذه لي أنا. امشِ من هنا".

"لا، هي لي".

"إذاً أشتريها منك بمسدس".

"أنا أشتريها بطلقات كلاشينكوف وعشرين ألف دينار".

"والله ما أريدها إلا للحمها وشحمها".

وانسحب بها إلى ظل في الجوار.

بنهاية الفناء ثمة مصطبة عالية ذات درجات كان يقف عليها رجل ضخم موشوم الجبين، كبير الكرش بالغ الطول، ربما لم يقل عن المئة وتسعين سنتيمتراً! كان عنقه محتشداً بالجروح، كذلك، كان مشقوق الشفة العليا، وكان طرف من الأنف ناحية اليسار مثروماً، ذراعه اليمنى كانت مقطوعة، بيده اليسرى حمل سوطاً ذا لسانين. إنه السيد هنا، إنه الرعب والهول للمسبيات، فيده اليسرى تجلد وتجلد من دون أن يعتريها فتور أو رهق وهن يمرقن من أمامه ليعُدَّهُنَّ. لحظة دخولهن كان يخطب في حشد من السبايا اليزيديات اللائي جمعن من أنحاء القضاء.

كان يرغي ويزبد وهو يصيح:

"أيتها السبيات الكافرات، أيتها الفاجرات، أنتن هنا متاع لنا، ستبقين حتى يجيء المشترون ومنكن يختارون، الصمت إجباري والطاعة لازمة في كل لحظة. لا تتوقعن زيارة ولا رسالة من أحد. إن سلكتن سلوكاً حسناً فستُضفْنَ ساعة أو نهاراً إلى حياتكن، وإذا أسأتنَّ السلوك فستستعجلْنَ موتكن، ستعشن في مجموعات تحت

تلك المظلات، وستحصلن على الطعام والماء كيما تكن شهيات لدنات".

ثم وقعت عينه على كاجين فقال ساخراً:

"إلا من كانت منكن في مثل هذا الهزال!".

"صدقت يا شيخ منصور" قال عمَّار.

غير أن الجميع قد أخذ بما لم يكن في الحسبان! إذ التفتت كاجين نحو الشيخ منصور، وبصقت ناحيته صائحة بأعلى نبرة في صوتها:

"تفو".

ثم أعادتها وهي تبصق كرتين:

"تفو، تفو".

وكانت ردة فعل الشيخ منصور، هذا الوحش المشوه الرهيب، عنيفة، فسدد لها لكمة خلف الرأس. ولأنها لم تكن تراه وهو يوجه إليها اللكمة اندفعت نحو إفريز المصطبة، فاصطدم وجهها به وجرى الدم غزيراً ثم رشّ.. وبعد أن نهضت من كبوتها ترنحت وحاولت التحقق مما حصل لها؛ وكانت تهيأت لحركة احتجاج، وهذا ما كان يتوقعه هذا الرجل المشوه الضخم، فركلها برجله في بطنها ورمى بها إلى الأرض كرة أخرى، وجعل يجلدها بسوطه ذي اللسانين المصنوع من جلد الجمال.

كانت مغلوبة وانشغل الجميع عنها بمتابعة الخطبة ثم الانهماك في عملية العد والقيد والإحصاء.

كانت السبايا يفدن فرادى أو يدلفن جماعات على نحو بدا بلا

انتهاء.

"هيا، هيا أسرعن صوب الحنفيات، تنظفن، تنظفن يا بنات". وكما يدفع المراح من الغنم، دُفعن صوب أحواض المغاسل.

وسُلطت عليهنَّ فوهات من خراطيش مياه قوية.

وسقط من تحت التنورة، من لباسها الداخلي الكتاب الصغير.

"كتاب"؟! صرخوا فيها.

أخذوا رسائل نهرو إلى أنديرا ومزقوها ورموا بها فجرفها الماء إلى البالوعات.

وبعد زهاء سبع وعشرين دقيقة كُن قد اغتسلن ولبسن من عجب ليس عباءاتٍ سُوداً، وإنما قمصاناً ملونة، قمصان نوم ذات حمالات أبرزت النهود مع ثنايا الإبط وانحسرت عن الأفخاذ فهي قصيرة دون الركبة.. لكن كاجين بدت ناحلة أكثر مما هي في تلك القمصان فلم تُثر الرغبة، التي فعلتها أجسام الأخريات الممتلئات في اعتدال أو في سمنة.

هي الآن تبكي وتسرف في البكاء، مرة أخرى تفقد عزيزاً: الكتاب. لكم آنستها كلمات نهرو ولكم أسعدها هذا الكتاب.

أنفق معاون الخليفة سامي حمدان يومه وثلث ليله في الحركة والعمل الدؤوب، كان قسط قليل جداً من النوم يكفيه، وقد يصاب رجاله بالرهق وهو كأنه حجر لا يطوله الإجهاد. بحث في الصباح مع رضوان وأبو عاتكة مسار عمليات ضخ النفط من الآبار التي قد وضعوا أيديهم عليها، وأجرى اتصالات مهمة بالمنتسبين المتسترين

والخلايا النائمة في الخارج، وعقد اجتماعه اليومي المهم والمقدَّم على كل أمر مع أسامة قائد كتيبة الميديا.

وثمة حدث مهم، فقد وصل الغلمان والفتية الأوروبيون والأستراليون والأمريكيون الذين كان قد أمر قبل احتلال الموصل ببقائهم في بادية الشام، وصلوا اليوم إلى الموصل، غلمان لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه وكلمة أخرى هي الجهاد، منهم من لا يحفظ الفاتحة أو يقرأ سورة الإخلاص، غلمان في مقتبل العمر كانوا تدفقوا إليه في سوريا وها هم اليوم معه في العراق.

في الثلث الثاني من الليل أوى إلى الفراش، تقلب على جنبيه ثم رقد على ظهره عيناه مفتوحتان ترفد حدقتاهما السوداوان الظلام بمزيد من الظلام.

هذه الليلة لم يفارقه رأس مارتن المقطوع يقطر وينزف بين يديه دماً إنجليزياً حاراً وحراً، هازئاً هزاءً مرًّاً، ومن عجب أن حدقتي العينين الواسعتين السوداوين ثبتت فيهما عينا دوروثي الخضراوان الجميلتان النافرتان والنائيتان نأي المحال.. لوهلة حلم بها زوجةً حنوناً يأوي إليها في بيت صغير مزدهر الحديقة في ناحية هادئة من مقاطعة ساري: في الصباحات يفطران ثم يخرجان معاً إلى العمل، سيكون دونما ريب باريستر في شركة ضخمة محترمة للمحاماة، ربما في السيتي حي المال اللندني، سيكسب قضايا لزبائنه تساوي مئات الملايين بل المليارات، وفي المساء يتناولان عشاءهما على ضوء الشموع، عشاءً رومانطيقياً لطيفاً؛ لا ريب أن الشعر والأدب قد ربيَّا في مكان ما

من نفسه القاسية الآن شوقاً للرومانسية يكاد يجنح إلى المحال.

واستفاق على رائحة الدم البشري تملأ أنفه، على لون الدم البشري يلطخ منه جلبابه الأسود ويملأ الكفين، وأسعفته أبيات قد حفظها ورددها ممثلاً على خشبة المسرح المدرسي في الغرامر سكول في ستون.. أغمض عينيه وراح يتلو في صوت حزين:

لكان حرياً أن تموت فيما بعد،

ولكان ثمة وقت لكلمة كهذه،

غداً، وغداً، وغداً،

وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً بعد يوم،

حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب،

وظل أماسنا قد أنارت للحمقى المساكين،

الطريق إلى الموت والتراب. ألا انطفئي يا شمعة وجيزة!

ما الحياة إلا ظل يمشي، ممثل مسكين،

يتبختر ويستشيط ساعته على المسرح،

ثم لا يسمعه أحد: إنها حكاية،

يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف،

ولا تعني أي شيء.

واستفاق وهو يسأل نفسه: "لمَ تعبر عني تلك الأعمال الأجنبية؟ إنها لتعبر عني بكمال وانضباط"! وراح ذهنه يتشوش، فلئن كانت في رأسه ثقافة قوية فهي الثقافة الإنجليزية، لكنه نفض رأسه بعنف

حينذاك وجعل يردد بصوت عالٍ: "تلك معرفة وليست ثقافة، ثقافتي أخرى، ثقافتي أخرى". وعلا في دواخله صوت الإمام وهدان يرن واضحاً عالياً مجلجلاً في أذنه، تذكر أيام المحاكمة، تذكر أيام ترك المدرسة وهجر بيت أبيه وأمه، الأيام التي سبقت انضمامه للقاعدة رسمياً، كانت أياماً صعبة بالغة القسوة. عاده طيف دوروثي فملأه بالحسرة، عاده منظر الصبية المتحرشين به والمعارك الكثيرة التي خاضها، سلاحه فيها الصبر والشجاعة والنفور من الخوف، تذكر أمه وأباه، تذكر لندن وأيامها الصعبة. "يا سامي حمدان أنت لا شيء. أنت لا أحد".

كان قد فرض على نفسه نظاماً قاسياً تعلمه من حفظ القرآن وقصائد الشعر العربي في الجلسات التي فرضها عليه أبوه، وكان يركز في الفصل ساعة الدرس بكل حواسه في فم المدرسين، فيحفظ كل ما يقولون عن ظهر قلب، ثم يؤدي جميع واجباته اليومية داخل حجرة الفصل قبل أن يغادر المدرسة إلى البيت، كان يعمل ذهنه غائباً عما عداه في حساب المثلثات، فيجيب عن أصعب الزوايا المتشعبة في المعينات في سرعة كلمح بالبصر، وأما جداول الكيمياء والعناصر فكان يحفظها حفظ الوجوه ولا تستعصي عليه مسائل الضوء والميكانيكا في الفيزياء، وكان يصغي باهتمام إلى قصص الأبطال والآلهة في حصص التاريخ، فتكون قد استقرت للأبد في مكان ما من كهوف ذاكرته الجبارة القوية كالصخر.. كالحجارة، حينما كان في المرحلة الأولية مع جيم البدين في مدارس كلفهام

جنكشن حدث له ما عده أعظم اكتشاف وهو ما أثر لاحقاً في كل حياته؛ اكتشف المكتبة المدرسية، كان يستلف الكتاب فلا ينتهي اليوم إلا ويكون قد أكمله، وبدأ بنثر ستيفنسون–جزيرة الكنز، وشارلز ديكنز في قصة مدينتين، واستبطل سيدني كارتن الذي يقدم حياته ليفدي الرجل الذي أحبته محبوبته، لكن، لسبب ما، أعجبته مشاهد الثورة الفرنسية ولم ينسَ قطُّ مشهد عربة الحصين المحملة ببراميل النبيذ وهي تتحطم أمام حانة مسيو ديفارج والأهالي يسرعون فيشربون من الأرض، يخلعون قمصانهم ويغمسونها في الطين ثم يرفعونها إلى أفواههم يمصونها مصاً، وذلك الصبي الذي غمس أصبعه وكتب على الحائط حروفاً كأنه يكتب بالدم، والمقصلة التي تطيح الرأس بعد الرأس بينما النسوة ينظرن وهن يطرزن ما في أيديهن من قماش وخيوط. يوم حادثة حوض السباحة والدم يرش من جسد دوروثي تذكر ذلك المقطع من الرواية؛ أكثر ما ميزه بعد حادثة حوض السباحة كان المزيد من الهدوء، المزيد من الصمت والانطواء. لم يكن ليفتح فمه إلا ليقرأ، أو في بروفات التمثيل، وأفاده التمثيل أيما إفادة، كان معلموه ومربوه يشيرون عليه بأفضل نطق للكلمات والجمل الإنجليزية بلسان ذرب وأسلوب ناصع مبين، اكتشفوا فيه موهبة عظيمة لتأدية الأدوار التي تفصح عنها لغتها الوهاجة الفخمة، فراحوا يلقنونه فصحى شكسبير ليبرع في تأدية مارك أنتوني وشيلوك ويوليوس قيصر والملك لير، وعطيل وماكبث؛ المآسي الضخام التي لم يعرف الأدب لها مثيلاً، يقولون له: اسمع

مستر حمدان، هكذا ينطق لورنس أوليفيه الأبيات عندما يمثل دور هاملت، أو: هكذا ينطق بيتر أوتول؛ وذهنه المتوقد مثل صحراء ظامئة كان يشرب الكلمات شراب الرمل لبارد النسيم، يحفظ، يقلد ويجيد؛ ولكنَّ مساء بعينه لا يبرح ذاكرته أبداً، مساء جمعه بدوروثي على خشبة المسرح المدرسي، كان روميو وكانت جوليت، وبرغم نفورها كان مساءً عذباً مؤتلقاً لأنها هي أيضاً كانت تخلص للمسرح، تعشقه، كان يتحرك كأنه يطير على الخشبة، يتكلم كأنه يترنم، من أجلها، من أجل عينيها الخضراوين كان يمثل؛ كان أبواه حمدان وفاطمة مع النظارة ذلك المساء، كانا دَهِشَين لهذه العاطفة الجياشة، لهذا الصوت القوي، لهذه الفصاحة والنطق الرصين.

"كأنه ليس سامي حمدان"! همست أمه في أذن أبيه.

"لكأنه ليس هو!".

وحق لهما، فسامي عند عودته من البيت إلى المدرسة كان لا يجيب أحداً يحدثه، لا ينظر ولا يجلس في حجرة المعيشة، إذ يتناول طعامه على عجل وفي هدوء ليسرع إلى حجرته ويغلقها عليه ثم يأخذ في القراءة. ما كان يشده التلفزيون، وفي أيام السبت والآحاد لم يكن ليخرج للرحلات والتنزه في الحدائق، وكان يختلف فيهما إلى المدرسة العربية يتعلم النحو والصرف، ثم خصصوا فصلاً متقدماً من أجله، كان هو التلميذ الوحيد فيه، فدرسوه البلاغة والأدب الجاهلي والأموي والعباسي، كان يُدهشهم بسرعة حفظه وبيان شرحه وحسن خطه بالكوفي وبالفارسي، بطلاقته في الحديث وبراعته في

الكتابة، كانت اللغة والآداب بحيرتين خضراوين وَرِثَهما حالماً بعيني دوروثي، بعد اختلافه للمدرسة العربية لإدجوار رود بسنوات طويلة وهو يقاتل في خندق في أفغانستان إلى جانب صفوف رجال من طالبان، هتف صارخاً في المقاتل الذي عن يمينه والانفجارات تدوي والرصاص يؤُزُّ والنيران تستعر:

"لن يسامحني الله ولن يغفر لي جرحي لدوروثي بالموسى في حوض السباحة" قالها بلغة الأوردو التي لم تصعب على لسانه.

لمس المجاهد ذو العينين الحمراوين الغاضبتين عمامته، ثم مسد لحيته ثم عمَّر خزنة بندقيته وقال له وهو يصرخ:

"إذا متَّ شهيداً فسيغفر الله لك كل شيء، صدقني".

ومرقت طلقة أسكتت صوت المجاهد للأبد، فالتفت سامي حمدان للدم يبقبق من جبين صاحبه، لم يكن يقطر أو يسيل، بل كان يندفع اندفاع الماء في فوهة النافورة. ولفحت شمس رمضان وجه المعاون الآن، فتقلب في نومه المتوتر المحموم وجعل يهذي وهو في الخندق، وجعل يهذي وهو في حوض السباحة، ثم استيقظ وهو يصرخ: "الدم... الدم". لسوف يذكر طوال حياته منظر ذلك الدم كما رآه في ذلك الصباح في حوض السباحة. أما الآن فقد أعرض سامي حمدان عن عرض جيم البدين إعراضاً شديداً، ولكنه كان قد سلك طريقاً أخرى أكثر خطراً وأعظم شراً.. وقد أمضى الساعات الطويلة وهو يسير تحت حبات المطر التي تُدمن أرضُ لندن وسماؤُها تعاطيَها على نحو مزمن؛ كان يسير بمحاذاة نهر التايمز، انطلق من

قرب محطة الامباكمنت في الثامنة والنصف تقريباً، ومضى يراقب السفن الضخمة والمراكب الراسية، تلك التي تحولت مع مرور الأيام إلى مراقص ومطاعم وكازينوهات. على الرصيف كان ثمة فرق تعزف ألحاناً وكانت أفواج السياح تتقاطر بالعشرات فيهم الرجال وفيهم النساء من كل الأعمار: شيوخ وكهول وشباب، وجوه تفيض بالألق والإقبال على الحياة، وخطوات تثب بالمرح، وأصوت ملأى تضج بالفرح.

وقف ساعة يرقب كل ذلك، ليس كمن شهد مشهداً أمامه، وإنما كمن يراقب شاشة عرض ضخمة تفصل بينه وبينها أواصر القربى، وعلائق الانتماء.

واستأنف مسيره بحذاء التايمز تضرب برودة الهبات الضاربة من أمواجه وجهه المكفهر، وتزيد من برودة الشتاء.. مشى في الليل بلا وجهة، فلما بعُد عن أضواء المدينة توضحت السماء فكانت قريبة، كواكبها مثل المرايا والأنجم قطرات ندى فضي. ثم غامت سماء الشتاء فأنزل عينيه إلى الأرض وضرب مجدداً حتى وصل إلى بقعة نائية مقطوعة شديدة الظلام رست عندها مراكب قديمة متوسطة الحجم مُطفأة الأنوار على ظهرها مدافع القرون الخالية؛ لا يدري لماذا سمع في تلك اللحظة صوت مارلو يأتي عميقاً من سطح أحد المراكب الرابضة يحكي عن الرجل الذي جعل من نفسه إلهاً في قلب الظلام، وفرض قوته بالبطش والسلاح الناري، فما كان له لأن يكون كذلك لولا إخضاعه الرجال خائفين أذلاء، وقبل ذلك

معتقدين ومؤمنين بأسطورة تفوقه.

وتساقط الصقيع فخفف من حركة موج النهر النائم ولغلغته وحفيفه ووشوشته عند الشاطئ، لم يكن التايمز مملوءاً بالماء فحسب، وإنما بالتاريخ، بالقصص، بالحكايات، بالملاحم: أحداث كلها دماء، هذه المراكب الرابضة المطفأة المصابيح، كانت في وقت ما تجوب باسم قصر باكينغهام أعلى البحار وتضرب نحو الشواطئ البعيدة في الشرق الأقصى، في إفريقيا وفي الشرق الأوسط. والآن كل شيء قد مضى فانقضى كما يمضي كل شيء في الحياة وينقضي. وتلفت سامي حمدان فكان المكان قفراً، ليس الآن سوى الظلام، ظلام طري منسوج بأنسجة قانية مثل أنسجة الكبد، ظلام حي يتنفس ويتحرك فيلتهم كل لون فلا يبقى إلا لونه الأسود المشرب بالحمرة القانية، وإنه الآن ليعوي ثم يمدُّ يمينه فيلتقط ويطوي النهر والمراكب الرابضة، يعصرها عصراً، يلويها دونما شفقة ودونما رحمة، حتى إذا ما انصهروا فيه راح يمتد وينتشر في لامبالاة ودونما اكتراث. وسامي حمدان قد أوى الآن إلى عمود مصباح فيكتوري مكسور الزجاج، فتكور تحته مُدخلاً رأسه بين ياقتي البالطو الكبير، ذلك البيجي اللون القديم المهترئ.

وزفر:

"الماضي لا يدفن موتاه أبداً".

ولغير ما سبب تذكر الرجل الأبيض الذي قتله في لندن، نعم لم يكن الشيخ عاصم هو أول من قتل، في الحياة مزالق تعلق بها القدم على

حين غرَّة فتفعل بها فعل السيل بالقصبة في منحدر السيل، هكذا هي الحياة، سلسلة من الأحداث يمسك بعضها بتلابيب بعض، لكن من كان يصدَّق أن ذلك الفتى النابه، فتى الغرامر سكول في ستون، سينحدر برغم ذكائه إلى بالوعات لندن فيغرق في ظلماتها!

لما اختلف إلى المدرسة الابتدائية في كلفهام جنشكن، كان السود والبيض يجدونه بينهم غريباً: كان العربي الوحيد؛ وقد أحسَّ أول أمره بأنه عود أخضر على أرض ثابتة، ولكن ما لبث أن عصفت به الرياح، عقَّد من أمره أنه كان نابهاً سريعَ الحفظ لجداول الضرب متقناً للإملاء، فحنقوا على استئثاره باهتمام المدرسين.

في الفترة الأولى كان هو الأول، أحرز العلامة الكاملة في جميع المواد، وزاد ذلك من حنق أنداده، الذين لبدوا له في الطريق، وعلى رأسهم جيم البليد البدين، وانهالوا عليه ضرباً وهم يرددون:

"عُد إلى جحرك أيها الجرذ العربي".

"اذهب إلى بلدك".

"من تحسب نفسك أيها الغريب"؟

ويشتدّ عليه الضرب. تلك الأيام علمته تكتيكاً فريداً سيظل يثبت جدواه على الدوام في مقبل الأيام، تكتيك القتال السلبي، وهو تكتيك ترجمه لجنوده في كلمات واضحة في أكثر من موضع وفي أكثر من معركة: الحرب صبرٌ واللقاء ثبات؛ كان يثبت أمام مهاجميه ثباتاً يخيفهم، يقف مثل عمود من حجر يتحمل اللكمات والركلات على جسمه النحيل، يرش الدم منه يقطر ويسيل وهو واقف، تبرق

عيناه الواسعتان بينما الكدمات تنتفخ وهي تتورم وهو لا يزال صامداً، ينتاب الخوفُ مهاجميه إذا لم يأخذ منهم التعب، يروعهم فداحة ما ألحقوه من إصابات برأسه وصدره وبطنه وساقيه لحظتئذ، يتشفى منهم بكلمات قد تعود عليه بمزيد من الوجع:

"دجاجات! هيا هلموا واضربوا يا دجاجات".

"اسكت" يصيحون فيه.

لكنه لا يسكت، بل يزيد:

"أنتم دجاجات فاقسات".

وقد ينصرفون عنه حينئذٍ فيصرخ فيهم:

"أنا لستُ دجاجة".

غير أنه مع الأيام لم يكبر في العمر ويتقدم في التعليم وإنما تقدم في الألم، ألم مالح لخضرة بحر أخضر بلا جزر، بلا شطآن. جيم البدين البليد الذي هجر الدراسة باكراً تساوى معه أخيراً بعد أن تحول إلى شريد متسكع، لا، ربما كان جيم البدين أفضل، فهو على الأقل لم يقتل رجلين في لندن ويزهق أرواح المئات بل الآلاف خارج لندن، أول مرة جرب فيها القتل تحفظها ذاكرته الخارقة بكل تفاصيلها الحية على ذات النحو العبقري الذي تحفظ به كل شيء: الوجوه والكلام والسلاح والكتب. كان قد خرج من السجن بعد محاكمته بالتعدي على رجل أبيض وضربه ضرباً مبرحاً في إحدى الحانات، الرجل أخذ منه قطعة الحشيش ورفض أن يدفع ثمنها، حذره فلما لم يستجب انهال عليه باللكمات والركلات، فترة السجن كانت

قصيرة، كان محظوظاً لأن ضحيته والشهود لم يذكروا للمحكمة شيئاً عن توزيعه للحشيش. في السجن تعلم ضروباً من فن اللامبالاة والمزيد من الكراهية لمن هم أحرار خارج الأسوار، كراهية للمكان الذي ولد ونشأ فيه، وفي يوم خروجه من السجن رفض مجدداً التسجيل في مركز البطالة والضمان الاجتماعي، كان مشوشاً غاضباً على النظام بأسره؛ فهو لا يملك بنساً واحداً ولن يجد من يخدّمه، إنه مسموم، بل الدنيا في نظره كلها مسممة، وبالفعل رفضت المطاعم والمحال تشغيله بمجرد نقرة واحدة على اسمه في لوحة الكمبيوتر، فعاد للتسكع المريض، يمشي الساعات في الشوارع، ينحرف من عطفة إلى عطفة ويدلف من زقاق إلى زقاق وهو يغمغم:

"في رأسي أمور غريبة ستنتقل إلى يدي
لابد من فعلها قبل أن ينظر فيها أحد".
"لا تسمعي خطاي، وفي أي اتجاه تسير، لئلا
تفصح الحجارة نفسها عن مكاني".

ليس إلا تجار الحشيش والكانبي والمخدرات القوية، أولئك هم الذين يمكن أن يمنحوه ثقتهم.

وقد كان.

عمل في دائرة التوزيع ضمن شبكة بيكاديللي سيركس وسوهو والحي الصيني، وتوسع حتى أوكسفورد سيركس وماربل آرش وسط السياح ورواد البيوت. ولنشاطه وشجاعة قلبه أُعطي الإذن بالبيع في كامبرول وبيكهام وكينيغتون وهكني وأزقة تنونتهام الضيقة وبركستون المكتظة بالسواد الغاضب؛ ولكن قلبه كره كلفهام جنكشن، فلم يطاوعه يوماً للذهاب إليها على الرغم من كثرة الراغبين، ومع ذلك برع في عمله وأبدى نشاطاً منقطع النظير.

وأثناء ذلك كان يرتاد شقق البوز، حيث تعم العتمة وتفوح ألسنة المتعة، وسط ظلمة رهيفة بالكاد تبصر فيها العين، حيث تحتك الأجساد بالأجساد، أجساد النساء المدمنات وأجساد الرجال المدمنين، والشواذ الذين هم بين بين؛ فالجميع ثمل والجميع مسطول، وتمضي أيامه حافلات ولكنه يتألم من تدهور صحته، ويحن من تشوش ذهنه، حتى إنه ليكاد يهوي من شدة الإعياء. وفي غمرة ذلك كان يتذكر كلمات الإمام وهدان في مسجد فينزبري بارك، فيغرق في الأحلام كما لم يغرق من قبل، وفي غمرة سطله وسكره أطعمته السبايا في الأرض تحت غبار المعارك، وبعد موته غسلته الحور العين، وأنعشته بحور الشراب، واخترع من عنده فراديس وجنان خلد وهو يجول في تيه شعاب تصعد جبالاً من سطل فيستيقظ من

حلم يقظته، يسترجع ويجتر مجدداً الأحاديث التي سمعها من الإمام وهدان في فينزبري بارك، ويحدث نفسه يخطو ليهوِّم برأس متلبد الشعر، وليس على جسمه المتورم إلا بنطال أسود وقميص أسود ومعطف أسود، ثلاثتها كستها طبقات ثلاث من تبغ، وبقع مني، وخرائط قيء وبصاق. كان يسكن في حجرة صغيرة كأنها القفص في المنزل رقم 31 المطل على محطة كوينز بارك. ولعل اختياره لها لم يكن عشوائياً ولا اعتباطاً، إذ كان يهفو على نحوٍ ما لصوت القطارات تحك الحديد بالعجل الحديد، فحرص على أن تدوي في أذنيه أصواتها، صوت قطار البضاعة في أذنه غير صوت قطارات البريتش ريل الخاصة بالركاب المسافرين لمسافات بعيدة، وهذه ليست كصوت البيكرلو وقطارات الأنفاق الأخرى التي تطفو على السطح فقط عند كوينز بارك ريثما تنحدر عما قليل إلى أنفاق الأرض التي خططتها عقولٌ بِيضٌ وحفرتها أيادٍ سُودٌ.

إلى تلك الحجرة يأوي قرب الفجر فينام حتى منتصف النهار؛ كان يعيش في دنيا لا يحكمها الزمن ولا يطولها القانون، ولكنه لم يكفَّ قطُّ عن مغازلة الأحلام. في ساعات صحوه تساءل كثيراً عن المخرج من وكسته: أين يذهب؟ وماذا يفعل غير ما يفعل؟ هذه رابع مرة ينطلق فيها بعد سجن، ولكنه لم يشعر باليأس والقنوط، وضرب جناحي الطائر الأسود في كبده مثلما يشعر بذلك الآن. وعرضت دور السينما في تلك الأيام فيلم مالكولم أكس، فشدَّه الفيلم، بل ملكه فراح ينفق ما يكسبه من توزيع المخدرات للدخول إلى صالات

العرض في بيكاديللي وليستر سكوير المرة تلو المرة لإعادة مشاهدته. ذلك الفيلم ملأه بالغضب فدبت فيه الحماسة وطفق يعيد في ذاكرته كلمات الإمام في فينزبري بارك: الشيخ وهدان، وكانت كلمة واحدة في الفيلم تحبطه وتبعث على الندم في أعماق روحه وأشتات نفسه، ذلكم عندما يكرر مالكولم أكس عبارته: التعليم... التعليم... التعليم، ينطقها متتاليات في مرات ثلاث، تلك الكلمة كانت تنزل في كبده فتغور فيها مثل نصل حاد عميقاً، عميقاً، عميقاً.

ثم تشده فتزلزله من أساسه.

"فاتني التعليم، هل ضعت حقاً وانتهيت"؟ راح يسأل نفسه.

ذات نهار كان يتسكع شبه نائم ناحية كامبرويل عندما ناداه صوت قوي قائلاً:

"سامي حمدان! هيْ سامي! تعالَ يا زميل".

انتبه بعنف ناحية الصوت لكأنما يستجيب للسعة سوط، ثم ابتسم فوثب نحو صاحب الصوت في خطوات عريضة:

"هاي جورج! أنت يا رجل"؟

"أنا دائماً هنا، ولكن يبدو أنك تحب العمل معي".

"عملك قوي يا رجل!".

"وهل ستكتفي بتوزيع هذا الخراء حتى الموت من أجل حفنة جنيهات؟ هه، انظر لحالك، إنك تتعفن".

وأشار له بأن يتبعه إلى عربة فوكسهول جديدة سوداء مركونة قبالة محل يبيع اليام والكسافا والبلاتاين والشطة الكاريبية، بقصدٍ وتأنٍّ

أخرج جورج من جيب الجاكيت الذي يحمل علامة رالف سان لوران سلسلة مفاتيح ذهبية أعمل واحداً منها في باب الفوكسهول وهو يغمغم برجاء:

"أتمنى لو سمح لي الباترون بشراء جاكوار أو مرسيدس أو بي أم دبليو".

انحشر وراء عجلة القيادة، فتمهل في قعدته ومد شماله ففتح الباب من الداخل لسامي حمدان وهو يردف:

"الباترون يقول إن ذلك سيُثير الشكوك في رجل يملك دكاكين لبيع الأطعمة الإفريقية والكاريبي فقط!".

جورج والباترون كلاهما من جامايكا جُلب أجدادهما في القرون الخوالي من كينجستون لحفر أنفاق القطارات وتأدية كل ما هو شاق، كما اعتاد أن يعيد عليه جورج: "هؤلاء البيض هم سبب بقائك في هذا الحضيض والخراء". وأشعل محرك الفوكسهول، وأدار عجلة القيادة وهو يضغط على دواسة البنزين ويسأله ببطء:

"هل شاهدت فيلم مالكولم أكس"؟

"أكثر من عشرين مرة" أجابه بحماسة.

"سامي حمدان أنت لست أسود ولكنك لست أبيض".

ساد صمت بينما انزلقت الفوكسهول على الأسفلت.

"عربي، ولكن العرب ليسوا من الجنس الأبيض يا سامي حمدان".

وضحك ضحكة شحيحة ثم أردف:

"حتى أبناء عمومتكم اليهود يمقتونكم".

ساد صمت جديد قطعه بعد حين جورج:

"أليس كذلك يا زميل"؟

"ماذا تريد أن تقول جورج"؟

"أريد أن أقول إنك مسلم".

"أعرف أني مسلم!".

"ولكن هل أنت غاضب مثل مالكولم أكس؟ هل لك قوته وفيك ثورته؟".

شعر سامي حمدان بشيء من الانقباض، فسأل بصوت مضطرب قلق:

"جورج! قل لي، ماذا تريد مني"؟

"أريد منك أن تغتسل وتخلع عنك هذه الأسمال والأوساخ، رائحة نتانتك تفوح يا رجل".

وزمر بالكلاكس عند انعطافه إلى زقاق ضيق في مجمع المجلس البلدي الفقير في بيكهام، واعترضتهما ثلة من الصبية السود الذين كانوا يمشون في تبختر أصيل، نافضين في كل خطوة كتفاً واحدةً مع حركة مخالفة من الرقبة والرأس على طريقة مشية الفتوات من السود، فأنزل جورج زجاج نافذته وحياهم صارخاً:

"هه، أنتم أيها الأولاد العظماء افسحوا لجورج الطريق".

ففعلوا.

وانعطفت الفوكسهول نحو ميدان صغير به عشب ومراجيح

ومزلقانات للأطفال، فأبطأت قليلاً.

وسأل جورج بنبرة جادة:

"سامي حمدان، هل لديك مانع"؟

علت الدهشة وانعقد الاستغراب في سيماء سامي حمدان وهو يرد السؤال بالسؤال:

"مانع! في ماذا؟".

"عندي لك خبطة".

"جورج"...

"اسمعني، الباترون يبحث عن رجل ذكي، وليس في قائمتي ممن أعرف مَنْ تمكن من دخول مدرسة الغرامر سكول في كل لندن غيرك".

ندت عن سامي حمدان آهة ثم زفر:

"الغرامر سكول في ستون! ياه!".

"كنا نبحث عنك".

"تبحثون عني"؟

"طرحنا اسمك على الباترون وأكدنا ذكاءك".

ساد صمت.

"مدحنا سرعة تعلمك وقوة تركيزك، فقال آتوني به من طقاطيق الأرض".

"ما الذي تريدون مني فعله؟ و...".

فضحك جورج ضحكته المتحشرجة وهو يتم:

"وكم ستدفعون؟ أوَ ليس كذلك"؟

تحشرجت ضحكته أكثر وهو يضيف:

"لا عليك، اطمئن يا زميل".

حينئذٍ كانت الفوكسهول قد عادت إلى الشارع الرئيس.

"علينا أولاً أن ننظفك ونلبسك ملابس تليق بمقابلة الباترون وبالعملية الكبيرة: خبطة عمرك يا رجل".

وأشعل جورج جهاز التسجيل فعلا صوت بوب مارلي ممزوجاً بظل الماريغوانا، منطلقاً مع إيقاع الرغي: انهض..، انهض من أجل حقك، ثم غنى بفلو سولجر وسب اليانكي؛ وقد أثر ذلك في سامي حمدان أيما تأثير، فإحساسه المفرط باللغة كان واحداً من الأسباب الرئيسة لاكتئابه، ما جعله ينفر أخيراً أشدَّ النفور من القراءة وسماع الأغاني، لكن ها هو ذا بوب مارلي يفتح بركاً من أسى، وها هو ذا يغرق في حزن أسود.

عندما أفاق كانت الفوكسهول قد بلغت ناحية ماربل آرش، فركنها جورج قريباً من مطعم كنتاكي المطل على نصب قوس الرخام في ماربل آرش، ثم ترجلا وجورج يقول في مرح:

"عضَّة هنا لا بأس بها يا زميل، هيا".

ودخلا المطعم فطلب جورج وجبتين كبيرتين حارتين مفعمتين بالزيت ناضحتين بالبهار، وحملا صينيتيهما إلى طاولة صغيرة مستديرة عند ركن قصي، ثم جلسا تطالعهما من بعيد بداية شارع أوكسفورد ستريت. التهما كل ما كان أمامهما وشربا البيبسي كولا فتجشآ عن

شبع، ثم خرجا مسرعين، وسارا ناحية اليسار حتى إذا حاذيا بوند ستريت انعطفا يميناً يدخلانه مُبطئين.

"بوند ستريت! هه جورج!".

"نعم بوند ستريت، أوَ تحسبني كنت أمزح معك يا سامي حمدان؟ ستقابل الباترون يا رجل".

خطَوَا معاً، وعلى جانبي الطريق فتحت المحال الباذخة الفخمة أبوابها عن أزياء وحقائب وأحذية باهظة الثمن. ولما دخلا محلاً رائع الإضاءة والديكور قُوبلا بابتسامة متكلفة ونظرة استياء مغلف وقعت كلها على أسمال سامي حمدان القذرة، بيد أن جورج لم يعبأ بأحد ممن في المحل، بل وضع يمينه على كتف سامي حمدان وجعل ينظر للعاملين في ثبات يشوبه التحدي ويكتنفه الاستهزاء.

"هل يمكن أن أساعدكما أيها السادة"؟ قالها مدير بيع أنيق أبيض سمين ليس له رقبة، وإنما كان مكانها ذقنان.

"هذا الرجل يحتاج إلى بدلتين وبالطو وحذاء مع نظارتين سوداوين رائعتين" أجابه جورج بنبرة عالية.

"بكل تأكيد" قال البائع يرجف منه ذقناه المتدليان.

"بدلة من دوتش غابنا والثانية من غوتشي، والنظارتان من أيف سان لوران".

ساد صمت.

وهبَّت في الخارج هبة صقيع منعها عنهم زجاج المحل، ومع ذلك ارتجف الأبيض الأنيق السمين وعلا ذقناه ونزلا.

"هنا"، قال الأبيض السمين يحمل أصناف البدل، بينما يحمل مساعده طقوم الأحذية "يمكنك قياسها في تلك الغرفة الصغيرة".

انتهت عمليات القياس في عجل، وأخرج جورج بطاقة الماستركارد الائتمانية ودفع القيمة الجنونية.

"اِرمِ بهذا الخراء في الزبالة" قال جورج مشيراً للأسمال التي كانت على سامي حمدان.

وخرجا فبدا سامي حمدان في حذائه اللامع وبدلته الفخمة المضبوطة على جسمه كأنه شخص آخر. عادا من الطريق نفسه، فانحرفا هذه المرة يساراً، وسارا في أوكسفورد ستريت حتى بلغا ماربل آرش، فانعطفا ناحية الفوكسهول المركونة. ركبا، وانطلقا صوب محطة وترلو.

أمام المحطة ركن جورج الفوكسهول، وترجلا معاً، سارا بضع خطوات حتى اجتازا مبنى المحطة الصاخب الهادر المكتظ. وعلى بعد ثمانية عشر متراً ارتقيا درجات قليلات ارتفعت حتى صارت عتبة عريضة لباب عادي الحجم شأن أبواب البيوت، باب مَطلي بالأبيض ولا يثير الانتباه، وعلى يمين الباب كان ثمة زر لجرس أحمر، ولكن جورج لم يضغط عليه وإنما طرق على الباب طرقتين متتابعتين ثم ثلاثاً قصيراتٍ منفصلاتٍ، ثم سادسةً طويلةً، هنيهة وفتحت البابَ سيدةٌ سوداء بارزة الصدر ممتلئة الردفين بادية الأناقة في "سكيرت" داكن الزرقة وقميص أبيض، رفعت ذراعها البض ولمست شعرها الذي كان مصففاً على طريقة الآفروا، وسألت بصوت عذب:

"جورج!".

"كيف حالك أيما؟".

والتفتت فحدجت سامي وهي تسأل بنبرة ذات مغزى:

"هو؟".

"كلمي الباترون"، قال جورج.

دلفا بخطى متناسقة، دهش سامي حمدان لسعة المكان وحسن إنارته وتدفئته.. وأجلستهما أيما في ركن فسيح مفروش على الطراز الفرنسي العتيق، وغطس سامي ثم رفع رأسه فطالعته ثريا هائلة من الكريستال الرفيع.

"قهوة أم شاي"؟ سألت أيما.

"لا شيء"، قال جورج.

"كوب من الماء من فضلك" طلب منها سامي حمدان.

وإنْ هي إلا دقائق وتقدمتهما أيما صوب باب ضخم له ضلفتان من المهوقني، دفعتهما في رفق وخطت في لطف، فتبعاها ليجد سامي حمدان نفسه في مكتب بحجم شقة كسته أوراق جدران قانية مرسومة بالفهود والأسود والغزلان الواثبة.

غطست أقدامه في سجاد لا شك أن ارتفاعه عن الأرض لم يقل عن خمس بوصات، في آخر المكتب جثم مكتب ضخم من المهوقني المطعم بالأبنوس، وارتفع نابا فيل التقيا بانحناءتهما ليصنعا قوساً من العاج، وخلف كل ذلك كانت تنعقد سحابة من تبغ هافانا معطر.

وقف جورج، فوقف سامي حمدان.

"هل تقتل مايكل ويليامز"؟ من دون مقدمات سأل صوت الباترون

العميق من وسط العطر والدخان.

ساد صمت.

"أُدنُوَا".

فتقدما.. كان هناك كرسيان على طراز لويس السادس عشر، ولكنْ لم يُؤذن لهما بالجلوس، ومدَّ الباترون يده لعلبة مذهبة مطعمة بالعاج، ثم فتحها واستلَّ منها سيجاري هافانا فضَّهما من غطائهما الشفيف، ثم قدم واحدة لجورج والثانية لسامي حمدان، ونهض وأشعل لهما حافتي التبغ المعطر.

"ستقتل مايكل ويليامز" رماها الباترون بثقة كاليقين.

استطال وجه سامي حمدان من الدهشة، وتمتم وهو يسعل من أثر الدخان الذي ملأ فمه ورئتيه.

"أقتل"؟

فجاءه صوت الباترون صلباً بارداً كالفولاذ:

"نعم".

"لمَ"؟

"لا تسأل، ليس في هذا المكتب من يسأل إلا شخص واحد: أنا".

ساد صمت طويل عميق سُمع فيه صوت الأنفاس وحفيف الدخان يرتفع كما الأجنحة.

"نعم ستقتل مايكل ويليامز إن كنت تريد أن تجمع الرجولة إلى الذكاء، وتطفو من البالوعة التي تشرب وتأكل وتعيش فيها".

"يتكلم بكل استهانة" قال سامي حمدان في نفسه، ثم رفع صوته وقال:

"القتل شيء لم أجربه!".

فنفث الباترون سحابة كثيفة عطرت المكان بعبق تبغ هافانا الأصيل، وقال بحروف قاسيات:

"اذهب مع السلامة سامي حمدان. مع السلامة".

لم يتحرك، ولكنه تساءل بوجه متجهم:

"لحسابك...،"...

وضاع صوته في الصمت وسحاب التبغ، فازدرد حلقه، ثم أتم:

"...، باترون"؟

"نعم، ترفرز أيضاً معي، يعني حماية كاملة".

"ترفرز صاحب امتياز محال الرهان التي تغص بها لندن والمدن والبلدات وقرى الريف الإنجليزي"؟

"تعرفه"؟

"نعم".

"مايكل ويليامز يتوسع من كاره في الدعارة وبنات الليل إلى إنشاء شركة للرهان".

ساد صمت.

"تقتله"؟

"في جهنم هو الآن".

ضحك الباترون، فبانت أسنان من الذهب في فكه الأعلى، ثم تنهَّد وزفر:

"أوه يا ولد".

واعتبر جورج العبارة نوعاً من المديح الخاص الموجه إليه لحسن اختياره، فضحك ضحكته المتحشرجة. أما الباترون، فتوجه إلى جورج بوجهه وتساءل بخبث:

"كم لك؟ وكم له"؟

"سنحتاج إلى أن نوفر له شقة في دورست هاوس في بيكر ستريت حتى يكون في المبنى ذاته الذي يسكنه ويليامز".

استدار الباترون مُتجهاً إلى الجدار الخلفي، وأبعد لوحة عريضة تملؤها زنابق سوداء، وفتح خزانة صغيرة استلَّ منها حزمتين من النقود، ورماهما برفق على قرص المهوقني الذي يعلو سطح مكتبه، فسقطتا قبالة جورج وسامي حمدان.

"عربون"، قال وهو يعض بأسنانه الذهبية على السيجار، وينفث الدخان ألسنةً فكأنه قاطرة تمخر العقود والقرون.

"متى تقتله"؟ رماها بجدية وهو يحدج سامي حمدان بنظرة ثاقبة فاحصة غويطة.

فكر سامي حمدان ملياً وبسرعة ويقظة، ثم أجاب:

"أمهلني أسبوعاً...، الاثنين المقبل".

"أوه يا ولد!" عادت النبرة الراضية، وضحك فلمعت أسنانه الذهبية واهتزَّ صدره، نهض بخفة لا تلائم سنه، وهمس بنبرة سعيدة:

"اتفقنا إذاً. وليبارك الرب رأسك ويديك. مع السلامة".

"مع السلامة" قال جورج وسامي حمدان معاً.

وإذ هما على الباب تناهى إليهما سعال أجش تخللته كلمات محذرة:

"لا تقترب ناحيتي أو ناحية أي أحد منا لأي سبب".

وأسكنوه الشقة رقم 1168 في دورست هاوس في غلوستر بليس حيث كان يقطن مايكل ويليامز. جلس في بهو الاستقبال الفسيح الهادئ ذي الكراسي الجلدية الحُمْر، رأى مايكل ويليامز قادماً من الناحية اليسرى للمبنى، فأغرق وجهه في صحيفة الأوبزرفر؛ وفتح الخفيران سيدني وغودوين الباب الزجاجي وهما يبتسمان وينحنيان.

"صباح الخير غودوين. صباح الخير سيدني".

"صباح الخير مستر ويليامز" معاً ردَّا التحية.

نهض سامي حمدان، وخرج فانحرف ناحية اليمين وراء طريدته، مُجدداً انحرف وراءه خلف اليمين أيضاً مارَّين بمحل الهندي بائع الجرائد ومحل بيع الورود والزهور، ثم محل الجزائريين للبقالة والخضراوات، ثم محال فكتوريا وأود بينز لبيع الخمور، وعبرا شارعاً صغيراً، ثم اجتازا محل شبرد، وعند ناصية مصرف آبي ناشونال، انحرفا يساراً والمسافة بينهما محفوظة، ثم مرا بالمحال التي تبيع تذكارات شاروك هولمز، وقرر سامي حمدان في نفسه أن يزور بيت شارلوك هولمز في منتصف الشارع في بيكر ستريت، وإذ ذاك كان مستر ويليامز قد عبر الشارع وسار يميناً، مُتخذاً سبيله إلى حديقة ريجنت بارك. وعند البحيرة الكبيرة تمشى ورمى من كيس في يده فتات خبز للبط والإوز السابح

والراجل.

كان الجو غائماً.

لكن ويليامز قصد حديقة الورد في ريجنت بارك.

"هذا لا يخلو من الشاعرية! ورد ودم محتمل"، قال سامي حمدان في نفسه وهو يخطو من بعيد، يتأمل الحمرة الداكنة في تلافيف الورد والزهر والإنجليزي، لكم جاء في أوقات ماضيات لحديقة الورد؟ آنذاك، لم يكن الطائر الشرس قد أفرخ وكبر في كبده، لم تكن هرمونات التحول القاسية قد اندلقت مثل المزاريب في دمه، كان يأتي إلى هنا ليتذكر قصائد وردذورث وكيتس التي حفظها عن ظهر قلب. وانتبه لوليامز يخطو خارجاً فناور ببراعة ثم تبعه عن بعد وهو يحرص كل الحرص على أن يلزم جانب الحذر ليعود معه مجدَّداً إلى ناحية البحيرة، ويدخل من ورائه المقهى الصغير الرابض قربها؛ جلس وليامز وطلب فطوراً من شرائح اللحم مع البيض المفقوع، في مقعده لاح ويليامز رجلاً قويَّ البنيان، وجهه مستدير يفيض بالحيوية والألق، عظيم الحنك، قصير القامة، أصلع، له أنف إنجليزي يميل إلى الضخامة، وعينان صغيرتان رماديتان تنظران حولهما وأمامهما في سرعة وفي قلق.

لم يقتل وإن تكن ضربته قاتلة، وهو لا يحب الحياة وإن بدت أحياناً أفضل من الموت، ولكن ما الجدوى من التفكير والعالم لا يسير إلا بقوة سوء التفاهم، فليكن حذراً أشدَّ الحذر، وليرسم كل خطوة بأناة، ومهما تكن احتمالات الغد، فإنه يدخر له خمسة عشر ألف

جنيه، مبلغاً لم يجرِ له في الحسبان وقد يساعده الباترون فتتحقق الأحلام، وضرب من غير قصد رجلاً بديناً أصلع أبيض، فسبه بكلمات نابية أتبعها بـ:

"غريب قذر".

وانطلق سامي حمدان لم يزل ينظر إليه وهو يهتف:

"تباً".. "لذلك أنتم تستحقون القتل" قال في نفسه. وقصد مطعم سي شل للسمك، ذلك المطعم الذي ترتاده من الأسر المالكة جماعات، كانت منهم ديانا والملكة الأم، دخل إلى القاعة ذات الديكور القديم المعتق، وطلب سمكاً مشوياً مع المحار والنبيذ الأبيض، وراح يقضم ويجرع بنهمٍ حتى أذهل النادل، وطاب كل شيء، فقال: ليت ذلك يدوم بلا قتل. ولم يكن يعرف ويليامز أي نوع من المعرفة سوى أن اسمه يتردد في عالمه السفلي، ويليامز كان ذائع الصيت، عليه الآن أن يعرف عنه كل شيء، بخاصة ما هو ضروري لإنجاز مهمته، وطاف سراً بالطابق الذي يسكن فيه، فدرس موقع شقته وبُعده عن المصعد ومخارج الحريق والسلالم، وظل في كل مناسبة يتفحصه عن كثب حتى انطبعت صورته في ذهنه ووجهه المستدير المتألق بالحيوية، وأناقته التي أسبغتها بدلته المنتقاة من هارودز. والتقت عيناهما مرةً، فسرعان ما غضَّ الطرف وتوارى عنه كأنه المطارَد وليس المطارِد وراح يردد في نفسه:

"الغاية الحثيثة لا يلحق بها أبداً

إذا ما الفعل رافقها منذ اللحظة هذه،

فسيكون أول خاطر في قلبي

أول ما في يدي، وفي هذه الساعة بالذات،

لكيما أتوج كل فكر لي بفعل، لن أفكر إلا لأنفذ...

هذا الفعل سأفعله، قبل أن يبرد العزم".

وفي صباح جمعة مشرق صفت فيه سماء لندن على غير المعتاد، في الساعة التي يخرج فيها مايكل ويليامز إلى حديقة ريجنت بارك، قصد الطابق الذي توجد فيه شقته، اختبأ، هنالك، وراء باب غرفة النفايات، كان المسدس في يده يلمع، مسدس كاتم للصوت مثل ذلك المسدس الذي أعطاه له رجل الإمام وهدان أيام التدريب في السلخانة، السلخانة التي لم تبعد عن ألدرشوت، هنالك كانت أول مرة أطلق فيها الرصاص، والآن سمع صوت الباب يفتح، سمع صوت الخطى تتقدم بطيئة في الممر، سمع زر المصعد يداس فيطلق رنة عالية منبهة. "لابد أنه قد خرج الآن" قال في نفسه وبرز من وراء باب النفايات، نظر إليه مايكل ويليامز في استغراب وهو يقف قرب باب المصعد المعدني المغلق، غير أنه ومن دون تردد رفع فوهة المسدس صوب جبهة مايكل ويليامز وداس على الزناد. طلقة واحدة لم يزدها. وفي اللحظة التي صفر المصعد فيها مؤذناً بالوصول كان مايكل ويليامز يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يسأل في صوت خافت حائر:

"من أنت؟ من أنت"؟

لكن سامي حمدان كان قد أشاح عن المصعد، قصد الدرج، وبهدوء

دخل إلى شقته، فتح ماسورة البالوعة الخاصة بحوض المطبخ، فكك المسدس ثم رماه فيها قطعاً، ولم يمض وقت طويل حتى تناهى إليه من شارع ماريليبون رود ومن شارع غلوستر بليس صفير سيارات الشرطة يختلط بصفير سيارات الإسعاف.

تم تطويق بناية دورست هاوس لساعات، وهو ضمن السكان تم استجوابه. الشرطة كانت تعرف نشاط مايكل ويليامز الإجرامي، وهو، حرصاً على ألا يثير الشبهات، بقي في الشقة ثلاثة أسابيع أخرى قلت فيها وتيرة التحقيق.

ثم خرج ليمشي تحت هطل المطر الذي لا ينقطع، رغم نجاحه في تنفيذ المهمة على نحو نظيف أحس بقنوط حزين، ثم بغتة أمسكت السماء وكف المطر.

ساد صمت.

ثم ارتفع صوت الهاتفات يهتفن في قلب الصمت، يرددن كلمتهن الواحدة: اليأس. اليأس".

وفي الصمت تقدم الوقت، وتقلب على فراشه على حلقه عبرة تترقرق، لم تزل عيناه المفتوحتان ترفدان بحدقتيهما السوداوين الظلام بمزيد من الظلام، ولم يزل رأس مارتن المقطوع يقطر وينزف بين يديه دماً إنجليزياً حاراً وحراً هازئاً هزاءً مرًّاً. وارتسمت في وجه الظلام عينان واسعتان خضراوان جميلتان: عينا دوروثي، نافرتان ونائيتان نأي المحال.. وأذن الأذان فنهض وتوضأ فصلى الفجر، ومن قبل شروق الشمس كان قد انهمك في العمل، فتابع الأوضاع في آبار

النفط والسيولة المالية وعدد المجندين الجدد الذين جاؤوا إليه يؤدون قسم الولاء ويقاتلون في صفوفه، وفي الأثناء، كان قد اطلع على الأوضاع في سنجار وأحوال السبيات في ذات اليمين؛ ها قد مضت عليهن أيام. وذات اليمين يغص بالأسيرات اللاتي أصبح اسمهن الآن سبايا.. رجال السواد يملؤون كل ركن وكل ناحية، يصعدون الجدران ويسدون الباب. وفي الأثناء كان منصور الرهيب يقوم بجولاته المرعبة آناء الليل وأطراف النهار يلهب من يمر بها من تعيسات الحظ بجلداتٍ غلاظٍ وهو يسب ويلعن ويخلط ذلك بذكر الله.

في ذات اليمين كان منصور يصول ويجول بين السبايا.

كان دائم الغضب.

كان مفزعاً بشكله وبكلامه.

منصور كان محكوماً عليه بالإعدام في سجن بادوش، وكان في الأصل يعيش في بلدة من بلدات الشمال الأقصى لأحد أقضية الموصل حيث ظل ولعقود طويلة يعمل في ورشة للحدادة، وقد عزم في أحد الأيام المؤلمة من أيام حياته على الانتحار، إذْ كان يكابد غيرة تحولت ألماً نفسياً حاداً؛ كما عزم في الوقت نفسه على قتل زوجته مستخدماً في ذلك قضيباً ملتهباً من نار الكير الجلدي العتيق النتن الذي أنفق حياته ينفخ فيه بذراع واحدة ويد واحدة، كانا يقطنان في حجرة صغيرة عند حافة تلة عالية، وكانت امرأته نائمة حين غرس القضيب الملتهب في بطنها وفي صدرها.

وعلى الرغم من ألم النار والطعن والحريق، صرخت فيه زوجته وهي تقضي:

"لقد كنتَ وحشاً على الدوام ولم ترقني لحظةً".

طعنها حتى خرج القضيب الملتهب من ظهرها، طعنها في كبدها، في عانتها وفي مهبلها وفي دبرها.

لقد خانته زوجته.

ومن سوء حظه رأى مشهد الخيانة فظل ماثلاً في ذهنه لا يبارحه، كان قد شعر بمغص قبيل منتصف النهار، تجاهل آلامه بادئ الأمر، لكن ذراعيه وساعديه أصابها الخور وأحس بكثير من الدوار، فقرر

أن يرجع إلى الدار، زوجته التي تعرف أنه لا يؤوب إلا عند الغروب كانت تقضي نهارها عابثة لاهية مع صبي يعمل في محل البقالة المجاور، كانا يلعبان بملاءة الفراش حيناً ويتعانقان حيناً حينما دفع الباب ودخل، من عجب، وبرغم قوته وشدَّة قسوته وقف كالأبله حتى هرب صبي البقالة.

جلس على الأرض يبكي مثل طفل، تكور على نفسه فبدا أشبه ما يكون بتكور طائر ضخم هوى إلى الأرض مهيض الجناح بينما أخذت زوجته في ارتداء ملابسها.

"سأقتلك" صرخ فيها لما كف عن البكاء.

نظرت إليه في اشمئزاز وتحد، وقالت:

"افعلها الآن وخلصني من هذه الحياة".

كانت حسناء. أبوها ميت وأمها مسكينة أجبرها على أن تزوجه إياها.

بالإغراء والإرهاب نال ما أراد.

كان جمالها يعكس على نحو صارخ قبحه وبشاعته.

وكان ضعيفاً أمام حسنها، أمام جسدها المتوقد توقد لهبة النار في قلب النار.

في السر عملت على ما يمنع الحمل فلم يرزق منها بولد.

"اقتلني" صرخت فيه يومذاك.

فنظر إليها فكه الأسفل يضطرب وشفته المشقوقة ترتعش واعترته مرة أخرى نوبة البكاء.

تعذب أياماً وأسابيع وأشهراً، ثم أخيراً قرر قتلها بالنار مستخدماً في ذلك قضيباً ملتهباً جذبه من أوار الكير.. طعنها حتى خرج القضيب الملتهب من ظهرها، طعنها في كبدها، في عانتها وفي مهبلها وفي دبرها.

ولما قضت سقطت على أرضية الحجرة الصغيرة وعلى فمها ابتسامة لم تزل تسخر منه. تم القبض عليه وحوكم بالإعدام وأدخل سجن بادوش، ولكن لحظه السعيد سقطت الموصل، قذائف من المدفعية التابعة لدولة الإسلام التي كانت قد احتلت لتوها المدينة انهمرت على السجن، فانهارت أسقف زنازين وعنابر ثم جاء المشاة في جلابيبهم السود فحرروه مع مَنْ حرروا من السجناء ليجد نفسه في صفوف معاون الخليفة رافعاً بيده الواحدة الراية السوداء التي راحت تخفق خفقان القسوة في قلبه. ولما لم يكن بمقدوره أن يكون مقاتلاً بالسلاح، فقد تمَّ اختياره لحراسة ذات اليمين. ومن يومها ويده الواحدة لا يفارقها السوط المصنوع من جلد الجمال، السوط ذو اللسانين. ها هو ذا الآن يزأر كالأسد إذ أيقظته من قيلولة النهار جلبة ضوضاء حدثت عند الحمامات بين امرأتين كانتا تختصمان مثل كلبين، وضعت إحداهما يدها في داخل ثياب الثانية، كانت شاذة وعُرفت باسم اللسان الثالث لسوط الوحش.

كانت سورية من حماة، مسنة شيئاً ما، مسلوبة لحم الوجه، بارزة العظام من طول السهر، لم تكن بقادرة على أن تغمض عيناً إلا بعد مغامرة شاذة أو بتعاطي أقراص النوم التي كانت تسرقها بالكميات

من عيادات الأماكن التي تلحق بالخدمة فيها، وهي هنا تأخذها بالعيادة الملحقة بذات اليمين.

كان اسمها عزيزة.

شمس اليوم الأول من رمضان وافقت التاسع والعشرين من يونيو.

نهارات رمضان ستكون رحمة لسبيات ذات اليمين، غير أن هذا النهار كان خطراً في الموصل؛ كانت شمساً وهَّاجة بيضاء حارقة هبَّ فيها السموم، وتحوَّلت الأرض صهداً ورمضاء.. تناهى إلى الآذان أزيز طلقات في البعيد، وانطلقت مدافع ودوَّت انفجارات ها هنا وها هناك، ولكنْ ليس من أمر يُهدِّد قبضة الحديد التي فرضت على الموصل، المدينة الكبيرة التي باتت في قبضة داعش: دولة الإسلام في العراق وفي الشام.

وكانت سيارة اللاندكروزر الصالون السوداء تنهب الأرض صوب مسجد صغير سيعلو منبره بعد حين خليفة المسلمين في العراق والشام.

دارت سيارة اللاندكروزر دورة واسعة، ثم وقفت أمام باب المسجد الذي كان مخفوراً مثل ثكنة عسكرية.. نزل المعاون، ودخل.. كان جمهور منتخب مأمون في الداخل.. التفت إليه الخليفة وأومأ للمؤذن، فانطلق الأذان، وصعد الخليفة درجات المنبر فألقى خطبته، في أذنه كانت كلمات المعاون الواثقة التي رماها كالحمم قبل أيام ترنُّ فتردد خلايا ذهنه صداها:

"سنستولي على الموصل بهجمة عظيمة فريدة من نوعها، وسنستخدم

السلاح بالكفاءة نفسها التي استخدمنا بها الرّشى والترهيب، ويومئذ سيكون لك يا خليفة المسلمين منبر ومسجد وعاصمة، عندما تخطب سيُصغي الكفار إلى صوتك من الهواتف وأجهزة الكمبيوتر وشاشات التلفزة".

هبط المنبر وصلى، فصلوا وراءه، وإذ ما خرج من صلاته بالسلام نهض المعاون وهتف:

"يا خليفة المسلمين في أرض العراق وفي أرض الشام، نبايعك على السمع والطاعة، نبايعك في المكره والمنشط، نبايعك خليفةً لعموم المسلمين في سائر البلدان والقرى. نقسم بالله العظيم ونبيه الكريم أن نكون سنداً لخليفة المسلمين، وأن ننذر أنفسنا للدفاع عن التنظيم، وأن نرفع رايته المباركة السوداء فنقاتل حتى نسقط دونها شهداء أو ننتصر، نقسم بالله العظيم أن نبقى على العهد حتى النزع الأخير، ولا أحد غير خليفتنا بعافينا عنه؛ نشهد أن الخليفة خليفة الله لا حاكم غيره بمطاع، وهو الذي سيُطاع في مشارق الدنيا وفي مغاربها".

ونشرت الراية السوداء على جانب المنبر، فارتفعت وخفقت مع هبات الهواء داخل المسجد وخارجه.

ونهض الجمع المختار فردَّد البيعة، وكانت ميكروفونات أجهزة التسجيل مشرعة وعدسات الكاميرات حاضرة توثق كل لمحة وكل حرف بمهنية عالية لتبثه عبر شاشات الكمبيوتر إلى جميع بقاع الدنيا.

المعاون هو من رتب كل ذلك.

بعد انتهاء اليوم بخطبته وبيعته غربت شمس أول يوم من رمضان وحان موعد الإفطار.. جلس الخليفة ومعاونه وعدد من الرجال يتحلقون على الأرض حول مائدة من أصناف التمر والطعام العربي، راحوا يحللون صيامهم في الوقت الذي عرفت فيه الدنيا بأسرها أن كلمتي "العراق والشام" أُسقطتا من مسمى الدولة ليقتصر على الدولة الإسلامية، فصار واجباً على جميع المسلمين مبايعة الخليفة، وبطلت جميع الإمارات والولايات والتنظيمات التي يتمدد فيها سلطانه ويصل إليها جنده، وذهبت شرعية جميع الجماعات والتنظيمات الإسلامية الأخرى، ولا يحلُّ لأحد منها أن يبيت ولا يدين بالولاء للخليفة، وكل من أراد شقَّ الصف فإنهم فالقُو رأسه بالرصاص.

أكلوا جميعهم وشربوا الماء وتجشؤوا عن شبع.. نهضوا فصلوا المغرب ثلاثاً، ثم عادوا فجلسوا، فدارت أكواب الشاي والقهوة العربية، كان ثمة ما يوحي بطيف من الراحة وإحساس بالغبطة والنصر يهيمن على المكان على الرغم من انتشار البنادق والحراس.

استمرت الجلسة حتى صلاة العشاء، فرُفع الأذان في المكان عينه، ونهض الخليفة والمعاون فتوضآ، وتوضأ الحضور ثم وقفوا جميعاً يصلون وراء الخليفة مُؤثرين عدم العودة إلى المسجد.

بعد صلاة العشاء أومأ الخليفة إلى الحضور إيماءةً ذات مغزى، فنهضوا وانصرفوا إلا المعاون.

"كيف يجري تدبير وصول المورد التقليدي"؟ سأل الخليفة.

"أفلحنا في التمويه لإيصال النقد من أكثر من بلد".

ساد صمت.

"تأكد بأن مصادر تمويلنا التقليدية ستبقى راسخة ولن تطولها الشبهات داخل الدول المعنية" أردف المعاون.

ساد صمت مجدداً.

قال المعاون بعد برهة:

"السعوديون والكويتيون فقط قلقون، ووسائل الإعلام في كلا البلدين تشنُّ علينا حملة شعواء، وتطارد المشايخ العاملين على تنظيم وتسلم التبرعات، لقد كشفوا عن أسماء بعينها".

"هذا يبعث على القلق".

فطمأنه المعاون بصوت جزل:

"لكنْ، لقد أخذنا الموصل أيها الخليفة! مستقبل التمويل بات أمراً هيناً".

"كيف"؟

"إنَّ الذهب ليسيل من بين أصابعنا، الذهب الأسود يا مولاي. بين أيدينا آبار النفط يا رعاك الله".

وأضاف:

"صحيح أننا سنواجه مشكلة في الكوادر العاملة المؤهلة، ولكنَّ أبو عاتكة ورضوان يملكان خبرات هندسية كبيرة".

"أظن أن مال إخواننا في الخارج ضروري لدفع مبالغ للعاملين في آبار النفط واستمالتهم".

"لا تقلق بشأن المال، فمن شأن البندقية إخضاع أي رجل، ثم هناك الآثار التي تساوي ملايين الدولارات، هناك وهناك إلى ما شاء الله فلا تشغلن بالك يا رعاك الله".

لحظتئذٍ نهضا معاً.. تصافحا.. وخرج المعاون.

في الساحة الممتدة أمام البيت، رأى المعاون حفنة من الصبية الذين جُنِّدوا أخيراً يرفعون بنادقهم لإعدام عدد من أهالي الموصل الذين يصرخون وهم يتوسلون:

"نحن مدنيون..، نحن مسلمون!".

تناهى صوت المعاون يصيح من بعيد:

"أنتم متآمرون مع الجيش الكافر ضد التنظيم".

تعالت أصوات ضارعة:

"لا. غير صحيح".

"لا علاقة لنا بالجيش ألبتة".

"نحن مدنيون عزل".

"نحن مسلمون".

لم يشفع توسلٌ ولم تُجدِ ضراعة.

"اسمعوها منا: نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله".

ولم تُفدْ شهادة.

في الساحة دمعت العيون، فغمزت معها من سماء رمضان أسراب من النجوم.

علا صوت نحيب، فأطلق أحد الصبية أعيرة نارية في الهواء جفل في إثرها من أحد أبواب البيوت القريبة عدد من الدجاج والديكة، ومرقت من تحت رِجل المعاون الذي انحنى وسط دهشة الجميع، والتقط بسرعة أحد الديوك، وأحكم قبضته عليه، وتقدم بخطى واسعة صوب الأولاد.

صرخ:

"عندما نعدم الكفرة الفجرة الذين يقعون في أسرنا لا نبدد فيهم طلقات ذخيرتنا، إنما علينا أن نعدمهم هكذا".

واستلَّ من حزامه العسكري الأسود العريض سكيناً، والتفت منحنياً ينظر إلى الديك الذي جحظت عيناه وسال من منقاره سائل أخضر كثيف مشوب بالصفرة والبياض، وقطع رأس الديك بضربة واحدة، فلمعت النجوم الدانية بزرقتها العميقة فوق عرف الديك الشبيه بورقتين سميكتين من زهر الجهنم الأحمر.

ساد صمت بينما سارت جثة الديك من دون رأس، وجعلت تطوف في أنحاء الساحة. خفقت نجوم السماء في ليل رمضان الحالك السواد، ولمعت فوق جميع الأشياء والكائنات، والديك يضرب جناحيه ويجري بلا رأس.

هوى الديك ثم رفس رفساً برجليه.

همد.

هلل الصبية ونظروا إلى أسراهم المذعورين؛ ذبحوهم كما ذبح الديك، فشخرت أنوفهم وأفواههم، تخبطت جثثهم تخبُّط جسم الديك

ورفست أرجلهم رفس رجلي الديك، ثم همدوا.

وهتف معاون الخليفة سامي حمدان:

"حد السكين يجعلهم يشعرون بمدى كرهكم لهم، يا أولاد إن لم نكره الأعداء فلن نحب أنفسنا".

وراحت نجوم أول رمضان تخفق وتبرق.

ومن تعب أغفى في آخر الليل معاون الخليفة فأزعجه وأيقظه من غفوته هياج زغب كثير، فهب مذعوراً يردد:

"بسم الله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله".

هنا ذات اليمين.

وقد مرَّ أول يوم من أيام رمضان، الشهر الذي يلتهم ببطء حرَّ أواخر يونيو المستعر، حقاً، بدء رمضان كان رحمة للكثيرات لأن ممارسة الجنس فيه ممنوعة، بل محرَّمة بالنهار أثناء ساعات الصيام، غير أن رجال السواد يأخذون بُعيد الإفطار في إتيان ما ملكت أيمانهم.

والسبايا لا يملكن أن يدفعن عن أنفسهن ضراوة المغتصبين.

كاجين لم يطمثها بعدُ أحد فلم تزل عذراء، والفضل في ذلك يرجع لنحافتها المفرطة وغرابة بشرتها وعينيها، ما لا يرغب فيه الرجال في هذه المنطقة من العالم، هم هنا، يفضلون الفتاة ذات الامتلاء والساقين الخدلتين والبشرة السمراء والعينين السوداوين.

لو أن كاجين كانت في الغرب لاختيرت دونما ريب لتصبح مانيكان،

لكن هنا! كل شيء هنا في ذات اليمين غريب وعجيب وجديد، مكان تعين على كاجين أن تتأقلم معه وأن تعيش فيه، مكان هناك الكثير للكلام عنه وللسماع عنه، وليس هناك ما يمكن القيام به، لقد فقدت حتى الكتاب: رسائل نهرو إلى أنديرا، الهدية العزيزة التي تسلمتها في عيد ميلادها الثالث عشر من العم عوض، ذاك الذي احترق هو ومكتبته: مكتبة الحرية بنار أشعلها معاون الخليفة.

ماذا يمكن أن تفعل؟ ليس هناك ما يمكن القيام به.

ولكن هناك بالتأكيد ما يمكن التفكير فيه.

وبالنظر إلى الماضي فما أسرع ما يتبدد ويتراجع إلى المرتبة الثانية عند هذا القطيع من النساء، اللاتي على نحو ما، كن يحاولن استنباط نموذج يمكن لهن أن يهمسن به:

"هذه هي حياتنا اليومية".

كان على كل واحدة فيهن أن تجاهد كيما تتذكر من هي؟ ولماذا جاءت إلى هنا؟ وكيف جاءت؟ وذلك كيما تستطيع استئناف الحياة.

أما كاجين، فقد كانت تركز في شيء واحد ألا وهو الهروب. وفي أثناء ذلك راحت تُغرق نفسها في أمنيتها وغايتها، ناسية أن أعظم الأمور شأناً وأعلاها منزلة الآن يعني المحافظة على الحياة.

لكنها تسأل وتسرف في السؤال:

"أين أبي؟ أين أمي؟ وجيهان ماتت، جيهان صديقتي وحبيبتي".

إنهم الآن مادة فكرها، لكل واحد منهم في قلبها حياة.

في الأيام القليلة التي سبقت رمضان شهد ذات اليمين عملاً دؤوباً؛ لقد حولوا الحظائر ذات القماش إلى عنابر.

أخذوا كاجين ورندا وصديقة جديدة تعرفتا إليها اسمها خوشتاف وأودعوهن عنبراً طويلاً سمكروا نواحيه بقطع من قضبان السكك الحديد، أتت بها سيارات لاندكروزر نصف نقل. حرم عليهن الاستلقاء أثناء النهار.. يصحون منذ الساعة الخامسة على صوت أذان الفجر الذي تعقبه صفارة حادة، فترتب كلٌّ منهن حشيتها، ثم يمضين لركن الطبخ، فيغلين شاياً أسود ويعجنَّ من دقيق خبز يومهن ويجلسن على الأرض، فليس من مناضد، يرمين في جوفهن ما يعين على اليأس الطويل.

قالوا لهن: ستطبخن بأنفسكنَّ هنا، وأتوهنَّ بقدور ضخمة وصحون من معدن.

"السكاكين ممنوعة، سنأتيكن بالبط والطيور ميتة".

كن ينتفن الريش ويسلخن ما يُرمى إليهن.

يتناولن ما يهين ماسخاً!

"متى تأتوننا بالملح؟".

وأتوهن بعد أيام بكيس صغير من الملح.

"كلي يا كاجين، فلحم الطير جيد للفتيات" قالت عزيزة التي قد وضعت منذ وقت عينها على كاجين.

"سأفعل يا عزيزة".

"ستكونين امرأتي".

وتابعت:

"إنك رائعة مثل غلام بنهد صغير!".

كانت عزيزة تقول وتفحش في القول وهي تتابع بعينين نهمتين جسد كاجين النحيل.

"نعم، أنت تشبهين الغلمان! ونحولك...".

فقاطعتها كاجين صارخة:

"اسكتي يا منحطة، يا منحرفة يا شاذة!".

ضحكت عزيزة ضحكة فاحشة وزامت:

"هذا جميل. جميل جدًّا! جميل أن أكون كل ذلك!".

وأردفت:

"التمرد والعناد! هذا ما يعجبني، لكن، لا بد أن آتي لك بكل ما في بقالة قضاء سنجار من قشطة وزبد".

ولعقت شفتها العليل بلسانها على نحو داعر ثم أتمت:

"علمت أن أمك وأباك كانا في فرنسا، هناك يعشقون الزبدة، سآتي لك ببعض الزبد".

وأدارت هذه المرة لسانها على شفتها السفلية وأكملت:

"خسارة ليس عندي لك مرقًى".

وتلمظت ومسحت شفتها العليا بلسانها، وأردفت بصوت كالحفيف:

"يا قشطتي".

في الليل سُمعت سكسكة المفاتيح في باب العنبر.

دخلت عزيزة.

الظلمة غامرة والليل ساكن.

خطت عزيزة بغير تحفظ حتى وقفت عند سرير كاجين، فكشفت عنها غطاءها وراحت تعبث في نهديها وأماكنها الحساسة، ولكن كاجين وثبت كالنمرة وعضَّت عزيزة في كل مكان من جسدها فولت هاربة وهي تصرخ وسط ضحك السبايا.. في اليوم التالي وهن يتناولن غداءهن قالت كاجين التي صار اسمها مقروناً بفتاة القشطة:

"سأغامر بالهرب"، قالتها بعزم.

وتلفتت ثم همست:

"سأفعل".

"المغامرة شيء خطر هنا" قالت رندا.

"صحيح، لكن الأمل بالحرية حبل لا ينقطع، ولابد من المغامرة"، قالت وعيناها الخضراوان تبرقان وتلمعان.

ثم أردفت:

"سأعد عزيزة بأنني سأمكنها من نفسي عندما ينشغل الجميع بتأدية صلاة الفجر، ستظل ساهرة تأكلها الرغبة المنحرفة طوال الليلة على نحو يجهدها، على نحو لا يبقي لها طاقة لتقاومني بها، سأقنعها بأن نفعلها خارج العنبر، وعندما تأخذني للخارج سيكون الجميع في الصلاة، سأضربها في بطنها، سأجري، سأتسلل عبر الباب".

تعالى بعد صلاة الفجر أزيز طلقات فعلمت نزيلات العنبر، مع صعود قرص شمس الصباح، أن كاجين القشطة قد هربت.

أعانها الله.

لا ريب أنها ضربت عزيزة ضربة قوية جداً.

ويبدو أن الفرصة قد سنحت لها كما خططت لها فاستغلتها.

لم يُعثر عليها.

هنيئاً لها.

غنين، فردَّدت جدران العنبر الأصداء:

"إحدانا قهرتهم أخيراً،

لا شيء يعدل النجاة".

بينما كانت عزيزة تبتلع القرص وراء القرص طلباً للنوم.

على عجل، انقضى شهر يونيو، فأطل يوليو تحرقه شمس رمضان، فتلفح بهبوب سمومها الروح والوجوه.

قبيل غروب شمس اليوم الذي هربت ساعة فجره كاجين، انطلق المعاون في سيارة اللاندكروزر الصالون السوداء إلى البيت الصغير المطلِّ على الساحة، ذلك الذي يقيم فيه الخليفة، فأفطر وصلى معه صلاة المغرب، ثم عاد إلى حجرته في المدرسة الابتدائية التي جعل منها مركزاً للقيادة.

على ضوء ثلاثة مشاعل احترق فيها النفط، جلس على بساط أخضر موشى بخيط لونه أسود، دخل أسامة قائد كتيبة الميديا ومعه سبعة من الرجال تراوحت أعمارهم بين الثالثة والعشرين والرابعة

والثلاثين، وفي يد كل منهم أجهزة اتصال إلكتروني وأجهزة صغيرة متعددة.

"بارك الله فيكم".

"الله يبارك فيك سند خليفتنا وعونه"، علت أصواتهم جميعاً.

"لقد أديتم عملاً رائعاً وجليلاً، فالمعلومات تفيد بأن العالم بأسره قد شاهد بيعة خليفتنا على اليوتيوب".

والتفت:

"أسامة، نريد تعزيز الكتيبة بكوادر جديدة تملك ذات الجودة العالية، أظن أننا سنضاعف عملكم، كياننا سيعتمد على الصور، على ما سنبثه من مقاطع مستقبلية، يجب أن يرى العالم بوضوح تام أننا على الأرض، يجب أن ينتبه لتفاصيل قسماتنا، إلى عدد معداتنا، وحجم ما نملكه من قوى، يجب أن يرتعد لأفكارنا وخططنا المستقبلية".

نهض ثم تبسم ثم سأل:

"ما المدينة التي كانت بحجم الموصل وسقطت في الحرب العالمية بالسرعة التي أسقطنا بها الموصل"؟

لم يجب أحد.

ضحك.

خرج أسامة ومن معه.

بقي وحيداً، للحظة ولسبب لا يدرك كنهه حنَّ إلى حساء أمه الساخن وإلى فراشه القريب من النافذة في شقتهم في كلفهام جنكشن جنوبي لندن.

اضطرب للحظة فأغمض عينيه ثم فتحهما، دارت حدقتاه الواسعتان فأظلم من سوادهما الفراغ.

كيف انقلب على مدرسته؟

كيف انقلب على أبويه؟

عاده صوت من وراء البحار يقطع آلاف الأميال فسمع نفسه وهو يهتف في أبيه وأمه ومعلميه:

"لقد كبرت. أنا مستقل".

ثم شيء أفضى إلى شيء.

هجر البيت.

طُرد من المدرسة.

ويوم الطرد من بيرغر كينغ الذي التحق به في بيكاديللي سيركس أخذته الشرطة وتم حبسه، ويوم خروجه من الحبس كان يوماً مرَّاً، لفته فيه عاصفة ثلجية غاشية، فأوى ثملاً بنصف زجاجة من ويسكي إلى ركن عند تمثال إيروس المنصوب في الميدان، رقد على الأرض المفروشة بالصقيع وعيناه الواسعتان مفتوحتان تطالعان سماءً لا نجمٌ يغمز فيها ولا كوكبٌ يبزغ، تطالعان في صمت ميت سماءً ميتةً لا تحفل بالغرباء، حدث ذلك في قسوة زمهرير الشتاء، وكان اليوم جمعة، لبرهة أحسَّ بحزن يائس، بغربة كاسحة، برغبة في الموت، برغبة في الفناء، كان ذهنُه مشوشاً مختلطاً مثل أغصان دغل يشتبك، وهمد فجمد مثل قطعة ثلج، ولوهة أحسَّ بأنه ينفصل عن جسده، ينأى عنه، ينظر إليه مثل كائن غريب! كائن بعيد، كائن لم يخلف وراءه

همسة ولا ظلاً، وراقَهُ ذلك الإحساس فراح يتأمل فيه هول الموت، هول الوجود، هول السكون، هول الحياة، لوهلة أحسَّ بأنه يتجمد مجدداً حتى الموت، وسأل نفسه: "لئن مت الآن! فمن يهتم؟ من ينتبه"؟ وسكت ثم غرق في نفسه ثم عاد فسأل نفسه في صدق مرير: "..، وهل الأرض نفسها تكترث لمن مات؟ هل تعبأ بمن يحيا"؟ وأخرجه من سكرات الموت وظلماته، تشبث يائس بالحياة، حرك أطرافه، زفر من حر صدره على راحتي يديه هواءً ساخناً تدفأت منه راحتا يديه، رجفت ولمعت على وجهه أضواء أنوار التمثال، تمثال إيروس، خفقت أضواء المصابيح الكهربائية في ميدان بيكاديللي سيركس، لمعت ثم لاحت بعيدة مثل كواكب شحيحة مريضة معتمة صفراء، ثم توهجت ثم انعكست في بحر حدقتي عينيه المسود، ثم عاد إلى جسده، أو عاد إليه جسده، فراح يتأمل أغصان الدغل المشتبك في أعماقه، ينظر إلى تعقيد نفسه على ضوءٍ داخليٍّ مبهم يشبه الحلم، بل هو الحلم! وفي حلمه خفقت بروق تبشر بالنار، ترسخ للحياة، فشهق ثم زفر ثم غمغم متمتماً: "أهكذا تكون نهاية فتى عبقري؟ أهكذا تكون نهاية تلميذ لامع؟ تلميذ واعد؟ أمن قبل أن يبدأ يكون قد انتهى هذا الباريستر المزعوم"؟ ونشج نشيجاً طويلاً ثم تراخت عضلات وجهه برغم ما قد طالها من تحجر الصقيع؛ والآن تحول لحمه وعظمه إلى كومة من تبرم ساخط، عادت إليه شرارة الغضب فأذكت النار في حطب الحياة، رفع يديه ونفضهما ثم هتف في صوت خافت: "لكن لابد للرجل الذكي من طريق

ما! لابد من طريق ما لأولئك الأذكياء! لأولئك الشجعان! عقل الشجاع قادر على كل شيء: قادر على الشجاعة والانتقام والقوة"، وسكت ثم ارتعد ثم ارتجف وقد تفجر في فؤاده ألف زلزال، وانصدع، فرأى نفسه صخرة يضج في قلبها نبات حي، وأحس بأن جوهره يسعى للحياة، يتوسل للوجود، وجود مستحيل. فدمعت عيناه، ومن شدة البرد القارس، من شدة الصقيع، تجمدت الدموع في عينيه، أسدل جفنيه المتحجرين فانطفأت الأضواء، مات العالم، ولم يبقَ إلا حقيقة نفسه كواقع رهيب، كشاهد وحيد، ثم أحس بظلمة كالعمى تكفن جسمه وتتغلغل فتنحدر إلى ذهنه وخلاياه، وفي تلك الظلمة العمياء أحس بقبضة الجنون، أحس بقبضة الألم الجارح في كبده، كبده التي صارت عشاً لطائر أسود، طائر قوي الجناح، قاسي المنقار، ثم طفا على سطح نفسه فإذا هو هناك، إذا هو كائن موجود، وصفا ذهنه وتوقدت بصيرته فرأى أعماق نفسه الشاسعات يتمدَّدْنَ في قسوة شجاعة، واحتد سمعه يسمع لصوت الفقدان والهجران والخذلان يضرب في عروق الأرض المرتعشة، يخفق في قلبها البعيد، تقلب في رقدته، شعر بدفءٍ عارم يسري فيه سريان الدم في شرايينه وفي أوردته، لقد عادت فدبت فيه الحياة، وانتبه يغالب القيء ويشعر بإعياء شديد، لصرخات ماجنات تنطلق على سطح الأرض فأصغى، وراحت تتناهى إلى سمعه أصوات جماعات عابرة تتكلم أو تضحك في سكر وفي نشوة، جماعات لا يهمها أمره ولا يعنيها منه حال. في الصباح كان الجو رمادياً كالحاً وسماء لندن تهطل فلا تمسك

أبداً. إنها لمدينة تدمن البلل، والبلل إشارة أنثوية، وهو سيجول مثل ذكر يخترق ثنايا ذلك البلل، سيخترقها؛ دار مبتعداً عن تمثال إيروس وانعطف إلى اليمين داخلاً شارع شافتزبري أفنيو، سار فيه مسافة، ثم انحرف يساراً فدلف ناحية سوهو، وفي أحد محال المجلات والكتب الفاضحة، قريباً من محال بيبز آند غيرلز، عثر على ما يريد: إنجليزية بيضاء، خرجت به من المحل إلى شقة قريبة، أخذت الأجر مقدماً، ولما فرغ منها نظر من النافذة فكان المطر يهطل من جديد: "يا للبلل الخالد!"، صاح، وخرج إلى المطر، تداخلت الأصوات في أذنه وهو يدخل من شارع إلى زقاق، كان يشعر بشعور غريب! بأنه يتوحد مع المطر وينفصل عن المارة والأشياء، لاح كأنه يلوي الفار من شيء غامض! ربما من نفسه! لكن بدا واضحاً أن صوت الهاتفات قد عاد يهتف به مُردداً كلمة واحدة: "اليأس. اليأس"، وإذ هو غارق مأخوذ بأيامه الماضيات في المدينة التي قد كره، كان حلق الساعات مراً لكنه كان جافاً في ذات اليمين؛ فها هو ذا منصور الشنيع يجلد بسوطه ذي اللسانين، سوطه المصنوع من جلد الإبل عزيزة، وها هن السبايا قد سدت عليهن المنافذ وضيق عليهن الخناق، ها هن واجمات يحسبن أن قد ضاعت منهن فرصة لطالما فكرن فيها، ومن وقت لآخر كن يمعنَّ النظر في قضبان النوافذ من دون أن يثرن انتباه أحد. إنها فعلاً خطوط سكك حديد ولا حيلة لهن فيها، بقي أن يدرسن الفرار من الباب، هنالك الآن ثلاث من الحارسات المسلحات يحرسن الباب ليل نهار.. وشددت الحراسة بعد أن فرت

كاجين، والدوريات تتابع عن كثب، ومنصور الشنيع ما كان لينقطع ساعة عن دخول العنبر والصياح الذي يملؤه شق شفته بالصفير.

"من تحاول الفرار سنرديها بالنار. كلبات. فاجرات".

إذاً هربت كاجين والمسكينات كلهن يترقبن دورهن، فهن طوراً آملات وتارةً يائسات.

ومرَّ يومان.

حالف الحظ عزيزة فخلصها من منصور الرهيب؛ معاون الخليفة يريد نساءً خبيرات يقمن بتدبير أموره اليومية من طبخ وغسل وكي، وهي من ذات اليمين رحلت إلى الموصل، ولئن كان من شيء أحبته في ذات اليمين فهو توفر أقراص النوم في العيادة الملحقة، ولقد أخذت منها الكثير، ولئن كان من شيء كرهته في ذات اليمين فهو منصور، إنها لتذكر اليوم الأول الذي جِيء بها فيه إلى ذات اليمين، إذ دفعها منصور الرهيب وتبعها بوثبة واحدة، مهتاجاً يدور حول نفسه كالمسعور؛ ففي داخله الآن شيء مخيف يشي بأنه قد تحول إلى مجنون.

بصوت متخوف سألته:

"ماذا بك"؟

"الأجدر أن تسأليني: مَن أكون"؟

نظرت إليه كالمسحورة وقالت له برفق:

"أنت ذاك الذي يرهبه الجميع.."؟

"دونما ريب، صحيح؛ أخيراً ها أنت تعرفين الآن نياتي يا عزيزة،

آنَ الأوان كيما أعطيك تعليمات محددة: أيٌّ من بين قاطني هذا المعسكر يتحدث مع الصحفيين الذين يأتون بين حين وحين من أجل الفرجة والعرض سيُحكم عليه بالموت، لن تبوحي بشيء، ولن أستثني أحداً، وآمل أن تكوني قد فهمتِني، يجب أن تسعي لإفهام الصبايا أنه، ومن أجل بواعث سامية، سيكون عليهن أن يتصرفن كما لو كن هن فعلاً في الجنة، فهذا هو دورك الآن". كانت عزيزة ذات أطراف رائعة مكتنزة قوية فيما مضى لها من ماضٍ في حماة السورية، بينما هي اليوم، هيكل عظمي يبرز من تحت الجلد، جلد مترهل ضارب إلى السمرة وجاف ومتغضن، من وجهها تهدلت الوجنتان، كذلك الشفتان، وكان شعرها مُغطىً بالحجاب.. أما حاجباها ورموشها فكانت حاسرة واثبة مشعثة وجارحة.

قبَّلت من منصور الرهيب يدَه اليمنى بسرعة، وتمتمت بصوت مطيع خفيض:

"حاضر. حاضر".

"كل شيء مثلما أمرت".

"لابد أن يخفنك لا أن يثقن بك"، قال.

ابتسمت ونقلت سبابتها من عين إلى عين، وقالت:

"من هذه الناحية كن مطمئناً".

وأردفت:

"سيكون، وعلى نحو يلائم تلك اليمامات الصغيرات".

وتراجعت إلى الوراء.

"ستجربهن. سترى، سترى".

وأردفت:

"ستشبع منهن، لن أدَعَهن يثرن فيك قشعريرات".

لكنها قد غادرت الآن ذات اليمين وإلى الأبد، آخذة ما يكفل لها النوم لأشهر على الأقل.

ظهيرة اليوم الثالث لا ينساها عنبر السبايا الذي بقيت فيه خوشناف ورندا أبداً، فقد فتح باب العنبر وأدخلت إليه كاجين.. كان وجهها متشنجاً مصروراً صرة قطعة من قماش. شدَّها منصور الرهيب ورفع قميصها ثم وضع شطة في دبرها وفي مهبلها فتقيحا، كانت تسير بالكاد، ويمسك منصور من وراء بعجيزتها ويصفعها فيها صفعاً.

ارتدى واقياً، يقيه حر الشطة واغتصبها أمامهن من دبرها:

"هذا ما تريدينه يا قحبة يا بنات القحاب"، ارتفع صفير صوته من شفته المشقوقة.

قضى.

خرج وهو ينزع الواقي البلاستيكي ويصلح من سرواله وجلبابه الأسودين مثل قلب الشيطان.

وسقطت كاجين على الأرض الساخنة مثل القشطة المذابة.

نشجت ثم غمغمت وهي تجهش بالبكاء.

ولم يسألنها كيف تمكنوا من اللحاق بها والقبض عليها؛ إذ خارت وأغمي عليها.. كانت عيناها الخضراوان مطفأتين ومتورمتين، وكان وجهها قد خشن وامتلأ بالبثور.

بعد الإفطار وصلاة المغرب فُتح باب العنبر واقتيدت كاجين إلى الخارج.

بعد دقائق سُمع صوتها يصرخ صرخات مدوية.

بُعيد العشاء جاؤوا بها محمولة على الأيدي من بين فخذيها نزيف من دماء.

"لقد اغتصبوني من أمام في مصطبة الفناء".

وأسرفت في البكاء وهي تصرخ في ألم أبكى العنبر بأسره حتى الجدران شاركتهن في البكاء.

"كلهم... كلهم..".

وأخذها الإغماء.

ولما عاد إليها الوعي كانت تهجس بكلمات واضحات كأنها تحدث أحداً:

"...، لكن كان لا بد من الهرب، لا بد من الفرار".

وبالرغم من آلامها، شاركت رفيقاتها في الحديث، كانت شديدة الحماسة، وقالت إنها تستطيع فعل أي شيء حتى القتل في سبيل الفرار.. لكنها داخت، راحت في حال ما بين الصحو والمنام. اعتصرتها الحمى وطالها الهذيان من شدَّة الرهق والظمأ والحر، إنها لترتعد وهي ترى أشباحاً واهية ترجف كالظلال، وسقطت روحها فهي تغور في هوَّة ليس لها قرار، لكن، وسط ذلك الحشد من الأهوال جمعتها نوبة الحمى بأبيها سلمان وأمها روجين: في السوربون درست أمها الرياضيات والفيزياء، ودرس أبوها الآداب. كانا يقولان

ويعيدان لها: إن السوربون عبقرية لأنها قد وضعت تمثال لويس باستير أمام كلية الآداب، وتمثال فيكتور هوغو أمام كلية العلوم، كان كلٌّ منهما قد تعوَّد الآخرَ في تلك القرية النائية الرابضة عند سفح جبل سنجار، وكانا فقيرين لأن جميع الأهالي هناك كانوا فقراء، ولكنهما كانا يختلفان إلى مدرسة مختلطة في إحدى القرى الكبيرة التي كانت تبعد عن قريتهما الصغيرة مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل على ظهر بغلة.

ربطت بينهما وشائج قربى قبل أن تربط بينهما أواصر الحب والمودة إذْ هما يافعان.

أثناء انتقالهما لدراسة المرحلة الثانوية في الموصل، تعرفا إلى المركز الثقافي الفرنسي، فظلا يرتادانه بانتظام لدراسة اللغة الفرنسية ومشاهدة الأفلام السينمائية مجاناً. هناك ناقشا جمال فيلم العام الماضي في مارينباد، لقطة الكلب الموجود قرب التمثال، ثم لقطة التمثال من غير كلب، جميلاً كان ذلك!

في المركز الثقافي الفرنسي حفظا أغنيات إيديث بياف وإزنافور وجاك بريل.

كان يهمس في أذنها:

"يجب أن ننسى كل ما يمكن أن يُنسى،

نسيان ساعاته،

أوقات سوء التفاهم،

تلك التي انقضت وراحت.

أنا سأهديك لآلئ من حب المطر،

.....

سأكون الملك،

وتكونين الملكة".

ومن حسن حظهما أن قد توفرت منح للأقليات من الأكراد واليزيديين في العراق فقدما وقُبلا، بل كانا من أوائل المقبولين. أول أيامهما في باريس بُهرا بمنظر الجسور القديمة على نهر السين، بمبنى كاتدرائية نوتردام وهي تكاد من شوقها تطير بكل ثقلها إلى السماء، بمتحف أورسي واللوفر ورودان.

وأحبا الحي اللاتيني الذي إليه قد ركنا.

كان قلباهما يومئذٍ، وقد ظلا، متقدين مثل جذوتين، وعيناهما تبرقان فتلمعان بالعزم والإصرار والطموح والشباب.

في باريس، كانت عيونهما تشرب ضوء الشمس وتشرب الغيوم مثل زجاج معشق عتيد، وسعيد.

وها هي ذي فلذة كبدهما يعتصرها الآن ألم عظيم.

في الموصل، كان المعاون قد تحوَّل على نحو سريع إلى ما يشبه الأسطورة، وقد كان هو ناسجها والحريص عليها.. داخل حجرته في المدرسة الابتدائية عاكف هو الآن على إدارة دولته الوليدة، ومهما يكن، ففي العراق كان معاون الخليفة بارعاً في خلق كيان الدولة الجديد، بالفعل كان الأمهر في توظيف الميديا لهدفه، فها هي كتيبته المقدمة على الكراديس قد تمكنت في أيام من التجنيد عبر فيسبوك والرسائل الإلكترونية وسكايب، فتحت مئات الحسابات للتغريد عبر تويتر، وكان المعاون يعرف هدفه في الغرب ممَّنْ هم مثله يتوقون لهدف يعطيهم معنى للحياة، بخاصة صغار السن، فابتكر تجنيد النساء والأطفال. وذات ضحوة جاء إلى حصته يغسل أدمغة ثلة من الغلمان القادمين من أوروبا، كان يتأبط لفافة من أوراق الفلسكاب، بسطها بحذر كما لو كانت تحتوي على شيء نفيس، وكما لو كانت تكتنف سرّاً سحب منها ثلاث صفحات امتلأت بكتابة دقيقة خطَّت بالخط الكيرسيف، وضعها على الأرض أمامهم، وبراحة كفه الرشيقة النحيلة أخذ يبسطها بعناية، وراح يقول بكلمات بطيئة ممطوطة:

"في هذه الجمعة المباركة بمشيئة الله سأستهل دروسي عن الاستشهاد الذي يرفع رايته خليفتنا، ستطلعون فيها على آلامه وعلى معاركه وعلى تضحياته التي اضطلع بها وهو يقيم دولة الخلافة الإسلامية في الأرض التي فجرت وكفرت. إضبارة هذه الأوراق هي ثمرة عمله الدؤوب، فكل ما فيها كُتب بخط يده من أجلكم كي تستطيعوا

أن تقتدوا بالمثل الذي يضربه لكم في حياته، ولتعلموا كيف تجدر التضحية بالنفس من أجل قضية حقيقية. عليكم أن تدونوا جيداً ما ستسمعون. هذه هي ثمرة عنايته التي أحاطكم بها. لم تكن حياته سوى سلسلة من البطولات، فلا أحد بمقدوره أن يحصي المخاطر القاتلة التي نجا منها بإذن الله، عندما تعون سيرته ستكونون قادرين على ألا تروا فيه غير خليفة قادر عظيم".

في ما تلا من دقائق أخذ يجتهد في رواية العديد من التفاصيل والأحداث، بعضها لا يكاد يصدَّق، بخاصة تلك التي وسمت حياة الخليفة العظيم. وشيئاً فشيئاً ارتسمت صورة الخليفة المقدس أمام المجاهدين الصغار الغُر الضاربين في الأرض بحثاً عن بطل حي، الذين لم تعد لديهم أي رغبة سوى أن يُسمح لهم ذات يوم برؤيته بكماله واستثنائه وهوله وهالته وقداسته، وأن يحظوا بمآثره أو تضحية كبيرة من أجله، لأن استحقاق تقديره يأتي من ارتقائهم إلى ما يفوق إمكانية البشر الآخرين، وهو ما يقربهم إلى الله.

وانتبهوا لصوته وهو يسرف في مدح الخليفة:

"الخليفة، الوحيد في أمره أمر الله، الخليفة الذي طاعته طاعة الله. في الرؤيا قد جاءه النبي صلى الله عليه وسلم، أخذه معه في جميع الغزوات والمعارك، وقال: أنت خلفي وكل من يأتي من بعدي يفديك بنفسه، وستمشي من بعدي وتقيم الخلافة، ومن أرض الشام والعراق يبدأ ملكك. وحدهم المؤمنون بك هم الناجون، وحدهم المقاتلون معك هم المؤمنون. سيأتون إليك من ضوء المشارق، وسيأتون إليك

من ظل المغارب، وسيأتون إليك من هناك من الجزر التي تدور من حولها المحيطات والبحار التي يرتفع الموج فيها إلى صفحة السماء. أنت الصخرة التي ستنتصب، وأنت الصخرة التي تكون برجاً يدفع العواصف. ستسبح الأيام بحمدك، ومقدَّس أنت في السر الإلهي في أرض الشام، في أرض العراق. سيسع الكون نفوذك وستضرب بيد من حديد المدن التي من وراء الأوقيانوس، المدن التي من وراء البحار. وبيدك سيقضي المسلمون الذين ليسوا بمسلمين، وستطعن اليهود، وستذبح النصارى. أيها المقدس الرهيب، أيها المصطفى من الله، أيها المبعوث إلى هذا العالم لتخلص المضطهدين وتنصف المظلومين، جنتك محرمة على المسلم الذي لا يؤمن بك، على المسيحي، على اليهودي. مفتاح الفردوس أنت، وليس من أحد بقادر على أن يخلف لك أمراً، وليس لأحد أن يمسَّك بسوء. أرضك مسورة بالمجاهدين، والمجاهدون جدرانك خليفتنا، ستسكن عش النسر لأنك قوي الجناح، لأنك مديد العمر من حولك مَنْ ينذرون العمر".

نهض الغلمان القادمون من بعيد، الغلمان الحالمون بالجهاد، وخطَوا يتفحصون الأوراق التي وضعها معاون الخليفة أمامهم، يتأملون وهم مفعمون بإعجاب صامت الصفحاتِ التي كُتبت بخط الكيرسيف الإنجليزي الجميل، والتي كانت تنساب بين أصابعه مُصدرةً صوتاً ناعماً، ثم مدَّ أحدهم يده نحو إحدى الصفحات كما لو كان يريد أن يدرسها عن كثب، ولكنَّ معاون الخليفة وضع يده عليها في

الحال كما لو كان يريد أن يصون جوهرة نفيسة من الدنس.

"أنت مجنون! هذه مخطوطة خليفة حي!".

عاد المجاهدون الصغار على عجل وبارتباك إلى أماكنهم.

"لقد كرس خليفتنا حياته لدولة الإسلام"، صاح فيه بقوة متخلياً عن بطء ومط الكلام.

"سنعمل على مناهضة الإسلام الخاطئ، ونقتل من يَدين به، لأنه لا يدين به إلا الكفرة الفجرة".

وأردف تعلو نبرته في حزم ممزوج بالقسوة بالغضب:

"سنجاهد في سبيل خدمة الإسلام الصحيح: إسلامنا الذي صنعنا له الآن دولة".

فوق ذلك كان يدربهم بنفسه – لأنه لم تكن تستعصي عليه لكنة أو دارجة، الأمر الذي كان يشعر الغلمان بالكثير من الأمان النفسي، كأنهم لم يغادروا مدنهم التي هي الآن تبعد عنهم آلاف الأميال – على مختلف أشكال الأسلحة: الكلاشينكوف، مدافع الآربيجي، مدافع الهاون، الألغام، الأحزمة الناسفة، أساليب الهجوم الخاطف، وأساليب الدفاع، وتفنن في تعليمهم أساليب التعذيب، وعلمهم كيف يتسلون بأسراهم وكيف يقطعون الأذن، ويجدعون الأنف، ويقلعون العين، وعلمهم كيف يقدمون ويطيعون هذا الأمير أو ذاك المؤمر عليهم، وأطلعهم على أسرار أرض الشرق ذات الصحارى والجبال والوديان، وتفاصيل ما يخيف في البقاع المختلفة. علمهم الجمل الأساسية في جميع اللهجات المحلية، وكان عليهم أن يقلدوه،

أن يمثلوا معه وأن يتبادلوا تحية النصر الذي سيكون حليفهم على الدوام، وقرن جميع تعاليمه بمكر محبب.

"نجاحاتكم اليوم تعني أن جميع إخفاقاتكم التي مضت قد انتهت".

كان يفسر لهم القرآن على هواه؛ محولاً كل آية إلى عنف وانتقام ودم وكفر وخسران لكل من ليس منهم، وإلى حور مقصورات في الخيام لأولئك الذين يقدمون حياتهم فداءً للتنظيم فقط. ولم يكن ليتردد أيضاً في دحض وشتم الأديان الأخرى، فكان يستعرض لهم خبل المسيحية المحرفة، وجنون اليهودية المنحرفة، ويصف لهم وجوه الوثنية المختلفة، كي يبرهن على سمو تعاليم التنظيم التي لا إسلام إلا إسلامها. كان يلخص ما يبسطه في جمل واضحة توجب عليهم أن يسجلوها ليحفظوها بعد ذلك عن ظهر قلب. كان من شأن تلك الأحاديث أن تعينهم على التغلب على المخاوف، وعلى آلام الغربة، وعلى شعورهم الداخلي بالوحدة والعزلة.

"ارتاحوا بقية النهار لأننا سنجتمع الليلة ونحدد موعد الغزوة المقبلة: أنا والخليفة، لن يفوتني الحديث عنكم في هذا الاجتماع، حاولوا أن ترتاحوا هادئين في هذا الوقت، واغتنموا الفرصة في الدعوة لخليفة المسلمين".

ولما أسدل ليل الجمعة للظلمة جناحاً، واتقدت المشاعل في أنحاء المدرسة التي اتخذها مركزاً للقيادة، وعلا صوت الصمت القابع في السريرة لا يقطعه إلا دوي طلقات بعيدة أو صوت قارئ يصدح بتلاوة القرآن، استولى على الصبية المجاهدين حنين موجع بعد أن

خلفوا وراءهم يوماً ثقيلاً قضوه في التمارين البدنية، وتعلم الإمساك بمختلف أنواع السلاح، فاستسلم بعضهم للحنين ولذكريات الوطن في لندن وفي باريس وفي برلين، وآخرون راحوا يتذكرون مباهج الحياة الكثيرة خارج معسكرهم والمغايرة تماماً لحياتهم. لكن معاون الخليفة كان يردد في نفسه:

"أنا فارس حقيقي، وأنا قوي، والنبي نفسه سيُسر لرؤيتي عنده".

ظل يقول في نفسه ذلك منذ أن تفجَّر في صدره، لكنْ كانت تنتابه بعض الشكوك، فيطردها في التو وهو يهتف بصوت عالٍ:

"هذا هو المذهب الصحيح. هذا هو المذهب الصحيح".

لم تيأس كاجين في ذات اليمين.

وخططت مع رفيقاتها من أجل الهروب مجدداً.

ستهرب هي وخوشناف ورندا.

أصيل الثلاثاء كُنَّ قرب الباب الذي فتح لإدخال ثلة من السبايا الجدد.

وسط اللغط والغبار المتصاعد تسللن خارجات.

ارتبك قرص الشمس المزدهي ريثما يدور حول نفسه في عجلة من أمره، ليغطس في هوة المغيب. مكان قرص الشمس الذي مضى، بدت دائرة هلامية لشعاع نافر مصطبغ باللون الأحمر، يلهب الأفق من جهة الجبل بألسنة قانيات كأنهن من طلع الحميم. ألف لسان دارت بلون النار، تباعدت ثم تلاحم بعضها مع بعض، لتكون أشد وطأة، وأكثر حمرة، وأعظم ظهوراً، وأشد وضوحاً في الأماكن التي تقتطع فيها صخرات الجبل من جسم السماء؛ وإن قائدتهن لتعرف الآن الطريق إلى النجاة، عَدَوْن لاهثات.

وفجأة أظلمت الدنيا.

هل من وقوف؟

هل من راحة؟

هيهات. هيهات.

أضاء جنح الليل والساعة تقارب الرابعة صباحاً، فعثرن على الشارة التي تعرفها خوشناف وحدها، الشارة التي تدل على ناحية الجداول عند الجهة الأخرى من سفح الجبل. بعد بحث طويل دخلن بين

صخرات، وبعد مرورهن، انتصبت خلفهن مثل ستارة كثيفة حزمة من بخار الماء أسدلها الجبل ليحميهن.. دخلن وتوغلن ناحية جداول الجبل المنحدرة من مسيله الكبير، زهاء ثلثي الساعة، يثابرن وهن يباعدن بين الأغصان التي تعترض سبيلهن.. وفجأة وجدن أنفسهن في مكان يشبه القناة فتوقفن، بدا واضحاً أن العديد من الجداول قد تجمعت فصبت ها هنا، اعشوشبت الضفاف وبدت سوداء تحت قطع السماء المظلمة.

أوين إلى جوف صخرة، وعند الفجر أيقظهن غناء آلاف الطيور الجبلية، وبدا العشب بنفسجياً نظيفاً وبكراً، بينما النور ينفذ إلى حنايا الكون شيئاً فشيئاً.

نهضن، نظرن إلى صخر الجبل وإلى قبة السماء التي بدت مهيبة زرقاء، ولم يزل الجبل يردِّد من طيوره صدى الغناء.

قالت خوشناف:

"إنه هنا".

ثم جذبت من بين صخرات متكاتفات فلوكة خفيفة فيها مجدافان، يعبرن بها إلى الناحية الأخرى من الجبل.

غمر ضوء النهار صخر الجبل، وماء الجداول الذي جمعته مصبات القناة على نحو باهر فريد حتى بَدَوْنَ كأنهن تحت وهج أشعة يبعثها مصباح جد قريب، ذلك الوهج ملأ أكبادهن طمأنينة وأمناً، فضحكن لأول مرة، ثم تعالت الضحكات فطالت، فصارت قهقهات.

"لقد نجونا. لقد هربنا"، صحن في صوت جزل.

وبدا في نبرتهن التعب.

لقد بدَّدن الكثير من نشاطهن منذ ليلة أمس، وأعادت الضحكات إليهن بعضاً من نشاط.

"جدِّفْنَ بقوة لنصل إلى الجانب الآخر من الجبل"، صاحت خوشناف.

جلست رندا في الوسط قرب خوشناف التي حملت المجدافين، بينما جلست كاجين في المؤخرة.

طَفَوْن فوق القناة المتجمعة من مصب الجداول بصعوبة بالغة.

"هيا جدِّفْنَ يا بنات"، كرةً أخرى صاحت خوشناف.

لكن الماء لم يكن عميقاً بما فيه الكفاية ليحمل ثقلهن، فارتجفت الفلوكة الخفيفة وغاص المجدافان في الطين.

طفقن يبذلن كل ما بوسعهن من طاقة كيما تظل الفلوكة طافية، وكيما يتقدمن في الماء، ولكنهن كلما تقدمن شعرن بأنهن ينحدرن راجعات.

بدا واضحاً أن الماء ضحل.

وكان الليل على وشك الهبوط.

"لقد نجحنا في الهروب" صاحت رندا.

"سننجو، سننجو يا بنات" أردفت رندا.

غير أن بشارتها تحولت في التو نذيرَ شؤمٍ؛ إذ سمعن جَلَبة، ورأين

جلابيب سُوداً.

انهمرت عليهن طلقات بنادق الكلاشينكوف المشرعة الفوهات، فأصابت الفلوكة، واستقرت طلقة برأس خوشناف، فاضطربت واضطربت معها الفلوكة فمالت وهَوَيْنَ إلى الماء الذي امتزج هو وطينه وصخره بالدماء.

"ما من فرار. ما من فرار. قفن".

فاجأهما الصوت، التفتتا فرأتا رجلاً عاري الصدر يرتدي عمامة سوداء وسروالاً أسود، وينتعل حذاءً عسكرياً أسود كذلك، وبيده البندقية ذاتها التي يحملها جميع رفاقه.

"أنتن مسلحات"؟

"لا".

"كم عددكن"؟

"اثنتان".

"اثنتان أم ثلاث"؟

"كنا ثلاثاً".

"حسناً اصمتا ولا تتحركا".

"تعاليا إلى هنا يا كافرتين يا فاجرتين".

"أنتنَّ الفارات من ذات اليمين؟! أين الثالثة؟".

"قُتلت".

وسقطتا في أيديهم كرةً أخرى.

مجدَّداً، عادتا لفناء ذات اليمين.

كان الباب يُفتح ويُقفل لتدخل السبايا الجدد فرادى وجماعات. ومع طلوع شمس اليوم التالي لإرجاع كاجين ورندا، كانت توجد في ذات اليمين مئة وتسع وثلاثون أسيرةً حُكم عليهن بالسبي.

هذا الصباح غير كل صباح.

وقفن زهاءَ ساعة وثلثها تقريباً في صفوف سباعية خططت فضاء فناء ذات اليمين المستدير.. كن قد ارتدين قمصاناً وزعت عليهن أثناء الليل فيها الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر، كانت قصيرة عارية الأكمام! بدا واضحاً أن إظهار المفاتن كان هو المقصود، غير أن الشحوب الذي كسا الوجوه لم يساعد على إظهار الصورة كما ينبغي.

ببطء انفتح الباب الخارجي الكبير وظهر للعيان رتل عربات نصف نقل، وراء مقاودها رجال أشداء، ملابسهم كما الجميع سوداء.

وقفت العربات ونزل من إحداها رجلان يتمنطقان بزنارين عريضين يتدلى منهما غمدان لمسدسين، وتبرز منهما قبضة السلاح، أدارا العيون وهما يبتسمان، كانا ناعمين مثل قوادين، لكن على نحو ما كانا قاسيين قد لوحت الشمس وجهيهما، أحدهما كان شاباً في السابعة والعشرين تقريباً، يحرك عينيه ورقبته حركة الأنثى العارمة.. وأما الثاني، فكان كهلاً في الخامسة والخمسين ولم تنبت له لحية ولم ينبت له شارب، بدا الكهل أكثر رقة من الشاب الذي انتفخ صدره كبراً، شاعراً بأهميته المستمدة من رزم النقود التي كانت تملأ يده،

وعلى نحو أكيد كان يدرك أنها تزيد على ما في كف زميله الكهل.

أما السبايا فها هن في صفوفهن ينتظرن المشترين.

رفع منصور الرهيب سوطه ذا اللسانين وصاح في صفوف العرض المتراصة:

"انتبهن، هذه لحظة السعادة والهناء لمن يحالفها الحظ لأنها ستنقل للعيش في بلدة، أو ربما تكون محظوظة أكثر فتعيش في مدينة، ربما دمشق ربما أنطاكية ربما...، منذ هذه اللحظة تنتقلن إلى أيادي ملاككم الجدد، أقصد إلى أيمانهم، فأنتن مما قد ملكت منا اليمين".

وسار يلمع وشم جبينه تحت الشمس ويزبد شق شفته العليا، فتبعه القوادان اللذان رفعت النقود من رتبتهما فهما بها ليزهوان: إنهما الآن نخاسان.

أوقفوهن صفاً من بعد صف، ولم تكن السياط لتغيب عن أيادي حارسيهن. كانت ثمة عربات نصف نقل، وقد وقف بالقرب منها نخاسون برعوا في تجارة قديمة هي الآن رائجة ومربحة.

"هذه ستون دولاراً".

"انظر إلى هذا الكفل، وحده يساوي مئة دولار!".

"يا شيخ! ستون لا أزيد".

"وتلك"؟

"هذه لا أدفع فيها أكثر من أربعين يا شيخ منصور" قال ناجي.

وقال فؤاد:

"كم تعتقد يدفعون لنا؟ أغلبهن لا ينجحن في الرقص والملاهي!.
"لماذا"؟
"يتمردن على الحياة الناعمة فيهربن في أول غفلة".
"هؤلاء لا يشتريهن أصحاب الملاهي الراقية، يخافون منهن...، فنضطر إلى بيعهن للقوادين أصحاب البيوت من الدرجة الثالثة".
وراحا يتفحصان الصفوف، يفتحان فماً هنا لينظرا إلى نصاعة الأسنان، يجسان ثدياً أو نهداً ويرفعان قميصاً كيما يكشف بطناً أو خصراً، والسبايا واقفات قد صبرن على جسِّ المشترين لا يملكن أن يدفعن عن أنفسهن ضراوة يد أو دخول أصبع. كان ثمة لغط ومساومات حتى بدا المشهد برمته كأن قطعة من التاريخ قد بُعثت بعدما طوتها قرون وحقب قد خلت، لكن فيما يبدو لم يطمرها النسيان قطُّ.
"سبعون دولاراً عن كل واحدة".
"يفتح الله".
"يستر الله".
وبحركة نخاسين ماهرين خطا ناجي وفؤاد صوب العربات نصف النقل الرابضة وهما يرددان:
"لقد أضعتم وقتنا".
"حسناً، سبعون عن كل واحدة، هيا أرياني الأوراق الخضراء، اعزلا مما تريان وخذوهنَّ كلهن، معاون الخليفة يحتاج إلى نقود".
وطاف ناجي وفؤاد على الصفوف.

يمسك ناجي بفتاة في العشرين ممتلئة الساقين ويجذبها:
"هيا أنت، تحركي".
"وأنت".
"وأنت".
وهدر من بعيد محرك لاندكروزر تقترب مسرعة، فأصاخا السمع برهة ثم عادا لما كانا فيه، ثم مرا بكاجين فلم يرقهما نحولها ولا شحوب وجهها واخضرار عينيها فتجاوزاها.
وانتبها للاندكروزر سوداء اللون تلوح في الأفق.
"علينا السيطرة على العرض يا ناجي، إلى أين ستأخذ بضاعتك؟ تركيا أم سوريا"؟
"تركيا، يا فؤاد".
"شاطر، تركت لي السوق الصعب إذاً!"
وركلت الفتيات المختارات.
لحظتئذٍ وصلت سيارة اللاندكروزر السوداء، ودارت دورة واسعة ثم وقفت بضربة قوية على الفرامل وأطفأت محركها، وانفتح الباب فوثب معاون الخليفة وخطا خطوات واسعات.
"زُهاء ثلثيهنَّ قد بِيع بسعر لا بأس به، أما هؤلاء فهنَّ الكافرات الفاجرات اللائي لا يرغب فيهن أحد".
"كم عدد مَنْ بِعن"؟
"سبع وثمانون. كُنَّ مئة وتسعاً وثلاثين".

"الباقيات يوزعن على مجاهدينا في الأنحاء، بعد أن تختاروا منهن ما تشاؤون".

على الفور علت تكبيرات وتهليلات.

امتدت أيادٍ قاسية تختار سبيتها ممن لم يُبعن.

ثلثا قاطني فناء ذات اليمين أركبا الناقلات الرابضة.

وبغتةً تسمَّرت عينا معاون الخليفة في القدِّ النحيل الذي ذكَّره بقدٍّ آخر، فيما ذكَّره الطول اللافت أيضاً بطول آخر. وفي تلك اللحظة التفتت كاجين بعنق بض رائع كعنق الريم، فلمح شقرة يعرفها، شقرة في البشرة وشقرة في الشعر، ارتبكت من نظرته التي سددتها حدقتاه المستديرتان المظلمتان في محجري عينيه الواسعتين، وبغير إرادة منها اغرورقت عيناها وطفقتا تفيضان وتسيلان بحراً أخضر غامض النداء، ولما أشاحت كان فكه يرتعش، وأجفانه تضطرب ويداه تعرقان وهما ترتجفان.

انهمك الحراس في الجدل حول مَنْ بقين من السبايا، وراحوا يزايدون على أكثرهن امتلاءً. أحدهم جذبها إليه:

"والله هي لي".

فترجاه آخر:

"بِعني إياها".

"لا والله لا أبيعك إياها".

فقال الذي يجادله:

"مسدس إذاً مع البطانية".

وقال آخر:

"أنا أعطيك مسدساً وبطانية وطلقات".

وأقبلت كوكبة بأسير تجره على الأرض جراً، فعلا صوت منصور:

"ليس لدينا وقت لهذا البهيم، اقطعوا رأسه".

من بعيد، سُل نصل حاد ولمع.

تدحرج الرأس.

شمت كاجين رائحة الدماء، لحظتئذٍ لم ترَ رأس الأسير المجهول الاسم والهوية، وإنما رأت دماء جيهان تقطر وتسيل أثناء المسير من قمة الجبل إلى سفحه، والآن عنق الأسير المقطوعة تبقبق بالدماء؛ ومن دون أن تشعر صرخت وأطلقت ساقيها للريح، الهرج والمرج الناجمان عن دفع السبايا المبيعات وركلهن ليصعدن على ظهر العربات الواقفات صرفا الظن عن أنها تهرب مجدداً، وظنها الجميع تتوارى عن منظر قطع رأس الرجل الأسير، ذلك المجهول الاسم المجهول الهوية المشؤوم المصير.

"أعيدوا تلك البنت" صاح معاون الخليفة.

بعد لحظات كانوا قد أعادوها من قرب الباب الموصد.

مجدداً تثبَّتت في عينيها الخضراوين عينا المعاون الواسعتان، تدور ثم تدور فيهما حدقتاه المستديرتان المسودتان.

عاد المعاون إلى الموصل متأخراً، طوال الطريق ظلت تعوده العينان الخضراوان، على نحو ما بدا متوتراً وظهر ذلك في الرمشات السريعة التي جعلت تلعب بأجفانه وأهدابه. قضى وقتاً مع أسامة وأبو عاتكة ورضوان يناقش معهم مسار ضخ وبيع النفط وخطة اليوم للإعلام، ثم راح فاجتمع بالخليفة في تلك الدار المطلة على الساحة، غادرها بعد أن تناول معه السحور، وأطلعه على ماذا سيكون في الغد من أمور.

عاد إلى مركز قيادته في المدرسة، وصلى بالحراس الفجر، ثم أمسك صائماً.

دخل حجرته كيما يغفو إغفاءة خفيفة، دأبه منذ حين، يحسو من نومه كما يحسو الطائر.

وأغفى.

وفي غفوته رأى أنه على خشبة مسرح الغرامر سكول في ستون يمثل مع دوروثي، محدقاً في عينيها الخضراوين.

"ألا أيتها العجلة الفاسقة، تهرعين بمثل هذه السرعة إلى الشراشف الزانية"؟ غمغم في إغفاءته.

يشكر للتمثيل ساعاته التي كانت تجمعه بها، فقد كانت دوروثي نفوراً وكان هو بعد حادثة حوض السباحة كسيراً حييًّاً خجولاً.

معها، كانت تنتابه أحاسيس غامضة ويحتشد ذهنه بصور غريبة.

كان يحدق في عينيها الخضراوين مثل حجري أفنتورين كريمين، حجرين من بلو الكوراتز الأخضر الشفاف، ولكنَّ عينيها المشرعتين

كانتا توصدان مصراعيهما حينما تنتبهان.

كرهته في الصف السادس الابتدائي حينما كانا في الثانية عشرة من العمر، وها هو الآن أمامها عطيل، وها هي أمامه على الخشبة ديدمونة، فأين ستهرب من نظراته ومن خناجر شكسبير؟

كان يفتح عينيه الواسعتين فيضطرب الغموض مع الرغبة والانكسار والغضب في حدقتيهما المستديرتين المظلمتين بسواد ثقيل، وبنبرة معبرة خاصة تميز بها، نبرة تجمع بين إلقاء لورنس أوليفيه وبيتر أوتول يتبدل وهو يقول لها على المنصة:

"لو أن مشيئة السماء كانت

أن تبتليني بالنوائب، لو أنها أمطرت

ضروب القروح والمخازي على رأسي العاري،

وأغرقتني في الفقر حتى شفتي،

وسلمتني للعبودية أنا وأنا وأقصى ما أومل،

لوجدت في مكان ما من نفسي

قطرة من جَلَد. أما أن تجعلني وا أسفاه

هدفاً ثابتاً لهزء الزمن،

يشير إليَّ ببنان بطيء لا يتحرك!...

ولكن لكنت أتحمل ذلك أيضاً، حسناً، حسناً جداً.

أن يقذف بي عن ذاك الذي فيه خزنت قلبي، ذاك الذي

به عليَّ أن أحيا أو أعدم الحياة،

ذلك الينبوع الذي فيه يدفق سيلي،
ويغيض بدون.
أما أن يجعل منه بالوعة تتناكح فيها
ضفادع السم وتتوالد.
أيها الصبر، أيها الملاك الفتي الوردي الشفتين
أجل عندها فلتكفهرَّ كما الجحيم!".
فترفع دوروثي عينيها الخضراوين وتسأله بصوت ضارع:
"أرجو أن سيدي الجميل يعتبرني شريفة".
فيحدجها فتغمض عينيها مُبدية أجفاناً ناعمة مثل أوراق الورد، مثل الحرير، وأهداباً طويلة ترتفع فتمس منها الحواجب.
ويهتف فيها بحزن:
"أي والله، كما ذباب الصيف في المجزرة،
إذ ينشط فيما يحط! ألا أيتها النبتة
الرائعة الجمال، الزكية الفوح، التي
يتلذذ الحس بها حتى الألم،
ليتك فقط لم تولدي".
ولكنها كانت قد كرهته ولم تعد تطيقه. كرهته حينما كانا في الصف الصف السادس الإبتدائي في فسحة الرياضة يتبادلان مختلف الألعاب، وعلى الرغم من أن الجرس قد قرع قد معلنا نهاية الفسحة إلا أنهما بقيا وحدهما في حوض سباحة المدرسة الابتدائية يلعبان بعد

انتهاء فترة الرياضة غير مكترثين لقرع الجرس.
"تعالي، قربي" ناداها.
"أنا أريد أن أسبح لا أن أكون قربك".
في لحظة، وكما الضفدع كور نفسه وقفز صوبها.
"ابعد عني!" صاحت.
كانت بيده موسى حلاقة سرقها من صندوق أبيه الأخضر المحشور في خزانة الحمام، بعنف ضرب السير الضئيل الذي يمسك لباسها فانقطع. قفزت دوروثي عارية، فلمع في الماء وفي الضوء زغب حميم فيه لمعت قطرات دم وردي ما لبثت أن ذابت فضاعت في زرقة الحوض.
لكن رائحة الدم غلبت رائحة الكلور.
كالنمرة قفزت عليه، فركلته وعضته.
ونتيجة لفعلته، أوقف من المدرسة لمدة أسبوعين، ولكنه، بذكائه البارع، تمكن من إقناع المشرفة الاجتماعية بأن تلك لم تكن إلا لعبة ظنها ستبهج دوروثي.
"أوَ تلعب بشفرة حادة! هل تعتقد أن ذلك مما يسمى لعباً؟".
"ما كنت أظنها لتدميها أو لتؤلمها!".
"هل أنت جاد فيما تقوله لي؟".
"شهدت حاوياً في كوفنت غاردن يدخل عشرات الأمواس في فمه ويبتلعها ثم يتقيؤها من دون أن تجرحه!". قال.

وعلى كل حال فقد كسب تلك القضية وعاد إلى الصف.

خرج من تلك القضية ليؤكد على نحو ما أنه مشروع باريستر ناجح، مشروع وليس نبوءة.

غير أن الأمر زاد تعقيداً أيام الأزمة المزلزلة التي اجتاحته فعصفت به بعد سنوات، أزمة هرمونات المراهقة، أزمة عذابات الروح، أزمة إحباط العاطفة؛ فبعد عودته من تدريب القاعدة في السلخانة الريفية ناحية ألدرشوت صار شديد الانفعال، كثير الصمت، كثير السرحان، كان يجلس في الفصل فكأنه غير موجود، فقط يحدق في دوروثي، وهي قد تنتبه إليه فتشيح عنه، تلك الأيام كانت قد أصبحت صديقة لمارتن، أحس بأن اختيارها لولد أبيض، وتفضيلها له عليه، إهانة شخصية له، تعارك مع مارتن ذات اثنين وضربه ضرباً مبرحاً، لاحظ مدرسوه تغيره، كان يتدهور في أدائه الأكاديمي على نحو مريع، ثم راح يختلف إلى المدرسة في ثياب متسخة، من دون أن يستحم، من دون أن ينظف أسنانه، عيناه الواسعتان اتقدت حدقتاهما المستديرتان بظلمة رهيبة، ظلمة مفزعة فكأن فيهما نظرة الشيطان نفسه.

وذات أصيل صحو لأحد الآحاد، قصد بيت دوروثي في سانت دستان هيلز في ناحية ستون، ربض لها، كانت تتريض على الدراجة بعيداً عن البيت، كَمَن لها عند عطفة من بعدها طلعة من ردمية ترابية على الطريق، نهضت في وسطه مثل سنام الجمل، هنالك برز لها، ارتعبت واهتز مقود الدراجة بين يديها، دنا منها، دفعها،

سقطت وارتفعت تنورتها، انحنى عليها، وبجرة من يده شد لباسها الداخلي فانكشف عضوها الطفل، كان نائماً وسط ذلك الزغب الناعم مثل ودعة صغيرة عمياء، حدَّق فيه فاضطرب والتهب وجهه على ضوء الأصيل المؤتلق، حاول أن يلمسها، لكن دوروثي أطلقت صرخة مدوية فركض في العطفة الخالية وقلبه ينبض مثل آلاف الساعات المحبطة، صبيحة اليوم التالي كان في مكتب ناظر المدرسة، مدرسة الغرامر سكول في ستون.

"ماذا فعلت لدوروثي"؟

"ما شأني أنا وشأن دوروثي"؟ رد سؤال الناظر بسؤال.

"لقد قدمت شكوى ضدك!".

"شكوى! ضدي أنا"؟

"ألم تذهب بالأمس إلى سانت دستان هيلز؟".

"سانت دستان هيلز؟ وما الذي يدفعني إلى الذهاب إلى هناك؟ أنا أسكن في منطقة أقل حظاً، في كلفهام جنكشن، منط...،".

فقاطعه الناظر بنبرة حازمة وعين فاحصة مستريبة:

"أنا أعرف أين تسكن، هذا في السجلات".

"إذن ما الذي يأتي بي إلى سانت دستان هيلز"؟

"دوروثي تقول إنك اعتديت عليها قرب بيتها عصر أمس".

"هل من شاهد؟ هل من أثر طبي على جسمها؟ صدقني أنا لم أقذف إلا في الملكة فكتوريا".

وهنا وثب الناظر فوقف وضرب بقبضته على الطاولة المهوقنية ثم صاح:

"الملكة فكتوريا؟ ولد! هل أنت مجنون؟".

"لا. أنا في كامل وعيي، وقد حدث ذلك في منزل ريفي قرب سلخانة ناحية ألدرشوت. هل تعلم بماذا أحسست سيدي الناظر؟ لقد أحسست في تلك اللحظة بأني أعبث بشرف الإمبراطورية".

ارتبك الناظر جداً، وأجرى تحقيقاً مطولاً استمر أياماً، لكن سامي حمدان كسبه مرة أخرى، كسبه لإنكاره القاطع ولأنه كان ينبغي وجود شاهد ليؤكد أنه مزق ملابس دوروثي الداخلية أو تقرير طبي يؤكد إيلاجاً أو أثراً لحيوان منوي، هو فقط، نظر إلى ودعتها العمياء النائمة وسط الزغب الذي يحب.

الزغب الحي.

كان اليوم ثلاثاء.

وكان الوقت ليلاً.

وليل رمضان يمضي سريعاً.

الساعة تجاوزت العاشرة والثلث.

من ذات اليمين في قضاء سنجار، علت صفارت الإنذار، الآن، تم اكتشاف اختفاء سبية؛ كانت كاجين قد هربت كرةً أخرى، وحدها هذه المرَّة. انسلت وهواء الليل ساكن معلق، وثمة أشعة من ندىً فضِّي يرشقُ بها قمرُ رمضان بحرَ عينيها الخضراوين. تاهت تحت ضوء القمر ثم أوت إلى حفرة من تلك الحفر التي تحفرها الثعالب والضباع في الخلاء الموحش عند سفح الجبل.

انتظم البحث عنها الليل كله، استمر من الليل إلى السحر، من السحر إلى الفجر.

حاولت، لكنها ما أفلحت في الفرار.

فها هم الحراس من رجال السواد قد ألقوا القبض عليها لدى خروجها صباحاً من حفرة ثعلب، ليس بعيداً عن المكان. رفعوها من يديها ورجليها وساروا بها صوب الباب الخشبي القديم لذات اليمين، كانت تتملص وتتفرفص بلا كلٍّ بلا ملل؛ فإنها لتؤمن بأن في مقدورها محاولة الفرار مجدداً ومجدداً.

أعادوها كرةً أخرى إلى ذات اليمين.

وحدها هذه المرة تلقت الركلات وتلقت الصفعات.

الساعة جاوزت الثامنة والنصف صباحاً،

صباح الأربعاء.
وثمة سيول من عرق يغسل بها وجهها المتعب قرص الشمس الملتهب الحامي في رمضان.
هذا هو الفناء الرهيب،
ثمة ضوء غامر،
ثمة ألم عظيم.
وها هي ذي قد وقفت مُطأطئة.
ولما رفعت وجهها طالعها منصور المشقوق الشفة المثروم الأنف الموشوم الجبين.
دنا منها، وقف، فصارا وجهاً قبالة وجه.
وخضَّها الصوت المرعب الذي ينطلق فيصفر من شفة واحدة:
"إلى الوراء أيتها القذرة الكافرة الفاجرة، سندخلك الزنزانة. يبدو أنك شيطان مريد، أنت لست بإنسان!".
كانت رندا تسترق النظر إليها من بعيد، لوحت بيدها تحت وهج شمس الصباح، ثم عقدت أطراف أصابعها ففهمت قصدها: كانت تقول لها اثبتي وتثبتي جيداً، فالزنازين صعبة لكنك ستكونين بخير...
بعد ست دقائق فقط كانت تخطو وهي تغالب البول في طريق الزنازين الصغيرة: متر في مترين.
لكن تطمينات رندا لم يكنْ لها نصيب من الواقع ولم يكنْ لها ظل.
شدَّها منصور الوحش الرهيب من خصلات شعرها الأشقر، ركلها

وجلدها بسوطه ذي اللسانين، سوطه المصنوع من جلد الإبل، ثم أدخلها الزنزانة، رماها على قفاها ورفع ثوبها فولجها حتى أُغمي عليها.
خلع عنها ثيابها، ركلها مثل وسادة يعطنها العرق، ثم خرج.
وفي الليل أفاقت على صوته الغليظ يصفر من بين شفتيه صفير قاطرة قديمة مهترئة:
"تراجعي إلى الوراء أيتها الفاجرة الكافرة"، إنه منصور الرهيب...
وأضاء الركنَ الذي كانت فيه مصباح كبير، فظهر جسمها عارياً.
"إليك ما تلبسينه أيتها الكافرة الفاجرة. ولا تتحركي من مكانك.
وهاك الماء ومعه ما ستطفحين".
ثم صرخ كالوحش فمضى.
ولأن تحديد النيات يستلزم صبراً طويلاً فقد كان عليها أن تنتظر.
بعد يومين أعادوها إلى العنبر.
خطت ببطء واجتازت عتبة العنبر.
عزيزة اختفت...
سألت عنها.
"نقلوها إلى الموصل لتعمل في خدمة مركز القيادة، يقولون إنها ستعمل هناك في مطبخ بيت قرب المدرسة الابتدائية حيث يعمل وينام معاون الخليفة، هكذا يقول منصور الرهيب"، قالت بعض السبايا.

كان الضوء يختلج ثم يأتلق في سماء النهار. وفي العنبر، كان البط والإوز والدجاج البري والقمري والحمام فوق النار... وكان غطاء القدر عنده يتراقص بفعل ضغط البخار، وكانت القدر قد وضعت فوق موقد يعمل على الفحم يحول الآن جو العنبر من حر الصيف إلى حر الجحيم.

وبالتأكيد كان البخار يصعب من عملية التنفس.

"هيا، هيا يا روحي اشتغلي مع الأخريات"، انتهرها منصور الرهيب. أذعنت، لكنه لم يبتعد ولم يتركها، كانت تحاول فتح قدر لتحرك الطيور التي تسلق في مائه المستعر، بغتةً قفزت مرتاعة! قد غمزها منصور الرهيب بإبهاميه في جانبي بطنها، ثم ضحك وراح يتحدث مع حارسة جديدة في شأن الدورية، غير أن كاجين فقدت أعصابها.

في لحظة وبردة فعل سريعة أمسكت بالقدر، وعلى الرغم من إحساسها بالحريق الذي ألهب كفيها الصغيرتين لم تفلته، بل دلقت بكل ما فيه من ماء وطير يغلي في ظهر منصور الرهيب، الذي لم يرَها لانشغاله بالحديث إلى الحارسة الجديدة...

في التو انطلقت من شفته المشقوقة صرخة مرعبة وتدحرج على الأرض، من حرِّ الصيف المتقد لم يكن يرتدي تحت جلبابه الأسود فانيلة قطنية أو قميصاً داخلياً، ما قوَّى من أثر الماء المغلي، فشرع في خلع الجلباب الأسود في صعوبة بالغة. ولما رماه بعيداً عن جسده الضخم العاري، كان جلده قد انسلخ خارجاً معه.

رندا، بغضب سارت إليه وراحت تركله وتركله وهو واقع وهي تصرخ:

"فلتمُتْ أيها البشع، الموت لك. الموت لك أيها القبيح".

لكنه تحامل، هوى فتحامل من جديد، ثم أخيراً استوى قائماً بوجهه القبيح ولحمه الطري الدامي.

"أنت وهي والأخرى، سترَيْنَ. سترَيْنَ".

أطلقت إشارة الإنذار، بينما كان منصور المحروق يعطي سبايا العنبر رائحة لحمه وجوفه وهو يحترق ويتقيأ.

حروق منصور الرهيب كانت شديدة، وعريه تحت الجلباب من دون قميص أو فانلة ساعد على ذلك، حروقه الآن ليست طفيفة بل هي عميقة عميقة.

أمطروها مع رندا بالسياط والركلات واللكمات، وهو ما أفقدها الإحساس، ثم إذ أفاقت ألفت نفسها في سرداب مظلم يغور تحت الأرض بمقدار متر ونصف المتر، والماء يغمر أرضه غمراً.

استعادت شعورها بالتدريج، وتلمست بيدها جسمها المرضوض، فوجدت في رأسها ما يزيد على اثنتي عشرة كدمة مع الأورام.

كم كانت الساعة لم تدرِ، إذ لا ليل في السرداب، لا نهار ولا نور.

ثم سمعت صوت ضربات آتية من بعيد: دق، دق، دق، دقات كأنها رموز تلغرافية، وكان لزاماً عليها أن تدق الجدار مرتين إن أرادت الاتصال، ولكن بأي شيء تدق؟ وهي لا تميز شيئاً في العتمة! لا شيء يمكن أن ينفعها، بقبضة يدها؟ مستحيل لأن يديها منهكتان، ودنت من الجهة التي افترضت أن تجد عندها الباب، فاصطدمت بالقضبان من دون أن تراها. وبالتحسس وبالتلمس عرفت أن الباب

على بعد ثلاثة أرباع المتر منها، خطت وأمسكت أصابعها بفولاذ القضبان، تحسست سلكاً من خلف القضبان منسوجاً على شكل دوائر ناعمة، وُضِعت خصيصاً بغية إبعاد أي شخص عن متناول يدها.

لقد صُنفت سبيةً خطرة.

لكن الدقات تتكرر! ترى من يناديها؟ من يجرؤ ومن يخاطر؟ ألصقت أذنيها بالجدار، فسمعت كو، بكو، دق...دق، وأجابت كو، دق، أرادت بهاتين النقرتين أن تشجع المنادي: استمر فأنا معك، وبدأ النقر الرامز للحروف الأبجدية التي تقول:

"كاجين، أنا رندا، كيف حالك؟ هل أوذيت كثيراً؟ أنا معك في زنزانة في السرداب ذاته".

"رأسي به اثنتا عشرة كدمة يا رندا، به أورام".

وتحدثت ورندا زهاء الساعة، غير آبهتين بإمكانية ضبطهما متلبستين، بل كانتا مندفعتين تتبادلان العبارات.

قالت:

"ليس في جسمي كسور، وإنما هذه الورمات تؤلمني، كذلك ليست هناك جروح".

وأخبرتها رندا بأنها رأتهم وهم ينزلونها السرداب جراً من قدميها، وعند كل درجة كان رأسها يرتطم بالدرجة التالية،

"لكنهم كانوا أهون معي فلم أفقد الوعي"، قالت رندا.

وبثلاث نقرات فهمت أنها تقول إن هناك أقداماً مقتربة.

بالفعل، بعد لحظات إذ بصوت يصيح:

"تلك أوامر معاون الخليفة، فاذهب ولا تبطئ"، سمعت أحدهم يقول لمن معه.

"كيف نترفق بها وقد أصابت منصور بالحريق!".

"نفذ الأوامر يا حارس"، علا الصوت غريباً حازماً.

يا لحظِّها! لقد وردت إلى ذات اليمين أوامر واضحة لكنها مربكة! أوامر تقول بنقل سبية نحيلة الجسم خضراء العينين شقراء البشرة، خصلات شعرها كذلك شقراء، إلى زنازين الحبس الانفرادي في مركز قيادة معاون الخليفة في الموصل.

لما أخرجوها من السرداب، ودون إرادة منها أغمضت عينيها، كان الوقت نهاراً ووهج الشمس كان قوياً ساطعاً ولاهباً.

"صدِّقني ستهرب أثناء الرحلة. هذه الشيطانة ستهرب، صدقني! صدقني ستهرب في الطريق. لا تثق بها مثقال ذرة، إنها من نسل الشيطان"! قال منصور لحاملي الرسالة وقد تغطى جسمه بالشاش الطبي، بدا غريباً بعد أن تحول زيه من سواد إلى بياض!

وبعد ساعتين سِيقت كاجين مخفورة بحارسين، أحدهما أعور مدور الوجه ضخم الأنف، كان هو صاحب الصوت الذي قال في حزم: "نفذ الأوامر يا حارس"، والآخر قصير به عرج، بدا أنهما لابد أن يكونا، شأن منصور، من طلقاء سجن بادوش، أو ربما من أولئك الذين أصيبوا أثناء المعارك ففقدوا طرفاً أو لحقت بهم تشويهات.

"شددا عليها الحراسة، هذه ليست مثل الأخريات! إنها أخطر

الخطرات إن كان ثمة خطرات، إنها لشيطان رجيم".

ونهبت بالحارسين وبها، لاندكروزر كاكية مكشوفة، نهبت الطريق من قضاء سنجار إلى الموصل في عجل بينما شمس يوليو تعرق فيقطر عرقها على وجهها كأنه شواظ من حميم.

لما بلغوا بها مركز القيادة في المدرسة الابتدائية ساقها الأعور مع الأعرج إلى مكتب كبير الحراس، وقد كان في مواجهة الباب، بدا خلف المنصة ضئيلاً وحيداً، حزيناً دقيق الجسم، لكنه في نفسه كان يشعر بأنه يساوي أكثر من ألف قاضٍ هم فيه، الآن، قوام هيئة المحكمة. تولى كبير الحراس مهمة رئيس المحكمة، في حين مثل الحارسان، الأعور والأعرج كمساعدين له.

"ها، أنت أيتها السبية اليزيدية الكافرة، ماذا عندك من القول"؟

"برأسي اثنتا عشرة كدمةً وورماً".

ضحكوا.

"وجسمي مرضوض حتى العظام".

"نعم أنت التي شئت أن يكون ذلك كذلك. لابد أنك تحبين ذاك الشيء، أتفضلينه من خلف أم من أمام"؟ سأل كبير الحراس.

ثم أردف وهو يبصق بصقة كبيرة تدورت مثل فقاعة الصابون قريباً من قدمها اليسرى:

"سنظل نرضُّ عظامك حتى تتعلمي كيفية السلوك الوديع وإطاعة جند خليفة المسلمين وجند معاونه، لا مهاجمة الناس، سيراك الطبيب عندما يحضر وآمل أن يكون ذلك في يومين. وهذا الانتظار نوع

من التحية لمقدم الطبيب، فأنت دونما ريب لا تتوقعين أن أستدعي الطبيب فوراً من أجل سبية على شاكلتك! قالوا عنك في ذات اليمين إنك لشيطان رجيم".

"لكني أتألم، أتألم للغاية".

"انتظري إذاً حتى يُتاح لطبيب المركز الحضور، ولسوف يراك ويعنى بك، وهذا لا يمنع أن آمرك بالبقاء في الحبس الانفرادي حتى إشعار آخر".

"هؤلاء الكائنات الغريبة يتصرفون في أقدار وحياة البشر بهذه السهولة"! غمغمت كاجين في نفسها.

"بماذا تغمغمين أيتها السبية الكافرة الفاجرة"؟

"لا شيء، إنما أشعر برغبة في أن أبصق على وجوهكم".

فعمَّ الذهول.

احتقنت الوجوه بالدم الغاضب.

لم يستوعبوا حقيقة ما نطقت به كاجين للتو، وكان الحارس، مساعد القاضي الآن، الجالس إلى اليسار، الأعرج ليس الأعور، يتلمظ وهو يتمتم:

"سترَيْنَ. سترَيْنَ".

وصاح كبير الحرَّاس، القاضي، وهو يصفر في الهواء لحناً بدا سعيداً:

"أبعدوها واعتنوا بها جيداً، وأتمنى أن أراها خلال ساعة وهي تطلب الصفح زحفاً".

"سأؤدبك، سأجعلك تنظفين حذائي بلسانك من أعلاه ومن أسفله" قال القصير الأعرج.

"وإني أعهد إليكم أن تبرحوها ضرباً" قال كبير الحرَّاس ثم عاد يطلق صفيره السعيد.

ثم سكت.

ثم ضحك ضحكة لئيمة ثم راح يدوزن وهو يدندن بكلمات أمره:

"من أمام ومن وراء، اضربوها ذلك الضرب الذي يُوجع إن لم تكن قد أصبحت الآن بسعة هذا الباب".

ثلاثتهم، ضحكوا مجدداً.

سحبها الأعور والأعرج فأدخلاها حجرة ضيقة من طوب، كانت في الأصل مخزناً للمدرسة الابتدائية، مخزناً للكراسات والمحابر والأقلام، فتَلا ذراعها اليمنى ثم فتَلا ذراعها اليسرى، ثم طرحاها أرضاً ورفعا يديها على ارتفاع كتفيها وكبلاها بقيد له حلقة للعنق وسلاسل، ثم عقدا السبابة اليسرى بالإبهام الأيمن.. رفعها الأعور كالحيوان من شعرها، ولما سلخها الأعرج عارية أتاها الاثنان، واحد من دبرها وآخر من الأمام.

ويكفي القول إنهما أصاباها بقروح جديدة دامية في الشرج وفي المهبل، فتَقَا ما لحق بها في ذات اليمين، ثم جعلا يديها مكبلتين خلف ظهرها، وظلت الحلقة المحكمة على عنقها يومين كانت تجمع فيهما قطع الخبز التي ترمى إليها بقدميها في شكل كومة صغيرة، ثم تنبطح على الأرض فتدفعها برأسها لتتناولها بلسانها، تدخلها بين

أسنانها، ثم تمضغها مضغاً جيداً طويلاً حتى لا يضيع منها شيء.

في اليوم الثالث فكوا وثاقها، فكان الفولاذ مغروساً في لحمها والحديد في بعض المواضع مُغطى باللحم المتورم. وأصاب رئيسَ الحرس خوفٌ بقدر ما أصابها من الألم والإعياء، كان يعلم أن معاون الخليفة هو من أصدر أمر نقلها من ذات اليمين إلى مركز القيادة، ولما عادت إلى وعيها أخذوها إلى المستوصف الحربي القريب، وهناك نظفوها بالديتول والصابون، وغسلوها بالماء البارد، وطلب الممرض حقنها بإبرة مضادة للتتانوس، وحقنة فاليوم.

نامت كما لم تنم منذ الهجوم على مدرستها في قرية استيرا، منذ يوم سقوطها سبية مباحة في قبضة رجال السواد.

بعد ساعات أفاقت على يدٍ تدلك جسمها بالزيت، كانت يد الممرض أو يد الطبيب.

تمكنت من مد يديها إلى جانبي جسدها.

لكنها لم تتمكن من النهوض.

بعد جلسة الدلك، حملها الأعور والأعرج وعادا بها إلى الزنزانة.

"ستكون لك وليمة"، قال الأعور.

نظرت إليه ملياً في عينه السليمة فحدجها وهو يقول باستهزاء:

"عندك الكثير من الماء وعندك طعام، كلي كثيراً كيما تستعيدي صحتك".

صرخت فيه:

"يا للأعور الأحمق!".

صفعها.

بصقت في وجهه.

لحظتئذٍ رمياها داخل الزنزانة وأعادا حلقة العنق والسلاسل والأصفاد والأغلال.

بصقت بصقتين، واحدة في كف الأعور والثانية في كف الأعرج.

رقدت على أرض الزنزانة وهنأت نفسها بالجرأة والثبات.

مضى النهار وانطفأ الضوء في كوة القضبان، بدأت أمواج الظلام التدفقَ منها، وراحت ترتفع متراً بعد متر. وغرقت كاجين في الظلام، سمعت في آخر الليل صوت خطى مقتربة، ذلكم هو الحارس، ولكن لماذا هو قادم! فلقد جاء عند الأصيل وملأ الكوب المعدني البارد بالماء وصحناً آخر بطعام الغداء والعشاء، لمَ تراه يجيء في هذه اللحظة المتأخرة؟ وقف الحارس! ومن عجب لم يُضرب منه وهج لمصباح! لم تتبين شيئاً ولكنها سمعت أنفاساً تعلو وتعلو، ثم تبينت هيئة غامضة ماثلة كالشبح عند باب الزنزانة.

"لا تشغلْ بالك أيها الحارس الجديد، لا داعي لذلك، فأنا لن أهرب منك، وعلى الأقل ليس تخشى عليَّ من الانتحار؛ وأنا لا أطلب سوى شيء واحد هو الاستمرار في الحياة قدر الإمكان"، ثم أكملت في سرها:

"وأن أعود إلى بيتنا في استيرا، أن أعود إلى أمي، أن أعود إلى أبي".

وعنَّ لها أن الأحوال لابد أن تكون هادئة طيبة في استيرا بعد أن غادرها رجال السواد، مؤكد أن أباها وأمها قد خرجا من المكتب الذي انهار سقفه عليهما مع بقية المدرسين، لا بد أن يكونا قد خرجا سالمين وعادا إلى البيت الجميل، إلى الحديقة الصغيرة، لابد، لابد؛ هكذا راحت تفكر، ثم امتلأ ذهنها بجيهان، بكلبها ماونت: "مؤكد أن هذين الاثنين لن يعودا" قالت في نفسها.

ورفعت صوتها:

"أنت رجل طيب أيها الحارس، هل تسمعني أيها الحارس الطيب؟

أنت لا تريد أن تؤذيني أليس كذلك؟ يكفي أنني جائعة ومرهقة، ستتركني أليس كذلك"؟

ساد صمت متوتر لم يعلُ فيه إلا صوت الأنفاس الرجولية المتهدجة، ثم عادت الخطى الثقيلة وراحت تذوب في الصمت والظلام شيئاً فشيئاً.

ومن عجب سمعت بعد زهاء الساعة أكثر من خطىً مقتربة! سمعت أصواتاً متوترة! وتناهت إليها كلمات متقطعة! ولاح ضوء مشعل صغير يتقافز في دوائر غير مزعجات، وهلَّ كبير الحرَّاس من ورائه الأعور والأعرج فأداروا المفاتيح ودفعوا الباب فأزَّ وأطلق الصفير، ومع تمتمات وهمهمات مرتبكة، وضعوا أمامها قدراً صغيراً تصاعدت على ضوء المشعل من فوهته ألسنة بهار نمَّت عن حساء طازج، ثم وضعوا لها قطع خبز وشريحة لحم.

خرجوا وتركوا لها المشعل يتلوى في بحر الظلام مثل سمك الثعبان مع حشيَّة من قطن وغطاء صيف من قماش خفيف شفيف.

أصابت من كل ما وضعوه، ومع كل لقمة كانت تشعر بزيادة الحرارة في دمها، ثم في كل خلية من جسدها.

وسمعت صوت خطىً مقتربة لكنها هذه المرة كانت منفردة، ثم دارت المفاتيح وصفَّر الباب وأزَّ ودخل رجل في قرابة الثلاثين من عمره، مربوع القامة، غليظ العنق، مطبق الشفتين، ما رأت وجهه من قبل.

"شكراً لك أيها الحارس الطيب".

وجمع الحارس في صمت القدر والآنية، وحدق فيها طويلاً فلم تفهم

من عينيه المحايدتين شيئاً.

وامتلأت بساعتها الراهنة بزنزانتها، من دون كتب، من دون أبيها، من دون أمها، من دون رندا، من دون جاهين، من دون ماونت، ومن غير أن تتكلم مع أحد راحت تعد وتحسب كم ساعة ودقيقة في ثلاثة عشر عاماً وبعض أشهر وأسابيع وأيام وساعات ودقائق وثوانٍ.

اختلط الأمر عليها جداً.

لقد ضاع منها حساب عمرها.

لوهلةٍ أحسَّت بأنها نقطة في بحر الليل تتنفس عبر ثقب غربال قديم مهلهل.

وفي الليلة التالية سمعت ذات الوقع للخطى الثقيلة المتئدة، ولكن صاحبها وقف من قبل أن يصل إلى باب الزنزانة، إذ إنهم أضاؤوا لها عند المغيب مِشعلَ أمس.

ساد صمت.

ثم علا صوت الأنفاس ذاتها وكاد يصل إلى درجة اللهاث.

وتناهى إلى أذنيها صوت تيقنت أنها سمعته يوم الجمعة في ذات اليمين، يوم البيع، يوم ركضت وأمسكوا بها قرب الباب الموصود، صوت تعرفه:

"من أين أنت"؟

"من الجبل".

"أعني ما جنسيتك"؟

"عراقية".

"أبواك كلاهما عراقيان أم أحدهما من أوروبا"؟

ساد صمت.

"قلت أبواك".

"نعم، كلاهما من العراق. هل هما حيان أيها الحارس الطيب"؟

"لا أدري عنهما شيئاً".

" أخشى أن تكون قد سبيت أمي وأن يكون أبي قد قطع رأسه".

"صدقاً لا أعلم، لكني سأتحرى، ماذا كان يشتغلان"؟

"كانا مدرسين في الجبل، في مدرسة استيرا: قريتنا".

وفي لمح البصر فكرت وقالت:

"المكان هنا مخيف".

"هل آذاك من الحراس أحد"؟

"لا، إنهم طيبون".

"هل تلقيت تعليماً دينياً"؟

ساد صمت.

"ما اليزيدية؟ هل تعلمين ما هي"؟

عاد الصمت.

"أنا أعرفها".

وسكت ثم أردف:

"قرأت الكثير من الكتب".

"كتب! هل تقرأ الكتب؟ أنا أريد كتباً، أنا أحب الكتب".

" لم أعد أحملها منذ زمن، والمكتبات التي هنا احترقت".

"هل لي في ورق وقلم"؟

" لمَ"؟

"لأتسلى. أبي كان يعطيني الكثير من الأوراق ويطلب مني الكتابة".

"كتابة ماذا"؟

"أي شيء.. أي شيء".

تدفق بحر من الصمت ودار بموجه فلفَّ الحياة والجماد، هصرهما وراح يشدهما إلى أغوار بعيدات.

صمت تدفق كالعمى.

بعد حين علت نبرة صوته بعد أن كسرها موج الصمت، علت مثلها مثل خشبة من فوق صارٍ مكسور في مركب طفا من بعد أن غرق في يمٍ مهيج:

"تحبين الكتب والقراءة والكتابة إذاً!؟"

"نعم".

"ما نوع الكتب التي تحبينها"

"كل الكتب".

"مثلاً؟".

"أعني كل الكتب، لكنني أحبب أخيراً قراءة نهرو".

"قرأت له لمحات من تاريخ العالم؟".

"لا، رسائله إلى أنديرا، إنه كتاب صغير".
"كتاب صغير لكنه بالغ الخطر".
"هل قرأته؟".
"نعم، بالإنجليزية، منذ زمن، وهو ما نحرص ألا يقرأه الناس اليوم".
وعم الصمت الليل والأبصار والآذان.
ثم عاد صوته يطقطق متصدعاً مثل عرق من خشب في وسط سقف قديم:
"...، لكنني مثل نهرو لدي أفكار. فقط، أنا عكسه، هو غاندي في طريقة تطبيق هذه الأفكار".
"ماذا تعني؟".
"أنا لا أؤمن بالمقاومة السلبية، أنا أؤمن بصدام الحضارات على نحو عنيف، هل قرأت كتباً في هذا الصدد"؟
"لا. ولا أفهم شيئاً من ذلك!".
"ثمة أشكال مختلفة يأخذها الصراع بين عالمين، غير أن صراع الثقافات والحضارات لأدهى وأمر. لكن مهما يكن نهرو فإنه كان مثقفاً كبيراً، وقد أتقن الإنجليزية وكتابته بها حسنة لا تخلو من بلاغة".
"أنت تعرف الإنجليزية جيداً إذن، أيها الحارس الطيب!".
سكت ولم يجب بحرف.
أزَّ في الآذان أزيز ليل الشرق الرهيب فمزق غلالة الصمت الأعمى، ثم تناهى من بعيد صوت رجال يتبادلون أحاديث مرحة أثناء نوبة

الحراسة.
بعد حين، سمعت نخنحة أعقبها سؤال:
"لماذا أحببت كلمات نهرو أيتها السبية؟".
"لأنها جميلة. جميلة جداً أيها الحارس الطيب".
"كم عمرك؟".
"ثلاثة عشر عاماً".
"هل تتخيلين أنك أنديرا ؟"
"لا".
"أنت غريبة الحسن والمزاج على هذه الأرض؟".
"كيف؟".
"لا أدري! عيناك خضراوان وبشرتك شقراء وشعرك أشقر!".
ثم سأل بصوت كصوت صافرة في باخرة تمخر أمواجاً من العباب عاتية:
"هل عندك ذلك الشيء؟".
"أي شيء تقصد أيها الحارس الطيب؟".
تهدج الصوت أكثر مما قد تهدج، وشوش مثل صوت الريح في نافذة موصدة وهو يغمغم:
"ذلك الشيء، الشيء الذي ينمو هناك...".
"لم أفهم سؤالك أيها الحارس الطيب!".
تنهد وزفر:

"حسناً، أي الرسائل أحببتها أكثر في كتاب نهرو؟".

"كلها أيها الحارس الطيب. كلها".

"هل أقول لك شيئاً أيتها السبية؟".

"قل أيها الحارس الطيب".

"شأن نهرو، سمة خاصة كنت أتسم بها في يفاعتي".

"ماذا تعني؟".

"أعني أن تكون غريباً مظلوماً تجيد لغة أغراب ظالمين".

بمكر، حاولت المزح والضحك وهي تسأله:

"أوَ يحب حارسي الطيب الطلاسم؟ ويحب الألغاز؟".

"لا. لا. أنا شديد الوضوح، أنت قرأت نهرو وهو واضح أليس كذلك؟ كنتُ مفتوناً بالبلاغة مثله، كانت فصاحتي تملؤني بالزهو! لا. بالإحساس بماذا! الإحساس بشيء من الترفع، لكنه بمعنى من المعاني من المعاني لم يكن إحساساً بالغرور وإنما كان إحساساً بنوع من التفوق، بالسمو، كنتُ أبدأ النقاش وأستفيض به ممسكاً بكل نقطة وفاصلة فيه بما يرهق عقول محاوري، كنت حاذقاً مثل محامٍ بارع. غاندي كان محامياً لا بأس به في جنوب إفريقيا أليس كذلك؟ لكن أساتذتي في المدرسة كانوا يؤمنون بأني سأصبح باريستر لامعاً ذات يوم في المحاكم البريطانية".

"باريستر"!

"نعم، في إنجلترا تعني الكلمة "محامي ممتاز" يظهر أمام القضاة ويمتلك القدرة على الإقناع مستخدماً اللغة بدقة مستفيداً من ذاكرة

قوية الحفظ لمواد القانون، من ذخيرة المنطق والكلمات، اللغة كانت لعبتي الكبرى، وهي سلاح الباريستر. هناك محامون آخرون يقومون بالعمل الورقي والمكتبي. أنا بحسب أساتذتي، كنت سأكون ضمن الدائرة المميزة الممتازة. باريستر".

"كنتَ ولداً خطيراً إذن، حارسي الطيب!".

رن الصمت حيناً رنين معدن صدئ قديم، ثم نبع صوته قَعَلا واحتدَّ فكأنه لسان ريح يدخل من شق باب صعير بحثاً عن ركن أخير، تهدج مجدداً، شهق ثم زفر ثم قال وكأنه لا يحدث أحداً:

"أبي الذي كان يناصر حياة معتدلة قانعة ومؤمنة خاف عليَّ من التطرف والهرطقة، كنتُ قد حفظت منه شيئاً من القرآن والحديث، منه ومن أمي بقيت قدرتي على نطق الأحرف العربية سليمة، بخلاف كثير من أولاد العرب الذين وُلدوا في لندن، وكان يعسر عليهم كثير من حروف العربية، فكانوا يقولون: أومار لعمر، لأنهم لا يستطيعون نطق العين، وهاسان لحسن لصعوبة الهاء، ودرب لضرب لصعوبة الضاد، أنا كنت أتحدث وأكتب وأقرأ بسهولة ودونما شائبة".

وسكت حيناً فسألت تشجعه:

"وكانت عندك كتب ومكتبة"؟

"كنت أقرأ أكثر من مكتبة المدرسة ومن المكتبة العامة في كلفهام جنكشن حيث كنت أسكن مع أهلي".

وسكت بغتة ثم قال:

" العدو كثيراً ما يزود عدوه بالسلاح! هذا خطأ قاتل لم يزل يتكرر

عبر القرون، عبر التاريخ"!

"ماذا تعني حارسي الطيب"؟

"لا شيء. لا شيء. كانت عندي مكتبة صغيرة جلها بالإنجليزية، لكن كانت عندي كذلك كتب عربية قصرتها . ولا أدري لماذا . على كتب طه حسين، فقرأت له الأيام ودعاء الكروان وزلزلتني الفتنة الكبرى. ولما جعلتُ أختلف إلى المدرسة العربية في أيام السبت والآحاد عُني بي مدرس يحفظ القرآن من أول سورة فيه إلى آخر سورة، من البقرة إلى الناس، عن ظهر قلب! لكن لم يكن في تعليمه قطرة يمكن أن تروي عطشي إلى المعرفة".

"ألم تكن تحب المدرسة حارسي الطيب"؟

"كنت أحبُّ التمثيل على مسرحها، مدرستي كانت مدرسة لامعة معروفة بأنها لا يدخلها إلا النبهاء، وفيها، في مدرسة الغرامر سكول في ستون، توثقت علاقتي بمدرسين لامعين، بخاصة في اللغة وفي التاريخ، كذلك توثقت علاقتي بطلاب كانوا من مدارس أخرى ناحية بلهام وكنينغتون، ومن مقاطعة ساري".

سألته وقد عادها وجه صديقتها المغتصبة المنتحرة جيهان:

"أنت إذن تذكر أصدقاءك أيها الحارس الطيب"؟

"مؤكد. ألمعهم كان عامر محمود، من مواليد إيويل في ساري . كان في مدرسة قريبة وكان يتقدمني، كان يكبرني بثلاثة أو أربعة أعوام، قراءتُه ومعرفتُه كانتا واسعتين، تفوقان ما أحرزته بكثير ولا سيما في مسائل الأدب، ولكن مسائل الدين والبحث عن الحقيقة لم تكن

تهمه في شيء، معه أدركت للمرة الأولى الهوة التي تفصل تلميذاً عربياً عن آخر في أرض الغربة".

"أنت إذن مهتم بالغربة؟ حارسي الطيب"؟

"مهتم بالغربة! نعم. نعم. لكني على عكس عامر محمود مهتم بالدين، هو لم يكن مهتماً إطلاقاً بأئمة المساجد الذين كانوا يَفِدون على مسجد فينزبري بارك، لكنه على نحو آخر كان يمر بأزمة غربة نفسية وفكرية جعلته فترة من الزمن عُرضة للموت، ودفعته أخيراً إلى الانتحار. ومع ذلك فقد تميز بذكاء شديد، أشهد بأنه كان يفوق ذكائي. لا أدري لماذا أذكره الآن! كان يسخر من الجميع، وكان لا يؤمن بشيء، وفي كثير من الأحيان كان يكشف عن نفسه كمتشكك، وبين حين وآخر يظهر كصاحب نزوات، يدخن السجائر والحشيش، يشرب البيرة ويتحدث عن عبقرية العادة السرية، يضحك ويقول إن العادة السرية وسيلة سلمية لاغتصاب أي امرأة إنجليزية بيضاء، أي امرأة تشاء! كان صاحب خيال خارق وصاحب عقل مرهف إلى حد يدفعك إلى الرغبة في تجرع كلماته على مر الأيام والليالي، ولكنه كان يبدو في أوقات أخرى مثل حالم حزين، أو يتبدى في هيئة صبي عبوس، مسكين عامر محمود! لم يعرف أن الدين سلاح. سلاح خارق".

"هل كنت تحبه؟ عفواً لأسئلتي، لكن حديثك جذاب يسلي صبية في زنزانة".

"تقصدين سبية أم صبية"؟

"أُعذرني: سبية. ولكن هل كنت تحب صديقك عامر محمود؟ أنا كانت عندي صديقة وكنت أحبها، لكنها مثل صديقك انتحرت".

"الانتحار فعل غريب، شيء لا أفهمه! أما عامر محمود الذي اختار أن ينتحر فقد كنتُ آنس له عندما أجتمعُ به في حديقة بيتهم في إيويل في مقاطعة ساري، كنا نتحدث طويلاً، ونعد معاً مؤامرات كبيرة من أجل المستقبل، بينما الورد الإنجليزي والياسمين ينثران عبيرهما في صيف إنجلترا، والفراشات الريفية تمتص رحيق الأزهار".

"صديقك تحدث عن الاغتصاب، هل جربت الاغتصاب حارسي الطيب"؟

".....".

"أنا جربته. حارسي الطيب. إنه فظيع، إنه تكبد الموت أثناء الحياة، لأي امرأة، لأي فتاة".

"ثمة دوافع مقنعة على الدوام وراء أي فعل أيتها السبية، كنت ستدركين ذلك لو أنك بالفعل ذكية".

"أُعذرني حارسي الطيب، قطعاً قد أخطأت انتقاء الكلمات، أرجوك اغفرها من هفوة".

"دونما ريب قد أخطأت الحديث. معي يتعين التفكير قبل الكلام".

وسكت، ثم عاد وعلى نحو ما، يتحدث بطلاقة فكأنه مهر قد اتسق عدوه في رائع المضمار:

"ذات أصيل، لا أزال أذكر ما حدث فيه كأنما الذي حدث قد حدث عصر البارحة، قلت لعامر محمود وقد استولت عليَّ الرغبة

في التباهي: إنني منتظم في جمعية سرية، في القاعدة، حدثته عن لقائي بالإمام وهدان، وأطلعته على ما حفظت من مبادئ طرحتها كأسلحة، وليس كحججٍ فقط، للمناهضة في صراع موجه إلى الرجل الأبيض الكافر، وإلى المسلمين الرخوين في أوروبا وفي الشرق الأوسط وفي جميع بقاع العالم. قلتُ له: عامر، لقد انتميتُ للقاعدة في المملكة المتحدة، نعمل على نحو سري من أجل التغيير، لقد وقفتُ تحت علم آخر، لأرض أخرى، لأنني إن لم أفعل، فليس أمامي سوى الاستكانة للمسيحيين والركوع لليهود".

لكنه سألني باستغراب:

"أي مسيحيين؟ وأي يهود؟ أنت تعني البيض، أليس كذلك؟ تعني الإنجليز باختصار، هه!".

"حسناً لنقل: الرجل الأبيض هنا، والمستبدون هناك، فلنقل الإنجليز".

فضحك ملء فمه ثم قال:

"بهذا تكون مفوهاً أكثر".

وسكت، ثم رمى بجملة لا أزال أفكر فيها، لا أزال أحاول فهمها. قال:

"في الواقع أن كل شيء ليس سوى بلاغة! حتى الحياة! تذكر عني ذلك أيها الصديق المبلبل، تذكر عني ذلك أيها الصديق الطموح".

ثم ساد الصمت، تمدد فلفَّهما مع الليل بضماده الموخز الملغز.

طالت فترة الصمت فبدت دهراً.

ثم على حين غرة، علت أصوات الصراصير التي بدأت تشي جوقتُها

المتصاعدة بقرب بزوغ الفجر، وسُمعت طلقة مدفع في البعيد، ثم لاح وكأن ألماً خالداً قد أمسك بالدنيا فهصرها هصراً.

بغتةً أصاخت سمعها، كانت الخطى الوئيدة الواثقة الثقيلة تبتعد في الصمت الذي شوشته نداءات الصراصير، راحت الخطى تبتعد في الظلام، كان الزائر آخر الليل ينأى.

وتدثرت كاجين بخوفها، بقلقها، بذهنها المشوش، تكورت فبدت أصغر وأنحل مما هي عليه، بكت ملمومة الأطراف غائصة في صدع كيانها تسمع صدى الزائر آخر الليل إذْ يتلاشى منصرفاً عن المكان كله في خطى سريعة مبتعدة، تسمع للصمت حين يدوي هوله الرهيب.

وفي ذلك الدهر الغريب، تذكرت أباها وتذكرت أمها.

بقيت تلوذ بالصبر طوراً وتنهض فتذرع الزنزانة جيئةً طوراً، وذهاباً تارةً أخرى، تنظر من دون توقف داخل نفسها، تحدث نفسها بنفسها، تحزن وتغضب؛ وشتمت بصوت خافت، ثم أقسمت مئة يمين عظيم ثم طعنت في الهواء مع حركات متوافقة بيديها، متخيلة شخصاً وهمياً واقفاً أمامها يتلقى الطعنات.

وقالت إنها ستهرب.

ستعود للجبل.

ستعود لبيتها في استيرا.

هناك، ستجد أمها وستجد أباها.

وفي الأحشاء العميقة لليلة التالية، والظلام يتهاوى قطعاً من صخر

أسود، سمعت ذات الخطى المقتربة.

أصغت للأنفاس المتهدجة إذْ هي تعلو وإذْ هي تقترب.

إنها أنفاس الزائر في آخر الليل.

"لقد تأخرت عليك، كان ثمة عمل كثير لابد من إنجازه".

"هل لديك عمل غير حراستي! لقد انتظرتك أيها الحارس الطيب".

"انتظرتني! لماذا؟".

"لتقص علي تلك الأخبار وتلك الأحاديث".

"حكايات الصبا؟ هل تحبين مثل تلك الأحاديث؟".

"نعم، أنا أيضاً خبَّأت في قلبي حنيناً إلى حكايات طفولتي، ومازال الجرح دامياً من هذه الخيبة الفظيعة الأولى".

وهنا حدث ما لم تحسب له حساباً، إذ استشاط غضباً وراح يهدر مثل ريح عاصف، وهو يسألها في قمع:

"عن أي خيبة تتحدثين أيتها السبية؟ أنت هنا من أجل الصلاح، أوَ لا تعلمين أيتها السبية"؟

فراحت تتوسل إليه:

"أرجوك، لا تغضب مني أيها الحارس الطيب، فأنا لم أقصد شيئاً مسيئاً، أرجوك".

ثم تدفق الصمت فانحدر فملأ الصدور وأمسك بالحلوق.

ثم علا من جوف ذلك الصمت صوته وقد صار صوتاً آخر، صوتاً حزيناً وجريحاً:

"لاحقاً، كانت خيبتي مرة! أنا أيضاً! ".

وسكت.

"أكمل أيها الحارس الطيب، أكمل لأني أحب كلامك".

لكنه لم يقل حرفاً، فقالت تستحثه:

"هيا تكلم حارسي الطيب، هيا أرجوك، أكمل".

وعلا صوته في جوف الليل وفي جوف الصمت مثل دلو يغور وهو يهوي ليلامس سطح ماء في بئر عميقة:

"وهل ستُرينَني ذلك الشيء منك"؟

تلعثمت:

"أي شيء حارسي الطيب"؟

"ذلك الذي ينمو هناك".

"هناك أين؟ ماذا تقصد"؟

"هناك، في الظلمات الحية، الظلمات الحميمة".

"اغفر لي. لم أفهمك".

ساد صمت ثم عاد فسأل:

"هل نما لديك"؟

"صدقني، لم أفهمك على نحو جيد أيها الحارس الطيب!".

فشهق واختلج صوته اختلاج القصبة في مهوى السيل يدور بها السيل:

"الزغب، ذلك الذي يشرئب للأصابع الوالهة، ذلك الذي يكون في

الشق الذي هو تحت، الشق الحميم ذل...،".

فقاطعته في هدوء كله استغراب:

"نعم! إنه هناك أيها الحارس الطيب! إنه ينمو!".

ولما أنهت جملتها سمعت شهيقه وكأنه قد صار نحيباً، نحيباً رددته جنبات الزنزانة الضيقة، ردده الليل المتقدم.

وقالت:

"حدثني أيها الحارس الطيب مثل حديث الأمس".

"هل تروقك ذكرياتي"؟

"تروقني؟ إنها لتروقني جداً. كذلك أفكارك، هيا حدثني".

"أنت سبية لطيفة. يبدو أنك ذكية أيتها السبية!".

"إذا كنت كذلك فحدثني، هيا، حارسي الطيب".

وعلا صوت رصاصتين في الأفق البعيد، ثم ساد الصمت.

ثم قال وصوته يغور مثل الدلو يلامس سطح الماء في البئر العميقة:

"في بداياتي في لندن، كان جميع أعضاء القاعدة، في الحلقة الأولى، يهزون برؤوسهم عندما كنتُ أعرض خطتي لتنوير العامة من المسلمين، كانوا يحذرونني ويسعون لاستبعادي في كثير من الاجتماعات، وبعد وقت ليس بالطويل تبين لي أنهم يبذلون جهدهم في إخفاء الكثير من القرارات، كانوا ينشطون في تعبئة المجندين بحيث لا يفتر فيهم الفوران، فكانوا يدفعونهم دفعاً للتعطش إلى الموت فيسيرون إليه وهم مغيبون وعامون، جميع محاولاتي للنصح باءت بالفشل. وكانت

الحقيقة بالنسبة إلي هي القيم، وكانت القيم بالنسبة إلى الإمام وهدان ورجاله شيئاً تافهاً، ثم إني عدَلت عن مهمتي المزعومة وألقيت السلاح وعزمتُ على زيارة زميلي القديم عامر محمود، الذي كان قد هجر بيت أبيه وأمه في مقاطعة ساري ورحل إلى لندن، وجدته ببيته في آكتون تاون قبل أشهر من انتحاره بين الخمرة والنساء والكتب. لا بد أن هيئتي لم تكن توحي بالاطمئنان، إذ دهش هذا الرجل اللامبالي عندما رآني:

"كم تغيرت"! صاح عندما ابتسمتُ في وجهه، ثم أردف: "مَنْ يراك بهذا الضمور وهذا الاسمرار يظن أنك قادم من جهنم لتوك".

وعانقني، دعاني إلى البقاء عنده، فغرقت في الاستكانة للعيش في مكان واحد، للاستقرار بعد شهور من التشرد في أنحاء لندن، ذقتُ طعم الراحة أخيراً، وحلاوة تلك المحادثات الحرة المرهفة والفكرية الحكيمة التي أنعمت بها الخمرة، روى كل منا لصاحبه كل ما حصل معه، وأفضى كل منا إلى الآخر بهمومه الفكرية، بتجاربه الحياتية، وكان ذلك ليؤكد، في مفاجأتنا المتبادلة، أننا قد وصلنا، كل منا بسبله الملتفة المختلفة، إلى نتائج متقاربة للغاية، علماً بأنه هو لم يكن ليخرج من بيته على الإطلاق، بينما طفت أنا مدينة لندن كلها تقريباً. أنا وهو كنا نشعر بألم من هول العبث: عبث الحياة.

قال لي:

"كم كنت بحاجة إلى إشارة تؤكد لي أنني كنت أسير ببحثي في الطريق الصحيح يا صديقي الجريح، صديقي الطموح! هأنذا أحصل

على ذلك من فمك. أنت لا شيء. أنا لا شيء. القضية كلها عبث في عبث".

أراد أن يقول لي:

"لا فائدة. لا فائدة".

وأنا لم أتورع في أن أجيبه:

"وأنا أتحدث إليك أجد أننا متفاهمان إلى أبعد الحدود، أشعر الآن كفيثاغورث الذي سمع النجوم تدندن في الكون علامة أكيدة على توافق الأفلاك، ولا سيما في موضوع كان يهمنا جداً، اختبار إمكانات العيش في ثقافة أخرى، ثقافة غريبة لأرض غريبة لم تجعل للغرباء، ثم النزول فالسباحة في بحر العبث: عبث الحياة".

قال لي:

"لكن الكثيرين لا يشعرون بما أشعر به! بما تشعر به! أعني العامة".

وضحك ضحكة أمر من البكاء ثم قال:

"يبدو أن حواسنا تكذب! لكننا لا نملك شيئاً إن كانت هي الوسائط الوحيدة بيننا وبين الأشياء التي تحيط بنا، بيننا وبين ما يعرفه عقلنا عنها، هه، هل تشعر بشراسة الموج؟ موج هذا البحر الملتطم؟ إنه ليس سوى قسوة العبث، ليس سوى قسوة الحياة".

"نعم أشعر، وأشعر أيضاً بدوار بحر العبث الرهيب!".

وبغتةً عبس ثم سألني:

"هل تعتقد أن أفلاطون قد علل نفوس الناس بالخرافات"؟

ساد صمت مريض ثم قال:

"أنت يا صديقي الطموح ستفعل ذلك".

وسكت ثم عاد فقال:

"أنت ممثل جيد، كنتَ دوماً تخلب أفئدة الجمهور، أفئدة العامة، أنت تريد أن تكون شيئاً! لكنك لا شيء. أنت لا شيء. أنت لا شيء".

سألته:

"وما الدور الذي تتوقع أن أنجح فيه في مسرح العبث هذا؟ أنجح فيه وأنا لا شيء"؟

"دور القائد يا صديقي الطموح، العامة دائماً يبحثون عن قائد، يخافون أن يُتركوا لفراغ أنفسهم، تفزعهم السباحة في بحر العبث المتلاطم الأمواج، هم يؤثرون المضي خلف شخصية غامضة مغلفة بالأكاذيب، فتصبح سامية ثم مقدسة، لأنها تقدم لهم نقطة ارتكاز متين، وليس هناك ما يمكن أن نفعله حيال ذلك. ذلك الذي يريد أن يصبح ملهماً بالنسبة إلى العوام، عليه أن يتصرف معهم كما يتصرف الآباء مع أبنائهم، إذ لا بد من إرضائهم بالوعود المترفة المؤكدة، تلك التي يرتاب فيها المؤمن المعتدل. للعامة ولع بالعظمة، للعامة أوهام وأدواء كثيرة لابد من استغلالها، ولا تنسَ إظهار الشفقة إزاء عذاباتهم في هذه الحياة الدنيا. لأمرٌ يسير، إقناعُ المئات من العامة بأن يموتوا من أجلك: أعمِ بصيرتهم وأبصارهم، فذلك ما سيجعلهم شجعاناً أشداءَ لا يُقهرون أبداً".

وسكت ثم حدجني ثم قال:

"أُعذرني وتقبل صادق أسفي، أنا لن أكون على قيد الحياة حينما تمارس ألاعيبك بذكاء. تماماً أرى فيك تلك السمات، أما أنا فلسوف أسقط، لأن شمعة واحدة لا تحترق مرتين، مثلما لا تتفتح ثانية زنبقة زابلة. المقهورون تسرهم حريات بسيطة؛ وإن لم تمتلكِ المفتاح الذي تفتح لهم به باب الفردوس في حياتهم، يكنْ من الأفضل أن تعدل عن أي فكرة بأن تصبح ملهماً، أن تصبح لا شيء على نحو شجاع".

كانت كاجين تسمع للنبرة القوية التي بدت متهدجة حزينة.

"عندما سمعته ينطق بهذه الجملة أخذتُ رأسي بين يدي كمن أصابته صاعقة. لقد عبر عامر محمود عن طريق المزاح والتهكم المر عن الفكرة التي كانت تحرق كبدي. أجَلْ، أنا لا شيء، لكنني يمكن أن أكون لا شيء على نحو شجاع، العامة يريدون خرافات وترهات ويحبون الضلال الذي يتسكعون بين أرجائه! ثم إني تناولت معه كأساً من الخمر، وفي التو تولدت لدي خطة وجدتها جبارة، هائلة، تلك هي التي لم يعرف العالم لها مثيلاً: اختبار الحماسة البشرية لأقصى حدود الاحتمال، استخدام اللاشيء حتى آخر حدوده من أجل الصعود إلى ذروة التأثير والمضي مستقلاً عن سائر العالم، تجسيد الخرافة، تحويل الأسطورة إلى حقيقة بحيث يتحدث عنها التاريخ زمناً طويلاً منذ الآن! القيام بتجربة كبرى مع الإنسان، مع اللاشيء، هذا اللاشيء الغريب الذي يصنع جوهر التاريخ! هل

تفهمين أيتها السبية الذكية؟ لا أظنك تفهمين".

وسكت فقالت كاجين تستحثه:

"حتى إن لم أفهم، فأنت جميل الكلام، فصيح اللسان أيها الحارس الطيب!".

"برغم فصاحتي، أجد كثيراً من الصعوبة في التعبير عن نفسي".

سكت كرة أخرى ثم قال:

"أعدِّي نفسك لغد أفضل، انتظريني من جديد غداً ليلاً، فإذا لم أجئ إليك هنا فستكونين أنت عندي".

"عندك؟ أين"؟

سكت ثم قال:

"الآن تصبحين على خير، تصبحين على خير سبيتي العزيزة".

وأردف:

"بلغي تحيتي إلى زغبك الجميل، سأراه، ستدعينني أراه، ستدعينني ألمسه، أليس كذلك"؟

سألها برفق ثم سكت.

ساد صمت طويل، طويل جداً.

علا صوت صراصير الليل ينبئ بمقدم الفجر.

هل ذهب؟

في صبيحة اليوم التالي، عند السادسة والنصف، صرَّ باب الزنزانة وانفتح، رموا لها خبزاً ولحماً وكعكة وحليبا وقهوة، التهمت كل شيء دفعة واحدة، حتى إنها خشيت أن تموت من التخمة.. وفي الساعة الثامنة جاؤوها بسطل وصابونة فاغتسلت، ورفدها الماء والصابون ببهجة منعشة، وأحست أن بعض روحها قد عادت تدب وتسري في جسدها الممزق.

ساعة الضحى، أحضر لها حارسٌ جديد قلماً ودفتراً صغيراً.

''أظن أنهم سيعفون عن هذه اليزيدية الفاجرة الكافرة'' سمعت صوتاً يقول من بعيد.

وعند الظهر كان أمامها حساء حار.

يقيناً أن زائر الليل قد تلطف بها.

الآن، في الزنزانة، ثمة سرير مفروش بملاءة نظيفة فأسرعت واستلقت عليه، بدت مرتاحة في رقدتها، وللحظة لم تُرد شيئاً يضجرها ويعيدها إلى العذاب.

ولم تمض لحظات إلا وقد عادت وجعلت تذكر نفسها:

"سأثأر لك يا جيهان، سأثأر لك يا ماونت، سألحق الأذى بكل فرد منهم".

مجدداً عادت تفكر في الهرب، وإذا كان زائر الليل سينقلها إلى مكان آخر فلربما كانت الفرصة أكبر.

فكرت، لابد أن تجعله يعرف أنها تعرفه.

رفعت القلم وكتبت:

"عيناه الواسعتان تفيضان بالعذوبة، ووجهه النحيل يطفح بالطيبة المشرقة. إني أحسُّ بالخجل من رفضي. جاء وصلى فلما ركع ركعتُ معه، ودعا وصلى فلم أتمالكْ نفسي عن البكاء، والقلب الطيب الذي رأى دمعي تناول من وجهي دمعة كبيرة وحملها إلى شفتيه وشربها.

زياراتك وكلماتك يا حبيبي بالنسبة إلي مكافأة كبرى أرسلها لي الرب عن طريقك. شكراً. قبّلني في جبيني بين الركوع وبين السجود، تذكر نحن الآن جنباً إلى جنب، أنت تتألم ولكن مذ متى لم تذرف عيناك الدموع؟ أنت متألم. اِبكِ واصفحْ عن الذين تسببوا لك بالألم".

وجاءها في الليل.

أعطته ما كتبت، فرد الأوراق المطبقة وراح يقرأ على ما توفر من ضوء شحيح، لحظةً وسمعت أنفاسه تتهدج، وإذ ذاك أمسك بيدها، لكنها سرعان ما سحبت يدها من يده فصارت في آخر الزنزانة قريباً من لهبة المشعل التي مسَّت ذراعها.

لم يتحدث. جثم صامتاً تعلو أنفاسه ثقيلة تهز الهواء الصامت وتحدث الفراغ بألف لغة ولغة.

"سنصفح عنك أيتها السبية الذكية. نعم سنصفح عنك. هل تؤكدين مرة أخرى وجود الزغب"؟ سأل بنبرة حازمة.

ثم نهض فسُمع صوت الخطى الثقيلة المبتعدة.

وقالت كاجين في نفسها وقد رأت وجه أبيها ماثلاً في الجدار:

"أما أنا فلن أصفح أبداً موت جيهان، عبوديتي؛ هل تريد يا أبتِ

أن أُسرَّ لك بشيء؟ في كل نهار، في كل ليلة، في كل ساعة، في كل دقيقة، أمضي وقتي في تدبير: متى وكيف وبأي طريقة أستطيع قتل الأشخاص الذين قادوني إلى هنا، حرموني منك ومن أمي واتخذوني سبية؟ لا تبتئس أبتاهُ، فأنا في ريعان العمر، ولسوف ألقاك، كل ما تبقى من عمري فداكَ وأمي، أرجو فقط أن تكونا بخير. أما جيهان فلتهدأ، أما ماونت فليهدأ، لأن دمهما لن يمر إلا عبر بوابة الثأر والانتقام"، ونشجت في صمت وعادت فسألت في نفسها:

"أبتِ! أمي! ما الذي أستطيع أن أفعله من أجل أن أكون معكما؟".

وكأنها قد تناهى إليها صوت أبيها:

"أن تطلبي نقلك إلى سكن المعاون، يجب أن تخرجي بسرعة من هذه الزنزانة الضيقة المقيتة. إن غاب زائر الليل فلربما تمضين سنين في هذا الجحيم الانفرادي، ولربما تجنِّينَ".

"وبأي حجة أقنعهم"؟

"فكري، وعجلي لتتمكني من الهرب بأسرع ما يمكن. يا بنيتي ستستطيعين، أنا واثق بأنك ستستطيعين".

ولم يلبث الصوت أن صار إلى صدى في أعمق أعماقها، لم يتلاشَ بل تردد فتغلغل ثم استقر:

وهمست تحدث أباها:

"أي شعاع شمس أضاء اليوم زنزانتي؟ به قد صار كل شيء مضاءً، لماذا لا يكون الرجال مثلك يا أبي"؟

وفي اليوم التالي كتبت: "جاءتني الدورة للمرة الأولى اليوم فلم أفزع،

لم أفزع لأن أمي علمتني كيف أنظف نفسي على نحو جيد".
كانت كلما فرغت من كتابة قصاصة رمتها من بين القضبان خارج الزنزانة.
وكان هناك دوماً من يلتقطها.
ولم يطل الانتظار؛ ففي صبيحة اليوم التالي، وقد صادف آخر أيام شهر رمضان، صادف وقفة العيد، جاء أربعة حراس لم ترهم من قبل، فكوا السلاسل والقيد والأصفاد من رقبتها، من رسغيها وساقيها، ورموا لها صرَّة.
"غيري ملابسك. ستذهبين معنا".
نظرت إليهم.
استداروا.
حلت الصرة فكان فيها قميص من حرير وسروال من كتان.
خلعت أسمالها ببطءٍ فأضاءت بعريها الأشقر المبيض الزنزانة أكثر مما أضاءته أشعة شمس الصباح المتسربة من بين القضبان، وقفت عارية للحظات وارتعشت مثل يمامة في الريح.
ثم ارتدت قميص الحرير وسروال الكتان وخرجت معهم.
سارت في الدهليز يخفرها الأربعة ودلفت إلى القاعة، فاجتازتها تنزل عتبات المدخل، وعبروا بها الساحة، خرجوا بها من مركز القيادة، ساروا بها بضع خطوات ثم أدخلوها أخيراً إلى بيت كبير بدا أنه قد صودر من أحد أثرياء الناحية.
والآن ها هي ذي مذعورة العينين الخضراوين، خائفة وشاحبة.

تعثرت في بهو واسع بدا جلياً أنه قد بني على الطراز الأوروبي القديم.
"حاسبي وانتبهي"، إنها لتعرف هذا الصوت النسائي المشرشر الخبيث!
رفعت رأسها فرأت قامة وهيئة تعرفهما!
بل تحفظهما!
لكن، كان هناك نقاب! وامتدت يد فأزاحت النقاب.
لحظتئذٍ صرخت في ذعر وفي ارتياب:
"عزيزة"!

جوف ليلة وقفة العيد،

عيد رمضان،

وكاجين نائمة نوماً عميقاً، لحظة ملامسة جسمها الفراش الناعم غطت في سبات كالعدم، من شدة الإرهاق بدت في نومها مثل حجر. والآن، في جوف الظلام الذي تلمع عبر النافذة فيه حشود من النجوم تجمعت وسالت مثل قطرات ندىً أزرق، سُمع صوت لخطىً تقترب.

ببطء انفتح باب حجرتها وتعالى صوت الخطى الثقيلة لمعاون الخليفة سامي حمدان، دنا من فراشها، جلس بقربها، وعلى نحو متسارع راحت أنفاسه تتهدج ثم تتلاحق، مد يمينه وبنعومة تحسس بشرة وجهها، تحسس خصلات شعرها، ثم بغتةً رفع ثيابها، أصلحها في رقدتها، مد يده فأزاح اللباس الداخلي وراح يتأمل مكان السر وراح يشتم شذاه.

"يا للعيد السعيد! سيكون من يوم غد يوم عيد سعيد".

بدا واضحاً أنه كان يود أن يُعيِّد بكاجين.

لكن، ولوهلة، ضربته ذكرى حديقة الورد في ريجنت بارك، حديقة الورد ما قبل اليوم الذي سار فيه خلف مايكل ويليامز، يتبعه، ليرديه من ثم قتيلاً، حديقة الورد أيام كان يجلس فيها وهو يردد القصائد الطويلة التي حفظها عن ظهر قلب لوردذورث وكيتس.

غداً سيكون يوم عيد؛ وعيديته ستكون كاجين، هكذا فكر.

غير أنه، وبغتةً، على حين غرة، ضربته دوروثي بكل ما فيها، بكل

قسوة الماضي، قسوة الماضي في إنجلترا، الماضي المر.

دار رأسه فترنح كالدائخ.

وراح يسأل وهو في دوخته:

"ما الذي يمنعنا من أن نكون سعداء؟ ليست هذه البشرية إلا جموعاً من التعساء!".

وردد:

"الإنسان حيوان تعيس!".

ثم تذكر أبياتاً أداها على مسرح الغرامر سكول في ستون، تلاها بألم فظيع، تماماً، مثلما قد أداها أيام الصبا:

"أما جئت تعنف ابنك المتواني الذي

راح يضيع الوقت وينشغل بالعواطف

عن اللج في تنفيذ أمرك الرهيب"؟

وسكت.

فران صمت مرعب أليم، صمت كأن الصوت لم يخلق أصلاً.

ثم زفر ثم نظر إلى مكمن السر من كاجين مجدداً وشمه.

تحسر وهو يسأل نفسه:

"لماذا لا أشعر بمقدم العيد"؟

وتذكر أياماً قديمة في المدرسة، أياماً ظل ينادي فيها بضرورة العطلة في أيام عيد الفطر وعيد الأضحى شأن أعياد الكريسماس. والآن! وكل شيء بين يديه! فلماذا لا يشعر بفرحة العيد؟

نعم، كان حزيناً ومثقلاً، ومع ذلك، بقي نحواً من الليل قربها وهي مفتوحة مشرعة أمام عينيه الواسعتين، وفكر: لا يمكن أن يأخذها الآن، إنه يريدها صاحية وراغبة. وأعاد جسمها على نحو يستر عريها، حنا عليها، ثم إنه سخا فألبسها لباسها. ثم خرج وكاجين في نومها كالميتة لم تزل.

لم تشعر به.

غاب ثم آب يحمل بيده غطاءً صيفياً رهيفاً أحمرَ، غطاها به وهو يغمغم بصوت بدا واضحاً أثر الدوخة فيه:

"لابد من حفظ الأزهار من حشرات الليل والهوام".

ومد يديه فأغلق مصراعي النافذة.

وفي صباح اليوم التالي، ارتفع في سماء الموصل قرص شمس نهاية يوليو معلناً انتهاء رمضان وبدء أول أيام عيد الفطر.

لاح قرص ذلك الصباح أحمرَ مثل جوف رمانة طازجة مشطورة.

واستيقظت كاجين في الصباح الباكر على أصوات التهليل والتكبير التي تسبق صلاة العيد، فوجدت نفسها فوق مرتبة نظيفة وقد غطاها قماش صيفي رهيف أحمر، بينما عمت العتمة على الحجرة لانغلاق النافذة.

"أين أنا"؟ أرتج عليها فسألت بصوت خافت مذعور في سريرها وهي تتأمل العتمة من حولها.

في الخارج انتهت صلاة العيد وعلت أصوات تبادل التهاني، ثم بغتة انفتح الباب.

"السلام عليك يا سبية معاون الخليفة. عيد مبارك. عيد سعيد"، جاءها صوت عميق يدخل ويمشي في الحجرة فيفتح مصراعي النافذة الموصدة.

انهمر ضوء صباح العيد.

بدا أن حجرتها واسعة ذات أرائك عديدة.

ساد صمت.

ثم استأنف الرجل الذي بدا واضح القسمات تحت غمر الضوء الذي دخل من النافذة، قال وهو يقف إلى جوار سريرها:

"عيدك سعيد سبية الرجل الأكثر عظمةً والأكثر رفعة. سبية سند خليفتنا المعزز المنصور".

عند ذاك، نهضت مأخوذة مذعورة...

حدقت من خلال النافذة فرأت تحت الشمس الطالعة الحرس في جلابيبهم السود وعمائمهم السود يتجولون وهم يحملون السلاح، يضحكون حيناً، وحيناً يتكلمون.

"لا تخافي، يا بنيتي؟ أنا الشيخ محمود"، قال الواقف فوقها.

الشيخ محمود! نعم، الشيخ ذاته الذي رأته الدنيا يقرأ فتواه بتحطيم التماثيل والآثار التي يعود تاريخها إلى آلاف السنين!

دعكت كاجين عينيها الخضراوين بينما استأنف هو:

"لقد أخبرنا مولانا وسندنا معاون الخليفة أنك قد أسلمت. وقد وهبناك له سبية مطيعة، سبية منتقاة، الآن انهضي كي أعلمك الصلاة في هذا اليوم المبارك، يوم العيد".

تكومت في فراشها فصفعها.

صرخت مرتاعة وكفها اليمنى تتحسس خدَّها الأيسر:

"لا، لا".

حينئذٍ استلَّ الشيخ محمود سوطاً طويلاً وجعل يلهب ظهرها.

كانت لسعاته أشد إيلاماً من لسعات سوط منصور الرهيب في ذات اليمين على الرغم من أن لسانه واحد! وسوط منصور كان ذا لسانين!

صرخت من بين الدموع:

"كفى، خلاص".

"هل ستسمعين لما أقول أيتها السبية؟ هل تطيعين"؟

"حسناً، حسناً، أرجوك... أرجوك كفى".

ارتجف قرص شمس العيد في الأفق الشرقي فصار إلى بياض لما ابتسم الشيخ محمود وأشار إلى إبريق من نحاس قد جثم قرب السرير، أومأ فنزلت من الفراش، كان ثمة سجادة ملونة، جلست عليها ومدت يدها وأمسكت بالإبريق.

"اغسلي كفيك ثلاث مرات".

ففعلت.

"والآن وجهك ثلاث مرات، ها، دعيني أساعدك على غسل وجهك".

وارتعشت يده وهي تمس الشامة التي على الخد الأيسر.

بغتةً علا صوت رصاص فأبعد الشيخ يده، هرول صوب الباب واختفى لحظاتٍ، ثم عاد وهو يغمغم:

"لقد أتوا بفوج جديد من الكفرة الفجرة إلى الموصل عاصمتنا! ها! كأنهم لا ينتهون!".

واقترب منها:

"هيا دعينا نكمل الوضوء".

ولكنه لم يفعل، بل وقف فدنا منها أكثر فأكثر قاصداً جعل وجهه قبالة وجهها.

وراح يلقنها:

"قولي ورائي: مَن اليزيدية"؟

"مَن اليزيدية"؟

"هم الكفرة الفجرة".

"هم الكفرة الفجرة".

"هم المانوية وأصحاب زاردوشترا".

"ماذا"؟

"قولي ما قد قلت!".

" أرجوك قلها ببطْء".

"هم المانوية وأصحاب زاردوشترا".

فقالت:

"هم المنيوية أصحاب! أصحاب! ذوشترا".

"لا، أفصحي يا سبية: هم المانوية وأصحاب زاردوشترا".

"هم المانوية وأصحاب زاردوشترا".

"أين يسكن الكفار"؟

"أين يسكن الكفار"؟

"في جبل سنجار".

"في جبل سنجار".

"ورائحتهم النتنة تنطلق من فوهات الجبل".

"ورائحتهم النتنة تنطلق من فوهات الجبل".

"مَن المسيحيون"؟

"مَن المسيحيون"؟

"هم الكفرة عبدة الثالوث".

"هم الكفرة عبدة الثالوث".

"من اليهود"؟

"من اليهود"؟

"هم أعداء الله".

"هم أعداء الله".

"من المسلمون"؟

"من المسلمون"؟

"هم المنتمون للتنظيم".

"هم المنتمون للتنظيم".

"وغيرهم كافر من شيعة ومن سنَّة".

"وغيرهم كافر من شيعة ومن سنَّة".

حدق فيها إذْ بشرتها تأتلق في ضوء بواكير الصباح، ارتعشت شفتاه، ارتعشت يداه، ارتعش فكه السفلي، بتوتر مد يمينه ولمس شعرها، قبض بأصابعه على شفتها، وارتعد ثم خرج. ودخلت على نحو لم يكن متوقعاً عزيزة، العجوز الشاذة التي كانت تقوم مقام المساعد لمنصور الرهيب ذي الشفة المشقوقة، ذي الأنف المثروم، والجبين الموشوم؛ أيام كانت في فناء ذات اليمين...

"عيد مبارك يا قشطتي، عيد سعيد"، رددت عزيزة، التي هي الآن في نقاب أسود.

ساد صمت.

ثم، بحزم، من دون أن تنبس ببنت شفة، اقتربت من كاجين ورفعت شعرها الأشقر الجميل وجمعته على شكل كعكة في أعلى رأسها كي تتفادى تبليله، ثم عرتها ثم دفعتها داخل طست من النحاس بهتت صفرته، ثم أخذت تدعكها وتغسلها.

أبعدت ما بين فخذيها، تأملتها وتمتمت:

"لم تسمحي لي بأن أرى ذلك من قبل يا قشطتي! ليس لديك شعر بعدُ. ها هنا زغب بسيط لن يؤلمك نزعه".

"عزيزة! ما الذي أتى بك إلى هنا"؟

"اسمي اليوم خادمة معاون الخليفة، وقد اهتديت بعد جلد منصور لي في ذات اليمين".

وسكتت ثم أردفت:

"حمداً لله أنك قد لقنته درساً لن يمحي ولن ينسى، شويتِه بالماء الحار! هل تذكرين يا قشطتي؟".

ثم قالت وهي تلهث مثل مهر قد أتعبه طول الركض:

"اليوم عيد، لا ترديني مثل الأيام القديمة ولا تضربيني. لولا أقراص النوم، لما غفوت للحظة بعد فعلك بي. أرجوك لا ترديني اليوم، يوم العيد"، همستها بصوت متهدج وأنفاسها تضطرب في صدرها وأنفها.

بلؤم ومكر هتفت فيها كاجين:

"عزيزة! تذكري الآن أني سبية معاو...."

ومن قبل أن تكمل أطرقت عزيزة ثم خرجت.

ولم يكد صدى خطواتها يتلاشى ويغيب، حتى أغمضت كاجين، التي أعياها صباح العيد، عينيها من شدة الألم. ومن شدة النعاس أحست بوهن ودوار، حاولت في البداية أن تغالب النعاس، راحت تحدِّق عبر النافذة في قرص الشمس المتوقد بالحر، الهائج بالضوء، راحت تسمع لأصوات دفوف تضرب في فرح للعيد، لأصوات أهازيج تغني له، بينما، وعند منتصف النهار، بعيداً عنها، لكن في البيت ذاته، نهضت عزيزة بتثاقل في حجرتها، لقد تعاطت الكثير من الأقراص المنومة لحظة خروجها مرتعبة من حجرة كاجين في أول الصباح، في الواقع أيقظها صبي الأغراض:

"عزيزة لقد تقدم الصباح وانتصف النهار! ألا تريدين شيئاً في يوم

العيد؟ ماذا سأجلب اليوم من السوق"؟

"لحم وخضار وفاكهة، مع ملح وسكر. والمزيد من الحلوى"، قالت بلسان لم يزل فيه خدر الأقراص المنومة.

في حجرتها، كانت كاجين تحلم في نومها.

وفي حلمها غمغمت:

"يجب أن أهرب، عليَّ أن أهرب في الحال"، واستيقظت وهي تغمغم، ثم أعادت بصوت مسموع وهي تنظر عبر النافذة بعيون نصف مغمضة: "يجب أن أهرب، عليَّ أن أهرب في الحال، يجب علي أن أخرج من هنا"، لكنها من شدة الإعياء، ما لبثت أن عادت فغطت في سبات عميق، مع أن اليوم لم يزل في منتصفه.

ثم انتهى اليوم وغربت شمس أول أيام العيد.

وفي العشي، علا صوت الخطى المقتربة.

دخل معاون الخليفة فوجدها نائمة، اقترب منها وتمتم:

"جئت لأقول لك: عيد مبارك. عيد سعيد"، ثم فعل بها ما فعل ليلة أمس، ثم غطاها بذات الغطاء الصيفي الأحمر الرهيف. ثم خرج.

وعندما استيقظت كاجين في فراشها الجديد، كان الليل قد تقدم.

أحست لبرهة أنها كالتائهة في بحر الزمن.

وكانت.

نهضت. نظرت حولها، دفعت الغطاء الرهيف الذي غطاها به مجدداً معاون الخليفة أثناء نومها خوفاً عليها من حشرات الليل، خوفاً

عليها من الهوام. وهي لم تشعر به إذْ دخل! لم تشعر به إذ انحنى عليها! لم تشعر به إذْ رفع ملابسها! إذْ ذهب بيديه وبعينيه إلى أماكنها الحميمة فاشتم منها، على نحو ما، رائحة بعيدة بُعد لندن، رائحة الماء المختلط بالكلور في حوض السباحة إذ هو ودوروثي فيه يسبحان، رائحة الأرض عند طلعة الردمية الترابية على عطفة الطريق، الطلعة التي نهضت مثل سنام الجمل في دستان هيلز ناحية ستون حيث سكنت دوروثي؛ الشيء نفسه! مثلما بدا عضو دوروثي الطفل في سانت دستان هيلز! كان عضو كاجين نائماً وسط ذلك الزغب الحي مثل ودعة صغيرة عمياء، حدَّق فيه فاضطرب والتهب وجهه على ضوء السراج، بخفة لمسها وراح يتأمل سعيداً ذلك الزغب الغامض العتيد،

ذلك الزغب الذي أحب،

ذلك الزغب الحي!

والآن، ها هي ذي كاجين قد كومت الغطاء بعيداً، تثاءبت ثم جلست على طرف السرير، دعكت عينيها الخضراوين ثم نظرت حولها فكان الوقت يميل نحو الثلث الثاني من الليل... بغتةً، دخلت عزيزة بالنقاب نفسه، وجثَتْ فوق أريكة على ركبتيها، وناولتها كأساً من الحليب الدافئ، فأخذتها كاجين وشربتها بنهم، ملأت عزيزة من الجرة المبرقشة التي كانت تمسك بها كأساً ثانية، تناولتها منها كاجين فأفرغتها في جوفها بجرعة واحدة، وإذ هي تمد الكوب الفارغ تعيده لعزيزة، دخلت لحظتئذٍ امرأة بدينة سوداء البشرة، فأطعمتها وهي

تجلس بقربها وعزيزة حلوى مصنوعة من سميد القمح، ممزوجة بوافر من العسل والفواكه.

بنهمٍ مضغت كاجين الحلوى وازدردتها في ارتياح.

"كم هي جائعة"! قالت البدينة السوداء.

وسكتت ثم أردفت:

"وكم هي شاحبة!".

"بل قولي :كم هي شهية، وكم هي حلوة ورائعة!". قالت عزيزة التي ظلت تحدجها من وراء النقاب.

"الخليفة ضاع صبره، لنضع لها أحمر الشفاه والخدود" اقترحت البدينة السوداء.

"على البنت أن تشبع جوعها أولاً. ثم علينا تنظيفها من تحت"، صاحت عزيزة، ثم التفتت إلى السوداء التي كانت تحمل الطبق النحاسي المملوء بحلوى السميد وأردفت بصوت هادئ:

"املئي منها البطن حتى يُملأ منها..."، هكذا زمجرت عزيزة وضحكت في خبث كله ارتياب وتشفٍّ ثم أخرجت من جيب عباءتها السوداء عجينة سكر مذاب مخلوطة بالصمغ العربي، وعلى عجل وعنف، جعلت تنتف الزغب الرهيف من بين فخذي كاجين...

وراحت كاجين تطلق صرخة مع كل نتفة... صرخت كما ينبغي لمن يحس بمثل ذلك الوخز، ذلك الألم. ثم أمسكت بها عزيزة وأدخلتها في طست مملوء بالماء. وبعد زهاء عشرين دقيقة أخرجتها منه، وبحرص غسلت خصلات شعرها الأشقر ثم نشفتها جيداً بمنشفة

طرية ثم ألبستها قميصاً من حرير أحمر وسروالاً أبيض فضفاضاً وهي تغمغم:

"عما قريب سنعد لك ثياباً على مقاسك، والآن دعيني أقبلك ودعيني أضمك".

ساد صمت.

اغرورقت عينا كاجين بالدموع وهمست بصوت خافت:

"لقد تعذبت كثيراً... كثيراً!".

وما كان من صدى.

لكن علا صوت خطىً مقتربة.

بغتةً انفتح الباب.

دخل معاون الخليفة سامي حمدان الحجرة في جلباب أسود طويل واسع ونظيف وقد بدا عليه شحوب واعتراه نحول، زادت من إظهاره لفَّتُه الكبيرة للعمامة السوداء... كانت عيناه الواسعتان محمرتين، بينما لاحت حدقتاه المستديرتان السوداوان مبتلتين محايدتين طوراً، مشعتين طوراً، وتارةً حزينتين غاضبتين... أغمضهما، ولما فتحهما لاحتا ميتتين مرعبتين مثل عيني حوت عظيم.

وراعتها لحيته التي أصبحت شعثاء وطويلة جداً.

مد يده صوبها بارتعاش، فبرقت على معصمه ساعة رولكس من الفضة والذهب.

جفلت فزعة.

"لماذا ترتعدين"؟ سألها بنبرة خافتة.

ساد صمت.

ثم عاد وأردف:

"لماذا تخافينني، يا...، يا كاجين؟ اسمك كاجين أوَ ليس كذلك"؟

فلزمت كاجين الصمت ولم تقل شيئاً. لكنها على نحو ما شعرت بأن صاحب النبرة التي آنستها بأحاديث الليل المثقفة أثناء حبسها في الزنزانة، لن يأتي من صاحبها أذى الآن.

"إنها بنت قليلة الأدب مولاي معاون الخليفة"، قالت العجوز عزيزة من خلف النقاب.

"لا تعرف أن الله عز وجل قد أنعم عليها بأن تكون خاصةَ سند الإسلام ودعامته، أن تكون سبية معاون الخليفة!". قالت البدينة السوداء.

"لا تخافي، فأنت الآن سبيتي، وقد قلتِ: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله".

ساد صمت.

ثم انفجرت كاجين باكية.

وصرخت:

"لقد أجبرني الشيخ محمود؛ جلدني بالسوط".

صفعها صفعةً قوية فهوت.

"أتعنين أنك لا تشهدين أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ وأني

لست بمعاون الخليفة ظل الله؟ أوَ تعنين ذلك أيتها السبية"؟ صرخ وقد ظهر رغو وزبد بزاويتي فمه.

"اسمعي كلام معاون الخليفة وسنده لتنعمي بمباهج وملذات الحياة الدنيا ولك الآخرة في جنة النعيم، ويحرم جسدك على نار جهنم"، قالت عزيزة من وراء النقاب.

ساد الصمت كرةً أخرى.

رفع معاون الخليفة كفه وهوى بصفعة جديدة داوية على خد كاجين الأيسر ذي الشامة. انطرحت على الأرض، فانحنى فوقها، لحظتئذٍ أسرعت عزيزة والبدينة السوداء بالخروج، بينما مدَّ هو يده، فرفع القميص الحريري الأحمر وحل السروال الأبيض الفضفاض.

تلمظ وهو يتأملها صاحية وعارية ثم بغتة رمى القميص من يده، ثم نهض ثم صاح:

"عزيزة... يا عزيزة! عزيزة! أين أنت أيتها العجوز؟ هل أصبت بالصمم؟".

فأقبلت عزيزة لاهثة وهي تعدو في وجل وتتمتم:

"مولاي معاون الخليفة!... مولاي أمرك!".

"أين هو؟ أين هو أيتها العجوز المأفونة؟".

"ماذا؟ ماذا تقصد مولاي؟".

"أقصد الزغب".

"لقد نظفته! نظفته مولاي!".

"أزلْتِه؟ يا لك من مجرمة! يا لك من جاهلة!".

"مولاي! كنت أظن أن..".

فقاطعها:

"تظنين ماذا؟ أوَ لا تعلمين كيف تكون الوردة؟ أو لا تعلمين؟"

"عفواً مولاي الخليفة ولكن"!

ونهض مُغاضباً وهو يسأل في تبرم وفي ضيق:

"هه، كامرأة كم يحتاج ذاك الزغب كي يكسو وردتها مجدداً؟ كي ينام على ودعتها العمياء؟".

"بعد أسبوعين مولاي معاون الخليفة، ربما ثلاثة، نعم ليس أكثر من ذلك، ويُدفِئ الوبر ورق الوردة ويظهر صاحياً في عماء الودعة، مولاي معاون الخليفة"، قالت وعيناها إلى الأرض.

"آهٍ. وآه، بل ألف آه يا عزيزة"، قال وقد تنهد معاون الخليفة سامي حمدان.

ثم غمغم:

"هي وحدها، هي...،".

ثم سكت فلم يُتم.

وتمتمت عزيزة متعجبة:

"هناك الكثيرات! مولاي! هناك من هن أكثر منها جمالاً! فتيات ونساء ممتلئات كأنهن الخبز النضيج".

فرفع يده في احتجاج:

"عزيزة! آه، آه يا خادمتي العجوز! موقف الرجل من المرأة كحالته بالنسبة إلى اللحم المشوي! كلما كانت الأسنان هرمة كانت بحاجة إلى لحم أكثر طراوة، لحم طفلة، هل تفهمين"؟

فاغرورقت عينا عزيزة وفاضتا بالدموع:

"لماذا إذاً تقف نفسك على واحدة مولاي؟ ألا تعرف ما تعلم الحكمة يا مولاي؟ التبديلات المتواترة تحافظ على الشهوة غضة، وتساعد على طلاقة اللسان عند الغزل، قوادك وجنودك ليضربون مثلاً لذلك! بالأمس كنت في المغسلة أتأمل تلك اليزيديات وهن يغتسلن كل ما فيهن مرن قوي، لدن وحلو"، قالت وكانت تتلظى، كان صوتها يرتجف استعاراً. كم تتعذب لأنها هي أيضاً في الخفية ترغب.

بيد أن معاون الخليفة لم يُصغِ إلى حديثها بل راح يغمغم:

"العالم عندي عينان خضراوان وزغب نامٍ، إن هذا ليعدل حياتي وليفوق كل مجدي".

وسكت هنيهة ثم أردف:

"العالم يساوي طفلة اسمها كاجين، في غابر السنين كان اسمها دوروثي".

وسكت ثم تمتم:

"أرق يلازمني منذ الصبا بسبب عينين خضراوين وزغب حي!".

"هل آتيك ببعض الأقراص المنومة مولاي معاون الخليفة؟ إنها شفاء جيد للأرق ولطول السهر".

"لا، تلك الأقراص تهد الجسم بالقوة نفسها التي يهدُّه بها طول السهر".

وسكت ثم سلط حدقتي عينيه السوداوين على وجه عزيزة وسألها مستغرباً:

"عزيزة! من أين تأتين بالأقراص المنومة"؟

ارتبكت عزيزة من هول الظلام المطبق في حدقتي العينين السوداوين، من مباغتة السؤال.

تمتمت وهي تجيب:

"من العيادة الحربية مولاي، أنا لا أستطيع النوم منذ زمن. لقد...،".

رفع يده مجدداً، لكن بقوة، فسكتت عزيزة.

"هذه الأقراص خطيرة، لا تعطي هذه البنت منها، مفهوم"؟

واستدار فخرج.

بخطىً ثقيلة وئيدة، خرج معاون الخليفة سامي حمدان من بيت الثري المصادر.

عاد للمدرسة الابتدائية وهو يسأل نفسه:

"العيد! أين هو العيد"؟

الآن الوقت ساعة السحر.

وهو على ما هو فيه، لمثقل الآن بفكرة لم يقل لأحد عنها حرفاً، كان في ذهنه يرسم الخطة للوثبة الكبرى: محاصرة بغداد واحتلالها.

وعادته ذكرى أحاديثه مع صديقه عامر محمود عن جيفارا. وتمتم في نفسه: "جيفارا لم يأخذ سانتا كلارا من أجل سانتا كلارا، لقد أخذها لأنها كانت الطريق لإسقاط هافانا". وارتعد السراج المشعل فأنار أكثر مما قد أنار. وبرغم حر بداية أغسطس اللاهب أحس برعدة باردة تضرب كل عموده الفقري، تدخل إلى نخاعه الشوكي، ثم تنداح إلى أوصاله! تذكر دوروثي، لماذا ترفضه الفتيات اللائي يهفو إليهن ممن يحملن عيوناً خضراء وبشرة شقراء؟ لم يسعفه ذهنه بإجابة فشعر بأنه حزين، بأنه ضعيف، حزين جداً وضعيف جداً، وإنه ليشعر الآن بغصة كغصة العبرات، وحيداً، مضى يذرع حجرة القيادة في خطى بدت بطيئة مترددة، كانت أصابع يده اليسرى تعبث بشعر لحيته في عصبية غاضبة، قال في نفسه إنه لا يملك حظاً في عيد، لقد أراد أن يعيِّد بكاجين، لكن! وشعر بخنقة السحر التي اعتصرها أغسطس تمنع عن رئتيه الأوكسجين، للحظة عاده شعور جربه ذات صيف بعيد في جبال أفغانستان، كان في فرار من ثلاثة جنود أمريكيين، ضللهم بمعرفته لطبوغرافية المنطقة فاختبأ في أحد الكهوف، قبع منزوياً في ركن كأن الهواء قد انعدم منه، أحس برئتيه تضمحلان وبورم في حلقه وفي أنفه، لكنه لما رأى الخفافيش المدلاة من نتوءات الصخور مثل قطع ملابس تتدلى من حبل الغسيل، أدرك أنه سيحيا ما دامت هذه المخلوقات تحيا، لابد أن ما يدخل صدره يكفيه، ولا بد أن يكون هناك أوكسجين ما دامت الخفافيش حية، ثم إنه راح يتأمل أعينها المحايدة، يتمعن في تلك المخلوقات التي

تعيش على مص الدماء! إنها في هدأة الكهف تبدو مسالمة! ولوهلة أحس أنه ليس سوى خفاش كبير. وشهق شهقة جهد أن يملأ به رئتيه من سحر أغسطس الخانق الآن لبهجة عيده في الموصل، وعاد فتذكر أعياداً كثيرة قد مرت في سني حياته الطويلة، أعياداً لم يشعر فيها بالسعد ولا بالهناء. تذكر عامر محمود الذي انتحر، وقال في نفسه إن صديقه تنبأ له بالكثير مما هو فيه! فقط ليته لم ينتحر، ليته عاش ليرى الشوط البعيد الذي قد قطعه في طريق الحياة. وحاول أن يزيح عن كاهله وطأة اليأس والقنوط فراح كعادته يتذكر لحظات القوة من حياته، تذكر يوم مغادرته بيت أجمل الأفغاني والتحاقه بفرقة التدريب، كان اليوم ثلاثاء، يومها وضعوا أيديهم على المصاحف وأقسموا:

"نقسم بالله العظيم أن نطيع أمير القاعدة، وألا نتهاون في المنافحة والذود عنه، والتضحية في سبيله حتى الموت الذي هو شهادة وهو عبادة".

ذلكم هو نص القسم الذي كان عليهم أن ينطقوا به؛ والذي طرأت عليه تبديلات طفيفة في مقبل الأيام.

ودوى هتاف راعد:

"الله أكبر...، الله أكبر، نحن المسلمون، نحن الناجون من النار، وحدنا نحن الفئة الناجية. ما عدانا من المسلمين ضالون منحرفون وهم لأسوأ من الكفرة الفجرة".

كانت أصواتهم أعلى من وجودهم، فقد كان من المهم جداً في تلك

اللحظة الحاسمة دفن كل هاجس وقتل كل شك.

وعليه، فقد وقفوا جميعهم متأثرين على نحو واضح بقدسية اللحظة، مرتدين جلابيبَ سوداً، وعمائمَ سوداً، وأحذية عسكرية ثقيلة، هي كذلك كانت سوداً. حكى لهم المدرب الذي أدوا القسم أمامه عن سعادة الشهداء وأنهم إن لم يسقطوا شهداء، فكل ما يحرزونه من نصر دونما ريب ستعقبه غنائم حرزها جميعاً حلال.

بغتةً، نظر إليه المدرب للحظة ومن دون مقدمات اقترب منه وهمس في أذنه:

"أنت أيها الغلام، سيكون لك شأن، أي شأن".

ها أخيراً قد حصل سامي حمدان على تعميده ذلك الذي طالما كان يتوق إليه توقاً. وانطلقت التمارين البدنية العنيفة، فكانت أثلج على صدره من تنفس الصعداء، الساعات تمضي كاللحظات والأيام تنقضي فكأنها الساعات! أسبوع مر من بعده أسبوع وقد كان كدأبه سريع التعلم، كان يركض ويربي القوة في العضل، ويقف على قدم المساواة مع مَنْ سبقوه في تسلق الحبال والزحف على البطن فوق الصخر والحجر والشوك والنبات.

أما في المبارزة، فلم يكن لأحد أن يتغلب عليه؛ كانوا يتقابلون اثنين اثنين، الخاسر يخرج والظافر يصعد للدورة التالية، وتغلب سامي حمدان على أبو عاتكة، وعلى حامد، ثم على أحمد، وصمد أمام هجوم أبو مروة، برهة وتودجت العروق في الرقاب وفي الأصداغ، ثم جحظت العيون، كانوا يترنحون ويتهاوون:

"مثل أوراق شجر الحراز في الخريف" قال المدرب ساخراً.

صفَّى سامي حمدان جميع منافسيه الواحد تلو الآخر، بعد أن قدم عروضاً سريعة ومبهرة. وفي النهاية وجد نفسه وجهاً لوجه مع المدرب، رفع السيف خطاً مستقيماً، وحمل الترس على نحو يُوهم بكشف وجهه وصدره على نحو أسلوب محمد علي كلاي في الملاكمة، وراح يقفز ها هنا وها هناك كي يرهق خصمه، وقد بلغ منه التعب ولكن عينيه الواسعتين المترصدتين كانتا تضحكان وهو يحاول النيل من مدربه.

بدا الصراع رائعاً.

كان سامي حمدان يدرك تفوق خصمه وبراعته المفحمة، بيد أنه كان مشحوناً في الاستفادة من الامتياز الذي أوصلته إليه ومنحته له براعته هو أيضاً، فاندفع بحماسة نحو المدرب في هجمة كاسحة سريعة، غير أن المدرب أفرج ساقيه الطويلتين ودونما أن يتحرك تقريباً تفادى الهجوم بحركات مدروسة ودربة ذكية، ثم تصنَّع وثبة محسوبة تماماً مكنته من خدعة انقضاض جعلته يتحصن برأسه، فجعل يرقص على ساقيه المنفرجتين وكما النمر يتنقل في وثبات متتابعات سريعات. وبحركة رشيقة من سيفه ضرب المدرب الدرع الراسخة في يد سامي حمدان اليسرى، ولكن سامي حمدان رفع يمينه مجدداً فتقاطع سيفاهما يشقان الفراغ عند المنتصف بين المساحة الضيقة الفاصلة بين وجهيهما.

همسات إعجاب تسللت إلى الآذان، ثم تصاعدت منداحة في دكنة

الفجر البنفسجية الندية...

وألقى المدرب بأمر آخر وهو يصفر مُنهياً الجولة بينه وبين سامي حمدان دونما منتصر، دونما مهزوم.

"إلى الرصاص... إلى الرصاص".

قفز المتدربون عن خيولهم، ورفعوا جلابيبهم، وأمسكوا ببنادقهم الخفيفة، واصطفوا على هيئة قوس ناقصة، مُطلقين دفعات ومجموعات من الرصاص، وأعقب ذلك اختبار الكفاءة في القنص، إذ ركَّز المتدربون فوهات بنادقهم صوب أهداف متحركة وأخرى ثابتة في وقت واحد.

"هذه هي الطريقة الأكثر فاعلية في تكبيد العدو خسائر في الأرواح: القنص مثل وحش ضارٍ".

لم يترددوا إثر ذلك في التركيز بدقة وإطلاق الرصاصة التي تنطلق صوب هدفها فتصيبه ولا تخطئه؛ كل واحد منهم أراد أن يتميز، وهو ما دفعهم للتنافس.

لم يخطئ سامي حمدان هدفاً واحداً من مجموع سبعة أهداف، كما لو كان معصوماً من الخطأ في كل شيء.

علا صوت صفارة، فألقوا بالبنادق وتناولوا قطع السلاح الأبيض.

"السونكي والخنجر والسكين والحربة والفأس لا تقل تأثيراً في حسم المعارك بخاصة حينما يقع الاشتباك"، قال المدرب.

ثم أردف:

"ستبرعون كمقاتلين بالنار مثلما ستبرعون باستخدام الحواف الحادة،

فالطعن هو المسبب لأنكأ الجروح وهو ما أتقنه الفرسان على مر التاريخ".

وبينما كانوا في البداية يتلهفون لإعطاء المدرب انطباعاً حسناً، فقد صاروا الآن على أحر من الجمر لتنفيذ الأوامر من دون أن ينبسوا ببنت شفة.

كان المدرب يسترق النظر إلى سامي حمدان، ولوهلة اكتشف المتاهة الغريبة الصامتة في عينيه الواسعتين.

"والله لقد أحسنتم، بارك الله فيكم وجعل منكم ذخراً وسبباً لنصر المجاهدين في سبيله. النصر للقاعدة، أنتم مجاهدو الغد وأنتم بإذن الله لمن المنتصرين".

لحظتئذٍ أحسوا بعزاء كبير بعد الجهد البدني الشاق، واهتزت الرؤوس منهم معبرة عن الرضا، طربة من الاستحسان، ثم ما لبثوا أن اتقدوا حماسةً.

"تذكروا: في أفغانستان نهاجم على انفراد وندمر كل ما يقع في مدى نيراننا، ثم نتفرق في لمحة، وبعد غارتين أو ثلاث يختفي العدو".

وعندما غير المتدربون من المجاهدين الجدد طريقة الهجوم في التمرين الثاني، موزعين في متعدد الصفوف، قاذفين بأنفسهم الواحد مقابل الآخر في قتال متميز، كان سامي حمدان قد أصبح خفيفاً كالفهد، كانت عيناه الواسعتان تلمعان من الرضى، داعب لحيته الكثيفة التي رعاها، وهزَّ رأسه في إيماءة مستحسنة، وكان قرص الشمس قد صعد برتقالة هائلة في غصن الشرق، وهو ما نم عن أن التمارين التي بدأت

بعد صلاة الفجر قد انتهت وآن للجميع أن يستريحوا.

ترجل عندئذٍ وهو يجر حصانه من لجامه في أرض قندهار، ثم وضع سجادة في الظل وجلس عليها بارتياح... بعد قليل حذا حذوه المتدربون، وتسامروا حتى تستريح أجسامهم بعض الشيء، ثم نهضوا وعادوا إلى الخيمة الواسعة، فتناولوا فطورهم ورشفوا الشاي بالحليب.

"لا بد لك من أن تكثر من الأكل قليلاً، سامي حمدان" قال المدرب.

بدا وجه سامي حمدان النحيل محتقناً من أثر السهر والجهد البدني، ولكن عينيه الواسعتين ابتسمتا بصمت في وجه المدرب.

"لقد كنت رائعاً في المبارزة"، قال المدرب بنبرة تقدير ورنة إعجاب.

اتسعت الابتسامة في العينين الواسعتين حينما أردف المدرب:

"أوشكت أن تهزمني! إنك تتعلم بسرعة لا تصدق!".

وسكت ثم عاد فقال وهو يمسح على كتفه اليمنى:

"اسمعني سامي حمدان: سيخرج منك محارب رائع، ربما لن يتعين عليك أن تتريث حتى تقوم مثلي بمئة غارة ومئة غزوة".

وتعالت أحاديث من ها هنا وأحاديث من ها هناك.. لكن سامي حمدان كان يحدق في الأرض بنظرة كئيبة، بدا كأنه لا يعير أذناً مصغية إلى كلام مدربه ولا إلى أحاديث المتدربين معه من المجاهدين.

سيتابعون التمارين بعد الظهر في الجبل.

بعد أيام من التمارين المتواصلة؛ وبعد صلاة العشاء وصل تحت ضوء القمر رسول يعدو على حصان أدكن اللون، ويشد على الأرض

ساحلاً رجلاً مربوطاً على ذيل الحصان، أدركوا جميعاً أن المسحول الذي لم يزل على قيد الحياة جاسوس، وأن ثمة أمراً جللاً ليس على الأبواب، وإنما قد تجاوز الآن الأبواب... وترجل الرسول وانفرد بالمدرب دقائق، فتبادلا حديثاً خافتاً، ثم عاد الرسول ووثب على سرج حصانه، وغمز بطن الحصان وانطلق لحوافره في الليل وقع، وللمسحول آهات وأنين.

"بإمكانكم أن تذهبوا فتغتسلوا وتتطهروا لتستعدوا، فاللحظة الكبرى في حياتكم قد أزفت. وعندما يحين وقت السحر ستنذرون جميعكم نفوسكم كفدائيين، كشهداء".

وانحنى المدرب، ثم ابتسم ابتسامة مشجعة، وغادر في خطى واسعة سريعة.

همو ليسوا بأنبياء؛ لكنهم أسرعوا للاغتسال وهم يطفحون بالحماسة، وبإيمان لا يتزعزع دونما أي مخاوف من الموت على الإطلاق.

وعندما اجتمعوا مع رجوع المدرب،

اقترب منه المدرب وقال بصوت ينساب منه الخطر:

"سامي حمدان! اقترب فإني أعلنك وأشهد الله بأنك أنت الأول بين النخبة المصطفاة، وها أنا ذا أضع الراية السوداء بين يديك، ليكن من هذه الراية رمز شرفكم وعزتكم، فإذا ما تركتم العدو يطؤها بأقدامه، فستكونون قد جعلتموه أيضاً يمرغ عزتكم وشرفكم، كذلك، فإنكم ستحيطونها أيضاً بعناية تفوق عنايتكم بإنسان عيونكم. لا يجوز للعدو أن يستولي عليها طالما أن جهادياً موجوداً على قيد الحياة،

لن يبلغها عدوكم إلا وهو يمشي على جثثكم جميعاً، ولذلك أطيعوا سامي حمدان، فهو قائدكم وحامل رايتكم".

أخذ سامي حمدان الراية بيمينه من يمين المدرب كما لو كان في حلم، ثم عاد ليتمركز على رأس الجهاديين وقد دنت اللحظة التي كانت تمثل ذروة حياته وثمرة أناته، وأحس بعذوبة طاغية تنتقل من لسانه إلى صدره ثم إلى أطرافه، لتنتشي منها كل خلية في جسده، وأخلى الألم المبرح للفرح مكاناً، وأيقن أن تلك اللحظة التي عاشها كالأبد هي التي ستبقى ولن يعود الحزن ولن يعرف اليأس مطلقاً. لكنه لوهلة تذكر وفي أسىً شفيف صديقه الذي انتحر، صديقه الذي كان يتحدث إليه في حديقة بيته في إيويل في مقاطعة ساري وكأنه نبي، صديقه عامر محمود.

والآن، نفض رأسه يطرد منه غابر الذكريات.

استعد.

وقبل أن ينحدر بكوكبته سأل المدرب:

"ماذا سنفعل بالأسرى؟ أيها الأمير"؟

"جزوا رؤوسهم جزاً، تعجبني سامي حمدان! فسؤالك يعني أنك قد انتصرت سلفاً".

كان بيت الثري المصادر يتألف من بهو واسع وردهة وقاعتين فسيحتين وصالون رجالي أنيق وخمس حجرات توزعت على طابقين، كانت الحجرات حسنة التهوية جيدة الضوء ذات نوافذ كبيرة يحيط بها من الخارج شبك من الحديد والسلك النملي الناعم الذي قصد منه أن يمنع دخول كبير حشرات النهار وهوام الليل، وقبل ذلك يمنع اللصوص من الدخول، كان له مطبخ كبير للغاية ومجهز بكل الأواني والأجهزة التي بقيت عاطلة عن العمل منذ انقطاع الكهرباء عن الناحية، غير أن موقد الغاز الكبير كان يعمل، وفي المطبخ كانت تنفق عزيزة ساعات النهار، وفي خزانته كانت تخبئ أقراص النوم التي تحضرها من العيادة الحربية...

وكان للبيت فناء واسع انتشرت في أرجائه أشجار النخيل الباسقة، وفيه حديقة صغيرة حسنة التنظيم فرهدت فيها زنابق وأصناف أزاهير وورود. معاون الخليفة سامي حمدان، بعد نقل كاجين إلى البيت، صارت له حجرة في الطابق الأرضي يأوي إليها موزعاً وقته بينها وبين حجرة القيادة التي تحولت إلى حجرة عمليات في المدرسة الابتدائية، كما أن أركان حربه خصصت لهم حجرات يخلدون فيها للراحة حين لا يكون هناك ما يتطلب وجودهم قريباً من حجرة القيادة والعمليات.

مرت أيام عيد الفطر سريعة فانتهت، ونهار هذا السبت القائظ انقضى رتيباً في البيت وحل المغيب، وبعد صلاة العشاء خرج الشيخ محمود من غرفة حبس كاجين ذات الأرائك بعد أن كان يعلمها

آياتٍ لم يصبر أثناء قداستها عن قرص الشامة التي تتوسط خدها الأيسر.

ولم تمض لحظات على خروجه إلا ودخلت عزيزة تحمل سراجاً متوهجاً وقطعة لحم مشوي وفاكهة وحليباً وخبزاً:

"كيف حالك الآن"؟

لم تحفل لها كاجين برد.

"أتيت لك بالنور وبالطعام".

"لا أريد شيئاً الآن".

فغمزت عينها، وأومأت إلى ما تحت بطن كاجين:

"من أجل أن ينبت الزغب...، من أجل معاون الخليفة، هه".

وضعت آنية الطعام والفاكهة، وبيدٍ مرتعشة حاولت لمس كاجين، فما كان من كاجين إلا أن جفلت نافرةً.

"تخافين معاون الخليفة هذا مفهوم فهو رجل مخيف، لكن لماذا تخافين مني يا كاجين؟ لماذا"؟ قالت وهي تدنو بوجهها من وجهها.

على حين غرة رفعت كاجين ذراع عزيزة وعضتها على النحو ذاته الذي سبق أن عضتها به في ذات اليمين، فصرخت عزيزة ثم ولت هاربة.

وكاجين تناديها بصوت مفعم بخطة جديدة:

"سأكلم المعاون بفعلك بي، بسبيته، أوَ لا تعلمين بأني سبية معاون الخليفة؟ بأني السبية المنتقاة"؟

كالمللدوغة عادت عزيزة وجثت ثم راحت تتوسل بصوت ضعيف مخلخل:

"لا، لا، أرجوك في عرضك بنيتي، إن أخبرت معاون الخليفة فسيجز رأسي بسكينه الحادة، أرجوك لا تفعلي".

"اغربي عن وجهي إذن أيتها العجوز المقيتة".

في التو، اختفت عزيزة فأوت إلى مخدعها وتناولت عدداً من الأقراص المنومة وابتلعتها دون ماء، ثم رقدت وأغمضت عينيها.

وطلع صباح من بعده صباح.

والآن، في هذا النهار الحار من شهر أغسطس، مضت على مجيء كاجين إلى بيت الثري المصادر ستة أيام انتظمت فيها مع الشيخ محمود في حصص الحفظ والدرس، عزيزة لم تعد تضايقها من يوم تهديدها لها بأنها ستكلم معاون الخليفة بكل فعلة تفعلها، بكل شيء. وبعد أن أمنتها راحت تفكر في إكمال ما ظل يشغل بالها:

الهروب من هنا.

ذلك ما كانت تفكر فيه.

لكنها من النافذة كانت ترى الحرس في جلابيبهم السود وعمائمهم السود يتجولون في أرجاء الفناء وهم يحملون السلاح.

وعنّ لها أنها من الممكن أن تستعمل، مجدداً، عزيزة.

ومن أجل خطتها، طفقت تتبسط معها وهي تفكر في أمرها، بينما عزيزة ترفع النقاب وتبتسم، داومت على أن تأتي لها بكل ما هو طيب برغم عضها لها.

في اليوم الرابع جاءها الشيخ وصلى بها الفجر، وبعد الصلاة مدت يدها وربتت على كفه، فذاب وانحل كما قطعة ثلج وجعلت تتمتم:

"لولا معاون الخليفة... لولا سيدي سند الخليفة!".

دنت بشفتيها وقبلته في فمه فأرتج عليه وخرج مسرعاً وهو يترنح في اضطراب.

مع أشعة الصباح دخلت عليها عزيزة بكوب من الشاي وكعكتين، من قبل أن تضع ما بيدها قفزت كاجين واحتضنتها.

سقط كوب الشاي وتفتتت الكعكتان.

وباغتتها بما لم يكن في الحسبان:

"سأعطيك ما تريدين إن وعدتني، سأمنحك نفسي، وكما اشتهيت".

فسألت عزيزة وشفاهها تضطرب وجسدها يرتعش:

"أعدك بماذا"؟

"بأن تساعديني على الخروج من هنا، من هذا الحبس".

"تريدين الفرار مرة أخرى! لا يمكن!".

"نعم يمكن. وأنت ستساعدينني، أريد أن أذهب إلى بيتنا في استيرا، إلى أمي وأبي، أرجوك عزيزة، سأعطيك كل شيء، كل شيء، هل تسمعين"؟

نظرت إليها عزيزة طويلاً، ثم جعلت تحرك شفتيها ولسانها بتلمظ وتمطق قد طال كتمانه من أثر الخوف من أن يعرف المعاون.

دنت منها مهتاجة الأنفاس.

واحتملت كاجين بإذعان جميع نزعات عزيزة الشاذة مع كل أهوائها.

انسلت عزيزة وهي تتمتم في رعشة:

"سأساعدك خلال أسبوعين، أعدك. ولكنني أتوسل إليك فقط بألا تتفوهي بكلمة إلى أحد كما وعدتني! لن تخبريه أليس كذلك"؟

بلؤم منتقم ضحكت كاجين وراحت:

"لا بد لي من إخبار سيدي معاون الخليفة لأن هذا مشين! هذا مشين الذي قد فعلته بسبيته يا عزيزة!".

فارتاعت عزيزة أيما ارتياع.

اقتربت منها كاجين وقالت بنبرة ذات مغزى وحِد:

"لن أقول له حرفاً إذا التزمت بمساعدتي، عشيقتي العزيزة".

فتنفست عزيزة الصعداء وزفرت:

"لقد ساعدتك من قبل، أوَ تذكرين"؟

"لا، تلك الليلة كنت مجهدةً من السهر وفاجأتك ضربتي لك في البطن، أوَ نسيت يا عزيزة؟ كنت خامدة لذلك تمكنت ليلتها من الهرب من ذات اليمين، أوَ تذكرين عشيقتي العجوز؟ أوَ ربما لا تذكرين؟ هه!".

فتوسلت إليها توسل طفلة معاقبة:

"أعدك بأن أساعدك يا كاجين، أعدك بأن تعودي إلى أمك وأبيك في...، ما اسم قريتك؟".

"استيرا".

"أعدك بأن تعودي إلى بيتكم في استيرا. أقسم بالله يا كاجين، صدقيني أيتها الصغيرة اللذيذة".

ساد صمت.

وبغتة سألت كاجين:

"عزيزة، آسفة، ولكن قولي لي: لماذا يحب الخليفة الزغب"؟

فارتاعت عزيزة وانخطف وجهها وجعلت تتمتم:

"لا تتعرضي لي بأي سؤال عن ذلك، مهمتي هي تحضيرك، ولا يحق لك أن تعلمي مني أكثر من ذلك بأمر مولاي معاون الخليفة".

"لكنك لن تحضريني، لقد وعدتني بالمساعدة قبل انتهاء أسبوعين! أوَ ليس ذلك كذلك يا عزيزة؟ أم تريدين مني أن أفضي له بفعلك بي؟ بسبيته المنتقاة؟".

ساد صمت طويل.

"هه، تحدثي عشيقتي العجوز، لقد أعطيتك ما أردت يا عزيزة، لقد فعلت ما تريدين، أليس كذلك؟ إذا حنثت بالوعد فسأكلم سيدي الذي أنا سبيته الحبيبة، صدقيني، سأكلم معاون الخليفة بما قد فعلته بي".

"لا، أرجوكِ، وعدي في محله"، صاحت عزيزة صيحة الملدوغ.

وفي الليلة التالية،

بعد صلاة العشاء وتناول وجبة العشاء المأخوذ فخذ منها من دجاجة معاون الخليفة وبعض حساء، أطفأت عزيزة السراج واندست تحت اللحاف الأحمر.

همست لها بنبرات ترتعش:

"سأساعدك. أنتِ لي".

وغمزت بعينها اليمنى وزامت تخالط أنفاسها لفحة من لهاث:

"هيا".

ثم أمرتها:

"هيا تجاوبي، تجاوبي كما المرة الفائتة، لقد وعدتني".

فلم تضع كاجين الفرصة:

"سأفعل، لكنك ستوفين بوعدك، ستوفين أليس...،".

فقاطعتها قد فرغ صبرها:

"أجل، سأوفي بوعدي وستخرجين من هنا، ستعودين إلى استيرا، الآن هيا".

فرضخت كاجين مرة أخرى.

واجهت كاجين قبلات عزيزة وحركاتها التي نمت عن خبرة وعن عاطفة مشبوبة بنوع من التماسك وهي تحدث نفسها بوجوب التساهل مقابل خدمة قد تقدمها لها كرةً أخرى المرأة نفسها.

فرغت منها عزيزة، ثم أجلستها على إكليم أحمر كانت قد فرشته بالأرائك كي تستريح.

ولكنها عادت، فمدت أصابعها وتحسستها.

"هذه العجوز تتصرف كأن ما في نفسها لا يشبع أبداً! إنها أقسى من رجل"! همست كاجين في نفسها.

واهتزت عزيزة العجوز التي صارت الآن نضرة، وهمست:

"كنت سأكون أسعد إنسانة لو نعمت بالعيش معك أستمتع بك بعيداً من هنا كعصفورة أو كفراشة تحت الشمس".

ومضت تطعمها بيد وتسقيها بيد.

وقبل الفجر تنقبت ثم خرجت.

ومرت أربعة أيام.

ومع الطعام والفاكهة غدت كاجين طرية ومكورة غير أن الزغب الذي ينتظره معاون الخليفة لم ينبت بعد..

عبر النافذة، نظرت كاجين إلى ضوء النهار، حدَّقت فيه طويلاً.

عزيزة منشغلة الآن بأمر ما في الدار فيما يخص إعداد طعام الغداء لمعاون الخليفة وكبار قواد كراديسه، ما أعطاها وقتاً لنفسها فراحت تفكر تارةً وتتذكر طوراً. ثم غمرها فيض من ماضي الذكريات، ومر شريط حياتها أمامها سريعاً: طفولتها التي درجت في أسرة يغمرها الحب والعلم والأدب والنبل، أزهار الحديقة الصغيرة وخرير الماء في الجدول في استيرا، طعم العسل البري، عطر الزهور الخجلة التي كانت تنبت في الربيع أمام باب دارها، تذكرت داخل الدار وخارجها، وتذكرت الجيران والأقرباء.

مر ذلك عليها كما يمر شريط فيلم، فيلم ناطق أسمعها صوت أمها المسكينة التي أحبتها حباً جماً، وصوت أبيها الرؤوف، ونباح كلبها ماونت، كلبها الذي كانت تلاعبه ويرافقها في البيت وفي الدرب، في الحديقة بين الأشجار والورود والأزهار، فكرت في أترابها البنات

الطيبات رفيقات اللعب في أسعد اللحظات، كلبها الذي أرداه رجال السواد بطلقات فقضى في وحشة الجبل، وكان هذا الفيلم الذي تشهده من دون سابق تصميم بمنزلة الفانوس السحري الذي أضاء ساحة الأمل في روحها مرة أخرى وملأ نفسها بانفعال عذب. وكانت ساعات ترقب ممل طويل رتيب، ترتب فيها قفزة للمجهول.

بغتة انفتح الباب.

التفتت.

دخل معاون الخليفة وأغلق الباب.

خطا نحوها وهو يردد:

"لا تخافي. لا تخافي. لم تعودي تخافين مني، أليس كذلك"؟

بمكر ابتسمت في وجهه ثم قالت بصوت خفيض:

"مولاي وسيدي، سبيتك لم ينبت منها الزغب بعد".

"أعلم، لقد أخبرتني عزيزة، إنما أنا جئت الآن كيما أنعم بالسفر في بحار عينيك الخضراوين".

جلس قبالتها وراح يحدق في عينيها وهو يتمتم:

"إن في عينيك كؤوساً من حلالٍ وحرام!".

ثم مدَّ كفه لكن كفَّه في الطريق ترددت.

عاده وجه دوروثي وامتلأت عيناه بالدم الذي اختلط يوم فعلته بها مع زرقة الماء في حوض السباحة.. ثم استجمع قواه وطرد أفكاره المشوشة وأمسك بوجه كاجين، وسأل نفسه: كم من السنين لم ير

مثل هاتين العينين الخضراوين؟ أشرعت لحظها ونظرت في ظلمة حدقتيه فأحس وكأنه قد جرع كأساً من نبيذ.

"هه، الحياة تعطي مهما يطول الحرمان"، قال في نفسه وعيناه في عينيها بينما عادت لذهنه الأفكار والرؤى ومرُّ الذكريات، ربما سار كلَّ الطريق ليصير أخيراً سيداً لهاتين العينين الخضراوين، شيء قاد إلى شيء وحدث أفضى إلى حدث.

واستفاق على صوت يناديه:

"مولاي المعاون، مولاي المعاون"، كانت عزيزة على الباب واقفة تناديه.

"ماذا؟ من أذن لك في الدخول أيتها العجوز الغبية"؟ قال وحدقتاه المستديرتان السوداوان تحدقان في موج البحار المخضرة المتلاطمة حيرة وفزعاً في عيني كاجين، كان قبالتها يبكي في صمت محدقاً مأخوذاً بعينيها، وعنَّ له أن خضرة عينيها تشبه تلك الخضرة التي تشرئب في أعناق العروق العنيدة وهي تنبثق من بين صدوع الصقيع في إنجلترا، مُنبِئةً أن الربيع سيهل على الدنيا عما قريب، الخضرة التي تتبرعم في نتوءات الأغصان العارية منبتةً الأوراق في ثنايا الفروع، تلك الخضرة المائجة الفوارة فوق رؤوس الموجات حينما تهب الريح والعواصف في وسط المحيط، خضرة الغابة في المطر، خضرة ظهور الضفادع المرتوية تنداح من أثر أرجلها دوائر الماء في البحيرات النائمة في الدغل المختبئ بين أشجار الريف الإنجليزي، الخضرة التي تحمل الحياة والأمل في كل حال، وبتحديقه في تلك الروضة الغامضة،

أحسَّ بأنه لابد سابرٌ غورها، وشعر بأنه سيستطيع.
ولبث دهراً يحدق في البشرة الشقراء، في الخصل الشقراء؛ وللحظة لمحت كاجين نظرة ندية في عيني هذا الرجل القاسي، الذي عادت لشفتيه المكتنزتين ابتسامته الساخرة المعتادة:
"أبو عاتكة ورضوان يلحان في طلبك لأمر عاجل يا مولاي معاون الخليفة. سألتهما أن ينتظرا فأمراني بالتعجيل مولاي" قالت عزيزة.
مسح بكم جلبابه الأسود الدموع التي فاضت وغسلت وجهه وغمغم في سخرية طيها عتاب:
"أوَ هذا هو وقت النفط وآبار النفط يا أبو عاتكة ويا رضوان"؟
ربت على كتف كاجين ثم نهض وخرج وهو يغمغم:
"سأعود".
كان الليل قد تقدم.
أطفأت كاجين السراج وجلست في الظلمة وحدها تنظر فلا ترى سوى وجه أبيها وأمها، سوى حجرتها والحديقة الصغيرة في استيرا.
شهقت فابتلعت من الهواء ما ملأ صدرها وبطنها، توقدت في عينيها لمعة برقت بالإرادة بالعزم بشدة التصميم. وقالت في نفسها:
"سأعود إلى استيرا، سأعود لبيت أبي وأمي، إنهما هناك في انتظاري".
وملأتها الفكرة بغزارة ووضوح عجيبين.
لكن إلى أيِّ مدى يمكن أن يؤثر الظلام المطبق الكثيف كماء البحر مع الصمت المطبق والعزلة التامة في صبية في مقتبل العمر؟ صبية في الثالثة عشرة؟ صبية محبوسة كسبية في حجرة غريبة مع أناس غرباء!

وعادها وجه صديقتها جيهان المنتحرة، منظر كلبها ماونت قد أرداه رجال السواد قتيلاً بالرصاص، تشوش ذهنها جداً، لكن كيف يمكن لكل ذلك أن ينجلي من قبل التحول إلى الجنون؟ وأسعفتها ذكريات حلوة في بيتهم عند أمها وأبيها في قرية استيرا في قمم جبل سنجار، ذكريات من تلك التي ينسجها خيالها الخصيب فيبدعها في أشكال قوية نابضة بالدم مملوءة بالحياة.
وتحول الحلم ظناً، والظن يقيناً.

توالت أيام ثلاثة أخرى.
وعجَّت الأمسيات بحياة غامضة.
كانت العنادل تغني والضفادع تنق في جداول الموصل مرحبة بشهر سبتمبر.
وكانت الخفافيش تطير قرب أفاريز النافذة ذات المصاريع المشرعة تطارد الحشرات وفق طيرانها الصامت وجناحها الجامد.
وكانت كاجين تنظر فلا ترى سوى الحرس متشحين بالسواد وفي أيديهم السلاح.
وذات خميس برد فيه الجو، انتصف الليل،
ليل مؤلم، شأن الليالي جميعها، وكانت كاجين تذرف الدموع.
بغتةً انفتح الباب ودخل معاون الخليفة، بدا مثقلاً ساهم النظر، سارح الفكر.
جلس وأمسك بوجهها وجعل يتأمل في خضرة عينيها.

جلس صامتاً، فقط يحدِّق فيها.

وقبل انقضاء الثلث الأخير من الليل ضغط على يدها، نهض في تثاقل كأنه يحمل صخراً، مشى إلى الباب بخطوات بطيئة، التفت إليها، حدق فيها طويلاً ثم أدار الأكرة الذهبية ففتح الباب وخرج.

كان يحمل عبئاً ثقيلاً نجم عن فكرة كبيرة، عن خطة جريئة.

في الغداة، في مركز قيادته، كان معاون الخليفة سامي حمدان يجتمع بقواد كراديسه المقاتلة ومعه أسامة قائد كتيبة الميديا، كان يفضي بما ظل يجول في خاطره ويشغل فكره من دون أن يشعر به أحد، في الأيام التي خلت كان قد أمر بعمليات إحصائية دقيقة لعدد الرجال، لعدد الدبابات والمدرعات الخفيفة، لعدد مختلف أصناف المدافع، لعدد صناديق الذخيرة، للمؤن، وللعتاد.

وها هو الآن يقول بنبرة واثقة شديدة الخطر:

"لقد استقرت الأمور في يدنا بسلاسة في الموصل وما جاورها، كل الأماكن التي نريدها أخذناها والعالم واقف فاغر الفم".

وسكت.

ران صمت ثقيل لم تُسمع فيه إلا خشخشة القماش الأسود في عمامة هنا أو جلباب هناك.

مد يده وجرع من كوب إلى جواره جرعتين من شاي أسود ثقيل، ثم استأنف وقد لمع الخطر في ظلمة حدقتيه الواسعتين:

"سنحاصر بغداد. سنسقطها".

لوهلة دارت رؤوس القادة المجتمعين.

"لن يصدق أحد أننا سنشب مثل هذه الوثبة الهائلة".

"بغداد!"، زفر قائد أحد كراديس الدبابات والمدرعات فاغر الفم مضطرب العينين.

"نعم بغداد يا أبو عائد".

وسكت ثم أردف:

"التاريخ يقول إن بغداد مدينة تألف السقوط، هل تعلم كم مرة سقطت بغداد"؟

استغرق الاجتماع ساعات وانفضَّ لصلاة الظهر ثم التأم حتى أذن العصر.

خرج الجميع وبقي وحيداً.

والآن، عيناه الواسعتان مشرعتان يركض فيهما ظمأ الصحارى ويختلج فيهما لمعان السراب.

تذكر كاجين والعينين الخضراوين، وقادته عينا كاجين إلى عينين أخريين، إلى عيني دوروثي فراح يراها بخياله زمناً؛ لابد أنها رأت على الشاشات رأس مارتن المقطوع، ولابد أنها تعرف اللحظة أنه رجل يعرفه العالم، رجل سيحفظ اسمه التاريخ.

وأخذه الماضي في ساعة من السرحان.

بغتةً نفض رأسه بقوة.

شهق ثم زفر.

ثم رفع يديه فنفضهما فانحسر كُمَّا الجلباب الأسود عن الساعدين،

ثمة رعشة الآن على الساعد الأيمن، خلع العمامة السوداء ثم أعادها وراح يصرف ذهنه إلى العمل، لديه ما يكفي من الرجال والسلاح، النفط يدر المال كما ينبغي، والآثار التي وضع التنظيم يديه عليها بيع أغلبها، والمجندون يصلون بالعشرات إلى سوريا من أقطار العالم العربي، من أنحاء أوروبا، من أستراليا ومن أمريكا.

لقد صنع دولة.

وإنه الآن رجل الدولة.

ولقد وضع الخطط، خططاً بالغة التعقيد شديدة الأهمية شديدة الخطر.

مثلما أسقط الموصل، بل معظم الشمال سيُسقط بغداد.

مهاجمة بغداد وإسقاطها هما ما يتعين عليه فعلهما بسرعة، تماماً على النحو ذاته الذي سقطت به هافانا بعد سقوط سانتا كلارا، هكذا كان يحدث نفسه، لئن سقطت بغداد إذاً لقامت دولة الجهاد الكبرى، دولة الإسلام، دولته في العراق وفي الشام، ستكون دولة كاملة وسيتحدث للدنيا من مدينة ذات تاريخ مديد عتيد، الآن له في سوريا جيوش جديدة من الوافدين لابد أنهم قد انتهوا من التدريبات اللازمة للرحيل إلى العراق للمساعدة في حصار بغداد، لا يهم إن كانوا يقرؤون أو لا يقرؤون الفاتحة وسورة الإخلاص، المهم هو إتقان السلاح، قتل الأعداء وإسقاط بغداد. وفكر! كم مرة سقطت بغداد! لقد جعلها العباسيون عاصمة لهم بدلاً من دمشق بعد أن هزموا بني أمية، وأثناء حكم المأمون ومن قبل هارون الرشيد

لم تكتف بأن تصبح حاضرة لهم، بل تمددت وشعت حتى صارت حاضرة الدنيا. ورفع يديه كرة أخرى ونفضهما وداعب عمامته ثم أمسك بها يطرد من ذهنه صور جيوش التتار الزاحفة، ومحا من تفكيره اسم هولاكو.

بعد صلاة العشاء دخل إلى حجرة كاجين.

"كيف حال العينين الخضراوين؟ كيف حال سبيتي"؟

"بخير، سيدي معاون الخليفة".

"وحال الزغب"؟

"لقد أوشك سيدي ومولاي، معاون الخليفة".

أمسك بيدها وهو يحدِّق في عينيها، صعقته الخضرة فاضطربت أجفانه وارتعش فكه الأسفل وارتجفت شفتاه.

بغتةً لفَّ خصرها، هصرها بقوة ومال فقبلها.

مكث يحضنها ويداعبها حتى منتصف الليل.

نهض، ثم مال عليها وهمس في أذنها:

"قومي ودعيني يا ذات العينين الخضراوين".

"أودعك!".

"سأسافر غداً إلى الرقة، ولكنني سأعود سريعاً، أيام قلائل فقط سأمضيها هنالك".

فقامت واحتضنته.

قالت:

"وداعاً".

وقال:

"إلى اللقاء".

خطا ببطء صوب الباب، وقف ثم استدار وحدق فيها طويلاً:

"أنت أول من يعرف بهذا السفر، أركان حربي سأخبرهم عند صلاة الفجر".

فتح الباب ثم قال من دون أن يلتفت:

"ستدخلين مدينة التاريخ معي، ستصبحين ملكة بغداد".

ولم تفهم كاجين، لم تكن تعلم أنه سيقود بنفسه جيوش المدد من سوريا، سيأتي بالرجال، بالمزيد من الدبابات والمدرعات والمدافع واللاندكروزرات من شرق سوريا.

سيحتل بغداد.

وفكرت، إذا كان من فرصة للهرب ففي غيابه لابد أن تكون أكثر سهولة.

وأخذها السهر.

انفتح الباب كرةً أخرى ساعة السحر!

"القشطة تثمر أحياناً في غير أوانها، ما يبهج النفس ويلذ له اللسان!"، قالت عزيزة وهي توارب الباب وراءها.

ومن خلف أجفانها المطبقة رأت كاجين عزيزة وهي تدفع الباب الموارب فتغلقه ثم تتسلل في خفة وتثب إلى السرير قربها من دون

صوت، تمسكها بيد، تلهث، وتأخذ في خلع ملابسها على عجل باليد الأخرى، ثم بغتةً قفزت فأشعلت السراج وهي تتمتم:

"أريد أن أراك يا قشطتي، في الضوء أريد أن أرى شقرة بشرتك وجمال عينيك".

وأحست بها كاجين وهي تقترب فتنحني عليها، وشعرت بقبلاتها تلامس شفتيها.

وأعادت عزيزة لم تزل تلهث:

"القشطة تثمر أحياناً في غير أوانها".

هذه الكلمات الغامضة أوحت إلى كاجين بكل ما يخطر في البال من أفكار، إلا أنها اكتفت بالبكاء وهي صامتة.

أغمضت كاجين عينيها.

"قشطتي، هيا، لا تتظاهري بالنوم، الأولى أن تفسحي لي مكاناً إلى قربك".

قرف لا يوصف قطن قلبها.

العجوز عزيزة ستلامسها مجدداً، إنها لا تفتر!

لكنها هي مَنْ سيساعدها.

"عزيزة!" هتفت.

"نعم".

ساد صمت.

"ما بك كاجين"؟

"سيساعدك الحظ كيما تفي بوعدك يا عزيزة، وعدك الذي قطعته لي".

"سيساعدني الحظ! ماذا تعنين؟".

"نعم. معاون الخليفة سيسافر إلى سوريا".

"يسافر؟ من قال ذلك؟ معاو...".

فأسرعت كاجين وسدت فمها بكفها اليمنى وهي تهمس في أذنها:

"هُسْ، لا ينبغي لأحد أن يسمع لأنني وحدي من يعرف".

دارت عينا عزيزة الضيقتان في استغراب ثم قالت:

"طالما الحظ في صفي فدعيني أنعم بك ريثما تغادرين، قلت ستذهبين إلى أين"؟

"إلى استيرا، إلى بيت أمي وأبي".

"حسناً. الآن هيا متعيني وزوديني طالما أنك ستذهبين بعيداً".

"نعم هيا"، رددت كاجين، ثم خلعت ما تبقى من قطع ثيابها بشرود واستلقت على ظهرها.

"عزيزة! عزيزة!" سمعت صوت معاون الخليفة يصرخ.

فارتعدت عزيزة وقد انتابها شعور بالكدر أكثر منه بالفزع، ثم ما لبث أن استولى عليها خوف شديد؛ فرفعت عن كاجين وجهها.

ارتدت ملابسها ووضعت نقابها في عجل وخرجت تعدو.

غابت طويلاً.

"أين ذهبت هذه العجوز؟ لماذا يريدها معاون الخليفة الآن"؟ حدثت

كاجين نفسها.

أغمضت عينيها لكن السؤال عاد يلح عليها:

"ماذا يريد معاون الخليفة في مثل هذا الوقت"؟

شيء ما في داخلها يحدثها بأن المعاون ربما يريدها الآن، رعب له مخلب نمر جثم على صدرها، هوة لا قرار لها انفتحت الآن في نفسها؛ وفي عمق روحها أحست بأنها بائسة إلى أقصى الحدود. وأصاخت السمع وهي متكورة على نفسها وقد حبست أنفاسها، ولكنها لم تسمع كلمة. طار النوم من عينيها وراحت تفكر، رعب كبير وذعر وفضول أخذت تتنازعها، وانفرجت عندئذٍ ضلفة الباب التي كانت مواربة، وبرفق وكشبحٍ فجريٍّ دخلت عزيزة:

"ماذا يريد يا عزيزة؟ ماذا قال لك"؟

"يريد قطعة من العسل البني المشرب بالسواد".

"كل تلك الصرخة من أجل عسل"؟

"مع حليب ساخن، هل تعلمين ماذا يعني العسل البني المشرب بالسواد؟ إنه الأفيون"، وزفرت ثم أردفت: "عند معاون الخليفة لجج من الألغاز".

"أفيون"؟

"قلت لك: لا تسألي كثيراً؛ فعند سند خليفتنا لجج من الألغاز".

وأبعدت النقاب عن وجهها الذي قابلت به معاون الخليفة وهي تخدمه فانزلق على صدرها، ثم انحنت فأمسكت بأطراف جلبابها واعتدلت، شدت الجلباب فخلعته ووقفت أمام السرير، فقط

بحذائها، ثم اندست بهدوء تحت غطاء كاجين الأحمر الرهيف.

وعند الفجر علا صوت الأذان يدعو النائمين إلى اليقظة، فانسلت عزيزة خارجة.

"قولي لهم إني قد صليت يا عزيزة، أرجوك".

وغطَّت بعدئذٍ في غفوة عميقة خاطفة، كان لها أن تمنحها شيئاً من الراحة بينما في الخارج غارت النجوم وأخذت العصافير تنغم بأولى زقزقاتها.

وعندما أفاقت كانت عزيزة تجلس على الأريكة المقابلة لسريرها وتبتسم لها:

"لقد نمت اليوم إلى الضحى!".

ثم أردفت ساخرة:

"لابدَّ أنك قد حلمت حلماً حلواً! مؤكد أنك قد حلمت بي".

نهضت كاجين شاحبة ومتعبة، ولم تكفَّ عن البكاء طوال الصباح.

ساعة الضحى نزلت، فجلست ليعلمها الشيخ محمود القرآن وأركان العبادة، ولم يكن ليبخل عليها بالثناء؛ لكي يشجعها كأن يقول لها: "ستكون لك مكانة كبيرة في مقبل الأيام، أنت السبية المنتقاة، أنت سبية معاون الخليفة".

فرفعت كاجين عينيها الخضراوين بحزن.

"أنت سبية معاون الخليفة"، أعاد الشيخ محمود بنبرة فيها ارتعادة ورجفة، وفيها ارتعاشة.

ثم انحنى عليها، وهمس وهو يتلفت يمنة ويسرة، إلى أمام ثم إلى وراء: "إنه أقوى من الخليفة".

ساعة الغداء دخلت عزيزة بصينية من نحاس فيها خضرة ولحم وفاكهة وأرز ولبن، لحظة دخولها نهض الشيخ محمود وخرج. جلست عزيزة وجعلت تلقمها الأصناف صنفاً بعد صنف في فمها، محدقة بهيام البحار الحزينة الخضراء المرتعشة في عينيها، ولكي تشجعها لم تكن تتردد في أن تحكي لها للمرة الأولى عن أيامها وذكريات شبابها، عن الحياة التي عاشتها في حماة.

سقتها اللبن بحنو وزفرت:

"سأحدثك عن شقاء حياتي أيتها الصبية"، استهلت عزيزة حديثها.

وسكتت دهراً ثم أردفت:

"لن تصدقي ما مررت به من شقاء في هذه الدنيا".

"أعلم أنك تنظرين إليَّ كذئبة، ولكنني على نحو ما مسكينة"! عادت عزيزة فاستأنفت ثم سكتت ثم دمعت ثم نظرت بعيداً ثم زفرت ثم قالت:

"أبي كان تاجراً كبيراً في مدينة حماة، كان غنياً جداً، وكان يملك ثلاثة مصانع للنسيج. عندما كنت طفلة كان يكسوني بثياب الحرير الفاخر، ويزينني بالذهب والأحجار الكريمة، وكانت هناك خادمتان تقومان على تلبية نداءاتي وتنفيذ أوامري، ولذا اعتدتُ الراحة وكنت أطلب الكثير، كنت أرى في رضوخ الجميع لي حقاً طبيعياً؛ لكم كنت سعيدة"!

وتنهدت ثم شخصت بعين عبرى ثم أتمت:

"كانت رغباتي تنفذ على الفور؛ إنما أي رغبات؟ لم تكن إلا تلك التي كان للمال أن يلبيها، أما تلك الأحلام المخبأة المخفية، الأحلام الغالية على قلوب البنات، فقد بقيت مدفونة باكراً في أعماق ذاتي، ووجدت نفسي أنقاد نحو تأمل صميم في معنى السعادة، في معنى الحياة، لم أكن بلغت من العمر يومئذٍ إلا ثلاث عشرة سنة، عندما أخذت المصائب تنهال على رأس والدي، بعضها إثر بعض، كان موت أمي فاتحتها، إذ رأيت أبي يغوص في حزن عميق، بدا كأنه قد فقد الرغبة في كل شيء، وأصبح كثير التردد إلى المسجد، وكثير التلاوة لآيات الذكر الحزين، وبين عشية وضحاها وجدنا أنفسنا أعضاءً في تنظيم الإخوان المسلمين مثلما وجدنا أنفسنا في فقر مدقع، جميع تلك التغيرات انهالت علينا في مدة لا تتجاوز سنتين. وفي هذه الأثناء جاء مسؤول الأمن في حماة قباني اللاذقاني الذي كان يعد أقوى رجل في حماة لزيارتنا. وأثناء الزيارة سأل والدي: "اسمع يا خدرو، أنت بحاجة إلى المال وأنا بحاجة إلى زوجة رابعة، زوجة شابة يمد شبابها في طول أيامي، وتمد ما تبقى من عمر إن كان في العمر بقية". نعم كان من الممكن أن يكون جداً لي وكان الأولى به أن يفكر في الموت الذي صار قريباً منه. رفضت، ولكن قباني لم ييأس؛ إذ كان الكلام في الواقع قد شاع بأنني أجمل فتاة في حماة، كان قباني اللاذقاني أيامئذٍ يسرف في زيارتنا، وكنت أسمعه أحياناً وهو يقول لوالدي: "سأقرضك كل ما تريد من المال"، ثم يرفع نبرته

بإلحاح: "كفاك أن تزوجني بنتك وحسب. أنت تعلم أنها لن تلقى ما يضيرها عندي".

وسكتت ثم بكت ثم قالت:

"كنت في الثالثة عشرة فقط يومها يا كاجين! في البداية جعل والدي يسايس قباني اللاذقاني ويصبره، ثم انتهى بأن يماطله، ولكن قباني ما انفك، وبشتى السبل، يضايقه ويضغط عليه بشدة من أجل عقد القران، وقد كان والدي في وضع مادي بائس للغاية، ثم إنه صار ضعيفاً ومحطماً فأفلس، بات مديناً بمئات، بملايين الليرات فاستسلم أخيراً لقباني ولفكرة الزواج".

وشهقت ثم زفرت ثم أردفت:

"وقع العقد ذات عصر، وكنت مرغمة على الذهاب للانضمام إلى عائلة مجهولة".

ربتت كاجين على كتفها، بينما تابعت هي تحملق في الفراغ كأنها لا ترى شيئاً بعينيها العجوزتين:

"أحبني قباني على طريقته، فلم يكن يكف عن ملء أذني بأنه الحاكم غير المعلن، وأنه الرجل الأقوى في حماة، وأنه يحبني حباً جماً، بيد أنني كنت أفضل لو أنه كان يمقتني، أو لم أكن أعني بالنسبة إليه شيئاً. كان يعذبني كثيراً بغيرته، سجنني في بيته مُضيّقاً عليَّ الخناق، ثم لما لاحظ أنني باردة دائماً تجاه ملامساته التي لم تكن توقظ فيَّ إلا القرف، كان يصرُّ بأسنانه ويهددني بالقتل بخنجره، وقد كانت تنتابه أحياناً نوبات جنون، وكنت أخشاه على نحو فظيع".

وسكتت ثم أخذت تتنفس على نحو عميق كما لو كان عليها أن تستجمع قواها، لكي تنطق بما بقي عليها أن تقوله.

كاجين التي كانت تصغي إليها باهتمام بالغ أخذت ترتجف وتنتفض على نحو لاإرادي.

عزيزة وضعت وجهها المحمر من الحمى على صدر كاجين، وكتمت أنفاسها، ثم زفرت تفضي بسرها:

"زوجي قباني اكتسب عادة كانت تسيء إلى حشمتي. كان يأتيني في دبري، ولما كنت أرفض وأتملص وأشتد في مقاومتي له، كان يصفعني ويقول لي: ألم تقرئي الآية التي تقول: "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم"؟ وكنت أرفض وأقول له إن الآية لا تعني ذلك وكان رفضي يودي به إلى نوبات من الجنون، كان يبكي ويجأر بحبه لي، ولم يكفَّ عن التحدث عني إلى معارفه الذين يعمل معهم في التجارة، وأن يصف محاسني بألوان زاهية، وأن يمجد عجيزتي وكمال هيئتي، متباهياً بأنه يمتلك أجمل جميلات المنطقة، كان يعمل على إثارة شهوتهم جهاراً، ولطالما كان يحكي لي في الليل بأن ألوان أصدقائه كانت تتغير نتيجة لكلماته التي ترسم حسنها، ويفرح بالشهوة التي يُثيرها فيهم وهو يصف لهم سحري.

ولم يكن ليتستر عن المتعة التي كان يجنيها من ذلك، معه أصبت بداء الأرق، لم أكن لأنام لأيام فاعتلت صحتي، ثم عرفت منه كيف يمكن للأقراص اللعينة أن تمنحني ساعات من الراحة من أجل أن يستمتع هو بي، أدمنت الأقراص منذ ذلك الحين، لا ريب أنك

تدركين حجم هذا الشقاء، لابد، أليس كذلك"؟

بدا وكأن كاجين تفهم ولا تفهم، غير أن عزيزة راحت تتكلم وتتكلم: "تستطيعين بسهولة أن تتصوري مدى الكره والاشمئزاز اللذين كان يثيرهما عندي لياليئذٍ! وكلما قاومت أو صرخت كان يبصق على وجهي ويصرخ فيَّ: اصمتي يا حشرة ودعيني أفرغ كي أنام؛ وكلما كان يعري عجيزتي ويصلني كنت أشعر بأنني أمضي إلى حتفي لأموت مئة مرة، صار قلبي قاسياً كالحجر، ولم ينفتح أبداً على حب رجل، كان يهزأ من أبي ومن صلاته، ويسخر من الإخوان المسلمين الذين كان يسميهم إرهابيين: "هؤلاء المجانين يريدون أن يصلوا إلى السلطة باسم الدين وجلهم أغرار معوزون، أصغي إلي يا عزيزتي العزيزة: السلطة تشتري الطامعين، والمال يشتري كل شيء، حتى أنت يا نوارة الوجود اشتريتك بمالي أوَ لا ترين؟ كيف كنت ستعيشين؟ هه، قولي كيف كنت ستعيشين؟ الفقير المعوز لا يملك الحق في النظر إلى دجاجة هرمة، ولن تنظر إليه امرأة مهما كان جميلاً"، كانت هذه اللغة تهينني وتغيظني أكثر من أي شيء في العالم".

وتنهدت:

"آه لو كنت أقع على واحد من هؤلاء الأغرار، لكنت برهنت لقباني أنه كان يغسل نفسه بماء من الأوهام الكاذبة، وحدث ما لم أكن أتوقعه على أي حال؛ فقد سقط قباني بطلقة مجهولة أيام هبة إخوان حماة، ووجدتني حرة في بيت أبي، ولكنْ لم تمض أيام إلا وتحولت

حماة إلى نار ذات لهب".

وأطلقت زفرة طويلة، وغمغمت بصوت جريح:

"ثم إني عدت إلى دار أبي".

وصمتت هنيهة ثم راحت تحكي عن المعارك بين الإخوان المسلمين وجيش الأسد الكبير، حكت لها كيف حاصرت قوات حافظ الأسد المدينة، وقصفتها بالساعات حتى كاد يفنى جميع من فيها، وحدثتها عن أهلها الذين ماتوا اختناقاً تحت الأنقاض، وحدثتها عن فرارها إلى اللاذقية، وعن البحر الواسع الذي لم تخضه، والمراكب التي حلمت بأنها كانت تمخر بها ذاهبةً إلى البلاد البعيدة، ولكنها لم تكن لتقلها قط.. أجهشت كاجين بالبكاء، فدفع ذلك عزيزة للعويل.

وهكذا انشدَّتا كلٌّ منهما إلى الأخرى أكثر من أي وقت مضى، حتى صارتا كأختين بعمرين مختلفين.

وفي ليلة اليوم التالي، نزل حر لا يطاق، حر كثيف مثل بخار سميك يتحول شيئاً فشيئاً إلى موج مغرق تكاثفت فيه الظلمة وتكاثفت النجوم.

شخرت عزيزة ثم ببطء أبعدت ذراعيها عن كاجين وانقلبت على ظهرها، فثبت السرير الذي اهتز واختج، وهمست بكل الشجن في أذن كاجين:

"في اللاذقية آوتني امرأة وحيدة عجوز، أطعمتني وسقتني وفعلت بي ما أفعله بك".

"لم يكن ذلك لوجه الله" أردفت.

علا صفير يئزُّ فيه موج الحر فيضرب خشب النافذة ضرباً.

"كنت مرتبكة للغاية في البداية" استأنفت عزيزة بصوت باكٍ.

ثم ساد صمت لم يقطعه إلا النشيج.

كان نشيجاً مراً طويلاً.

"وذات ظهيرة حارة في وسط مارس ماتت العجوز، فانتقلت من يد إلى يد حتى اندلعت الحرب.. وانتشر البلطجية، اشتراني أحدهم ولم يكن الثمن إلا بطانية.. ركبني وهو يشخر ويردد: لا تخشي شيئاً فأنا زعيم العصابة هنا، ولكنه قتل إثر خلاف نشب بينهم؛ إذ دخل علي خائفاً بعد مغيب شمس أحد الأيام فأمسك بي وقال لي ينبغي أن نذهب سريعاً من هنا، تسللنا ثم عَدَونا حتى أوغلنا في الخلاء وفي الظلام، فقد كان يعرف مخبأ سيارة جيب فأركبني وأشعلها، ولكنْ خرجت لنا زمرة من رجال العصابات وقطاع الطرق على سيارات لاندكروزر مكشوفة وصاحت به أن قف، غير أنه آثر أن يضغط على دواسة البنزين دافعاً الجيب إلى أقصى سرعتها، مُطلقاً الشتائم تلو الشتائم، وهو يبصق احتقاراً في الهواء، ومع ذلك تقدم مطاردونا علينا فأرغموا الجيب على الوقوف، ثم اقترب أحدهم وأفرغ طلقات بندقيته في رأس صاحبي، رأيت رأسه يتصدع ويتطاير مثل قرعة دُشت فوق أرض صلبة، فصرخت من الألم وقفزت من الجيب ووليت هاربة وهم مشغولون بتشويه الجثة، ولكنهم انتبهوا فلحقوا بي وأمسكوني، ثم ضربوني بأياديهم ضربات وقعت عليَّ كلسع السياط،

وربطوني على ظهر إحدى سيارات اللاندكروزر واغتصبوني جميعاً، فأصبحت مباحة من جديد.. وفي تلك الليلة وُطئت إحدى عشرة مرة من قبل ومن دبر تماماً كفعل زوجي الهرم قباني اللاذقاني، ولكنني كزرت على أسناني ولم أفسح المجال لصرخة تفلت مني.. متُّ في نفسي فأحسست بعزاء كبير.. ثم لما فرغوا مني رفعوا جثة صاحبي الذي تناثرت جمجمته شظايا وربطوها بمؤخرة لاندكروزر وانطلقوا بي وبها.. كنت أسمع جسده يضرب على الحجارة وزوايا المنعطفات، ولما وصلنا إلى المعسكر وحملوني على النزول التفت فرأيت أذرعة بلا كفوف، وأرجلاً من غير أقدام.. أخذتني نوبات من القيء والتشنج، ولم أفهم حين قالوا لي إن ذلك الذي اشتراك وآواك من داعش، فعليك أن تتوبي وتشهدي أنك نصيرة لجبهة النصرة. لا أستطيع أن أعبر لك عما أحسست به في تلك الليلة، ولتعلمي أن جسدي قد تمزق وأن روحي قد تمزقت وأني لست موجودة".

"هذا فظيع، فظيع" صرخت كاجين متألمة وهي تغطي وجهها بيديها.

بغتة وبصوت خطر قالت عزيزة:

"ستخرجين من هنا، ستعودين إلى أمك وأبيك، سأساعدك".

فقفزت كاجين وضمتها وهي تصرخ في فرح غامر وهي تردد:

"نعم ستوفين بعهدك، لا شك أنك ستوفين".

خرجت عزيزة وبقيت كاجين راقدة على ظهرها تعيد في ذهنها ما روته لها عزيزة، وببالغ التأثر أخذت تتخيل الأحداث، وعذب

نفسَها شعورٌ غريب، ولكنها أحست بشيء من الارتياح عندما تخيلت أحدهم مربوطاً بمؤخرة لاندكروزر جثة مفرقعة الرأس تجر في ليل الدروب.

استغرقت وقتاً طويلاً حتى غفت إغفاءة محمومة متوترة.

نامت وهي تصرخ بالهذيان.

تحلم بالفرار.

عزيزة صدقت في وعدها، على نحو ما كان يخيل لها أن ستخوض بقدمي كاجين بحر اللاذقية الذي لم تخضه، أنها ستركب المراكب التي لم تطأ متنها قطُّ.

بدقة كانت تراقب نوبات تغيير الحرس على البيت، تتأكد من الأعداد التي يمكث فيها الحرس قبل أن يرحلوا ويحل محلهم طاقم جديد.

بعد يومين سيتم تغيير الحرس.

وهي لديها الآن خطة:

أحكمت الخطة، وفي الساعات الأولى من صبيحة الغد، صبيحة فارت فيها الشمس واضطرمت فتحت عزيزة لها الباب.

خرجت من حجرتها قلبها متسارع النبضات.

خطت صوب الباب الكبير المفضي للشارع.

في السابعة والربع صباحاً، كان باب بيت الثري المصادر يُفتح ويخرج منه صبي جلب الأغراض من سوق اللحم والخضار، كان صبياً نحيلاً في جلباب أسود فضفاض، على رأسه عمامة كبيرة سوداء، بيده

سلة وقد غطت نصف وجهه نظارة سوداء.

أغلق الباب وراءه بتلقائية مَنْ أَلِفَ الدخول واعتاد الخروج.

لكن حرس الباب انتبهوا.

سأل أحدهم:

"مَنْ"؟

فقال الآخر، وكان قد قطع حديثاً مع رفيقه:

"غلام من جلبة الأغراض، يبدو ضعيفاً".

وضحك ثم أردف:

"ولربما كان خصياً من أجل صون سبية معاون الخليفة".

سأل الأول:

"وما هذه النظارة التي تملأ وجهه"؟

"إنها أكبر كما ترى، لابد أن أحد مجاهدي أوروبا الجدد قد أهداه إياها".

والتفت إلى الصبي الصامت فانتهره:

"هيا، امضِ، واحرص على أن يكون لحم الضأن طيباً، ذكر الجزار أنه لمطبخ معاون الخليفة".

وسارت كاجين خفقات قلبها متسارعة، وحبات من العرق تتجمع كبيرة على جبينها وأرنبة أنفها، ثم تسيل في بحر الصيف المتقد.. سارت بخطوات جهدت أن تبدو عادية، ومع كل خطوة كانت تشعر بأنها تبتعد عن الحبس وتتجه صوب الحرية.

"نعم لقد أفلحت".

قالت في نفسها وأحكمت نظارتها ثم ابتسمت؛ عطاؤها مع عزيزة قد أثمر، عزيزة بنفسها جلبت لها ملابس الصبي، اجتهدت في العثور على النظارة السوداء من أجل تغطية العينين الخضراوين، بل ورسمت لها ببراعة شارباً دقيقاً، بدا حسناً يلائم وجه صبي في الثالثة عشرة، بل وأعطتها دنانير تعينها في رحلتها صوب المجهول. عزيزة كانت تعلم أن الحراس الجدد لن يميزوا مَنْ هو الصبي المكلف بجلب الأغراض إلا بعد خروجه ورؤيته أول يوم لهم في نوبة الحراسة، وهي في الليل كانت قد وضعت لصبي الأغراض الحقيقي كمية كبيرة من أقراصها المنومة التي لم تكن لتنمْ إلا بها، وخلعت ملابسه وألبستها كاجين.

هي أيضاً ستخرج من هنا.

بعد عشرين دقيقة من خروج كاجين ها هي ذي تتجه صوب البوابة الكبيرة المفضية إلى الشارع.

فتحت الباب.

"إلى أين تذهبين يا امرأة"؟ سألها واحد من الحرس.

"أنا عزيزة خادمة المعاون، لقد نسي صبي الأغراض أن يأخذ النقود وأريد أن ألحق به كيما أعطيها له".

"سيعود الغبي الأبله عندما يدرك أنه قد نسيها، سيعود ويأخذها، هيا ادخلي، ممنوع الخروج بحسب التعليمات إلا لصبي الأغراض".

بقيت تجادل، لكن ولسوء حظها كان صبي الأغراض الحقيقي قد

أفاق من نومته فوجد نفسه في لباسه الداخلي، نهض لم يزل عليه أثر المخدر وخرج إلى الفناء وسار فيه أثناء الجدل مع عزيزة، وعبر الباب المفتوح رآه الحرس.

"تعالَ يا ولد" ناداه أحدهم.

ولما اقترب أمسك به بغضب وهو يصيح:

"ماذا تفعل في بيت معاون الخليفة؟ وفي هذه الهيئة".

"أنا صبي الأغراض"؟

هنالك بعيداً،

في تلك الأثناء،

كانت اللاندكروزر السوداء تشق حشا الطريق نازلة إلى بحر الصباح الصيفي صوب بادية الشام، فيها المعاون سامي حمدان صامتاً لكن ذهنه لم يكفَّ قطُّ عن الكلام. في الرقة سيلتقي بالخليفة الذي انتقل إليها منذ حين ليحفظ بوجوده هناك هيبة التنظيم، فجماعة جبهة النصرة تريد أن تتمدد ولكن هيهات أن تبلغ ما بلغ هو بفضل المعاون من أرض ورجال ومال وسبايا.

وقعت اللاندكروزر السوداء في حفرة كبيرة فاضطرب جسده المتوتر وأحس بألم في كبده، عيون كاجين التي ظل يفكر فيها أيقظت الطائر الوحشي في كبده، فنفض جناحيه وراح يطعنه بمنقار سنين، بالفعل أنزل كفه اليمنى وتحسس كبده، عادته دوروثي فاختلطت بوجه كاجين، لمعت أمامه ذات البحار الخضر التي فاضت من ينابيع العيون، عيون ولع بها، واشتهاها.

"هل أحببت دوروثي؟ هل أحببت كاجين"؟

سأل نفسه، نفساً لا تعرف الحب ولكنها تعرف الجروح وتطلب الانتقام... وعاد ينظر إلى الطريق الممتدة المفضية لبادية الشام... وراح يحدث نفسه بأنه سيقيم الدولة بينما يقف العالم مأخوذاً مكتوف الأيدي، سيرتعب العالم بمجرد محاصرة رجاله لبغداد. اللاندكروزر السوداء تمرق تحت الشمس اللاهبة كما السهم، بينما تخرج عيناه الواسعتان من أعماق نفسه ليرى ما حوله...

راح يستمتع بمنظر البادية يقطر منها عرق أواخر الصيف؛ لسبب ما تذكر القديس بول والطريق إلى دمشق! نفض رأسه فطرد القديس من ذهنه وراح يحدِّق في البادية التي أضحى اليوم يحفظها مثلما يحفظ خطوط كف يده، إنه يحب هذه البادية، يحبها لأنها تذكره بالصحراء، الصحراء العربية بين الكويت والسعودية والعراق، صحراء التحولات، تذكر يوم نضب التمر، يوم شرب من ماء اللديتر، ثم بقي يوماً ونصف يوم بلا تمرة واحدة، بلا قطرة من ماء، غير أن دواخله كانت ملأى بسرور غامض بينما أطرافه كانت يابسة، كان يرسل عينيه عبر زجاج سيارة اللاندروفر الرمادية التي صارت بيته يومئذٍ؛ فإذ الرمل فوضى والشمس كأنها على بعد ذراع من سقف اللاندروفر، دماغه تغلي خلاياه وروحه تنتفض، هذه أرض الشعر، أرض النبوءة والصبر، وهو سيحول الدنيا إلى جحيم من أجل أن يقيم كيانه، ولأن الجحيم حالة وليس مكاناً، فقد تقول الصحراء القاتلة مع مفوستوفوليس:

"حيثما نحن، هناك الجحيم،

وحيثما الجحيم، هناك علينا أن نكون".

ولاحت السماء قريبة صافية الزرقة، وجاءت غمامة من لامكان فوقفت على البعد برهة، ثم دارت بدكنتها فوق الكثبان وارتحلت صوبه! نعم، تلك كانت أول مرة يدخل فيها الصحراء العربية، كان في سيارة لاندروفر رمادية اللون، كانت الدنيا رمضان كرمضان الذي مضى، وكانت الشمس تقطر عرقاً والصهد يسيل وحبات

الرمل تغرق في بحر هيولي أصفر فاقع؛ العضاه مبثوثة كأظفار المردة، والشجيرات الخلوية تطلع من ها هنا ومن ها هناك مثل جماجم عارية تبرقعها طحال بائسة.

على الرغم من رخصة الفطر في السفر، كانوا صائمين، يريدون الشدة على النفس والقساوة التي لا تلين... لمعت من بعيد تريعات السراب المائج، فقال لرفقته:

هل تعلمون أن العرب قديماً كانت تطلق على السراب المتقطع اسم "غدائر الغزلان"؟

كانوا في شغل عن شاعرية كلماته بمحرك اللاندروفر الذي راح يرترت، يجاهد في أن يدفع العجلات جهاداً. انحدروا في وادٍ عميق؛ ظنَّ السائق أن أرض الوادي ستكون أكثر ثباتاً، لكنه خدع، إذ غرقت عجلات اللاندروفر في جرف من دعص رمل ثقيل.

وانطفأ المحرك.

فزع رفاقه برغم ما كانوا فيه من تسبيح وحمد وذكر ودعاء بألا يفتر جهد المحرك. جزعوا إلا هو، كانوا في سفرة امتدت شهراً في أفغانستان.. ركبوا مركبات مختلفات وتسللوا عبر حدود دول كثيرة، والآن، في هذا الرمضان، كانوا يتسللون من الصحراء العربية إلى صحراء العراق. على نحو ما، أحس سامي حمدان يومئذٍ بأن هذه الأرض كانت تنتظره.

راح رفاقه يتساءلون عما يمكن فعله حينما التفت إليهم بغتةً وهو يقول:

"هنا الصحراء العربية، حيث يركب الأمراء في منتصف النهار. هل تعلمون أن تي لورنس قد قطع صحراء سيناء إلى مصر على ظهر جمل؟ قال إن نبي الله موسى قد فعل، لورنس العرب كان يرتدي قمصان النوم النسائية هل تعلمون؟ نحن سنركب كرجال. كفرسان".

"سامي حمدان! ما من ركوبة نركبها! وما من فرس حتى نكون فرساناً"! قال أحدهم مستغرباً.

وفتح السائق غطاء المحرك وراح يُعمل فيه مفكاته ومفاتيحه، لكن في غير طائل.

سامي حمدان ضحك كثيرَ ضحكٍ! ثم كفَّ! ثم قال بحزم وعزم:

"سنجعل من سوقنا ركوبة ومن أقدامنا خيولاً".

قدروا أن نقطة وصولهم لا تبعد عنهم سوى يوم وثلاث عشرة ساعة إن همو ساروا على الأقدام؛ سيعيشون على ما جلبوه معهم من تمر ولحم مُقدَّد وخبز محمَّص وعلب من الحمص وسلطة باذنجان وحبات من البرتقال. وحملوا الزمزميات، كان الماء معقولاً لمن يسافر بالسيارة، ولكنه قد لا يكون ملائماً لمن سيقطع الصحراء مشياً على الأقدام، لكنهم تعاهدوا:

"سنحافظ على ماء هذه الزمزميات حفاظ المقتر على أوقية الذهب. سنأخذ نصيبنا جرعات متساويات".

كانوا قد ساروا ساعتين حينما هتف سامي حمدان:

"حانت الظهر، لقد نشأ منا الظل وامتد صوب الشرق".

توقفوا فأردف:

"لا وضوء، علينا أن نتيمم؛ فليس في الصحراء ما هو أعز من الماء".

تيمموا ثم وقفوا ليصلوا، لكن بغتة! وكما تنشأ أعاصير الصحراء، نشأت أعاصير الصحراء... الشمس التي كانت حارة وباهرة اختفت في ذر الرمل المتكاثف. وانعقد الظلام. أمسك بعضهم بيد بعض خوفاً من الانجراف بعيداً، تماسكوا بقوة وشدة، ولكن الإعصار الذي صاروا بؤرته كان أدهى وأشد، فانفلتت الأصابع وتفرقت الأيدي.

كم لبثت ضربة الإعصار؟ لم يكن سامي حمدان ليدري.

كان يدري أنه الآن قد صار وحيداً.

وعلى نحو ما، عنَّ له أن التيه في الصحراء سيفضي إلى شيء عظيم. شأن الأنبياء.

واستغفر في نفسه أن يفكر على ذلك النحو. ثم هدأت الأعاصير. ولكن إلى أين المسير؟ كانت شمس الصحراء قد لاحت لحظتئذٍ بناحية الغرب، بدا قرصها برتقالياً، ثم ما لبث في دقائق أن استحال شعلة تتقد وتلتهب ثم تغطس هاوية في بحر من رمل يصفر ويحمر. توهجت عيناه بالحمرة ثم انطفأتا، لكن أنجماً بزغت وراحت تترى في الظهور... انتبه فتيمم وصلى العصر قضاء، ثم تيمم وصلى المغرب والعشاء جمعاً وقصراً.

ولبث مكان صلاته يفكر حال المسافر قد ضلت به الطريق.

ثم نهض وسار، فلم يعد في الكون إلا صوت خطىً عجلة تغطس وتقلع في الكثبان وفي الوديان، خطىً لرجل أفلت راحلته وأضاع

رفقته وانقطع زاده، فضرب في بحر الصحراء المظلم يلهث وراء النجاة.

لم يكن يلهث إلا وراء سراب عظيم.

دار في الرمل ودارت به الرمال، ونظر في ساعته، كانت مرت ساعات وهو يسير! وعلى حين غرة ضرب الإعصار كرة أخرى مثل فسوة الشيطان والتوى به يلفه فيعصره عصراً، ثم اشتد فراح يحركه عنفاً، ضعفت الأرض عن أن تمسك قدميه فعَلا يتخبط مثل طائر مهيض الجناح ترفعه شيمة الرمل الصاعدة؛ فكر أنه إن مات فلن يموت ميتة الأنبياء لأن عليه أن ينفق في الصحراء أياماً تائهاً وحيداً، صائماً متأملاً من قبل أن يموت. واستسلم إلى قوى الإعصار فراحت أعضاء جسمه تنحل في تناسق مريح، ولم يعد يفكر وهو يعلو ويهبط بين ذراعي الهواء وذر الرمال، كان يحرك ساقيه حال الصاعد من عمق المحيط إلى سطح المحيط، على نحو ما تحكم في شهيق بطيء وزفير أبطأ... أذناه امتلأتا وفاضتا بصوت الذر، بالذر نفسه، ومن أعماق نفسه انبعثت أصوات وأصوات...

كانت الأصوات تنقطع كلية ثم تضج ضجيجاً. ورويداً رويداً لم يعد يسمع سوى دوي الإعصار في هبَّته، وأحس أنه قد طفا الآن من عمق المحيط إلى سطح المحيط، وأن الشاطئ قد لاح، يعلو ويهبط، يغور ويطفو، لكنه هناك يابس وراسخ، دار ربع دورة، ولما أوشك أن يمس الشط جذبته الشيمة إلى أسفل، أحسَّ أن قوى الغرق تشده إليها شداً، سرى الخدر في ذهنه وفي فؤاده، صار الكون فراغاً هائلاً،

صرخ فيه فأجابته الأصداء.

واستفاق: إنه ليس في موج المحيط، إنه في موج الصحراء. تلفت يمنة ويسرة، كان سكونٌ بليغ قد أطبق على قلب الصحراء المظلمة، رأى نفسه غير بعيد من سيارة اللاندروفر الرمادية ذات المحرك المطفأ! لقد عاد إلى المكان ذاته! ودنا من اللاندروفر، كانت العجلات غاطسة تماماً في الرمل وفي الظلام، حفر بيديه في الرمل من أجل أن يفتح الأبواب. انفتح الباب الخلفي الأيمن، دخل واستراح على المقعد، فأغفى وفي إغفاءته حلم بالأنبياء، بالتيه، بعزلة الأيام.

لما استيقظ كانت الشمس عالية، تحرك في عجل وراح يبحث في جوف اللاندروفر عن زمزمية منسية، لم يجد، وجد تمرات ساقطات قرب دواسة البنزين فالتقطهن، كن سبع تمرات!

"إشارة مقدسة أخرى، فالسماوات سبع، والأرضون سبع، وفي سبعة أيام خلق الله خلقه" قال في نفسه.

وبقي وحيداً يفكر طوراً ويحلم تارة، حتى إذا انتبه! كانت الشمس تدنو لغروب!

ولم يزل صائماً.

تيمم.. شبَّ فنهض فوقف قائماً، وضع يده اليمنى على أذنه اليمنى وراح يشدو بالأذان:

"الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله".

بكى في أذانه وعنَّ له أن حب الرمل وشوك العضاة والسماء كلها

تبكي معه وهي تصغي.

صلى ما فاته من صلاة، ثم جمع المغرب والعشاء قصراً.

وأفطر.

عض نصف تمرة، هذا يكفي.

"أريد أن أبقى هنا حياً أربعين يوماً، فهل أستطيع"؟ سأل نفسه.

"والماء"؟ أردف يسأل نفسه.

وخطرت في ذهنه خاطرة:

"ماء اللديتر" صرخ.

وراح تحت النجوم البازغات سرباً يحفر الرمل بيديه حفراً، حتى سال منه العرق.

"هذا ليس جيداً" قال في نفسه.

"لكن الماء الذي في اللديتر سيُعوض ثم يكفي"، أردف في نفسه.

النجوم التي خرجت إلى السماء أخرجت من أحشاء الأرض أخطارها. مسكين سامي حمدان، فهو لا يعرف بطش الصحارى الظامئات لأنه لا يفقه لغتها التي هي مزيج من زمار النعام وصأصاة العقارب وفحيح الثعابين وعرير الصراصر السامة. صأصأت عقرب ثم انطلقت فلدغت ساقه اليمنى. محظوظ هو، إذ كانت العقرب صغيرة. انتفض واقفاً والتفت فإذِ الرمل كله يسعى. وثب وثبة واحدة طارت به إلى سقف اللاندروفر... بسرعة أخرج ساعته من معصم يده، ببراعة كسر زجاجتها إلى نصفين، بأحدهما جرح ساقه مكان اللدغة جرحاً عميقاً، ورفع ساقه إلى فمه وراح يمص السم مصاً،

ثم قطع من كفة جلبابه شريطاً وأحكم به ربط الساق فوق مكان اللدغة.

رقد على سقف اللاندروفر الرمادية بجسمه ألف نار وبروحه ألف عقرب.

وتناهى إليه ضباح ثعالب وزمجرة ضباع وعواء ذئاب فأصغى في شرود.

ثم أخذه الإغماء.

في صباح الغد من ليلة لدغة العقرب ساقه، استيقظ وأشعة الشمس القوية تضرب وجهه، وعلى عجل صعد قرص الشمس الأصفر ليتحول في دقائق بئراً من صفيح سائل، فاض وأغرق الصحراء. كان متعباً، وظامئاً، وجائعاً، غير أنه عزم على ألا يفطر يوماً من رمضان، باحثاً عن القوة في نفسه أكثر من بحثه عن تطبيق تعاليم الدين بإتيان رخص الإفطار في رمضان.

قفز من سقف سيارة اللاندروفر الرمادية على الرمل، وكانت الهوام والحشرات والعقارب والحيات قد دخلت مخابئها وجحورها، فاستقرت فيها تنام النهار في انتظار ليلة أخرى، وكان الرمل من حول اللاندروفر منسوجاً بدروب وآثار دقيقة وأخرى غليظة، بعضها مسحه انجرار الثعابين العظيمة.

تيمم وصلى الفجر قضاءً.

التفت ناحية مقدمة اللاندروفر، فرأى ريح الليل قد ردمت ما حفره من رمل. فكر قليلاً ثم عزم في نفسه وخطا صوب مقدمة اللاندروفر،

وراح يزيل الرمل من جديد.

بعد زهاء الساعات الثلاث كان قد فتح غطاء المحرك وأدار قفل اللديتر الذي كان مملوءاً حتى نصفه.

"عظيم" قال في نفسه.

لكنه الآن صائم.

تيمم وصلى الظهر والعصر جمعاً وقصراً؛ وهو في جلوسه راح ينظر إلى كوم الرمل الذي أزاله من أمام اللاندروفر، ثم تلفت في جلسته فاحصاً الأفق الذي ليس له من أمام أو وراء أو يمين أو شمال، أفق واسع أصفر أحاط به إحاطةَ الدائرة المحكمة.

"سآوي إلى بطن اللاندروفر حتى المغيب".

وفعل.

كانت الصحراء شاسعة، وغدائر الغزلان قد تقطعت مترعة ملأى تلمع بالسراب الكاذب لمعان بروق خلب استبدلت السماء بالأرض. ولما قضت بمغيب، خرج فتيمم وصلى المغرب ثلاثاً والعشاء اثنتين جمعاً وقصراً، ثم أكل ثلاث تمرات وأخرج من جوف السيارة خرطوشة صب وسحب البنزين، فحملها وأدخلها في فوهة اللديتر، ببطء واعتدال راح يشرب.

وقف فتجشأ خنوف الصيام ذا الرائحة النتنة.

وسأل نفسه:

"وإذا ردمت ريح الليل مقدمة اللاندروفر مرة أخرى، فماذا سأفعل"؟

"سأحفره بيدي هاتين فأزيله مرة أخرى"، قالها وهو يُحكم غطاء

اللديتر.

أثر التمر والماء كان سريعاً، لا يدري لماذا تذكر في تلك اللحظة كلمات هاملت التي كان يتفنن في إلقائها على خشبة المسرح المدرسي في الغرامر سكول في ستون:

"أجل، من لوح ذاكرتي

سأمحو كل تدوين سخيف أحمق

حِكَم الكتب كلها، كل شكل وكل انطباع مضى

مما نسخ الشباب هنالك وسجلته الملاحظة،

ولن يبقى في كتاب ذهني إلا

أمرك وحده دون غيره،

لا تخالطه مادة رخيصة".

أفطر إذن فابتلت العروق وذهب الظمأ والجوع، وأما الأجر فذلكم أمر يعلمه الله... ولما خرجت النجوم وبزغت لامعات زرقاوات وثب على سقف اللاندروفر، فهو سريع التعلم ولن يسلم نفسه للسم ليلة أخرى، لن يقضي الليلة على الأرض، وسأل نفسه: ترى ماذا حدث لرفقته الذين أخذتهم عاصفة الرمل؟ هل هلكوا؟ هل بلغوا النجاة؟ وبقي في حال الأسئلة تلك ثلاثة أيام يحسو من ماء اللديتر ويقضم بعض تمر. وفي منتصف الليالي كانت السماء تدنو منه تتدلى منها النجوم مثل عناقيد العنب فيقطفها نجمة نجمة؛ وفي منتصف النهارات كان الرمل يرتفع أعمدة تصاعد إلى عنان السماء، ومن بين كل عمود وعمود تنعقد أعاصير السموم مخاريط مقلوبة تضيق

عند الأرض، لتنفتح أعاليها على نحو جهنميٍّ يسع كل ما في الجو من هواء فيشفطه شفطاً. وبعد وقتٍ بدا له كالدهر لاحت نقاط سُود تلمع مثل صخر تائه في البعيد، ثم أخذت تدنو شيئاً فشيئاً حتى تكشفت عن رجال وجمال، كانوا قافلة من قطاع الطرق، لكنهم بالنسبة إليه كانوا بمنزلة حملة الإنقاذ. هُرعوا إلى جسد بدا فيه في تلك اللحظة عينان واسعتان تعكسان كل ما في أفق الصحراء من فراغ وهول، حملوه معهم فأخذت قافلة النياق والجمال تضرب به مهمهاً فكثيباً حتى أتت به واحة بدت على الرمل المنتشر مثل شامة خضراء على خد ناعم... فيها علا النخل فوشوش سعفه الخضل، ومنها فوَّحت البساتين تتفجر فيها الينابيع الصافية، وتنبسط على حدها الحقول قد انطلقت فيها النواعير بمياهها الجارية.

دخلوها فراحت العراجين والمياه والأنحاء تردِّد خبب النوق والجمال واللهاث والضحكات، تردِّد أصداء كل ما قيل أو يقال. ساروا بعض فدان، فانتصبت رواكيب من قش وحطب، ثم لاحت بيوت من وبر ومن شعر. ولما كانوا قد أجبروه على إفطار يوم رمضان بجرعات من الماء وتمرات ثلاث، فقد أتوه الآن بمرق ساخن وقطع من كبد الإبل النَّيْء، مدركين أن ذلك من شأنه ترميم كل خلايا جسمه الواهنة في وقت وجيز.

أغفى، وفي غفوته راح يحلم بأرض الشعر، أرض الصبر، أرض الأنبياء.

استيقظ حين دار قرص الشمس ودخل من فتحة الوبر شعاع باهر

ولفح وجهه، فأغلق عينيه، ومن عمق ما غرق فيه من نوم بدا له أنه في الصباح، قبل أن يدرك بعد برهة أنه عند غروب الشمس.

طلب ماء فجيء له به فتوضأ وسأل:

"أوَ لا تصلون"؟

قالوا:

"نحن من الصابئة".

صلى ما قد فاته من أوقات، ثم صلى المغرب والعشاء جمعاً وقصراً... وإذ فرغ من صلاته سمع لغطاً وصخباً، فخرج إلى العرصة الواسعة، فرآهم يجرون ناقة بنت لبون كثر لحمها وشحمها مما لا يُتعبونهنَّ بالرحيل والسفر، يُبقونهنَّ لمثل هذا اليوم كرامة لضيف قد أتى.

آلاف السنوات غرقت بأيامها في بحار رمل الصحراء وبحيراتها المالحة، ولكن العادات بقيت هي العادات؛ إكرام الضيف وإجارته بحقن دمه من عدو أو خليل.

وقفت الناقة، التي أدركت بغريزة الحيوان دنو النهاية، وراحت تخور خواراً يمزق نياط القلوب، لكن القلوب هنا قوية جامدة. عقدوا حبلاً متيناً قصيراً بقدميها الأماميتين وآخر بقدميها الخلفيتين، لحظتئذٍ خَفَت خوارها فجاء ضارعاً مستسلماً طويلاً حزيناً بينا عيناها تمتلئان من دمعهما وتفيضان.

رجلان أمسكا بحبل القدمين الأماميتين عن يمين وعن شمال، وآخران فعلا الشيء عينه مع القدمين الخلفيتين.

بغتةً، لاح رجل يثب، بيمينه سيف يبرق تحت لمعان نجوم العشي

وضوء كواكبه، دار دورة واسعة سريعة، ثم دنا فغرس نصل السيف في نحر الناقة، أبقاه هنيهة ثم انتزعه، لاح ثقب وردي تهدلت لحمتاه مثل الشفاه، ترنحت الناقة ورشَّ الدم مثل نافورة عظيمة، وتحول الخوار إلى بكاء ممضٍّ ثم إلى صراخ رهيب.

شد الرجال الأربعة بأطراف الحبل، فاضطربت الناقة وقد تحول رشُّ نحرها تدفُّقاً كتدفق الخرطوش، ترنحت ثم هوت مثل صخرة في الجبل.

ارتطمت بالأرض وانهالت عليها السكاكين.

أكلوا كبدها نيئاً وحاراً.

سلخوها.

أوقدوا نيراناً عظيمة على كل نار صاج كبير، وراحوا يقطعون من لحم الناقة وشحمها ويرمون.

وانعقدت رائحة الشواء.

وجِيء بعرق التمر وجِيء بنبيذ التمر.

طعموا وشربوا ثم قاموا فوقفوا.

دقت الدفوف ورنت الصنوج.

ثم جاءت النسوة فبدأ الرقص واستمر الغناء.

كانت النسوة جميلات بأكفهنَّ وبأقدامهنَّ حمرة الحناء،

حمرة قانية تذكر بحمرة شمس الصحراء،

عند مطلع الشمس وآنَ الغروب.

في شعورهن وفي أردانهن طيب عميق

عبق يشده الأنف فلا يصل منه إلى قرار.

وتحت وهج الكواكب وغمز النجوم

كفت الدنيا أن تكون

إلا ها هنا.

في ليلة انقطع عنها الهم وأورق فيها الظلام، طاب الكون فلم يعد إلا الفرح ينبض في قلب الحياة.

وسمع هاتفات يهتفن به:

"ليس الآن يا سامي حمدان إلا اللحظة،

إلا الراهن،

إلا الكائن".

فصار منهم، كان معهم يغني مثلما يغنون ويرقص مثلما يرقصون؛ وفي لحظة قدم له الشراب فلم يقاوم الشراب. كان الشواء طيباً والنبيذ لذيذاً والعرق ينزل في الأحشاء حاراً مثل جمر العاشقين. ومع السهر والرقص والغناء والطعام والشراب والطرب، انفرجت أساريره وسرى في قلبه حب أحس به نحو الواحة وأهلها.

"نزلت سهلاً وحللت أهلاً"، صاح أحدهم.

"إذا بتَّ عندنا أكثر من ثلاث ليالٍ زوجناك"، صاح آخر.

"لا بد للرجل من أن يتزوج ويزوج وإن كان ضيفاً"، قال ثالث.

"اليوم خمر وغداً أمر"، صاحوا جميعهم.

وإنه ليدرك الآن أن الحِكَم النافذة والأمثال السائرة قد خطها في

لوح الزمن رجال كهؤلاء، رجالٌ عفويون بسطاء مقبلون على الحياة بقلب مطمئن كله ثقة وتفاؤل، سرهم في التفاؤل، في العفوية، في البساطة، في الإقبال على الحياة؛ فكانت السعادة هي الراحلة التي عليها ركبوا، والزاد الذي منه طعموا، والقربة التي منها شربوا.

برهةً عنَّ له أنه ها هنا، هكذا، ينبغي أن تكون الحياة.

أخذه رَهَق، لم يستطع أن يُجاريَ ضرب الأكف وضرب الأقدام في فورة الرقص والغناء.

أوى إلى رقبة الناقة الطويلة، الرقبة التي حُزت.

علا وجيب قلبه إذ رأى الكواكب والنجوم، رأى الراقصين والمغنين، كلهم ينعكسون في عين الناقة المنحورة.

في تلك اللحظة،

كانت تلك العين هي الدنيا،

كل الدنيا.

قبيل الفجر تفرقوا، وانطفأت العين.

دخلوا بنسائهم بيوت الوبر،

بيوت الشعر.

بقي وحده، تلفَّت فآلمه الصمت، أوجعه زوال الحياة التي هدرت وانطفاء النيران التي استعرت، كأن ما عرف المكان، هذا المكان، ذلك الغناء، ذلك الرقص، ذلك الجمال. "كل شيء إلى فناء" قال في نفسه وقد عاده المرض، وشد إبريقاً ليس إبريق ماء، وإنما إبريق نبيذ قد فار، جرع حزيناً غير آبه بالصلاة، نهض وسار بعيداً تحنو

على وجهه نسيمات من الليل باردات هبت بهنَّ البساتين والحقول والنخيلات، نسيمات محملات بأنفاس السدرات والأثيلات، بروث النوق والجمال والشياه والمعزات، بعطر الفاكهة في البساتين ينثال خيطاً من عبير، بدخان الرمل الصاعد من ثنية الكثبان وارتعاشة القناديل في الحقول.

كانت الواحة صامتة في تلك الساعة من الفجر إلا من أنين النساء، أنين راغب غني طويل وسعيد.

وأخرجه من تأمله العميق شأن تأمل العابد الساجد جفول ناقة من تحت جمل في مراح رابض.

وعلا صوت العندليب قد جفَّ حلقه من الغناء في المفازات القريبة، وبلغ آخر الواحة فخرج منها إلى ممر ضيق محروق لا هو من رمل ولا هو من تراب، تلك هي قطع القعب: أرض جفت ينابيعها فأقفرت من النواعير، من البساتين، من الحقول، فصارت آن القحط بلقعاً سبخاً ثم صارت رماداً أسودَ تسفه السافيات وتذروه الرياح! شأن الحياة! ثم تنفس الفجر فاهتزت الواحة النائمة في كف الصحراء، لمعت النجوم هائلة فدنت مثل عناقيد كرمة حانية، وراحت تقطر بعسل أزرق سميك؛ وبه تفيض، وخُيل إليه أن السماء نفسها قد دنت، دنوها حين تهفو إلى نبي.

وهلةً أحسَّ أنه معلقٌ بين الأرض والسماء، ثم استفاق يلفُّه ضوء باهت... سار في الممر عائداً، وانتعش قلبه واحتد ذهنه وامتلأ فؤاده بيقين مكين، يقين بأنه الآن على الأرض، تماماً مثل الرمل، مثل

الشجر، مثل الحجر، أحسَّ بنشاط غامر وبفرح غامر حال المسافر حالفه حظ الوصول.

وصَفَا جوهر روحه الحزين.

ومر بخيمة شعر ذات بخور تخص إحدى زوجات مضيفه، وسمعها تصرخ بالرغبة، بألم جميل، وبنشوة مفعمة. ابتسم وقال للريح توشوش عند النخل والحقول: "يلذ الجنس عد الفجر أحياناً". وتذكر لا يدري لماذا، وهو يبتعد من خيمة الشعر الفائرة، عيني دوروثي الخضراوين، تخيلهما معه تشعان وتلمعان تحت ضوء الفجر الخافت ذي الحفيف مثل آلاف اليراعات الخضراء المضيئة، تذكرها بإحساس من الخذلان، بشعور بالفشل، أحاسيس طاغية ضربته فوثب منها يبعد، لكن وثبته هوت به مهوى الآمال في الوهاد البعيدة؛ تذكرها بإحساس الخجل نفسه الذي اعتراه عندما كانت المشرفة الاجتماعية توبخه في المدرسة على ما بدر منه في حوض السباحة.

وارتجف الأفق الشرقي لمطلع الشمس، فعَلا قرصها مثل عين هائلة، عين حارة كاسحة جميلة وصافية.

أزاح سيور الشعر والوبر ودخل خيمته. كان ثمة إبريق من نحاس أصفر مملوء، وطست صغير من الألمنيوم اللامع.

استغفر الله كثيراً ثم توضأ ثم صلى.

وإذْ خرج من صلاته ذات اليمين وذات الشمال دخلت عليه ابنة مضيفه في خمار أسود أشرقت فيه بشرة وجهها الفاتح السمرة: لون العرب، حيته بأدب ثم وضعت أمامه قدحاً من لبن الإبل

الساخن وصحناً من تمر وعجوة؛ استرق النظر إلى عينيها السوداوين فاضطربت ثم ابتسمت. كانت عيناها تبرقان وتلمعان مثل تريعات الصحراء حينما يسود الليل، وكان قدها أهيفَ معتدلاً خفيفاً مثل غزال.

حدَّق فيها طويلاً فأطرقت.

أرته وجهاً كفلق الصباح، كإشراق السلامة.

وإذْ سألته: "هل أصبحت بخير"؟ أرته لساناً في حمرة الجمر، وابتسمت فكشفت عن شتيت برد، عن شفتين مكتنزتين مخضرتين بالكحل.

"أرجو أن يطيبَ لك المقام في واحتنا"، قالت ثم خرجت.

وعند منتصف النهار رآها تقطف العنب في البستان، خطا صوبها، فخطت حتى وقفت عند النواعير التي عند الينابيع وهي بعد تقطف.

سألها:

"ما اسمك أيتها الحسناء"؟

"قمر"، قالت وقد حولت عينيها من وجهه إلى عنقود عنب ناضج محمر.

"اسم على مسمى. أنت جميلة جداً! سأتزوجك يا ذات العيون السود. أُنظري إلي! سأتزوجك"، قال.

وقد كان.

فاضت الوديان بالحداء والركبان، عربان أتوا من لامكان، من الواحات التي لم يرَها أحد، جاؤوا لعرسه، فعَلَت الزغاريد ولعلعت

الدفوف ورنت الصنوج حتى اهتزت الأنحاء والأركان في الواحة، في الرمل، في الأركان.

نحروا سبعة جمال وثلاث نياق، وانطلقت الأفراح تعطر الهواء برائحة الحناء والطيب والمسك والكافور. هؤلاء الناس يبحثون عن الفرح والمرح، فإذا ما جاء عرس أو مولود أو ختان أطلقوا الأهازيج وأقاموا الليل والنهار، فأوقفوا كل شيء وانهمكوا في غناء ورقص وطرب وطعام وشراب، لا ريب أن الحياة مملوءة بالسقم والألم، ولكن هؤلاء القوم قهروا الألم بالفرح الشجاع، فرح قد يبدو عبثياً، ولكنه يثبت أنه مجد في كل مغيب ليوم وفي كل مطلع لصباح.

وكان سامي حمدان يجهد في ذلك السيل الجارف حصاه من أرض البهجة والمتعة، يجهد أن يقيم صلاته ويواصل صيامه وينأى عن العرق والنبيذ وأصناف الشراب، ولكنْ ساعة تغرب الشمس وتبزغ الكواكب وتطلع النجوم، ساعة تعلو العقائر فتصدح بالهزج بالغناء، ساعة يدور الشراب لم يكن بمستطيع كبح جماح نفسه.

كان يذنب في الليل ويستغفر في النهار.

تاب أكثر من مئة توبة، وكلما اشتعلت البهجة عاد فأذنب.

وكانت زوجه تملأ مخدعه في خيمة الشوق، تريه منها وجهاً كفلق الصباح، كإشراق السلامة. ولكم أغرته حمرة لسانها، فغرق في سكره الفائض، في اكتناز شفتيها. كان يقضي نهاراته صائماً يرتل القرآن، وفي الليل يفرغ للطيب والحبيب واكتساب الأجر السهل في النكاح. كم مرةً تزوج بعدها في إيران، في باكستان، في أفغانستان؛ ولكن

أيام الواحة كنَّ الأيام السعيدات؛ أربعين يوماً ملأ العندليب الواحة، الليالي منها، بصادح الغناء، أربعين يوماً وعروسه تطعمه بشفتيها ريقاً عذباً كله طمأنينة، كله حب شفيف، أربعين يوماً مكث فيها يأكل من أكباد الإبل ما أكل، ويشرب فيها سطولاً من حليب النوق في الصباح والنهار، وفي العشيات يشرب آباراً من النبيذ، ولكن الطائر الأسود كان يفرد جناحيه في كبده، يطير إلى صدره فينهش في قلبه، يمزقه بمنقاره مزقاً، يجرع من تاموره ويترع القلق، قلقاً يطلب الرحيل.

ونفض يديه كرةً أخرى ورفعهما في الهواء، فلاحَ الساعدان القويان المحتشدان بالشعر الكثيف وعروق الأوردة النافرة بينما انزلقت اللاندكرورز السوداء في صباح تعرجات بادية الشام تدنو شيئاً فشيئاً صوب الرقة، فيما يشعر بخبطات الطائر الأسود تضرب في كبده من أثر النظرات التي خلفتها عيون، كانت ساحرة إلى درجة أنه لم يفق منها حتى الآن.

مع الصباح الذي تقدم فدخل إلى ساعة الضحى، دخلت كاجين سوق اللحم والخضار فلم تقف، اجتازت الباعة تملأ أنفها زفارة اللحم وطزاجة الخضار، سارت في شارع طويل مقلع الأسفلت كثير الحفر، ثم وصلت إلى تقاطع عريض فاختارت أن تنعطف يميناً، بدا أنها تقترب من قلب السوق، كانت المدرعات والدبابات تتناثر ها هنا وها هناك، ورجال السواد يمشون أو يجلسون بينما الرايات السُّود تخفق في كل مكان.

سارت تحت شمس الصباح زهاء ثلاثة أرباع الساعة، ولما بعدت عن الأنظار انطلقت تعدو وتعدو.

ثم أخيراً، وصلت إلى موقف الحافلات.

متماسكة وقفت وسط الناس واللغط والضجيج، كانت ترخي أذنها لمنادي الحافلات وهي بعد في لباس صبي جلب الأغراض الذي يعمل في خدمة معاون الخليفة. ثدياها الناتئان احتاجا إلى مشية خاصة لإخفائهما، وقد عفرت وجهها بالتراب أثناء المسير متجنبة ما رسمته لها عزيزة بالفحم فوق شفتها العليل فلاح شارباً خفيفاً، نظارتها لم تزل تخفي خضرة العينين الباهرتين، وهي ذي تقف غلاماً ينظر لشمس كبيرة تملأ السماء، أو يخطو بهدوء وثبات يبحث عن الحافلة المناسبة.

وسمعت منادياً يهتف بنبرة بلدية:

"سنجار، يالله، يالله، هنا تعال، قضاء سنجار من هنا، واحد أو اثنان وتتحرك الحافلة، هيا تعال".

تقدمت.

دفعت الثمن للمنادي، فدسَّ الدنانير في جيبه وأعطاها تذكرة مكتوبة بخط رديء، خط يده الكبيرة الخشنة.

واستقلت الحافلة فانطلقت بها وبالمسافرين لا تلوي على أحد.

وبدا لها أن الحافلة الكبيرة القديمة بطيئة للغاية، كانت ترتجف في حفر الطريق مثل علبة صفيح كبيرة، ولسوء الحظ حديدة سنينة ثقبت الإطار الخلفي فتوقفوا، وقال لها صوت:

"أنت يا ولد، اِنزل وساعد الرجال على تغيير الإطار".

ففعلت ثم استقامت الحافلة وانطلقت من جديد.

وكانت طوال الطريق تنادي في نفسها:

"أبي، أمي، هل تصدقان أني في الطريق إلى البيت؟ نعم أنا في الطريق إليكما في استيرا".

ولما وصلت موقف الحافلات في سوق قضاء سنجار نزلت، ثم سارت كأنها تعدو، كانت تتلفت متوجسة وخائفة، وبعد وقت، أحست بأنه بطول الدهور، كانت من الموقف في ناحية المواصلات الفرعية، استقلت حافلة ثانية صغيرة من الموقف الرئيس للحافلات إلى موقف البغال البعيد الخاص بقرى ومساكن الجبل. وللمرة الأولى في قضاء سنجار كان لها من الحظ نصيب، فأثناء نزولها من الحافلة الثانية التي استقلتها من سوق القضاء، رأت حمدين ساعي البريد! الرجل نفسه الذي كان يأتي أباها بالكتب والمجلات في بيتهم في قرية استيرا، لكنه كذلك، الرجل عينه الذي عمل دليلاً ومرشداً لرجال

السواد، ما تسبب في سبيها وأخريات.

تردَّدت.

هل تذهب إليه وتفضي إليه بسرها وتطلب العون والنجدة؟

أتراه يساعدها؟

أم هو الآن واحد منهم سيسلمها لهم، وفي التو؟

وجازفت.

خطت مرهقة ظامئة جائعة صوبه، وقفت إلى جانبه، ولما التفت لم تقل حرفاً، لكنها أزاحت النظارة السوداء وحدَّقت في عينيه، فغر ساعي البريد حمدين فمه لما طالعته العينان الخضراوان وصرخ:

"كاجين"؟!

لقد عرفها.

تلفتت ثم أعادت النظارة السوداء وأومأت له أن "نعم".

سار وأشار إليها أن تتبعه حتى إذا بلغا مكاناً قصياً خالياً من المارة والمسافرين توقف وسألها كأنه لا يصدق عينيه:

"كاجين! أنت هنا! أنت حية"؟

"وأبي وأمي؟ كيف حالهما"؟

"لا أدري عنهما شيئاً، للأسف، لكن قولي لي كيف حالك أنت و...،".

فقاطعته:

"هذه قصة طويلة يا عم حمدين. المهم أنا هنا وأريد مساعدتك".

وتبادلا في جنح الليل حديثاً وجيزاً.

ثم بعد ساعة كانت كاجين على ظهر بغل تصعد الجبل.

وقد زودها حمدين، ساعي البريد، بزاد وماء وخريطة في اليد، وضع يده على نقطة صغيرة وهمس لها:

"هنا استيرا".

خاض البغل بها بحر الليل متفادياً صخرات جانحات في خاصرة الجبل، كان معلوفاً رويانَ، حثته فانطلق يعدو فيصعد، لكن في بطء شديد.

لكم صعب هو الصعود.

مضت ثلاث شموس لاهبة.

لابد أنهم هناك في الموصل يبحثون عنها في كل مكان.

لكن الآن، في شعاب جبل سنجار هي والبغل والوحشة التي تتردد في الأنحاء مثل آلاف الأصداء.

حمدين يصعد الجبل في يومين أو يوم وبعض يوم، لكن هذا هو يومها الثالث.

لقد نال منها الرهق وأخذها اللهاث، بحسب الخريطة التي في يدها، الخريطة التي زودها بها عم حمدين ساعي البريد علمت أن عليها أن تنحرف بزاوية قائمة لتلج شعباً ضيقاً لاح عند منعطف الشعاب المتعرجة صعوداً في حشا الجبل، متلاقية في الأعالي عند القمم العارية الآن من ثلج الشتاء.

كانت تردد في نفسها:

"سأعود إلى استيرا، سأعود إلى بيت أبي وأمي".

ومع كل خطوة للبغل صوب قريتها، كانت تسرح كما لو أن أوهامها غدت واقعاً، في النهار تسرح مع الشمس اللاهبة وفي الليل كانت تسرح مع النجوم لترى مجهدة لقطات متتابعات، كانت لقطات تمتزج فيها الأوهام بالأحلام بالواقع الأخاذ، ها هي فوق ظهر البغل وقد تسلخ باطنا فخذيها من طول الاحتكاك، كتفاها معتدلتان ورأسها مرفوع، لكنها حينما يأخذ منها الإرهاق تنحني وتضع رأسها فوق رقبة البغل، تملأ أنفها من رائحة وبر هذا الحيوان المثابر الشديد الجلد، وللحظة عنَّ لها أنها هي أيضاً بغل لا يقهر، بغل يصمد ويواصل الصعود، داخل بعض الشعاب البالغة الضيق كانت تشعر بأن رئتيها تنقبضان، تشعر بالاختناق، ويبدأ أنفها وحلقها بالالتهاب ويقوى في رأسها الصداع، لكنها تمضي والبغل، بينما تكاد تختنق من الحر وقلة الهواء، من كثافة التهويم.

غير أن تهويماتها كانت تقويها، نعم كانت تحلق في الفضاء، ما يتيح لها مجالسة أبيها وأمها مجدداً في دنيا الخيال، ها هي ذي ترى نفسها في سن الخامسة جالسةً إلى أمها روجين كيما تسرِّح شعرها اللامع الشقرة، تلامس خصلاته وحلقاته بأناملها طوراً وبالمشط والفرشاة تارة، "لك شعر أوروبي، جدتك كانت بمثل لون بشرتك، بمثل لون شعرك"... وكانت تشعر أحياناً بجرة مؤلمة للمشط إذ تشتبك أسنانه في متجمع الخصلات فترفع يدها الصغيرة وتمسك بأصابع أمها الناعمة وهي تصرخ: "قلت لك يا أمي قصي لي شعري

مثل الصبيان. هذا التسريح الطويل يؤلمني". وكانت أمها تضحك طويلاً من رغبتها في قص شعرها، فقط من أجل تفادي جلسات التسريح! لتلامس الآن بشرة أمها الناعمة كالحرير، تراها الآن، ترى أدق التفاصيل من شعرها وعينيها الصافيتين المتوقدتين اللامعتين بالحنان، تسمع صوتها العذب، تسمع كلماتها المشجعة الطيبة، ترى نفسها معها هي ومع أبيها سلمان وصديقتها جيهان في الدرب يقصدون المدرسة مع الكلب ماونت، إنها الآن معهم.

وإذ البغل الآن يصعد بها عتبة الجبل استعجبت! فها هي ذي ينتهي بها الشعب إلى ما يشبه فسحة من صخر ومن حجر لم تمر بها من قبل! لابد أنها قد تاهت. نظرت من فوق ظهر البغل فكانت ثمة جداول ومسايل وآلاف الطيور تزقزق وتصدح، وأخرى تجول على زبد الماء ثم تطير أو تغطس بحثاً عن الأسماك. كانت الضفاف محفوفة بركام الحشائش ذات الأزهار الجبلية الغريبة... وانتبهت لطائر صغير جناحه أبيض يقق وعنقه مفضض، كان واقفاً يتلفت تغمره المياه حتى بطنه، يجس العشب والحشيش بمنقاره الأحمر الحاد من أعمق مكان في الجدول المسيل، وعندما أصاب مما أراد نفض جناحيه ثم اشرأب منتصباً وقد انتفشت قنزعة ريشه، وبعد أن تلفت يمنة ويسرة مُشرعاً حدقتيه المستديرتين في وجه كاجين، ثم في وجه البغل، رفع ساقه مطمئناً لهما وخرج من الماء، ثم في أمان، أفرد جناحيه وطار يحلق عالياً صوب القمم العالية.

وثبت كاجين من ظهر البغل فخطت على الضفة الضيقة، ثم جلست

وراحت تملأ كفيها من ماء الجدول البارد، فتشرب الملأة بعد الملأة، رويت، ومدَّ البغل رقبته فشرب وروى. ثم عادت فامتطت البغل ومضت فوطئت حوافره مع تقدم النهار تربةً دافئة بيضاء تراكمت بين أحجار جيرية مهشمة... وانفرجت الشعاب بغتة عن دغل عارٍ متشابك الأغصان، وسمعت حركة فجفل البغل وتراجع إلى الخلف، إذ ظهر شبح رجل يحمل بندقية كلاشينكوف على كتفه!

"ما الذي أتى به ها هنا"؟ سألت وكبدها تخزها وخزات طاعنات.

نزلت عن ظهر البغل وأمسكت بفمه حتى لا يشحج، تسارعت نبضات قلبها، ودوت المخاوف في ذهنها دوي الترس في الطاحون، حتى إنها خشيت أن يسمعها الرجل.

لكن الرجل المسلح مضى، وهو يعلك مسواكاً من الأراك.

لم يرها، فركضت بيمينها لجام البغل، يعدوان في خطر وهما لا يلويان على أحد.

ابتعدت تماماً عن الدغل حيث ظهر الرجل المسلح، لكنها لم تركب البغل فقد عاد الشعب فأضحى ضيقاً جداً، أمسكت بلجام البغل وقادته خلفها وهي تلهث، وأثناء توغلها في الصعود وطئت عقرباً صغيرة فلدغتها، فانهارت تمسك بجذع عارٍ نبت بين صخرتين، أحست بألم لا يطاق وعلت الحمرة وجهها.

ووقف البغل قربها ينتظرها في صبر، بينما تتأملها عيناه المتعبتان، تتأمل يديها المسكينتين الممسكتين بالجذع العاري.

كم لبثت في حالها ذاك؟

لا تدري، لكن وهج الغروب المتشح بالحمرة والصفرة كان ينعكس متأججاً في عينيها الخضراوين ليملأهما بلون الدم ورعشة الصخر في شعاب الجبل.

ثم بغتةً، علا لغط قوم! يختلط بشحيج وشخير من أفواه وأنوف بغال كثيرة تقترب!

لم تصدق عينيها! إذ لمحت على ضوء الشفق قافلة صغيرة من رجال على ظهور البغال، كانوا خمسة عشر رجلاً مسناً.

نفضت البغال آذانها، وضربت بحوافرها وأخذت تدنو منها ومن بغلها.

"من هم"؟ دار الترس المزعج في رأسها.

لكن جاءها صوت هرم وقور، صوت يسألها:

"أوَ تائهة أنت أيتها الصبية"؟

"لا، أنا أقصد قرية استيرا".

وبينما هي تنظر في الخريطة التي بين يديها عادها الصوت:

"يزيدية إذاً من استيرا"؟!

"نعم. إليها أعود".

مالت فأنست إلى الوجوه المرحبة، بينما كانت حبات العرق ترشح من كل خلايا جسمها وحمرة لاهبة تظلل عينيها الخضراوين.

"ما بك"؟ قال الشيخ مترجلاً عن بغلته وقد دنا منها بخطو متَّئدٍ.

"ملدوغة".

"ثعبان"؟

"لا. عقرب".

فصدوها مكان اللدغة وربطوا أعلى الساق.

قالت وجبينها يندى بالعرق برغم برودة هواء الليل الذي حل:

"لدي مناعة من السم، سم العقارب...".

وضحكت متحاملة على ألمها:

"لدغتني عقرب في هروبي الأول".

في اليوم الذي تلا، بلغوا كهفاً أمامه بغال وفيه رجال، أحسَّت بطمأنينة من الراحة التي ارتسمت على الوجوه المرحبة،

سقوها ماءً ولبناً وأطعموها تمرات.

"من أنتم؟ وإلى أين تذهبون"؟ سألت.

"نحن جماعة من اليزيديين، اقترب القتلة منا، فقررنا صعود الجبل؛ إذ نعرف كهفاً لرفقة لنا هناك في الأعالي، سنودعهم ما معنا من مخطوطات".

"نعم، لقد رأيت واحداً منهم، ليس ببعيد من هنا".

"الأجدر أن نسرع بالابتعاد من هنا" قال الشيخ.

وبعد زهاء ربع الساعة كانوا على ظهور البغال برفقة الرجال الجدد الذين هجروا كهفهم. كانت تلك جماعة من اليزيديين ظلت تعيش عقوداً في هضبة مستورة في هذه الناحية من الجبل.

تعالي معنا، ستكونين على ما يرام"، ترجاها الشيخ.

"لا، سأعود إلى استيرا، إلى بيت أمي وأبي".

شعرت بطمأنينة للوجوه الهادئة المودعة.

واختلفت بهم الشعاب.

صعدوا صوب الكهف وصعدت هي صوب استيرا.

تاهت يومين... وفي اليوم السادس وكان أول خميس في سبتمبر، دخل البغل بعد أن صعد الشعب الأخير دروب القرية الصغيرة، إنها الآن في استيرا، كان الصمت مطبقاً، ومن شدَّة إطباقه كان له في تعرج الدروب وفي أنحاء الجبل صفير، وكان له رنين، البيوت المتناثرة القليلة كانت مهجورة، وقد بدت لعيني كاجين مثل طيور مسكينة هامدة تغط في نوم حزين، ليس من هيئة في الدرب وليس من حركة في الأنحاء.

"أين ذهب أهل استيرا"؟ سألت في نفسها وما وجدت من جواب، نهرت البغل فمضى في الدروب قد زاد من سرعته، ينتهي من درب ليدخل درباً، كانت مرهقة أشد ما يكون الإرهاق، وفي بحر عينيها الأخضر المضطرب، كان قد ارتفع شأن الصواري، ألف سؤال وسؤال... بعد دقائق وقف البغل بعد أن انثنى فأكمل درب المدرسة أمام البيت الصغير؛ في اللحظة ذاتها من نهار الخميس في الموصل، كانت اللاندكروزر قد وقفت أمام باب بيت الثري المصادر... أدى الحرس التحية وفتحوا للاندكروزر المصراعين الكبيرين. في الفناء كانت قبضة الصيف قد خفَّتْ شيئاً ما لحلول سبتمبر... نزل معاون الخليفة سامي حمدان ودخل البهو... ثم قصد في تؤدة حجرة

كاجين، وقف أمام الباب يملؤه الشوق، شوق العائد من سفر...
جذب نفساً عميقاً من هواء سبتمبر ثم مد يده فأدار الأكرة الذهبية ودخل.
كان السرير مرتباً، كذلك الأريكة.
"عزيزة!" نادى.
فأقبلت وهي تردد:
"مولاي، حمداً لله على سلامتك، معاون خليفتنا حفظك الله".
"أين كاجين"؟
"إنها هنا".
"هنا! أين هنا؟".
وركل بحذائه الأسود الثقيل طست الحمام وأباريق الماء وسجادة الصلاة، بعثر آنية الطعام ودلق الحليب من جرة قريبة، رفع الملاءة، قلب السرير، أمسك بتلابيت عزيزة وهو يصيح:
"أين هي يا عزيزة، أين هي؟".
وخرج من الحجرة كالمجنون لاهث الصدر غاضب العين شديد الصراخ.
مضى صوب الحراس:
"ويحكم! هل هربت؟ كيف حدث ذلك؟ أين كنتم"؟
"سنجدها بإذن الله يا سند الخليفة وعونه. سنجدها".
لمعت عيناه ببريق غاضب وهاج:

"لم تركتموها تلوذ بالفرار؟ لمْ"؟
وانطلقت الزمر الراجلة، بنادقها مشرعة، وهي تتدفق في أرض الموصل فتنحدر أو تصعد الشوارع والأزقة.
كان الحراس مرتبكين ومشوشي الذهن جداً، ينطلق هؤلاء ويعود أولئك وصيحة المعاون سامي حمدان تدوي دوياً يصم الآذان:
"أعيدوها حية، لا يمسَّنَّ أحدكم منها شعرة، ولو أصبتموها بأذى فسترون. سترون".
وكان في ذلك المظهر ما يوحي بذعر متعمد إلى أتباعه.
بينما في استيرا، بدت كاجين نشطة برغم مشقة الرحلة وطولها، زاد قلبها في الخفقان بينما راحت عيناها الخضراوان تبرقان وتلمعان.
قفزت من ظهر البغل ودارت حول البيت.
كان البيت صامتاً.
دخلت فإذا الحديقة قد مات فيها الورد والزهر، وأوراق الأشجار تعلقت عطشى مصفرة، بينما نبتت الحشائش والأعشاب الجبلية على نحو شرس بالغ الطول، خطت نحو الحظيرة فإذْ بغل البيت قد نفق وأصبح رمة تجمع عليها الذباب وسعى فيها الدود.
كان الباب موصداً، المنظر الأخير ذاته الذي رأته فيه صباح أن غادرت مع أمها وأبيها.
طرقت...
ألحت في الطرق وما من مجيب...
تراجعت للوراء ثم اندفعت صوب الباب فضربته بكتفها فصرَّ وانفتح.

في الداخل كان الصمت أكثر إطباقاً.

كان ثمة غبار وظلام..

خطت وفتحت النوافذ فدخل الضوء ودخل الهواء.

دخلت المطبخ فوجدت الآنية مرتبة لكن الغبار يكسوها بطبقة رمادية تميل للبياض. خرجت من المطبخ فطافت بالحجرات، دخلت حجرة أبيها وأمها فرأت السرير الكبير مفروشاً بملاءة بيضاء والوسائد موضوعة بعناية... دخلت حجرتها فطالعتها الكتب، مدت يدها وراحت تمسك الكتاب بعد الكتاب، مضى وقت فجلست على طرف سريرها ساهمة العين، ولبثت كذلك وقتاً، ثم بتثاقل نهضت وخرجت، سارت في الدرب الذي أَلِفَها وجيهان وأباها سلمان وأمها روجين، درب المدرسة، وأسرعت الخطى ثم أخذت تعدو حتى وصلت إلى المدرسة.

كان الباب مفتوحاً...

دخلت.

الفناء خالٍ، سارت فيه دقائق ثم دخلت حجرة الدرس، فإذا هي منظمة نظيفة مرتبة! لاح واضحاً أن ثمة أحداً ما يعنى بهذا المكان.

ولم يطل الوقت حين سمعت صوتاً من ورائها يناديها:

"كاجين!"

التفتت.

يا للمفاجأة.

"لقد فشلتم في إدارة دورية حراسة بسيطة، فشلتم في حراسة صبية! فشلتم في أداء واجبكم".

صاح معاون الخليفة سامي حمدان في الحراس الذين وقفوا مطأطئي الرؤوس:

"فشل مريع، فشل استثنائي".

كان صوته مثل حجارة منهارة من جبل إذْ راح يردد:

"لا تستطيعون حراسة صبية"!

بعد ساعات كانت محكمة سريعة قد عُقدت للحراس في فناء بيت الثري المصادر.

وصدر الحكم.

الإعدام.

بيده، بسكينته التي اجتثت مئات الرؤوس نفذ حكم الإعدام في رجال حرسه.

كانت عزيزة واقفة...

كانت تنظر إذ الرقاب تقطع، وعلى وجهها لم يزل النقاب ساتراً وأسودَ، خطا صوبها والدم يملأ يديه ويقطر أو يسيل منهما.

"الآن، أنت أيتها العجوز الحمقاء، قولي لي كيف هربت كاجين من هنا"؟

".....".

صرخ فيها صرخة مدوية قوية على نحو ما تناهت جريحة:

"كيف خرجت كاجين من هنا؟ كيف؟ لقد عهدت بها إليك، أليس كذلك أيتها الشمطاء البلهاء"؟

"مولاي، سند ومعاون خليفتنا صدقني لا أدري. لا أدري. لا أدري".

حينئذ وبقوة أخذ كفها بين يديه وبشفرة سكينته الحادة قطع سبابتها وقطع الإبهام... رماهما على الأرض ينبضان... ثم دهسهما بحذائه العسكري الثقيل الأسود، بينما أخذت عزيزة تدور حول نفسها وهي تصرخ من الألم... أمسك بها مجدداً وشدَّ يدها السليمة وهو يقول بكل قسوة الدنيا:

"سأقطعك عضواً عضواً، إن لم تخبريني الحقيقة، هيا قولي كيف هربت كاجين؟ كيف"؟

ومد يده فنزع النقاب عن وجهها وراح يعيد:

"سأقطعك عضواً عضواً أيتها العجوز الحمقاء الشمطاء، كيف فرطت فيها؟ كيف خرجت من هنا"؟

ولما وضع شفرة سكينه على إصبع الخنصر منها صرخت منهارة:

"مولاي المعاون، رحمتك، سأقول، سأقول كل شيء".

"كيف خرجت من هنا؟ كيف هربت كاجين"؟

"في هيئة صبي الأغراض".

"من ساعدها"؟

".....،".

فضرب منها الخنصر فطار وسقط في التراب بينما عزيزة تصرخ:

"أنا ساعدتها".

"إلى أين قالت ستذهب"؟

"إلى أبيها وأمها في... في...".

"أين"؟

"في قرية استيرا".

ولم تكد عزيزة تنطق بآخر حرف إلا وكان قد أدخل يده في فمها وأمسك بلسانها... بضربة من سكينه الحادة قطعه ورماه على التراب... راحت عزيزة تدور حول نفسها مثل ثور الساقية يدور حول الساقية، والدم ينزف غزيراً من فمها ويديها.. ثم هوت وراحت تتقلب على أرض الفناء وهي تصرخ بغير لسان صرخات طويلات مفزعات، بينما معاون الخليفة يهتف غاضباً على زاويتي فمه قد تجمع رغو وسال زبد:

"أعيدوا السبية الكافرة، أعيدوا الفاجرة وإن كانت تحت طقاطيق الأرض، هيا انطلقوا، هيا أعيدوها إليَّ".

وانطلقت زمرة جديدة من رجال السواد تنضم إلى فريق الباحثين، وبدا هو بعد نوبات الغضب المفزعة وضربات السكين منهكاً، وقف فغرق في فراغ نفسه، لاح مثل شراع ضائع في التيه، ضرب الطائر الأسود الذي نما وكبر في كبده بجناحيه ثم نقده بمنقاره فأحسَّ بالألم، ألم السنين الطوال، تذكر دوروثي، تذكر مارتن الذي قطع رأسه، تذكر لندن وأيامه في أفغانستان، تذكر أيامه في صحراء العرب وفي بادية الشام، اضطربت عيناه هنيهة فنفض رأسه ثم عاد يفكر في

بغداد، مدينة التاريخ التي سيدخلها فاتحاً عما قريب، سيسجل اسمه في تاريخ الغزاة، الغزاة الذين ينتصرون على الدوام؛ وتبدت بغداد فكرة حمراء في خيال أحمر؛ نعم سوف يحاصرها، لكن أين كاجين!

كاجين التي أرادها إلى جانبه يوم دخول بغداد! أين هي؟

لقد هربت كرةً أخرى، هربت بعد أن أوهمته بأنها قد ركنت له.

شهق شهقة شدت إلى صدره كل ما في الفناء، كل ما في ساحة الإعدام من هواء.

لم يزفر فانحبس الهواء.

ثم بغتة وبزفرة قوية لها صوت كصوت الزوبعة أخرج من صدره محبوس الهواء، وراح يردد بصوت مسموع:

"لن تهربي للأبد، سيُلقى القبض عليك يا كاجين، ولسوف ترين، لسوف ترين".

وفكر وتمتم: "أين أنت الآن يا كاجين"؟ ثم غام ذهنه.

ومن شدة الرهق، من شدَّة تشوش ذهنه، من طول الليالي التي قضاها مؤرقاً ساهراً، في سفر وفي حل، لا يطرف له فيها جفن وهو يجهز لحصار بغداد، أخذته وهو واقف إغفاءة سريعة، فرأى فيما يرى النائم في تلك الغفوة القصيرة أنه يسير تحت سماءٍ من لهب، سماءٍ نجومها جمر يتقد، كاد يهوي فانتبه، لوهلة، ومثل ضربة برق خاطف رأى نفسه على خشبة المسرح المدرسي في مدرسة الغرامر سكول في ستون في مقاطعة ساري، كان هو البطل وكانت دوروثي بعينيها الخضراوين الجميلتين هي البطلة، راح وهو يخطو يردد بصوت

يشبه صوت سقوط دلو في غور بئر عميقة:

"أيها الضعف، اسمك المرأة!

شهر قصير مضى؛ ولم يعتق بعدُ ذلك الحذاء

الذي مشت به وراء جثمان أبي المسكين،

وكلها دمع، مثل نايوبي".

ثم تمالك نفسه في وقفته في الفناء الذي تحول إلى ساحة للإعدام، خطا قرب برك الدم، قرب الرؤوس المقطوعة لحراس كاجين التي هربت، أصلح عمامته السوداء، نظر إلى رشاش الدم في جلبابه الأسود، رفع يديه ونفضهما فانحسر كُمَّا الجلباب ولاح ساعداه إذْ هما يتشنجان وتنفر فيهما عشرات العروق، نظر إلى عزيزة لم تزل تتقلب على الأرض مقطوعة اللسان والدماء تنفجر وتندفع من فمها، خطا صوبها... ركلها بحذائه العسكري الأسود الثقيل، ظلت تصرخ بأصوات لا معنى لها لكنها علت تحاكي صوت حيوان طعين... انحنى فوقها رفع السكين... أنزلها... ذبحها تماماً كما تذبح الشاة... كانت تشخر وكانت رجلاها ترفسان. متى كانت أول مرة قطع فيها رأساً؟ كم رأساً قد قطع حتى الآن؟ تعلم السلاح والسكين منذ أعوام وأعوام، هنالك، في الغرب البعيد، الغرب الذي كرهه، تذكر أصيل ذلك الأحد الذي عاد فيه إلى أهله في ناحية كلفهام جنكشن جنوبي لندن بعد أيام قلائل في عد الحساب، غير أنها بالنسبة له بدت طويلة جداً بحيث أنها عدلت كل تجربة له وكل ما في حياته من رصيد؛ أيام أخذه فيها رجال الإمام وهدان مع

آخرين إلى مبانٍ نائية ملحقة بسلخانة في أرض ريفية منعزلة بعدت بمسافة من ألدرشوت، كانت أرضاً مقفرة إلا من الخضرة، لاحت لهم السلخانة وهم داخل لاندروفر رمادية اللون مثل طلل عظيم تدفق على هامته شعاع الشفق المشرب بالحمرة، بالصفرة، بخيوط الحلك.

كانوا أربعة.

"ها قد وصلنا"، غمغم السائق الذي كان خامساً.

"أنت يا ولد، ما هذا الكتاب الذي تقرأ فيه طول الطريق"؟

"تاريخ وحياة الملكة فكتوريا"، أجاب سامي حمدان.

"من الآن وصاعداً يتحتم عليك أن تقرأ كتاباً واحداً هو القرآن، اِرمِ هذا الخراء من النافذة، هيا اِرمِه الآن"، قال السائق وكان كئيباً قصيراً نحيفاً طويل الأنف، قاسي النظرات، بإحدى عينيه حَول وبياض، كان من الجزائر.

من النافذة رمى سامي حمدان الكتاب.

دارت اللاندروفر دورة واسعة في الدرب الطيني الضيق المتعرج الذي شق حشا الحشائش الخضراء... ثم وقفت عند منزل ملحق بالركن الجنوبي الشرقي من السلخانة... انفتح باب المنزل من قبل أن تفتح أبواب اللاندروفر، وظهر رجل في الأربعينيات، بدا أصلع الرأس، مربوعاً، كبير الوجه كثيف اللحية... ابتسم ابتسامة غامضة وراح يكفكف أكمام قميصه الأزرق الداكن، ثم خطا نحوهم في حذائه العسكري الأسود الثقيل خطوات واسعات نشطات وهو يقول

بصوت أبح مختلج النبرات:

"السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته".

فتحوا الأبواب الرمادية فوثبوا منها في عجل يرددون جميعهم:

"وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته".

كفّا الأصلع بدتا قويتين جداً عند المصافحة.

"أبو هادية"، ألقى باسمه، ثم أردف: "سنقضي معاً وقتاً جميلاً هنا"، قال بصوته المبحوح المختلج المشبه صوت حيوان يزفر وهو ينحر.

تقدموا صوب باب البيت ودخلوا...

البيت الذي بدا إنجليزي الطراز من الخارج لم يكن كذلك من الداخل! فالطابق السفلي كان كله عبارة عن قاعة واحدة مستطيلة شبه فسيحة إذ شملت المرآب الذي كان واضحاً أن جدرانه قد أزيلت مع جدران المطبخ، كان ثمة قطع كثيرة من السجاد الأحمر والبني قد نشرت على الأرضية المغطاة ببساط أخضر داكن فلم تبق منه إلا مساحات محدودة، وكانت وسائد وطنافس قد بعثرت قرب الجدران ذات الطلاء الأخضر الفاتح، كذلك كانت بطاطين صوفية ثقيلة مطواة ملقاة في الأركان.

خلعوا أحذيتهم عند الباب.

"أظن أن صلاة المغرب قد حانت"، قال أبو هادية وهو يخلع حذاءه العسكري الأسود الثقيل، ثم دفع الباب من ورائه ثم أحكم إغلاقه بالمفتاح والترباس.

"الحمام في الخارج لمن يريد الوضوء"، قالها تعلو في بحة صوته خشخشة

مربكة، ثم خطا وسار أمامهم إلى الباب الخلفي للبيت الذي كان يطل على حديقة واسعة جثم فيها ما يشبه المخازن الصغيرة.

"هناك الحمام من وراء المطبخ".

احتذوا عند عتبة الباب الخلفي شباشب بلاستيكية خفيفة، كانت مرصوصة، وانطلقوا صوب الحمام.

توضؤوا وعادوا فصلوا المغرب ثلاث ركعات... وكان أبو هادية هو الإمام، أطال القراءة وأطال الصلاة... كان المغيب الإنجليزي البطيء الطويل للشمس آن الصيف يزيل غربة المغرب وسرعة زواله، تلك التي عرفها لاحقاً في صحراء العرب، ما مكن أبو هادية من التمهل والتأني في تأدية الصلاة.

وعاد الصوت المبحوح بحة مقلقة فانطلق بعد الصلاة بالدعاء:

"اللهم انصرنا على الكفار والمشركين، اللهم شتت شملهم واجعل عصمتنا في هذا الدين، اللهم واجعلنا مع الفرقة الناجية من جماعة المسلمين".

"آمين"، قالوا أجمعين.

نهض السائق حينذاك فاستأذن وألقى السلام ثم انصرف.

وبعد دقائق من الصمت، نهض أبو هادية فصعد سلم البيت الضيق المتقارب الدرجات بسرعة بخفة رياضية ملحوظة، غاب قليلاً ثم ما لبث أن آب يحمل لفافة سوداء صغيرة نشرها بين يديه فلمعت لحظتئذٍ خمسة مسدسات.

"كاتمة للصوت بحيث لا يسمعها أحد أبداً"، قال وقد كست

البسمة الغامضة وجهه مجدداً.

"الرصاص ليس غريباً على ألدرشوت"، أردف وقد صفرت البحة في صوته صفير الريح في الحشائش المحيطة بالمنزل.

عاد وابتسم ابتسامته الغامضة وهو يشير إليهم وإلى الباب المفضي للحديقة.

وغمغم:

"خير البر عاجله".

مضى خارجاً فتبعوه... أشار لهم بالوقوف، وتقدم نحو المخزن الثالث الملحق بالمطبخ والحمام في غربي الحديقة، فدخل ثم خرج بيده حامل مثبت ضخم للتصويب ارتسمت عليه لوحة ذات دوائر سُودٍ وبِيضٍ بدت محمرة تحت وهج الشفق الذي يدلقه الغروب الإنجليزي الطويل.

"لوحة التنشين"، قال وهو ينصبها.

"هكذا يمسك السلاح"، راح يقول وهو يقبض على يد الواحد منهم ويحكمها على جسم المسدس ثم يدفع السبابة لتضغط على نحو مهني على الزناد، ولم تمض لحظات إلا وانطلقت رصاصات صامتات تضرب الهدف الذي حددته الدوائر البِيض والسُّود في لوحة التصويب.

توقفت الطلقات المكتومات لتأدية صلاة العشاء، كانوا نشيطين ومتحفزين وشعروا بأنهم أقوياء.

بعد الصلاة التي أمهم فيها أبو هادية انطلقوا جميعهم إلى المطبخ

الخارجي فطَهَوا عشاءً من ذيول الثيران وأعناقها المذبوحة على الحلال، مع أطباق الأرز الباكستاني وحبات من التفاح والبرتقال. ثم رقدوا على الأرض فتوسدوا الوسائد بينما ظلت البطاطين الصوفية مطوية لم تمسها منهم يد، لأن حر الصيف الإنجليزي كان قائظاً أكثر من المعتاد. عن قصد اختير الوقت الذي يشبه في حره أرض العرب... غَفَوا فحلم سامي حمدان بحلم غريب، رأى نفسه في مخدع الملكة فكتوريا... كانت عارية... وكانت تنظر إليه باستهزاء... خطا صوبها فرأى وجهها قد اكتسى بقطع من الأرض من آسيا ومن إفريقيا، وفي لحظة رأى نفسه في المخدع ذاته معها، مد يده وأحس إحساساً كالزلزال... استيقظ مبتلاً فابتسم وأحس أنه وللحظة كان يعبث بشرف الإمبراطورية، نهض فقصد الحمام واغتسل ثم عاد فنام.

قبيل ساعة السحر هزته مع الآخرين يد أبو هادية القوية يتبعها الصوت المبحوح:

"من صلى ركعتين في جوف الليل فكأنما قد قام الليل بكامله".

نهضوا وتسابقوا إلى الباب الخلفي المفضي للحديقة، قصدوا الحمام فتوضؤوا ثم عادوا فصلى بهم أبو هادية بجزءٍ من القرآن.

"السلام عليكم ورحمة الله"، قال وهو يختم التشهد ويلتفت ذات اليمين ثم أعادها وهو يلتفت ذات الشمال خارجاً من الصلاة.

"والآن"، غمغم ناهضاً "إلى المسلخ".

ولبس حذاءه العسكري الأسود الثقيل من عند عتبة الباب الأمامي فلبسوا أحذيتهم وانطلق فانطلقوا من خلفه... أنعشتهم نسمة باردة

طرية هبت على الحشائش وخشخشت فيها، كانت السماء محتجبة وراء أدخنة من ضباب وقطع من سحاب، ما عمق من حلكة السحر وزاد في ظلمته... ساروا، لم يكن البيت قريباً جداً من السلخانة كما لاح لهم أول وهلة، خطوا فمشوا في الأرض الإنجليزية ذات البلل الدائم لتسع دقائق حتى بلغوا باباً معدنياً ضخماً على خاصرة السلخانة من الناحية الجنوبية... دفع أبو هادية الباب دفعة قوية فصفر وأزَّ ثم انفتح وهو يصدر صريراً شديداً... دخل فدخلوا من ورائه وانغلق الباب، وتحت الضوء القوي للمصابيح الهائلة المدلاة من السقف الحديد، رأوا ما لم يروا من قبل! مجارٍ من الأسمنت والخرسانة تجري بأنهار من دم يتفجر ويقبق حاراً من رقاب الضأن والأبقار والثيران ثم يسيل! كان رجال قساة ذوو بأس شديد يثبون وهم عراة الصدور بأيديهم سواطير وسكاكين كبيرة يذبحون ها هنا، يسلخون ها هناك وقد رش الدم على وجوههم وأيديهم وصدورهم وبطونهم وظهورهم وراح يقطر على سراويلهم وأحذيتهم السُّود ذات الرقاب العالية.

"هؤلاء هم المجاهدون، علموهم كيف يمسكون بالسكين! علموهم كيف يذبحون!".

وأمسكوا بالسكاكين وراحوا يعملونها في رقاب الحيوانات التي كانت تصرخ والذعر يملأ منها العيون، أنفقوا زهاء الساعة في ذلك التمرين... ثم أخذوهم إلى ما يشبه الصالة الكبيرة من الناحية الشمالية، نعم قد جاء دور الدجاج فرأوا وبضربة واحدة كيف يمكن

أن تطير الرؤوس. تلك أيام تعلم فيها سامي حمدان الكثير، وحينما عاد إلى بيت أهله الذي غاب عنه طويلاً هائماً في أنحاء لندن قال لأبيه وأمه:

"جئت أقول وداعاً، سأسافر إلى باكستان ومنها إلى أفغانستان"، وبغتة تحفز إذ رأى على طاولة الطعام شوكاً وسكاكين وملاعق... خطا نحوها بغضب... أخذها ورماها من النافذة وهو يصرخ:

"لماذا أعدتما عدة الكفرة الفجرة؟ نحن مسلمون ينبغي أن نأكل باليد، هذه أدوات أكل الشيطان! هل تفهمان؟ نحن لسنا مثلهم، نحن مسلمون". وخرج مغاضباً مثل عاصفة قد هبت، بينما راحت أمه تذرف الدموع وأبوه يسأل بصوت متقطع:

"لماذا يا ولدي؟ لقد عذبتنا يا سامي! ليتني لم أنجب قطُّ".

"سأقيم الدنيا ولا أقعدها يا أبي، لن أركن منزوياً غريباً أرضى مثلك بالفتات، لسوف ترى. لسوف ترى".

وخرج فمشى في البلاد بأنف يتبع رائحة الدماء؛ وكان يردد أيامئذٍ وهو يبكي إذْ يذكر دوروثي، يذكر لندن، يذكر عذاباً، يذكر غربة قد ظلت على الدوام: "كافراً تهت سنيناً وسنيناً، مستعيراً لي لسانَ قوم وعيوناً، باحثاً بين قصور الماء عن ساحرة الماء الغريبة، مذعناً للريح في تجويف جمجمة البحر الرهيبة، حالماً فيها بأرض جعلت للغرباء، ببنات البحر ضاجعن إله البحر في الرغو، إلى آخره مما يغني الشعراء". والآن، بعد كل تلك الأعوام، هنا في الفناء الذي حوله لساحة للإعدام، هو ذا يمسح بيده الدم المتخثر على شفرة سكينه

الحادة، دم الحراس الذين أفلتت من أيديهم كاجين، رفع السكين وشم رائحة الدم فأحسَّ بأنه لا يزال يحتفظ بقوته الخارقة وأن بطشه لشديد.. سار بخطوات سريعة.. وراح يبتعد محاولاً أن يتغلب على الحزن الذي جلبته له هذه الصفعة الرهيبة: فرار كاجين، بينما تفرق رجال السواد يبحثون عنها. لكن عادته عيون أخرى لوجوه أخرى، كذلك ملأت أنفه رائحة دماء أخرى، فتمنى لو أنَّه كان بوسعه أن يقتل كل خلية للذاكرة في دماغه المحموم، فيمحو تلك المناظر والروائح جميعاً. خطا مبتعداً.. سار يستعيد حلمه بسماء من لهب ونجم مثل جمر يتقد، راح يُعيد في ذهنه أوقاتاً عصيبة أفلح في اجتيازها، تذكر يوماً له في أفغانستان التي شب فيها عن الطوق، كان يخترق مسالك جبلية وعرة قاصداً برجاله نقطة للأمريكيين، كانوا يسيرون صامتين لا يتبادلون الكلام إلا نادراً، فكأنما هم نائمون أو منومون في عالم قفر لا ضوء فيه إلا ما يصدر من نجمات بعيدات أو يراعات تائهات. وكانت رئاتهم تضيق برائحة دم خانقة لم تزل في أكفهم وفي ثيابهم، فقد قتلوا بريطانيين اثنين في الطريق، أحدهما كان أخضر العينين، في أفغانستان كانوا يسمون سامي حمدان: صائد العيون الخضر؛ وهم الآن وحدهم، هو ورجاله، ولا أثر في بطن الجبل لإنسان، ليس سوى أكوام من الزنابق الدامية وبعض من حيوانات الجبل التائهة من أثر المعارك الدائرة. كان رجاله مرهقين غاية الإرهاق، ولم يكن ثمة مجال للرجوع؛ فالطريق مع سامي حمدان تمضي فقط للأمام، وقد كان يردد وهو يهتف في رجاله:

"لا بأس ما دُمنا نعرف أن ثمة عدواً سيوصلنا إليه المسير، لا بأس ما دامت الطريق ممهدة للأمام، سنذبح الأعداء، وما الشجاعة إلا صبر ساعة، وما اللقاء إلا صبر وثبات".

هاجموا النقطة على حين غرة، قتلوا من فيها من الجنود وكانوا ثلاثة، لكن بغتة حلَّقت من فوقهم مروحيات وراحت تمطرهم بوابل من الرصاص، اشتعل الهواء، تزلزلت الأرض زلزالها، كان عليهم الاختباء طوراً والمناورة تارة، كانوا يعدون وهم يلهثون، وفي العشي نجحوا أخيراً في الخروج من تلك الأرض المسحورة، ونزلوا إلى قرية نائمة عند أقدام الجبل. وحلت عليهم ليلة ثقيلة دامسة الظلام، غابت نجومها ولم يخفف من وحشتها سوى نسمات من الهواء المنعش، وأضناهم العَدْوُ الطويل الشاق، فرقدوا وناموا ملء جفونهم للمرة الأولى منذ أسبوعين، وعاده الحلم القديم، الحلم بمخدع الملكة فكتوريا التي طالع سيرتها في أكثر من كتاب، كان مولعاً بقراءة التاريخ، لكنه وفي حلمه أحس وللحظة بأنه في مخدع فكتوريا يعبث بشرف الإمبراطورية.

وفي الصباح نهض برجاله وسار يبحث عن الأعداء..

في أستيرا كانت كاجين تصرخ وتبكي، ذلك أنها لما التفتت كان صاحب الصوت واقفاً ينظر إليها بهدوء، هتفت:

"يا للمفاجأة! عم كامل!".

"نعم يا كاجين".

وأسرعت فرمت بنفسها على صدره وهي تغمغم:

"عم كامل...، عم كامل".

ثم سألته:

"أين أبي؟ أين أمي؟ أين"؟

بأصبع مترددة أشار عم كامل الفرَّاش إلى حطام المكتب وقال:

"ماتا ذلك الصباح".

بلسان فتي مقطع حزين، صرخت كاجين صرخات مفزعات.

وهمس عم كامل الفرَّاش:

"ذلك الصباح أخذكنَّ الرجلان وانحدرا بكنَّ، بينما أخذني الرجال الأربعة دليلاً لهم في الجبل، قلت لهم إن الطريق إلى القمم وعرة للغاية، فضربوني وأمروني بأن آخذهم للقرى الشاهقات، سرت بهم ولما حل الليل كنا قد بلغنا سكة العقبة التي يصير الشِّعب فيها إلى لسان رهيف طويل من تحته هاوية الجبل... كنت أسير على قدمي بينما لزموا هم ظهور البغال، الحق، لم أقل لهم عن اللسان وعن الهاوية، كنت أفكر فيكنَّ وفي المدرسين الذين سقط عليهم سقف المكتب... سرت أمامهم في صمت الليل الذي عمقه صمت الجبل، ولم أكد أتوسط لسان العقبة حتى سمعت البغال تشحج،

البغال أدركت بغريزتها شر الخطر، لكنهم لجهلهم بالمكان، حثوها بالضرب فمضت فهويت بهم إلى هاوية العقبة المعلقة كاللسان في جوف الجبل، عدت أدراجي إلى استيرا فوجدت أن الجميع قد هربوا، لم يكن جنس إنسان! قلت في نفسي: حسن أنهم هربوا، وتمنيت ألا يكونوا قد نزلوا إلى السفح وإنما صعدوا القمم".

وتنهد ثم شهق شهقة طويلة قوية فكأنه قد جذب بها كل ما في الفراغ من هواء، حبس أنفاسه زمناً ثم زفر ثم قال:

"جبت البيوت الستة عشر، ثم عدت إلى المدرسة فحفرت السقف الهاوي على المكتب وأخرجت أباك وأمك وبقية المدرسين ودفنتهم في الفناء"، وأشار إلى أكوام من تراب نهضت في البعيد.

بينما عادت كاجين إلى البكاء وهي تردد:

"أبي، أمي".

حضنها عم كامل الفرَّاش وراح يجفف دموعها بكم جلبابه الأبيض وهي تسرف في البكاء، وبين الفينة والفينة تقسم:

"سأنتقم لأبي، سأنتقم لأمي، سأنتقم لجيهان، سأنتقم لماونت، سأنتقم للجميع".

"كاجين! بنتي! أفهم انفعالك وحزنك، وحق لك، ولكنك ستقتلين نفسك إذا واصلت هكذا".

وضمها بقوة:

"ستغتسلين وتتناولين شيئاً يقيم صلبك".

ودخلت حمام المدرسة تغتسل بينما في الموصل، بعد نوبات الغضب

المفزعة وضربات السكين القاتلة التي قطعت رؤوس الحراس وبترت أصابع عزيزة ولسانها ثم قطعت عنقها، منهكاً أوى معاون الحديقة سامي حمدان إلى حجرته فغرق في فراغ كالتيه، أحس بالألم، ألم السنين الطوال، تذكر دوروثي، مارتن الذي قطع رأسه، تذكر لندن وأيامه في أفغانستان، تذكر الصحراء تذكر بادية الشام.

ساعة ثم كف عن البكاء.

في استيرا، عادت كاجين من المدرسة إلى بيتها برغم إلحاح عم كامل الفرَّاش وترجيه لها بالبقاء.

"لن أجد الراحة إلا في بيت أبي وأمي يا عم كامل".

"حسناً يا بنتي، سآتيك هناك لاحقاً بالعشاء".

"لقد امتلأت مما أكلت الآن".

"لابد أن تتناولي في اليوم وجباتٍ ثلاثاً، انظري إلى نفسك! لقد زدت نحولاً على نحول! ووجهك يضج بالإعياء".

وعادت إلى البيت، وقفت عند بابه طويلاً، ثم تنهدت وقالت بصوت عالٍ:

"آه يا بيت أبي".

دفعت الباب برفق ودخلت، راحت تنفض عن جنبات البيت ما تراكم من غبار.

في الليل جاءها عم كامل الفرَّاش بوجبة العشاء، لحم طير مشوي مع الحساء.

جلسا على الطاولة فأخذا يصيبان من الطعام على ضوء المشاعل

وهما يتحدثان:

"لن أدعك تقضين الليل هنا وحدك".

"ما الذي سيحدث لي هنا؟ لا شيء يا عم كامل، لا شيء".

"سأقضي الليل على أريكة حجرة المعيشة، وفي الصباح أذهب للمدرسة، لا مشكلة في ذلك".

"لا داعي يا عم كامل، لا تتعب نفسك".

"لا. سأبقى معك".

أذعنت.

وبعد حديث ساعة، نهضت فدخلت حجرتها، جلست على سريرها وراحت تفكر في أمها وأبيها.

"لقد ماتا، لا؟ لقد قتلا".. راحت تردد بصوت عالٍ ثم أجهشت بالبكاء.

في الثلث الأخير من الليل أغمضت عينيها وهي تردد:

"قتلهما رجال السواد مثلما قتلوا جيهان من قبل، الموت لرجال السواد".

في الليلة نفسها كان رجال السواد في الطريق إلى بغداد، أرتال الدبابات والمدرعات الخفيفة والراجمات واللاندكروزرات الحاملة للمدافع وآلاف المشاة انطلقت من الأنبار، من تكريت، من الدور، من الرمادي، من صلاح الدين تخفق من فوقها الرايات السُّود. وفي صبيحة الغد، استيقظت الدنيا لتجد أن معاون الخليفة قد بات على بعد وثبة من بغداد... كتيبة الميديا نقلت للشاشات حقيقة

القوة الجبارة لداعش على الأرض، رأى العالم رجلاً يطوف بالقوات في همة وفي نشاط يلهب في الجميع روح الحماسة والإقبال على الموت... يقف مع أركان حربه في الميدان يفحص الخرائط ومجموعة من المخططات والرسوم المتصلة بعملية الحصار الكبرى التي ستمكنه من إسقاط بغداد، معهم يحدد كيف ستصنع كراديسه الكماشة القاتلة التي ستشد هامة المدينة العظيمة لتنحني من أجل دخوله، دخول الفاتح المظفر، ولئن كانت الموصل سانتا كلارا التي سقطت، فبغداد هي هافانا التي ستسقط.

وإنه ليصيح في الرجال:

"سنأخذ بغداد، سنأخذ بغداد، فقط تذكروا: الحرب صبر واللقاء ثبات".

ويعيد فيزيد:

"أنتم أيها المؤمنون بالتنظيم، بداعش، بدولة الإسلام، فرقتكم هي الفرقة الناجية، باسم الخليفة الأوحد لعموم المسلمين المهتدين أقول لكم إن ساعة القرار والامتحان قد أزفت، بسلاحكم الذي بأيديكم ستثبتون إيمانكم وتقيمون عقيدتكم، والحب الذي تكنونه للموت إن هو إلا آية نصركم، إني باسم الخليفة لآمركم بألا يترك أحد منكم سلاحه في الليل ولا في النهار، وعندما تنطلق صيحة الله أكبر، انطلقوا لجنة خالدة، لتأخذكم الحور العين من هذه الدنيا الفانية، تأكدوا بأننا سنأخذ بغداد. سنأخذها. سنأخذها. سنأخذها".

ثم صاح:

"يا من أنتم جاهزون للتضحية بالنفس باركّكم الله، قاتلوا كالأسود، واعلموا أن الحذر لا ينجي من القدر، إلى بغداد، إلى بغداد".

وفي الأثناء، كانت كاجين في بيت أبيها وأمها تعمل بجد ومثابرة في تنظيف الحديقة، تقطع العشب والحشائش الجبلية القاسية الطويلة، تنظف أحواض الأشجار التي لم تمت جذورها وجذوعها من أوراقها المصفرة.

"ارتفعت الشمس يا كاجين!".

"أهلاً يا عم كامل، لقد غادرت البيت باكراً"، قالت وهي ترفع وجهها وتمسح عن بشرتها تراباً حوله العرق إلى طين.

"منذ يفاعتي أستيقظ قبل شروق الشمس، ذلك الوقت هو أجمل أوقات اليوم يا بنتي".

ثم أردف وهو بعد واقف وممسك بآنية فيها طعام:

"كفى عملاً هذا النهار، لقد طبخت الغداء في المدرسة".

نظرت كاجين إلى أنحاء الحديقة وقالت وهي تدنو من عم كامل الفرَّاش:

"المشكلة يا عم كامل هي أنني لا أدري من أين آتي ببديل للزهور والورود التي صوَّحت وماتت!".

"بسيطة يا بنتي، لدي بعض البذور الجيدة في مخزن المدرسة، سأعطيك منها. الآن هيا إلى الغداء".

خرجت من الحديقة وسارت تدخل البيت يتبعها عم كامل الفرَّاش بيده آنية الطعام.

جلسا إلى الطاولة وراحا يصيبان من طعامهما وهما يتحدثان:

"أمس لم أنم جيداً".

"أفهم يا بنتي، مصابك كبير".

"قتلوا أعز من أحب، أمي وأبي، وجيهان أيضاً، وماونت"، قالت وتوقفت عن مضغ اللقمة التي كانت بفمها، ثم شخصت بعين عبرى ودمعت عيناها الخضراوان دمعاً أخضر ملحه الحزن والفقدان، هذا، بينما كان معاون الخليفة سامي حمدان قد عاد من تفقد الجند وأوى إلى خيمة عسكرية نصبها وسط قواته، جلس وهو يفكر فيها؛ اضطربت عيناه هنيهة فنفض رأسه ثم عاد يفكر في بغداد، مدينة التاريخ التي سيدخلها فاتحاً، سيسجل اسمه في تاريخ الغزاة، الغزاة الذين ينتصرون على الدوام؛ وتبدت بغداد فكرة حمراء في خيال أحمر؛ نعم سوف يحاصرها، ورحلته إلى شرق سوريا كانت ناجحة، مكث هناك ستة أيام لم ينم خلالها سوى ساعات معدودات، ستة أيام رتب فيها أمور المحافظة على الرقة ودير الزور والحسكة والمناطق المتناثرة التي تقع تحت سيطرته في شرق سوريا وفي جيوب منتشرات في الأصقاع، ستة أيام عزز فيها التحصينات وأمر بعمليات هجومية على مناوئيه، فخير وسيلة للدفاع هي الهجوم، غير أن أهم ما فعله في تلك الأيام الستة هو أنه رتب عملية نقل المجندين الجدد، القادمين من أوروبا من أستراليا من الولايات المتحدة والذين قد تلقوا تدريباً جيداً، إلى العراق، ومعه مدد الأسلحة والدبابات كان مشغولاً بقواته وبمجده العسكري، غير أنه كان بين الفينة

والفينة يعيد في نفسه منظر العينين الخضراوين في وجه كاجين، يعيد اللحظات التي جلس يحدثها وجهاً قبالة وجه، يعيد لحظة الوداع وقبلته إذ ضمها إليه عزاءً لألم السنين، لكنها قد هربت! إنها لا تريده! لوهلة أحس بروحه قد غاضت ينابيعها وجفت فأصبحت قاحلة جرداء، أحس بالطائر الشرس يفرد جناحيه ويضرب في كبده ويطعن بمنقاره. كل شيء سينتهي بعد فترة وجيزة، لا شيء يدوم، الجنون هو ما يترك آثاراً أطول في البقاء، كاجين لم تدم، بل لم تكن له، كاجين، كاجين التي أرادها لجانبه يوم دخول بغداد؟ لقد هربت منه بعد أن أوهمته بأنها قد ركنت إليه، على هذا النحو كان يفكر.

ثم شهق شهقة شدت إلى صدره كل ما في الحجرة من هواء حار.

لم يزفر فانحبس الهواء.

ثم بغتة وبزفرة واحدة قوية لها صوت كصوت الزوبعة أخرج من صدره محبوس الهواء وراح يردد بصوت مسموع:

"لن تهربي للأبد، سيلقى القبض عليك ولسوف ترين، لسوف ترين".

مع تقدم النهار كانت عواصم الغرب تشهد بواكير الصباح، صباح رفدته الصفحات الأولى من الصحف بالعناوين الكبيرة، العناوين الرئيسة المفزعة: داعش يحاصر بغداد، وفي حجرات المعيشة كانت الشاشات تنقل الصور المخيفة للقوات الرابضة، الصور التي رعتها كتيبة الميديا بقيادة أسامة.

قلق انتاب الدنيا على نحو لم يحسب له سامي حمدان حساباً.

ردة الفعل هذه المرة جاءت قوية.

لن يسمح العالم بسقوط بغداد.

سامي حمدان كان يعتقد أن العالم ستشله الصدمة فيقف ويتفرج عليه مثلما كان الحال في شأن الموصل؛ غير أن اجتماعات أمنية عاجلة وعلى أعلى المستويات راحت تنتظم العواصم من واشنطن إلى لندن، ومن لندن إلى القاهرة إلى الرياض، اجتماعات أسفرت وعلى وجه السرعة عن قرار بصد داعش، بوقف حشوده المتقدمة، وفي ساعات كانت قوة للتحالف تتشكل وحاملات طائرات تمخر العباب، سيتم توجيه غارات كثيفة تنفذها الطائرات.

معاون الخليفة سامي حمدان أيضاً انخرط في سلسلة من الاجتماعات، رتب فيها تسلل مجموعة انتحارية إلى بغداد، كان يعمل بطاقة عشرة رجال، مرة أخرى تفقد القوات:

"سنحكم الحصار، وليست إلا أياماً ونكون في قلب بغداد، العالم رخو أكثر مما تتصورون، سيتحدثون ويتحدثون، الأحاديث لا تخيف فليتحدثوا لأبد الآبدين"، راح يقول بوجه صارم القسمات، ولكن وجهه تبدَّل تماماً مع حلول الليل، لقد رصد في السماء طلعات استطلاع للأعداء! أمر بطاريات الصواريخ والمدفعية باقتناصها، بإسقاطها، لكن السماء احتشدت بأسراب من بعدها أسراب، في لحظات تحول من موقع المهاجم لموقع المدافع، لكن نيران العدو كانت كثيفة وكانت دقيقة، بدا واضحاً أنه لا قِبَلَ له بهذه القوة المنقضة مثل آلاف النسور النارية الهاوية. وبعد ساعات انسحبت

من الجو طائرات التحالف، كانت ألسنة من دخان تتصاعد وكانت أنات تعلو من بعدها أنات.

وكانت خسائر فادحة في الأرواح وفي العتاد.

ثم ساد الهدوء.

ومضى الوقت.

شعر وكأن تلك الساعات القلائل قد استنزفت بحر طاقته.

المباغتة المتحدية التي لم يحسب حسابها أشعرته بالدوار، ولسبب ما أحس بأنه ينفصل عما حوله، ينطوي في نفسه، يفقد شيئاً من كيانه، يعود صبياً ضعيفاً، ها هو الآن قد غارت عيناه، وقسماته قد أخذت تعبيراً كئيباً صارماً؛ وبدا ساهماً كأنه يسترسل في تأمل وجه لا نراه، بينما هو يتمتم: "كافراً تهت سنيناً وسنيناً، مستعيراً لي لسانَ قوم وعيوناً، باحثاً بين قصور الماء عن ساحرة الماء الغريبة، مذعناً للريح في تجويف جمجمة البحر الرهيبة، حالماً فيها بأرض جعلت للغرباء، ببنات البحر ضاجعن إله البحر في الرغو، إلى آخره مما يغني الشعراء"، ثم جلس مكوراً منطوياً وحيداً قرب السراج المرتعد داخل الخيمة العسكرية، تذكر أياماً حزينات في لندن، تذكر دوروثي ومارتن، تذكر أمه وتذكر أباه، ثم امتلأ بكاجين فبكى وأسرف حتى آلمه البكاء... كان منخاراه يهتزان ويسيلان، وضَجَرُ اليائس الغاضب جعل عينيه الكبيرتين تقدحان شرراً متوهجاً. ساقاه النحيلتان الطويلتان التصقتا في همود كأنْ ما قهرتا الوديان والجبال والرمال والثلوج، كأنه ليس مَنْ ظل يجوس ويصول مثل الأسد آن

يحشد المؤيدين، كأنه ليس مَنْ أدخل مواقع التواصل الاجتماعي إلى ساحة الحرب، هو مَنْ جاء بفكرة التجنيد عبر مواقع التواصل، بدءاً بحلقات ضيقة استهدفت المهمشين في مدن العالم، أولئك الذين كان يعرف أن في أعماقهم ليوثاً جائعة جريحة، عرف كيف يمد لها اللحم والحلم، لتنطلق ضارية الناب تعض كل من يلوح في السبيل... جاؤوا من لندن وليستر وبيرمينغهام، من ضواحي باريس وليون ومرسيليا، من أستراليا ومن أمريكا، جاؤوا بالآلاف من كل صوب وحدب.

وهو يهتف في الفوج بعد الفوج:

"كل مؤمن بنا له الخلاص في الدنيا وفي الآخرة، وكل مؤمن بنا هو مجاهد قوي أصلب من الصخر والفولاذ، وكل مؤمن بنا هو أكبر متحمس بين المجاهدين، معاً سنأخذ الدنيا، سنصنع دولة الإسلام".

كان يصرخ وهو يخطب حتى يتجمع الرغو والزبد على زاويتي فمه وتلمع عيناه بضوء كالشرر من فرط الإيمان ومن شدة الحماسة... أشعل فتناً وناراً في جميع التنظيمات المناوئة، وقاتل الذين كان يقاتل في صفوفهم بالأمس القريب، ثم وضع القوات النظامية في سوريا والعراق على المحك، كان يحسب لكل شيء حساباً، غير أنه اللحظة يبدو مشوشاً ضعيفاً متألماً من تجدد هزيمة غورت من جرح روحه الذي لا يندمل: عينان خضراوان صرعتاه يافعاً والآن تعودان فتفعلان به الشيء نفسه، ومتى! عندما يثب وثبته الكبرى لاحتلال بغداد! لوهلة غاب عن ساحة المعركة فأحس بيأس وقنوط ملكا أقطار نفسه

وهو يتذكر العيون الخضراء التي مرت به في حياته.

العيون التي رفضته.

رفضته مراراً وتكراراً لأنه لم يرق لها ألبتة.

تذكر دوروثي والدم الذي سال فاختلط بالكلور في حوض السباحة؛ تذكر وقوعها من الدراجة في سانت دستان هيلز في ناحية بيتها في ستون، وإنه ليرتعد الآن ويرتجف مثلما يرتعد ويرتجف رجل جبان. أحس بخوف غامض ينبع من روحه ويستقر في كبده! لم تخفه كثرة الأعداء، ولم يستسلم ليأس سهر، فما له الآن؟ وبقي وحده ينادم سهر الليل الذي آلف منذ زمن بعيد.

في كبده ضرب الطائر بجناحيه ونقر بمنقاره، تحرك، نهض.

ذرع الخيمة حاسر الرأس في سروال وقميص أسودين، كان وجهه متغضناً بالقسوة، وكانت عيناه محمرتين تحيط بهما هالتان كبيرتان سوداوان من قلة النوم ومن طول هذا السهر. لحية كثيفة سوداء مدلاة حتى الصدر، وشارب متهدل مهمل غطى زاويتي فمه. ثم خرج وهو في حاله ذاك فمشى واجتاز الخيمة إلى خيمة اللاسلكي والاتصالات، هنالك سأل رجاله المنهمكين في التقاط رسائل بالراديو من ها هنا ومن ها هناك، كان صوت الموجات يبعث على التحفز مع انطلاق الشارات الضوئية الخضْر والحمْر في الشاشات الصغيرة لأجهزة الاتصال.

"هل من خبر من قضاء سنجار"؟

"ليس بعد"، أجاب قائد الاتصالات.

شهق ثم زفر ثم زمجر كالشيمة:

"لقد قتلتني بفرارها تلك الفاجرة، أحرقتني أكثر مما قد فعلت تلك الطائرات".

انحدر الصمت مثل بحر موجه كله تحفُّز، كله توتُّر.

"هربت! لقد هربت مجدداً"! قال مردفاً يهز بحر الصمت.

ثم قال بصوت كالصريخ وهو يرفع يديه وينفضهما فيبدو الساعدان نافري الأوردة على نحو مريع:

"معاذ، أعد للرجال في سنجار أوامري: أعيدوها، أخرجوها وإن كانت في طقاطيق الأرض تلك السبية الكافرة الفاجرة".

"حاضر"، قال معاذ قائد الاتصالات، وصفرت أجهزة الراديو بكلماته إلى سنجار ثم عادت فانطلقت تبعث بالرسائل الخطيرة أو تتلقاها من كراديس الدبابات والمدرعات والراجمات، من بطاريات الصواريخ والمدفعية والمشاة، لكنها لم تكف عن إعادة أوامر معاون الخليفة: "أعيدوها، تلك السبية، أخرجوها وإن كانت في طقاطيق الأرض".

بالفعل، وفي الوقت ذاته، في الموصل وفي قضاء سنجار كان رجاله لا يزالون منتشرين لمسح أثر الضربة، الضربة الشخصية التي ليس لها علاقة بفداحة ما يجري في الميدان؛ والحقيقة أنها لم تكن ضربة عادية؛ فلقد تألب على تسديدها له الماضي والحاضر الراهن الذي تجمد، فلم يكن إلا ذكرى غامضة اسمها كاجين. عمَّار وأبو نورة كانا قد وضعا اليد مجدداً على عم حمدين ساعي البريد، كان الوقت

ليلاً حين دهما مع مجموعة من الجند بيته... دفعا الباب وأخذاه، كان يعيش وحيداً في بيت صغير قريباً من سوق قضاء سنجار.

"هيا ستصعد بنا الجبل. سترشدنا إلى قرية استيرا".

"ماذا في قرية استيرا"؟

"لا تسأل. قم ونفذ ما نقوله لك من أوامر".

وفي الليل كانت البغال تصعد مجدداً صخر الجبل.

وبعد ثلاثة أيام،

ساعة السحر وقبيل الفجر،

حلقت طائرات شرسة لا حصر لها ولا عدّ، حلقت على حين غرة فأخذت كراديس معاون الخليفة وهي تقذف بحمم من نار.

وتحولت سماء الليل إلى بحر أحمر شواظ ومن حمم.

كان هدير الطائرات ودوي الانفجارات رهيباً.

وسامي حمدان بدا مأخوذاً كما لم يؤخذ من قبل.

لكنه استعاد رباطة جأشه واندفع في أتون المعركة.

وتوالت الطائرات سرباً من بعد سرب، بدت مثل مئات من نسور مشتعلة تنقض في هجمات متلاحقات بينما تلمع أجنحتها بضراوة منقطعة النظير.

في الأرض دبت الفوضى وتلاحقت الخسائر على نحو مطرد، خسائر في الأرواح وفي العتاد، وعلى نحو منقطع النظير؛ ووسط أزيز الطائرات وهدير المدفعية الأرضية وانطلاق الصواريخ كان سامي

حمدان يجول في الميدان، بنفسه كان يشارك في إطلاق القذائف والصواريخ صوب الطائرات المهاجمة، غير أن تلك الطائرات كانت أكثر براعة في المناورة وأشد إطلاقاً لقذائف النار.

راح غير عابئ بالخطر يطوف بالرجال وهو يهتف:

"الشجاعة صبر ساعة، لا تهنوا، واذكروا أن الحرب صبرٌ واللقاء ثبات".

لكن الهجوم كان شرساً جداً، شرساً على نحو لا يصدق، كانت النيران تتقاطر مثل طلع الشياطين، رجاله يلوذون بالفرار وهو ينظر إليهم لا يكاد يصدق، لم يتوصل إلى تفسير لحلمه عن سماء صفحتها لهب ونجومها جمر متقد حتى هذا السحر الذي طلعت فيه طائرات التحالف في غارتها الثانية وقصفت كراديسه على مشارف بغداد.

ولقد صاح عندما رأى الطائرات:

"بئس الأمر، السماء صارت إلى نار من كل الجهات!".

لكن، وفي لحظات، تفجرت الدبابات والمدرعات، سكتت الراجمات واحترقت بطاريات الصواريخ، والقصف لا يهن، بل يزداد ضراوة وعنفاً، تحت هول المنظر وقف مشدوهاً، ساعداه مرفوعان في الهواء وعيناه جامدتان، يصغي لصوت القصف والأزيز فكأنما يصغي لصوت تاريخ قديم بعيد تضرب فيه أبواق وطبول وصنوج تنادي بالانسحاب لجند خليفة قد هزم، اختفت الطائرات هنيهة ثم عادت، بدا أن الحلفاء المصممين قادمون مرة أخرى لكي يعلنوا أن الدنيا بأسرها تقف الآن ضده وهي تشهر السلاح، السلاح ليس لعبة

تخصه وحده الآن، كذلك الرعب، الرعب الذي يسببه الفولاذ المحلق في السماوات، كل شيء قد تغير منذ هذا السحر المبشر بتاريخ جديد... خطا غارقاً في تأمل الحطام ثابت النظر في خسائره بينما الذعر يضرب تحت نار القصف الذي بدا لا هوادة فيه ولا رحمة، رجاله يسقطون أو يتشتتون، ولاح أن بوادر الهزيمة قد أطلت، تمثلت أمامه هازئة فأمسك بطرف سكينه وصرخ في نفسه يحرضها تحريضاً:

"إن كانت الطبيعة سوية فيك فانتفض"،

لكن الضربة المباغتة كانت عميقة الأثر، فالأرض التي حلم بأنها ستكون هيكل نصره البهي لا تبدو لعينيه الآن إلا كقفر مجدب عقيم، والهواء، هذا الجحيم المتقد، معقود من حوله ومن فوقه مثل سقف مرصع بألسنة النيران والحرائق، والفجر الصاعد لا يبدو لعينيه إلا كحشد من أبخرة كريهة تنبعث منها الأوبئة القاتلة.

وسأل نفسه بنبرة مرة:

"كيف أخطأت الحساب"؟

ثم عاد فسأل:

"أين العقل اليقظ النبيه"؟

وملأه يأس وعمره قنوط.

وما الذي يترتب على هذا اليأس وهذا القنوط سوى الإحساس بعبث أي فعل مهما تكن غايته، فلا عمامته الحالكة، لا الرايات ولا الغريب من ثياب السواد المر، السواد القاسي، السواد الحزين الآن، ولا التنهدات العاصفة كافية للدلالة على ما يعتمل في عقله ونفسه

لأن ما فيهما يعجز عنه كل حرف؛ ومن لامكان جاءته عينان خضراوان تنتقمان فحدَّق فيهما حتى اغرورقت عيناه الواسعتان بالدموع، شيء ما حدث في داخله، شيء غامض وحاسم اقتلعه من وجوده الحاضر وفصله عن أرجاء مجهولة في ذاكرته، تذكر رأس مارتن، تذكر الدماء الشاخبة، تذكر الشخير، تذكر حوض السباحة، تذكر مدرسة الغرامر سكول في ستون، تذكر دوروثي ورفضها المرير، بدا له للوهلة الأولى أن ولادة الدنيا تتم من جديد...

ثم إنه وفي وسط الدمار انتصب واقفاً وهو مغمض العينين، سالت الدموع مالحة غنية بالألم، فمسحها بكم جلبابه الأسود ونفث تنهيدة عذاب عميقة، فقد أدرك وهو يسير لساعات بين الحطام أن خطته كانت أشبه بالجنون، برهة وتذكر شي جيفارا! ذلك الذي أفلح في إسقاط سانتا كلارا فسقطت هافانا، وسأل نفسه إذا كانت الموصل هي سانتا كلارا فلِمَ لم تكن بغداد هافانا؟ لمَ لا تسقط؟

وهام على وجهه وقتاً بين الرماد الموحل، بين الحطام وجثث رجاله المصروعة، كانت أجسادهم المحترقة المنفوخة وعيونهم المفتوحة مثل عيني حوت ميت تثير في نفسه خزياً كتيماً أكثر مما تثير فيه الشفقة والحزن، لم تعد المجازفة مجدية ولم تعد الحرب الآن طريقاً إلى المجد، بدا أن كل تلك الانتصارات السريعة الخاطفة لم تكن سوى بروق خلب لمعت حيناً في صحراء ظامئة تبشر بمطر لن يهطل أبداً. وهكذا، تحت هذا القصف الرهيب، ذوت خطة حصار بغداد ورآها تتحول إلى ما يشبه الوهم الذي لم يستحق كل تلك التضحيات والأخطار

التي تكبدها في مغامراته المجازفة وكأنما هو شيء لا يقهر، آرنولد توينبي قال إن الجنس البشري بغل لا يقهر! لكن ما الذي جرى؟

لبرهة تذكر الحلم الذي تكرر عليه في الأيام القليلة الماضية... استمر القتال، وتحت الوهج الأحمر للنيران والحرائق، راحت تتراجع حلكة السحر، ثم مع انقشاع الفجر توقف القصف فوقف صامتاً ومنكفئاً على ذاته؛ بينما في الساعة ذاتها التي تولد فيها الدنيا مجدداً في الجبل، وقف ساعي البريد حمدين أمام باب بيت كاجين في استيرا... انفتح الباب في قوة وسرعة، في ثوانٍ كان عم كامل الفرَّاش يرسف في السلاسل وفي الأغلال؛ كاجين التي نامت منذ قليل بعد ليلة ملأها الأرق، لم تشعر بالحركة.

والآن في حجرتها يخطو أبو نورة.

بغتةً رفع عنها الغطاء الخفيف ورمى عليها بشاله العريض كما ترمى الشبكة على السمكة، استيقظت، كتمت أنفاسها، لكنها شعرت بالشال يحكم على جسدها، صرخت، أحست برعشة تخترق جسدها كما لو أن ملك الموت كان يقترب منها؛ انتبهت لأبو نورة، كان يحملها بين ذراعيه، يجس الجدار بإحدى يديه متقدماً بحذر، ثم وقعت يداه على شيء ما، فرفعه بعنف وجلجل صوت ضجيج مدوٍّ لسقوط طاولة الطعام، فأطلقت صرخة وحاولت الإفلات من قبضة المجهول الذي اكتفى بتعنيفها:

"أين المفر؟ اسكتي يا كافرة".

سمعت وقع أقدام تقترب.

"خذها يا عمَّار".

واقتربت الأقدام.

أبو نورة الذي كان يحملها سلمها لعمَّار.

داخل الشال العريض الذي أحكم عليها فغطى وجهها وكامل جسدها، شعرت بأيادٍ أخرى تمسك بها، كانت اليدان اللتان تلقتاها غارقتين في كُمَّي جلباب أسود سميك، كانتا مغطاتين تماماً وقويتين كقائمتي بغل، ولابد لعمَّار الذي كان يحملها من أنه كان واسع الصدر، تأكَّد لها ذلك عندما رفعها نحوه، تذكرت أنه عملاق حقيقي لا ريب، تذكرته في الرحلة الأولى التي انتحرت فيها كاجين.

نعم عمَّار هو الذي اغتصب جيهان وفعل بها الأفاعيل.

كاجين الآن محمولة بين ذراعيه، وقد استسلمت لقدرها، لا حول لها ولا قوة إزاء ما ينتظرها منذ الآن فصاعداً... حملها عمَّار وراح يركض في أنحاء البيت المظلم في جلبة وبشكل مزعج... وأخذت الأرض تصرُّ تحت أقدام أبو نورة وعمَّار كما لو أنها لم تكن من صخر الجبل، كأنها كانت مغطاة بألواح من خشب قديم.

في الخارج وتحت ضوء النجوم عصبا عينيها، قيداها بالأصفاد وأحكما على عنقها السلاسل.

وفي جنح الظلام انحدروا جميعهم تحت ضوء النجوم وفي صمت الجبل في الرحلة إلى سفح الجبل.

عند الفجر وقفت البغال وترجل أبو نورة وعمَّار فتيمما، صلى عمَّار الرقيبة مع الفجر، ووقف أبو نورة يحرس كاجين وعم كامل الفرَّاش

المصفدين في الأغلال بينما حمدين ساعي البريد يطأطئ بادي الهم... ولما فرغ عمَّار قام بالحراسة بينما دخل أبو نورة في الصلاة.

في غلالة الفجر المنسوجة من لون صخر الجبل الضارب إلى السواد والحمرة والبنفسج تابعوا الانحدار.

ثم طلع الصباح.

ومع طلوع الشمس على مشارف بغداد، عادت طائرات الغارة التي نفذها التحالف إلى قواعدها سالمة من دون خسائر؛ وفي الوقت الذي فشلت فيه قوات المعاون في إصابة أي طائرة، كانت خسائره على الأرض فادحة على نحو استثنائي.

وهو الآن في خيمته العسكرية مجتمعاً مع أركان حربه.

"سنفتح وعلى وجه السرعة جبهة ثانية لشغل الأعداء من الكفرة الفجرة"، قال بنبرة حازمة وهو يشير بعصاً صغيرة على خريطة بسطت أمامه.

"سنحاصر كوباني"، أردف ثم قال ببطء: "تركيا لن تسمح بعبور مدد لها لأن ذلك قد يعرض مدنها لأعمال من قبلنا، ولأنها لا تريد للأكراد أن يأخذوا بزمام الأمور ولو ساءت".

ساد صمت.

"حياد تركيا سيساعد على تشديد قبضتنا هناك"،

ودخل حينئذٍ معاذ قائد الاتصالات وقال في عجل:

"قواتنا في شرق سوريا تواجه طلعات صباحية من طائرات العدو".

في تلك اللحظة أحس سامي حمدان وللوهلة الأولى أن ثمة مقاومة

حقيقية لا تعترض الآن تقدمه فحسب، وإنما تهاجم قواعد قديمة راسخة وأساسية أصبحت بحكم وضع اليد ملكاً له.

تنهد ثم زفر ثم قال:

"علينا أن نحسب أيضاً حساباً بأن ينشط المنشقون في النصرة وأحرار الشام في توجيه ضربات لنا مستفيدين من هذه المظلة الجوية العنيفة".

وخرج معاذ ثم عاد يحمل رسالة جديدة سلمها وهو يقول:

"مولاي المعاون، قوات البشمركة الكردية تنضم لصفوف الأعداء الكفرة الفجرة".

لقد أخطأ أيضاً الحساب!

وقد كان يوماً صعباً، لكن الغد كان أكثر صعوبة، فقد نفذت طائرات التحالف غارات منظمة على بقايا دباباته ومدرعاته ومخازن الذخيرة والعتاد، لكن كانت هناك أخبار في مصلحته، فجبهة كوباني بدت تقوى شيئاً فشيئاً، كراديسه تحاصرها من ثلاث جهات: الشرقية والغربية والجنوبية... وبقي وحيداً فراح يتأمل صدوعاً على الجدار المقابل وعلى وجهه تعابير الحزن، بغتةً عاده وجه مارتن وعاده رأسه المقطوع فصاح:

"إلى الجحيم يا مارتن، وتأكد أنك إذا بعثت من بين الأموات وعدت للحياة ألف مرة أخرى فإني مرة أخرى سأقتلك ألف قتلة من جديد".

ورفع يديه ونفضهما فانحسر كُمَّا الجلباب عن ساعديه قد نفرت منهما العروق، ارتعش فكه الأسفل، أغمض عينيه فاضطربت

الرموش في أجفانه، وفي ظلمة عينيه رش دم مارتن مثل ألف نافورة ونافورة، نفض رأسه كما ينفض الصقر رأسه من بلل الماء، لكن سيطر عليه رأس مارتن المقطوع، جثم مُلحَّاً وراح يرمقه بعينين ساخرتين هازئتين، فأحس بأنه يتألم كثيراً، أحس بأنه يعاني وحشة الموت.

شمس اليوم التالي التي أرسلت بخيوطها على الحافات الصخرية، قد أضاءت الآن الذرى المكسوة بصمت الدهور في قمم سنجار، بفضة باردة من شهر سبتمبر. الآن، تشهد مجدداً شعاب التاريخ المتعرجة المنحوتة من أول الزمن في صخر البداءة، تشهد بريقاً غريباً هو مزيج من لمعة القرون وظل الحقب.

تلكم الشعاب تتوغل اللحظة هبوطاً صوب السفح، وهي تطبق بقسوة على قافلة صغيرة جعلت تغذُّ السير منذ أكثر من يوم، كانت قافلة من بغال منهكة لم تزد على خمسة، قادتها كانا عمَّار وأبو نورة ودليلهما حمدين ساعي البريد، بغلا عمَّار وأبو نورة كانا مسرجين.. أبو نورة في المقدمة وعمَّار في المؤخرة بيد كل منهم بندقية كلاشينكوف معمرة مع أحزمة سُود ربطت الجلابيب السُّود بخزن إضافية ممتلئة.. وعلى بغل غير مسرج كانت كاجين معصوبة العينين مصفدةً، شأن عم كامل الفرَّاش، راسفة في الأصفاد وفي الأغلال، كذلك كان فخذاها يتسلخان من طول ما ركبت على ظهور البغال غير المسرجة، في الرحلة التي عادت فيها إلى استيرا قبل أيام، وفي رحلة اليوم.

لم تكن لترى شيئاً من خلف العصابة السوداء.

كان أبو نورة يلوح ببندقيته الكلاشينكوف وهو يصيح:

"الله أكبر... الله أكبر قبضنا على الهاربة الكافرة الفاجرة، أنجزنا مهمة معاون الخليفة".

معاون الخليفة الذي كان بعيداً في أرض المعارك الخاسرة على مشارف بغداد، كان في أسوأ حالاته، فمع أسامة قائد كتيبة الميديا كان قد اطلع على افتتاحيات الهيرالد تريبون والواشنطن بوست والنيويورك تايمز والغارديان والتايمز اللندنية والأوبزرفر والديلي تلغراف والفاينانشيال تايم والاندبندنت، كان العالم يصرخ بالخبر في تلك الصفحات، بدا واضحاً أن إرادة قوية قد عزمت على القضاء عليه؛ الأخطر من ذلك قراءته للشفرات التي فككها رجاله بين أجهزة استخبارات وحجرات عمليات في الشرق وفي الغرب.

ثم تقدم النهار.

وهو لم يزل يطوف وسط ركام الخسائر في المعدات، وسط جثث رجاله التي تبعثرت بالعشرات ينادي على من بقوا على قيد الحياة بضرورة الثبات:

"تذكروا، الشجاعة صبر ساعة والحرب صبر واللقاء ثبات".

وانهمك في إعادة جدول أعماله، راح يولي جبهة كوباني عناية خاصة؛ فقد أفلح في حصارها بعد أن فشل في حصار بغداد؛ كان في تلك اللحظات يستمد قوته من ذكرى أيام لندن القاتمة الظالمة، تلك الأيام ما انفك يغسلها مطر مثل دمع الشمع.

وأتوا له بأسرى فاستل سكينه وقطع رقابهم الواحد بعد الآخر؛ في هذه الأيام بدا كأنه قد جن بتنفيذ أحكام الإعدام بالسكين قطعاً للرؤوس وبالنار حرقاً للأجسام، وشدد على ضرورة تعذيب الأسرى من الصحفيين، من عاملي الإغاثة، من العرب والأوروبيين والآسيويين والأستراليين والأمريكيين، كانوا يعذبون بالإيهام بالغرق بتغطية وجه الأسير ثم سكب الماء على وجهه بحيث يتخيل أنه يغرق، إضافة للتعليق في سقف زنازين الحبس بعد تقييد اليدين والرجلين بالأصفاد بشدة، لدرجة أن الأسير يصبح بإمكانه رؤية عظامه وهي تخرج من جروح وردية، وأيضاً التجويع ومنع الماء، وبالطبع ليس من سبيلٍ لاغتسال أو حمام، ما يحول المأسورين إلى حزم قمامة حية، وحينئذ يدخل عليهم ويهتف والزبد يسيل من زاويتي فمه:

"خنازير أبناء خنازير".

ويزيد:

"الموت للخنازير. الموت للأعداء الأوغاد"، يهتف وعيناه الواسعتان تزدادان اتساعاً، وحدقتاه المستديرتان السوداوان تشربان من قلب الصباح ضوءه لتظلم أرض المعارك الخاسرة، يقطع رؤوسهم مثلما تقطع رؤوس الدجاج، هذا، بينما هنا، في حنايا جبل سنجار يهتف أبو نورة ويهتف عمَّار:

"الله أكبر، قبضنا على الكافرة الفاجرة، أنجزنا مهمة الخليفة"، يقولان ذلك بينما شعاع الشمس الباهر يجرح الآن عمامتيهما السوداوين، يذوب بعض شيء في سواد الجلابيب، أما رايتهما فقد دأبا على

نفضها من غبار الصخور الذي تثيره حوافر البغال كيما تحافظ على قوة السواد...

راحت البغال تتقدم في رتل قصير وهي تشحج شحيجاً مضنياً بين الفينة والأخرى، تتأمل في كثير من السأم بعيونها المملوءة بالقذى ورموشها المملوءة بنثار غبار سلسلة الصخور التي كانت تنتصب مثل الجدران على جانبي وهدة الشعاب.

كان أبو نورة وعمَّار يتبادلان الأحاديث في صراخ مستمر تُردِّد أصداءه صخور المنحدر.

"لن تفلتي منا هذه المرة"، قال عمَّار.

"فليُلهب ظهر البغلة باطني فخذيها" قال أبو نورة.

يقولان ذلك وهما يضحكان تارةً، وطوراً يطلقان الرصاص دونما سبب وهما يصيحان في عم كامل الفرَّاش وكاجين:

"كفار. قاتلكم الله".

مع كل خطوة للبغال نحو السفح، كانت قمة الجبل المكسوة بالضوء تتوارى ببطءٍ شيئاً فشيئاً، يتلاشى بعض منها خلف النتوءات الهائلة التي انحدرت فيها الشِّعاب، بينما رياح أواخر الصيف الحارة، رياح مطلع سبتمبر، المتخمة بالسموم المقبلة من الجنوب تدور فتبعث القشعريرة في أجساد الجميع ريثما تتجمع حبات من العرق وتسيل من كل مسام الرجال، من جسم كاجين، ومن أجسام البغال. صيف هذا العام بدا وكأنه لا نهاية له.

"أبو نورة! يبدو أن وقت صلاة الظهر قد حان"، صاح عمَّار.

شد أبو نورة الذي كان في مقدمة القافلة لجام بغلته:

"هوش... هوش. قفا أيها الكافران".

وقفت البغال وترجلا فتيمما، صلى عمَّار الظهر مع العصر قصراً، بينما وقف أبو نورة يحرس كاجين وعم كامل الفرَّاش المصفدين في الأغلال. ولما فرغ عمَّار قام بالحراسة بينا دخل أبو نورة في الصلاة، وشحج بغلا كاجين وعم كامل الفرَّاش من شدة الحر، من الوقوف ومما حمله ظهراهما، وظلا كذلك يرفعان قدماً وينزلان قدماً حتى فرغ أبو نورة من صلاته... شربوا جميعهم جرعات من الماء وطعموا تمرات قليلات، ثم استؤنف المسير لم تزل العصابة تغطي عيني كاجين الخضراوين.

عند الغروب توقفوا فصلى عمَّار المغرب والعشاء قصراً ثم أخذ الحراسة فصلى أبو نورة.

ومن قبل استئناف المسير لاح على ضوء الشفق الخابئ تيس بري، فانطلقت صوبه طلقات.

"أسرع يا أبو نورة، حلِّلْه بالسكين قبل أن يصبح فطيساً"، هتف عمَّار.

فاستلَّ أبو نورة سكيناً من حزامه، وعدا صوب التيس فذبحه ثم صاح:

"حلال... حلال".

وسُلخ التيس، وأُوقد الجمر من شجر الجبل فأَنْضَج اللحم، وأكل الاثنان في حلك العشي، بينما البغال وعليها عم كامل الفرَّاش

وكاجين واقفة مُطأطئة.

تجشأ عمَّار وأبو نورة عن شبع، شربا من ماء الزمزميات واستأنفت القافلة الصغيرة المسير، عند المنعطف الحاد لعتبة الجبل حرنت البغال كدأبها: الخوف من شدة الانحدار... راحوا يصيحون فيها ويضربون خاصرتها بكعوب البنادق.

بغتة قال عمَّار:

"علينا أن نمهد طريقنا بدم واحد من الكفار".

سأل أبو نورة: "ساعي البريد أم فرَّاش المدرسة"؟

"لا، أظننا بحاجة إلى الفرَّاش، ربما ساعي البريد لا نزال نريده حياً".

"خذه، علنا نقلل واحداً من هؤلاء اليزيدية عبدة الشيطان، ذلك الفرَّاش!".

وفي التو سار عمَّار صوب عم كامل الفرَّاش فجز عنقه جزَّ عنق التيس، كانت كاجين تسمع صراخ عم كامل الفرَّاش وشخيره تحت حد السكين.

وإذْ عمَّار يمسح سكينه ضايقته صرخة من كاجين: "قتلة"، فرفع سكينه وسار صوبها، ولكنه من قبل أن يصل إليها أوقفه صوتها المذعور المحذر وهي ترهف السمع لخطاه إذ لم تكن تراه:

"لم أزل سبية معاون الخليفة"، قالتها بمكر وهي تقصد تخويفه وإبعاده عنها.

وقد أفلحت.

وجه كاجين الملتهب الآن، ابتلت العصابة فيه لكثرة ما ذرفت عيناها

من الدموع.

"اسكتي أيتها الفاجرة".

"أوَ تصف سبية المعاون بالفجور"؟ سألت من وراء العصابة المحكمة على عينيها.

"هيا اسكتي، لا أريد سماع صوتك"، قالها أبو نورة وهو يجذبها من ظهر البغل.

سقطت.

في ذهنها راحت تجول أسئلة استفهام تبحث عن السؤال الممض الذي ظل يعذبها منذ بداية المسير: هل سيقتلونني هذه المرة؟ أوَ تكون نجاة؟ لكن لم يكن لواحد من الرجلين أن يعير عذابها انتباهاً. ضرباها ضرباً مبرحاً ثم أعاداها لظهر البغل.

وبعد أن قطعوا شوطاً لا بأس به من الشِّعب إذ بمقاتل كردي من البشمركة يقطع عليهم الطريق فاتحاً نيرانه، طلقة أصابت كاحل عمَّار بينما انهمر الرصاص غزيراً على المقاتل فسقط أرضاً، امتلأت كاجين من خلف العصابة ذعراً وفزعاً وقد تضخم في أذنيها صوت الرصاص، ذعراً على ذعر وفزعاً على فزع، بينما اقترب أبو نورة من المقاتل الذي كانت الحياة تضج في عينيه:

"أتريد أن تكون بطلاً أيها الكافر؟ ها".

"أنا لست كافراً أيها القاتل، أنا مسلم واسمي محمد".

لكن أبو نورة استلَّ سكينه وأمَاله كما أمَال التيس من قبل وراح يذبحه والمقاتل الكردي يشخر ويرفس، تماماً كما رفس التيس، تماماً

كما رفس عم كامل الفرَّاش، وكاجين تصغي وتسمع...

أبو نورة نظف الجرح في كاحل عمَّار وربطه بمزقة من جلبابه. كان الدم قد سال غزيراً، وكان على البغال أن تخطو فيه ملوثة حوافرها متخذة طريقها عبر شِعب بالغ الضيق يشبه أسطوانة قد نحتت في جسد الصخور.

لم يتوقفوا إلا عند منتصف الليل.

خيموا في وادٍ ضيق كان بالإمكان أن يصل إليه خرير مسيل المياه البعيد، ذلك الذي شهد الفرار الذي قادته خوشناف من ذات اليمين قبل مدة؛ أشعلوا النار فشووا مما قد حملوا من لحم التيس، وأكلوا على عجل، ثم استسلموا للنوم كالصرعى، وما إن طلع الفجر حتى هبوا من جديد، ولكن المسير هذه المرة كان أكثر بطئاً وأكثر حذراً، أحست كاجين بأن تلك الشعاب الضيقة والخطرة لابد أن تكون هي ذات الشِّعاب التي تمر بمحاذاة المسيل تماماً... نفثة باردة جاءت من الأعماق، فشعرت بقلبها ينقبض من جديد إذ ذكرت أحداث الهروب البعيد...

توقفوا ثانية وسمعت أثناء هذه المرة صراخاً وكلاماً مبهماً، وعندما استأنفوا المسير كانت حوافر البغال تطرق الصخر مُصدرةً صوتاً أصم: عبروا لتوهم جسراً فوق المسيل بينما في الجبهة، هنالك حيث التراجع، حيث التقهقر كان سامي حمدان يلوح كمن فقد اهتمامه فجأة بتعزيز روح الثبات في روح مقاتليه، فعاش مكتئباً وسط القصف المتجدد القوي لطائرات التحالف الذي يحول السماء ساعة السحر

وساعة الفجر من كل يوم إلى لهب وجمر... وإنه ليطوف عليه من أيام المدرسة في الغرامر سكول في ستون طائف يذكره بأدوار قد أداها على خشبة المسرح المدرسي، يذكره بأبيات من اللغة التي ليست بلغته، لكنها على نحو ما ظلت الأقدر دوماً على التعبير عما يدور في ذهنه ويختلج في صدره:

"آه، ليت هذا الجسد الصلد يذوب
يموع وينحل قطرات من ندى
يا ليت الأذى لم يصنع شريعته
ضد قتل الذات. رباه. رباه.
ما أشد ما تبدو لي عادات الدنيا هذه
مضنية، عتيقة، واهية لا نفع منها.
ألا تباً لها! تباً تباً لها، إنها لحديقة لم تعشب،
شاخت وبزرت لا يملؤها إلا
كل مخشوشن نتنت رائحته
أهكذا تنتهي الأمور؟
أهكذا تنتهي الأمور"؟

انتهى اليوم سريعاً وغربت شمسه. ونهض من عذاب كبده لهول ليلته، هذه ليلة حارة هواؤها رطب وظلامها ضرير وهو في مرقده مؤرق ممتلئ بالذكريات التي كانت تزدحم على الباب لتدخل إليه، ذكريات مرة لا تحمل شيئاً سوى العذاب.. منتظراً غارات طائرات

التحالف، راح يذرع الحجرة الصامتة مجيئاً وذهاباً، كان قلقاً فهو يوقن أن طائرات التحالف بعد أن تدمره تماماً على مشارف بغداد، ستطلع بساعة السحر على قواته في كوباني، لا بد لكوباني أن تظل معركة طويلة، كان يحدث نفسه حينما وجد لسانه يتلو وعلى غير إرادة منه:

"ليت التراب ذياك الذي أرهب الدنيا كلها
يلأم صدعاً في الجدار لدرء هبات الشتاء!
إن كنت احتويتني في قلبك يوماً
غيب النفس عن هناءتها ردحاً
وفي عالم الجور هذا استل أنفاسك ألماً
لتروي قصتي".

هو الآن يدير ظهره إلى النافذة الخشبية بظلمتها وسوادها، بينما صوته العميق كصوت دلو يغطس في بئر عميقة يطوف بالسامع أقصى حدود الخيال، وينساب العرق على صدغيه مثل دمع الشمع كأنما هو نقط من الشحم تذيبه الحرارة.

وغمغم مسلوب الإرادة:

أين تراك الآن يا دوروثي، لقد صنعت قصتي وصنعت قصتك، لابد أنك الآن مثلي تهدك محنة فقدان زوجك، مارتن الذي قطعت رأسه بيدي هاتين، في أي حي تسكنين الآن في لندن المقيتة؟ ماذا تراك تفعلين؟ وفيماذا تراك تفكرين؟

ساروا ليومين حتى بلغوا السفح.

وفي هذه اللحظة أحست كاجين بدفء أشعة الشمس الجميل، كان ضوؤها ينفذ عبر العصابة التي كانت تغطي عينيها، وبغتة أخذت تشم عبق الخضرة الندية والأزاهير التي احتشد بها سفح الجبل مع مطلع سبتمبر. وهُيِّئ إليها أنها كانت تسمع عويلاً وبكاءً آتيين من بعيد، أصواتاً تصل إليها بوضوح.

الأحداث التي تلت في السفح جعلتها تقع تحت تأثير تفكير مرعب.

كانت تسمع صراخاً ونداءً كما لو أن عشرات الرجال يعدمون بالسلاح الأبيض من حولها. ترجل بها أبو نورة من البغل، ثم سحبها من معصمها ودثرها بشاله العريض، وخطا بها سريعاً تارة على صخور مُدببة، وتارة على أرض مستوية، وتارة على ما يشبه السلم.

بعد زهاء ثلث ساعة قادها أبو نورة وقد خيم على المكان صمت مريع.

أوصلها إلى بابٍ.

لفها أبو نورة في شاله العريض، وأحكم عصب عينيها بمزقة جديدة قطعها بأسنانه من كم جلبابه الأسود، وثقلت العصابة من كثرة ما ابتلت بالدموع.

وأحست بعد قليل بأنهما كانا يخترقان مكاناً حالك الظلمة.

"اِرموهم في الحفرة"، ذلكم كان الصوت الذي تعرفه: صوت منصور الرهيب.

تيقنت أنهم وصلوا بها إلى معسكر ذات اليمين في السفح.

سمعت أجساداً تهوي في حفرة قريبة.

الآن تحوَّل البكاء الصامت شهيقاً ولعنات تملأ آذان الرجال.

"اسكتي أيتها الكافرة، فليس هناك من ينوي سلخك، لقد وصلنا"، صرخ فيها.

خطا خطوات تسعاً كن واسعات.

"اتركني أيها القاتل"، صاحت.

"اسكتي بنت الكفرة الفجرة"، جاءتها الكلمات.

علا صرير باب ذات اليمين.

واقتربت أقدام، الرجل الذي كان يحملها سلمها للقادم الجديد.

كانت اليدان اللتان تلقتاها عاريتين تماماً وقويتين كقائمتي ثور..

حملها الرجل وراح يركض واثباً فوق الصخور، فظلت تتأرجح بين يديه على نحو مزعج مُصغية لصوت الدرب يصرُّ تحت أقدام هذا المجهول كما لو أنه كان مفروشاً بحصاً من رمل ناعم، وعنَّ لها أنها كانت تسمع عويلاً وبكاءً آتيين من بعيد، أصواتاً تصل إليها بوضوح من عنابر ذات اليمين.

لكنها تبقى هنا.

حاملها تقدَّم بها، وعَبَرَ عصابةَ كاجين وميضُ شرار ونور غامض...

وسمعت هدير لاندكروزر يأتي من قريب، كتمت أنفاسها إذ سمعت وقع أقدام ثقيلة، قدرت: مثل الأحذية العسكرية السُّود سيكون هذا الحذاء.

رموها على ظهر اللاندكروزر التي انطلقت بها بعد حين.

أُغمي عليها طوال الليل.

وفي الصباح أحست بوهج أشعة الموصل، كان ضوؤها ينفذ عبر العصابة التي كانت تغطي عينيها،

وسمعت هدير اللاندكروزر يذوي وهو يقف بها.

أنزلوها.

ساروا بها على الأقدام مسافة بدت طويلة لم يقل أحدهم طوال الوقت الذي استغرقته كلمة.

وبعد أن وصلوا إلى مخفر للشرطة استولى عليه رجال المعاون نزعوا العصابة المحكمة عن عينيها.

آلمها وهج الشمس بينما تعالت التحايا من أفواه الرجال:

"السلام عليكم".

"السلام عليكم ورحمة الله".

"السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته".

دعكت عينيها وقد انتفختا فبدتا متورمتي الأجفان، كان المبنى مخفوراً بتسعة عشر مجاهداً، صعدوا بها ثلاث درجات، فوجدت نفسها في قاعة عالية السقف واسعة، جدرانها باهتة الطلاء... تركوها مرمية على الأرض العارية وهي بعد في القيد والأصفاد والسلاسل.. في الساعة الواحدة أذن المؤذن لصلاة الظهر، بغتةً دخل إلى القاعة معاون الخليفة سامي حمدان!

دخلت معه حفنة من الرجال.

اقترب منها،

جعل يحدق طويلاً في العينين الخضراوين المتورمتين، ثم ابتعد إلى ناحية واسعة من القاعة الفسيحة وصلى بحفنة الرجال.. بعد خروجه من الصلاة بالسلام ذات اليمين وذات الشمال، دُهِشت كاجين إذ رأته ينسحب مبتعداً.. ودنا منها الرجال، كانوا خمسة بلحى طويلة وعيون محمرة وأصوات غليظة، تحلقوا حولها في جلابيب سُودٍ وعمائم سُودٍ وجعلوا ينطقون بحيثيات وعبارات أوحت بأنهم يعقدون لها محكمة... وبعد سبع دقائق حكمت عليها المحكمة بالجلد والنقل للمبنى الذي جُعل زنازين.. أما قضاة المحكمة فتغير دورهم في ثوانٍ إلى حراس.. وصاح الذي لعب دور القاضي الأول:

"قودوا السبية المحكومة".

"هيا أيتها السبية الكافرة الفاجرة".

على هذا النحو كان يصرخ بها ويهتف، فخفق قلبها خفقاتٍ متسارعة، وعلا صوتها على صوت ارتجاج السلاح في أكتافهم، وسارت في خطى مضطربة وهي لم تزل في القيد والسلاسل والأصفاد، شعاع الشمس يجرح عينيها.

أغمضت عينيها، هنيهة وتناهت إلى أذنيها من الرجال غمغمات:

"محظوظة هذه السبية! لم يُحكم عليها بالإعدام!".

ومن ورائه علا صوت:

"بالفعل محظوظة جداً"!

قال الذي كان القاضي الأول:

"إلى الحبس الانفرادي".

"سبية مجنونة ترفض بركة المعاون".

"ستحلم به ها هنا".

"ستشتهينه عند حلول دورتك الشهرية أيتها السبية".

"لم أحِض بعدُ" صرخت فيهم.

"هذا أنظف".

وجعلوا يثرثرون ويضحكون عالياً وهم يتندرون بصبية في الثالثة عشرة حُكم عليها بالمجهول.

وسلموها من السلسلة التي وصلت بالحلقة التي أحاطوا بها عنقها إلى واحد لم يكن معهم داخل القاعة.

"محظوظة لم يجزوا عنقك أيتها السبية"! قال الحارس ثم شدَّ بغتةً على السلسلة فضاقت الحلقة على عنقها وشعرت بالاختناق، ولكنه أرخاها بعد دقائق، فأفاقت وقد سال رغو من فمها ودمع من عينيها... ثم إنه قادها في دهليز طويل حتى إذا صارا وحدهما أطلق عنقها من القيد بهدوءٍ متعمداً ملامسة شعرها.

"ستقضين حاجتك في تلك القصرية أيتها السبية، وسيأتيك طعامك وشرابك في الميعاد".

وأدخلها الزنزانة فنظرت إلى الأغلال في يديها وقدميها، وراحت تتأمله وهو يقول:

"لا، ستبقين هكذا ما حييتِ، ولو أردتِ غير ذلك فعليك قتلُ نفسك لأني لا أظن أن المعاون سيقتلك. غريب هذا! غريب!".

فكرت وقالت في نفسها: "إنهم لمجانين حقاً، هل يظنون أن المحنة والصدمة اللتين ضربتاني ستوهنان من عزمي، أو تهزانني وتقودانني إلى الانتحار؟ وما دمتُ حية، فعزمي على الفرار لن يهين والوقت لا يهم، ولئن كان من شيء يستدعي القيام به قبل الهروب فهو الانتقام". لكن أنى لها؟ وأخذت تدور في الزنزانة، ثم جعلت تتحدث بصوت عالٍ، وتبعث برسالة إلى أمها وأبيها، كانت واثقة بأنها ستصل إليهما وأنهما سيسمعانها.

غمغمت:

"قتلة...، قتلة".

ثم قالت في نفسها:

"يا إلهي! هذه هي الحياة!".

وحركت يديها المثقلتين بالقيد والأصفاد بمشقة بالغة.

"حسن جداً أنهم أزالوا السلسلة عن عنقي، إنها تجعلني كالحيوان".

بعد ساعة أو ما يزيد قليلاً سمعت صدىً لخطى مقتربة، لم تدرِ ماذا تفعل، ارتبكت واضطربت في الأغلال، كانت الخطى الثقيلة تعلو وهي تدنو، بسرعة تنفست نفساً عميقاً بفمها لينزل الهواء الرطب إلى معدتها الخاوية، وجعلت تتمتم باسمي أبويها سلمان وروجين لأنهما الآن تميمتها وحافظتها.

وهمست في نفسها وصوت الخطى يدنو ويقترب:

"ماذا يريدون؟ ماذا سيفعلون بي؟ بوسعهم أن يعروني تماماً وأن يبعدوا ما بين ساقيَّ، وأن يجعلوني أتألم، وأن يثنوني أو يطووني طياً،

عبثاً يحاولون أخذ ما في روحي، ما في قلبي، إرادتي ستبقى، سأخرج من هنا، سأسترد حريتي، إنها حياتي، إنني أفكر في الهرب والانتقام ولا أفكر في سوى ذلك".

دارت المفاتيح في أقفال الزنزانة فصرَّ وأزَّ بابها وانفتح.

"الغداء والعشاء والماء".

ودفع لها بكوب معدني وصحن معدني.

كان حارساً آخر غير الذي أدخلها الزنزانة.

لم تشعر برغبة في الطعام ولا في الشراب، ولكنها شعرت برغبة ملحة في البكاء فبكت وأسرفت في البكاء، ولما أفاقت كان الظلام قد أرخى سدوله على الكوة ذات القضبان الساخنة المدورة. ساد ظلام كأنه العمى، ظلام كثيف سال فملأ فراغات ما بين القضبان ودخل إليها فهو يلمسها ويلدغها ويغرقها في لجةٍ لا قرار لها، فلا ترى سوى الأصفاد والأغلال التي كانت تلمع مستمدة دفأها من جسدها، وانتبهت إلى أنه لا يوجد سرير ولا توجد وسادة. وعاودت البكاء حتى أخذتها إغماءة طويلة رأت فيها مرة أنها قد دُفنت وهي بعدُ حيَّة، ومرة أنها أُدخلت في كهف فأوصد عليها وتركت فيه تفطس ظمأً وجوعاً، وصرخت:

"يا إلهي! أعني يا إلهي! أهذه هي الحياة!".

فأقبل الحارس يعدو بحذائه العسكري الثقيل، وسلط عليها ضوء مصباحه الرهيب.

وهتف فيها لما رآها لم تزلْ كما كانت بعدُ حية:

"اسكتي أيتها السبية، لا أريد أن أسمع لك حساً".

ومضى وهو يردد:

"ملعون أبوك يا كافرة يا فاجرة".

لكنها صاحت به:

"أبي وأمي قتلا، قتلا في المدرسة، سقط عليهما السقف جراء القذائف".

"وليتك تلحقين بهما"، قال الحارس ساخطاً غاضباً.

وابتعدت دائرة المصباح الجهنمي القوي الوهاج، وسمعت الباب الخارجي لعنبر الزنازين يؤزُّ ويصرُّ فيقفل، والمفاتيح تدور فيه تحكم إغلاقه. وتناهى إليها صوت الخطى الثقيلة تمضي مبتعدةً فتغرق في الصمت وتغرق في الظلام.

كان قلبها يكاد ينفجر من تسارع نبضه ودويه، تفصدت عرقاً، فسالت حبات العرق الكبيرة بملحها إلى الحزوز والجروح التي خلفتها الحلقة الحديد في عنقها.

وتقدَّم الليل.

فأحست بظمأ لاهب يحرقها مثل حريق ألسنة النار، فتدحرجت تبحث عن الكوب المعدني الذي أحضره الحارس في أول الليل، حاولت أن تكون حذرة في حركتها، لأنها شعرت بأن القيود والأصفاد في يديها وقدميها تضغطان عليها وتجرحانها جروحاً قد بلغت الآن منها كل مبلغ، بعد جهد، بعد وقت طويل بدا دهراً أمسكت بالكوب المعدني البارد، ورفعته بكلتا يديها وجرعته دفعة

واحدة في جوفها، لا ريب أنه سيتقدس باسمي أبيها وأمها اللذين يسكنان أبداً في جوفها، باسم جيهان، باسم عم كامل الفرَّاش، باسم كلبها ماونت. ولهثت ثم همدت ثم شعرت بصداع حاد ودوار رهيب.

وكانت الدقائق تمضي بطيئة.

صرخت بكل ما فيها من قوة، بكل ما بقي فيها من طاقة:

"يا إلهنا الطيب آه، يا إلهنا الطيب آه وآه، إنني أتألم، وهذا الظلام إنه أكثف من ماء البحر، وإن موجه ليعتصرني مداً وجزراً"، صرختُها هزَّتْ ظلمة الليل الأعمى فدفعت بموجها الأسود بعيداً بعيداً.

لكن علا صوت الخطوات الثقيلة مرة أخرى، وعاد الحارس مستفزاً، فأدخل مفاتيحه وهو يستشيط غضباً، دفع باب الزنزانة فصرَّ وأزَّ، وسلط على وجهها نور مصباح قوي، ودنا وهو يسب ويشتم ويلعن الكفرة الفجرة، واقترب منها جداً إلى درجة أنها أحست بحرارة أنفاسه ورائحته، وكاد وجهاهما يتلامسان.

صرخ فيها بصوت كأنه انهيار حجارة تتالى:

"قلت لك لا أريد أن أسمع صوتك أيتها السبية! هل تفهمين؟".

وصفعها ثم خرج.

بكت وشدَّت على أجفانها أكثر من ذي قبل. كانت الساعات عصيةً طويلة، ولكنها كانت تردد في نفسها أنها لن تموت من قبل أن تنتقم من هؤلاء القساة، من قبل أن تهرب.

"سأنتقم لأمي ولأبي، لجيهان ولعم كامل الفرَّاش، نعم سأفعل، ثم

أهرب من بعدها من جديد".

وأخذها دوار كأنه النوم.

وبغتة عند الفجر أرعبها دوي وقصف طائرات التحالف في البعيد.

قبيل الشروق انتهى القصف وكفت الغارات فأغفت.

ثم وقرص الشمس يعلو مثل بطن بطيخة كبيرة حمراء، يذر بحمرته من الفتحات ما بين القضبان، أيقظتها ركلات قويات من حذاء عسكري ثقيل لحارس جديد فأفاقت:

"فطورك يا سبية، يا كافرة، إنك...، ".

وقاطعه صوت طلعة صباحية لطائرات التحالف ارتجف من هوله هديرها وأزيزها فصاح:

"فليُخزِ الله الكفار وليسقطهم في نار جهنم".

ثم ملأ الحارس الجديد الكوب المعدني البارد، وحينما حاول أن يملأ الصحن المعدني البارد صاح:

"لم تصيبي من طعامك! هذا يخالف أوامر مولاي معاون الخليفة أيتها السبية!".

ثم وضع ما بيده وأخذ رأسها ودَعَك وجهها بما احتواه الصحن منذ البارحة.

صرخت، فلم يأبه لصراخها بل راح هو الآخر يصرخ:

"كلي...، كلي يا سبية، كلي يا كلبة يا كافرة".

وراح يأخذ بيده من الطعام البائت ويحشره قسراً في فمها.

ألقمها اللقمة بعد اللقمة فكأنه قد أدخل في جوفها قطعاً من حديد أو كسفاً من حجارة.

ثم نهض ثم خرج.

لحظتئذٍ، حدقت كاجين ناحية الباب فانتبهت لضياء الصباح وقد لاح متوهجاً مشعاً ما بين القضبان! كان حياً! كان رائعاً! كان صافياً مثل جسم الماء في انهمار ينابيع الصخور النظيفة! وعنَّ لها أنها يمكن أن تملأ راحتي يديها المقيديتين من ضوء ذلك الصباح. وقد فعلت، أفلحت في أن تمسك الضوء بكلتا يديها! نعم أمسكته بيديها؛ بينما الصباحُ ذاتُه كان قد طلع على معاون الخليفة سامي حمدان فإذا هو في أزمة جديدة في معنوياته، أزمة وجودية عميقة ألمت به بعد تكرر الطلعات الصباحية واستهدافها لأنحاء من الموصل بعد أن شلت قدرته على التقدم صوب بغداد.

"إنني أتوقف! إنني أتوقف"، راح يردد في نفسه.

وبعد عمليات خطيرة ويائسة من جانبه طغى عليه التشوش وكاد يقتله معها اليأس والضنى، قبيل انتهاء اليوم، في الساعة التي تسبق الغروب، أمر قائد الاتصال معاذ بأن يعطي الأوامر للخلايا النائمة والانتحاريين الذين تسللوا بأن يبدؤوا تنفيذ عمليات نسف أنفسهم داخل بغداد، في العواصم الغربية وفي العواصم العربية. وباغتته طلعة مسائية قوية فقضت على ثلثي ما تبقى من قواته على الأرض، فأذعن أخيراً وأمر بالانسحاب من مشارف بغداد.

تقهقر عائداً إلى الموصل.

لقد بعُد حلم دخول بغداد.

لم يحسب رد الفعل جيداً، وتلك الوثبة بدت الآن متهورة وعليه أن يدفع ثمنها ما يساويها في التراجع.

كان التراجع سريعاً وكان طعم الهزيمة مراً.

كان في مؤخرة القوة التي عادت إلى الموصل.

ولم تقف الغارات بل استمر الهجوم على الموصل.

"أوَ تسقط سانتا كلارا يا جيفارا؟ أو تفقدها بدلاً من أن تكسب هافانا"؟ ظل يتمتم وظل يغمغم وقد اضطرب نظام تناوله للطعام القليل الذي اعتاده، وصار يقضي الساعات الطويلة متنقلاً في ميادينه الخاسرة، سائراً على غير هدى.

ثم! ويا للمفاجأة!

جاءته غارة شرسة في عز النهار!

في الموصل!

أزيز قصف الطائرات ظل مريعاً، كان حاسماً.

وإنه ليسد أذنيه كي لا يسمع صوت الواقع، وإنه ليبذل قصارى جهده الآن لكي يعود هؤلاء الأعداء من حيث أتوا، ولكن روح المبادرة تلاشت بعد زمن قصير، جنت عليها حمى العداء التي انتظمت أركان الدنيا الأربعة، فسار غامض الهيئة أشعث اللحية مغبر الجلباب، وقد شكلت أصوات الطائرات الكثيرة المتعددة جوقة غدت مع الوقت مزعجة حتى إنه راح يضع أصابعه في أذنيه حذر الخطر.

وامتلأ بمزيج من الغيظ والغضب، بشيء من اليأس المقيت.

وإلى حجرة القيادة في الموصل توالت الأنباء: الأوضاع في كوباني غير مطمئنة؛ فتركيا قد ترضخ للضغط الدولي وتسمح بمرور قوات البشمركة الكردية، في العراق تكبدت القوات خسائر فادحة في الأرواح والعتاد وفقدت أثناء تراجعها من مشارف بغداد ثمانين في المئة من قوتها، وهو اليوم في طور المدافع عن معاقل كانت بالأمس آمنة حصينة في الدور، وفي تكريت، وفي البغداي وفي الرمادي، بل في شرق سوريا، وفي دير الزور وفي الحسكة وفي الرقة، مواقعه الحصينة في سوريا تشهد مناوشات من الجماعات المناهضة، معارك عنيفة مع جبهة النصرة في القلمون وفي ريف حلب، ومعاون الخليفة سامي حمدان لا ينام يمضي من هنا إلى هنا ويعود من هناك إلى هناك وهو يصرخ على الدوام:

"الشجاعة صبر ساعة. والحرب صبر واللقاء ثبات"، لم يزل في ذهنه أن تَلقِّي ضربات الخصم من دون إبداء ألم أو فزع لابد أن يجدي! كان يعلم أنها معارك خاسرة، فكما حذره أبوه: الشجاعة تغلبها الكثرة، غير أنه مع الأيام تعلم أن تكتيك عدم الاستسلام في المواجهات البدنية هو السلاح الأمضى، إنه تكنيك القتال السلبي، ومعه رفع راية الرعب والتخويف، سيستخدم الأسرى من العرب ومن الغربيين كحطب لإذكاء نار الخوف في أركان الدنيا الأربعة، واستلهم التاريخ الذي أتقنه وأحبه في صنع أقفاص كأقفاص الرومان القدامى، أقفاص من حديد يُدخل فيها المحكوم عليهم بالإعدام

ويطاف بهم في الأنحاء، ولسبب ما تذكر يوليوس قيصر فشعر بأن تلك الذكرى نذير شؤم الآن، فبعد رجوع قيصر من بلاد الغال عقب تحقيقه انتصارات ساحقة ومتلاحقة، بعد أن أصبح معبود الجماهير، كانت عودته لروما بداية النهاية، نفض رأسه لعله تذكر كلمة الطغيان التي لصقت بيوليوس قيصر، هل هو قيصر آخر قد اقتربت نهايته؟ سأل نفسه، هل بغداد قد فعلت به ومن قبل أن يدخلها ما فعلته روما بقيصر عندما عاد إليها؟

في نهار اليوم التالي كانت عشرات الأقفاص تدور في الشوارع والساحات محمولة على الأيدي أو على ظهور اللاندكروزرات المكشوفة، المحكوم عليهم بالإعدام بدوا في قمصانهم البرتقالية مثل الحيوانات، كتيبة الميديا كانت تصور وتنقل للعالم... وقبيل منتصف النهار أتي بكل الأقفاص إلى الساحة التي أحرق فيها عوض صاحب مكتبة الحرية، الساحة التي شهدت حرق الكتب، نعم ستُستخدم النار للتعذيب والإعدام، رُش البنزين والكيروسين على القمصان البرتقالية، أمام كل قفص وقف رجل من رجال السواد بيده شعلة.

انطلقت صافرة طويلة، تلك هي إشارة البدء بإشعال النار.

لحظة واشتعلت الأجساد، علا الصراخ من الأجسام التي تحترق، وانطلقت في الجو رائحة لحم بشري اختلطت برائحة الدخان ورائحة البنزين والكيروسين. كان معاون الخليفة سامي حمدان حاضراً عند تنفيذ أحكام الإعدام، لم ينم البارحة ولو للحظة وهو يعقد اجتماعات هنا وهناك، منها اجتماع مع أركان حربه، اجتماع مع

كتيبة الميديا، اجتماع مع أبو عاتكة ورضوان بخصوص النفط، وبعيد انتصاف الليل، كان وحيداً شارد الذهن ساهم النظرات، عالم انتصاراته المتلاحقة آخذ في التداعي إذا لم يكن قد تداعى بالفعل، كثرت الجبهات فهل تراه بقادر على القتال في كل الجبهات! وانفتح الباب فدخل عليه معاذ قائد شعبة الاتصالات:

"الأتراك سمحوا بمرور المزيد من قوات البشمركة الكردية لفض الحصار عن كوباني، القوات التي تمر ضخمة، ضخمة".

"أرسل أمراً للكراديس داخل سوريا بتعزيز الحصار. قل لهم إنني سآتي لأقود العملية بنفسي".

"حاضر".

لكن لم تمضِ لحظة إلا وكان أسامة يدخل مخطوف الوجه شاحب النظرات لاهث الأنفاس وهو يتمتم:

"سيدي معاون الخليفة! لقد تمكنا من فك شفرة من قيادة التحالف، سيهاجموننا فجر الغد في الموصل، سيفجرون آبار النفط وكل مخازن العتاد، سيتعقبون القوات حتى داخل الأحياء السكنية".

"نَادِ على معاذ إذن، لا دعني سأذهب بنفسي إلى حجرة الاتصال".

ونهض وانضم لرجاله في حجرة الاتصال، عبر اللاسلكي تحدث بنفسه إلى قادة كراديس المدفعية وبطاريات الصواريخ، "نتوقع هجوماً، حولوا السماء إلى جحيم".

وهمس له أحد القادة وكان قريباً منه:

"مولاي! هذا غير ممكن، لم يبقَ صاروخ واحد، البطاريات كلها

معطلة. وطلقات المدافع باتت معدودة".

ساد صمت محبط لكنه رهيب ومرعب وقاتل، صمت مسك بتلابيب الحياة والجماد، صمت مطبق عديم الحركة، ليس لأن الصوت انعدم، ولكن كأن الصوت لم يخلق أصلاً.

جر خطىً ثقيلة وخرج من حجرة الاتصال.

عاد إلى حجرته وراح يبحث عن قطع سلاحه.

مر وقت الآن، وسامي حمدان مسمم الدم مسمم المزاج مدجج بالسلاح، بندقية الكلاشينكوف على كتفه، حزام الطلقات في وسطه، ومن خصره تدلت السكين الكبيرة الحادة، السكين التي جزت مئات الرؤوس، بدت السكين وكأنها تنام في غمدها الجلدي الملطخ بالدماء.

مع انتصاف الليل كان قد وزع المهام، أحس بشيء كالدوار يضرب رأسه، وعادته أطياف متناثرة من مر الذكريات تراجع تحت وطأتها، وجلس إلى كرسي بعيد وحيد في الركن الشمالي الشرقي لحجرة القيادة، عاده رأس مارتن المقطوع، عادته عينا دوروثي وأيام المدرسة في الغرامر سكول في ستون، عاده صوت الشيخ وهدان يهتف في حماسة، عادته أيام أفغانستان، أيام الصحراء وعبوره مجيئة وذهاباً في بادية الشام. لقد صنع دولة، دولة كادت تجعل من بغداد عاصمة التاريخ عاصمة لها تخفق في أرجائها راياته السُّود.

لكن ما الذي أيقظ العالم الآن؟ قام مثقلاً من الكرسي المبعد في الركن، خرج ومشى صوب حجرة اللاسلكي والاتصال وأمر بنبرة

هادئة مرهقة:

"أمر لكل خلايانا: أريد لخلايانا النائمة أن تبدأ بالحركة، نحن بحاجة إلى عمليات انتحارية سريعة في باريس، في لندن، في سيدني، في الولايات المتحدة وفي المدن العربية الكبيرة".

ونقل اللاسلكي مع أجهزة الكمبيوتر الأوامر الأخيرة.

خرج من الحجرة بخطوات وئيدة ثقيلة، لاح وكأنه لا يجر جسمه، وإنما يجر حوتاً عظيماً. ولوهلة امتزجت في وجهه المرهق بالسهر الموسوم بالقسوة مسحة ضعف وألم عظيم. ضرب الطائر الأسود في كبده على نحو ذكره ببدايات الداء الذي ألم بروحه، تذكر ضربه بالموسى لدوروثي في حوض السباحة، تذكر مهاجمته لها لما هوت من الدراجة قرب بيتهم عند العطفة ذات الطلعة الترابية.

"لقد قتلتني دوروثي، قتلتني منذ أعوام طويلة، ضربتها كانت أكثر نفاذاً من كل ضربات طائرات التحالف. دوروثي والتحالف في خانة واحدة: خانة العدو".

ثم بغتةً تذكر عشية سبت اندفع فيها إلى مطبخ أمه، كانت تطبخ العشاء، أزاح الآنية جانباً ودفع يده بين لهب موقد الغاز حيث أبقاها حتى بلغ الألم ذروته وزايله الإحساس به، فلم يعد يشعر إلا بما يشمه من رائحة لحمه المحترق. وقد كان ذلك منه دواءً فاجعاً لوخز الضمير، وبقي بعد ذلك أياماً يدور في أنحاء كلفهام جنكشن ويداه اللتان أصابتا دوروثي ملفوفتان في شاش طبي سميك. والآن، خطا بتثاقل وخرج من حجرة العمليات، مشى ببطء يشقُّ سكون

الليل الذي يشوبه الحذر، مشى حتى بلغ المخفر ذا الزنازين، حيا حراسه التسعة عشر، وخطا، من زنزانتها سمعت كاجين وقع الخطى التي تعرفها.

لقد جاء.

كان وحده، وقف أمام الزنزانة فكشف لسان السراج المتراقص سمته، أول ما بدا منه عيناه الواسعتان ترفد حدقتاهما السوداوان الليل بمزيد من السواد، وقف في جلبابه الأسود مدججاً بالسلاح، أصلح من وضع عمامته، ثم أدخل المفتاح الحديد الكبير في قفل باب الزنزانة، أداره ببطء، صرَّ الباب وأطلق أزيزاً معدنياً بارداً ثم انفتح، خطا داخلاً في خطو ثقيل، لم يغلق الباب من ورائه بل تركه مفتوحاً، فانتبهت كاجين لذلك.

كان صوت أنفاسه يعلو بطيف من لهاث.. دنا منها، نظر إليها على ضوء السراج.

جلس في صمت وفي هدوء.

تقدم الليل صوب الفجر.

ظل جاثماً، لاح وكأنه يرتعد في جلبابه الأسود من الحمى التي يغلي بها جسده. وطال صمته دون أن يقول ولو كلمة واحدة، كان يصيخ السمع مع كاجين لأصوات الصراصير التي بدأت تُنبئ بقرب بزوغ الفجر، ويستمع لوطء أقدام حرس الدوريات المنهكة في البعيد، كان يتوقع انقضاض طائرات التحالف على بقية القوات، على آبار النفط بين دقيقة وأخرى، ومع مرور الوقت كان يزداد قناعة بأنها

ستأتي، ستهاجم. وتألم من ضرب الطائر في كبده، بقي يشعر لحظة بعد أخرى بأنه كان ضحية ألم خالد.

ثم أخيراً رفع عينيه وحدَّق في عيني كاجين وتمتم:

"لماذا هربت مني؟ قولي لي لماذا هربت مني"؟ سأل بعتاب، بملام وعيناه الواسعتان تطوفان، فلاحت في حدقتيهما السوداوين مسحة من بياض حزين، ما لبثت أن صارت إلى مسحة من ضعف كسا ملامح الوجه المثلث العليل كلها؛ سهر الليالي المتصل رسم أهلَّة سوداء تحت جفنيه الأسفلين.

"لماذا هربت"؟ عاد يسأل وقد عادت لوجهه بعض قوة امتزجت بمسحة الحزن والضعف فيه.

حدَّقت فيه بكل جمال وغموض وسعة عينيها الخضراوين، فاختلج فكه الأسفل ثم ارتعش.

"أنت غاضب مني، أليس كذلك؟ سيدي معاون الخليفة؟ سيدي لا تغضب من سبيتك. أرجوك".

وسكتت ثم أشرعت على ضوء السراج الشحيح لحظها في عمق عينيه وأضافت بنبرة لينة:

"سيدي، سبيتك المطيعة تسأل: هل أنت غاضب مني"؟

تنهد ثم زفر:

"كنت غاضباً، أما الآن فلا أدري...، فها أنت ذي".

ودنا بوجهه من وجهها فاختلطت الأنفاس في الوجهين المرهقين.

"تبدين نحيلة للغاية! ثمة إعياء في وجهك، ثمة شحوب في شقرة

البشرة الجميلة!".

"وأنت كذلك سيدي ومولاي تبدو شديد الرهق".

"نعم، أوقات صعبة تمر بي".

ساد صمت لوقت، لكنه قطعه حين قال:

"كنت أريدك أن تكوني معي حينما أدخل بغداد، كنت سأتزوجك".

وسكت فارتفع صوت السراج يطقطق وهو يرشق بلسانه الأصفر جسم الظلام الذي غدا رهيفاً منذراً بنهاية السحر ودخول الفجر.

"لكنك هربت فصرت نائية، والآن بغداد نائية، نائية جداً، لعل هروبك كان نذير شؤم!".

"اغفر لي يا مولاي إن كان ذلك كذلك".

تألقت عيناه مع سماعه الكلمات يخرجن من فم كاجين معتذرات تملؤهن أصداء مناغاة لافتة.

وتناهى من بعيد صوت الأذان معلناً مقدم الفجر، فسأل نفسه بصوت خافت:

"وأين هم؟ لابد أنهم سيأتون. لابد أنهم سيأتون".

"هل تحدثني سيدي".

حدَّق فيها طويلاً ثم تمتم بالنبرة الخافتة ذاتها:

"لقد طلع الفجر ومؤكد أنهم سيأتون".

ثم رفع نبرة صوته وقال:

"لعل هروبك كان نذير شؤم!".

"اغفر لي سيدي. أرجوك، أنت كبير القلب أليس كذلك؟ ستغفر لي".

"وإذا غفرت لك..."، قال وقد صارت مسحة الضعف إلى ضوء شاحب حزين يلمع مثل اليراعات في غور حدقتيه المظلمتين.

"سأكون زوجة مطيعة، تزوجني سيدي ومولاي، سيكون هذا جميلاً!".

وما كادت تنتهي من جملتها حتى تعالى أزيز طائرات تمرق في سرعة هائلة وهي تحلق في سماء الموصل، ارتعدت كاجين، ارتعدت الجدران من الأزيز والدوي القريب جداً، ذلك الذي تحول إلى صفير معدني مرعب رجَّ الزنزانة رجَّاً.

وضع سامي حمدان يده على يديها المقيدتين بالأصفاد وهمس في نبرة طغى عليها ظل حسرة تتخلل الاستسلام:

"طائرات التحالف، إنهم يهاجمونني في عقر داري! يريدون نسف الآبار، يريدون قتل ما تبقى من رجالي. يريدون قتلي".

ثم بدأ القصف فسُمع صوت القذائف وهي تُرمى ها هنا وها هناك في القريب جداً.

ثم اندلع الحريق.

"يبدو أنهم قد قرروا أن يقتلوني في الموصل! لم أردِ النهاية هنا، كان على النهاية أن تنتظر. مثلما سقطت الموصل كان يتعين على بغداد أن تسقط. هكذا يقول منطق التاريخ. عندما سقطت سانتا كلارا سقطت هافانا أليس كذلك"؟ سأل بنبرة خافتة محايدة.

لكن كاجين التي روعها الهجوم الداوي لم تكن لتعرف جواباً عن سؤاله، بل راحت ترتعد وهي تردِّد:

"سيدي! مولاي إنها أول مرة أسمع فيها صوت وقذف الطائرات الحربية على نحو قريب كهذا! إنها عند النافذة"! صاحت فزعةً وهي تتم: "إن صوتها مخيف في هذا الظلام! مخيف ومرعب!".

"إنها الحرب يا كاجين، الحرب بين فريقين مختلفين كل الاختلاف، الحرب بين عدوين لدودين. أنا شيء، وهم شيء. أنا في صف وهم في صف..."، فقاطعه صوت انفجار هائل في مخزن الذخائر.

"...، بدأت الغارات أثناء غيابك، أجبرتني على التراجع من مشارف بغداد، حطموا الحلم، واليوم، يبدو أنهم قد قرروا ملاحقتي وقتلي في عقر داري، في الموصل، إنهم يكرهونني. إنهم يكرهونني".

وسكت بينما اشتدَّ أزيز وصفير وقصف الطائرات، ولم تمر لحظات إلا وقد تعالى صراخ قريب تتبعه أصوات فزعات، لحظتئذٍ تمتم بصوت عميق الحمرة، كثير الظلال:

"وأنا أيضاً أكرههم. أكرههم".

ولوهلة تذكر يوماً في قاعة التذاكر في محطة قطارات كلفهام جنكشن؛ تقدم ليشتري تذكرته فسمع صوتاً ينبهه:

"هالو! ثمة أناس قبلك هنا! ثمة صف! عليك الذهابُ إلى آخر الصف".

رفع عينيه وتفرس في هيئة المتحدث: كان إنجليزياً أبيضَ في الخمسين من عمره تقريباً، نظيفاً، حليق الوجه، على عينيه نظارة طبية سميكة،

كان ممتلئاً يرتدي حلة زرقاء وقميصاً أبيض ورابطة عنق كحلية، ابتعد سامي حمدان عن شباك التذاكر ثم خطا صوب الرجل وجسمه يشتعل بغضب كالحمى، كان فكه الأسفل يرتعش وحدقتا عينيه السوداوان تفيضان بظلمة كقلب الشيطان، مباشرة، ومن دون مقدمات انهال على الرجل ضرباً ولكماً وركلاً، هوى الرجل على الأرض فجثم في صدره وراح يخبط رأسه ببلاط الأرض، تحطمت النظارة الطبية، سال الدم وجاءت الشرطة. صبيحة الغد، ولما مثل أمام القاضي في الماجستريت كورت، سأله القاضي:

"كيف تفسر رد الفعل هذا؟ بحسب الشهود فإن المجني عليه لم يقل شيئاً سوى أن نبَّهك للصف، للالتزام بالنظام. ماذا تقول"؟

"أقول: إني أكرهه. إني أكرهه".

"هل تعرفه"؟

"لا".

"وكيف تكرهه"؟

"لقد سمعته يقول لي: يا سامي حمدان. أنت لا شيء. أنت لا أحد".

رفع القاضي حاجبه الأيمن وقال بصوت محايد:

"لدي هنا أكثر من خمس إفادات لشهود كانوا حضوراً أثناء الحادثة، وكلهم يؤكدون أن الرجل لم يقل شيئاً سوى تنبيهك للالتزام بالنظام والاصطفاف لحين يجيءُ دورك"، وحكم عليه بالحبس.

ويوم خرج من الحبس، هطل المطر على رأسه حاراً حزيناً مثل دمع

الشمع، سار بلا وجهة، بصق على الأرض إذْ تذكر الرجل وتذكر القاضي؛ لم يكن القاضي ولا المجني عليه ليعلما يومئذٍ بأن الغضب في روح ذلك الصبي سيشعل التاريخ ناراً. واليوم فإن طائرات التحالف تهجم بقوى وأعداد لا تتناسب مع قوته، لا بد أن الإنسان يدفع ثمن أعماله قبل أن يغادر هذه الحياة! لكن، إن كان هناك ثمة شيء واحد مؤكد فهو أن سامي حمدان قد أشعل التاريخ ناراً واشتعل. والآن، في هذا الفجر، في الخارج، خارج الزنزانة، طغى هرج وساد مرج بينما انطلق فولاذ الطائرات يطعن غلالة الفجر فيمزقها تمزيقاً.

وها هو ذا جاثم، قد بقي في مكانه، تأملته كاجين بعينين متفحصتين، فلاح كأنه يشيخ مع تقدم اللحظات؛ وسط أصوات القصف وتوهج النيران إثر الانفجارات المتتالية، راحت تنظر إلى الرجل الذي قتل أمها وأباها، قتل جيهان وقتل عم كامل الفرَّاش، قتل ماونت، مثلما قتل الآلاف، تحولت غلالة الفجر الرهيفة التي تفصل بينهما إلى بحيرة من دمٍ قانٍ، ثم وبعد لحظة، تحولت إلى بحر هادر، ثم لم تعد ترى بينه وبينها إلا الدماء. بدا مؤكداً أن الذي يفصل بينها وبينه ليس فراغَ وهواءَ الزنزانة وإنما هو بحر من الدماء.

تسارعت نبضات قلبها ورأسها يحتشد بالأفكار.

لكنها تمالكت رباطة جأشها وقالت بهدوء، بصوت أنثوي دافئ ماكر:

"مولاي! سيدي! تبدو مثقلاً بكل هذا السلاح الذي تحمله! لماذا لا تتخفف منه!".

نظر على ضوء السراج المتراقص إلى حيث تنظر عيناها، إلى بندقية الكلاشينكوف على كتفه، إلى حزام الطلقات في وسطه، ثم توقفت عيناه حيث توقفت عيناها عند خصره حيث تدلت السكين الكبيرة الحادة، بدت السكين وكأنها تنام في غمدها الجلدي الملطخ بالدماء.

"تبدو مثقلاً بهذا السلاح"! عادت فقالت بنبرة خافتة.

وسط صوت القصف والدوي والانفجارات جاءها صوت ضعيف حزين:

"أنا مثقل بأشياء كثيرة".

وسكت ثم أضاف:

"أشياء كثيرة! أخطرها الذكريات!".

ومدَّ راحة يده التي بللها العرق فوضعها على خدها، ثم رفعها فمسح بها على جبينها الذي تناثرت فيه حبيبات من عرق.

"أحب هذه الخضرة التي تملأ عينيك. أحب عينيك"، قال مرتبكاً وهو يحدق فيها.

بغتةً طفرت منه دمعة وهو يسألها:

"يا ترى! هل ستحبني هذه العيون؟".

وراحت حدقتاه السوداوان في عينيه تنبعان فتغرورقان ثم تفيضان بدمع أسود، بينما طائرات التحالف تنقض بضراوة، بغير شفقة على آلياته ورجاله... اشتد القصف، ومن تعالي وتلاحق الأزيز والصفير الفولاذي بدا أن الطائرات المهاجمة قد زاد الآن عددها، ومن قذفها أضاء الفجر بنور كالحريق، وهو بعد يحدق في عينيها.

"أريد أن أرتاح قليلاً على حجرك، هل تمانعين"؟

"لا".

ابتسم بسمة ضاوية حزينة، خلع العمامة السوداء فلمعت خصلات شعره، مسح وجهه من ملح الدموع، ثم مال عليها.

حاول أن يضع رأسه على حجرها فاصطدم بقيد الحديد في يديها.

"عفواً مولاي، سيدي، إنها الأصفاد!"، قالت وهي تزفر في خيبة.

"إنها تمنعك من إراحة رأسك سيدي! أليس كذلك"، أردفت تناغيه في مكر مستتب.

"سآمر عندما أخرج من هنا بأن يفكوا عن يديك وقدميك هذه القيود والأصفاد، أما الآن فارفعي يديك لو سمحت ودعيني أرقد فأرتاح قليلاً".

تكوَّر ثم وضع رأسه على حجرها فبدا مثل طفل مهجور.

ابتعدت الطائرات للحظات.

ساد صمت ضمخته رائحة الحريق.

ثم ارتفع في أذنه صوت هاتفاته القديمات يهتفن في قلب الصمت المحترق، يرددن كلمة واحدة: "اليأس. اليأس".

وفي الصمت تقدم الوقت.

ثم عادت الطائرات أكثر عدداً وعزماً وراحت تقصف بقسوة لا تعرف الرحمة.

تكور سامي حمدان أكثر في حجر كاجين.

ارتفع حريق الفجر المريع الناجم عن القذف المتصل فأغرقهما معاً.
وفي الضوء الأحمر الغني المتلوي في فراغ الزنزانة من ذلك الحريق، مد يده فأمسك بيدها، تحسسها والأغلال فيها، بينما تحسست هي تعرج عروقه ونفورها ونبضه اليائس، بغتةً انتفض وطوق خصرها بتلك القوة الخارقة، أحس وكأن العالم كله ينظر إليه عندما لامس جسدها، وظل ممسكاً بها وهو يرتجف قلقاً وشوقاً، مدركاً أن كاجين هي على نحو ما دوروثي.
بقي كذلك حيناً.
ثم أبعد يديه فصلصلت الأغلال برهة في يدي كاجين إذ رفعتهما.
ثم ساد السكون.
أغمض عينيه بينما راحت هي تنظر ويداها مرفوعتان إلى غمد السكين النازلة من خصره، شعرت بدويٍّ هائل يدور في رأسها ويقرع كالأجراس في الجبل، دويٍّ أقوى من دويٍّ قصف طائرات التحالف في الخارج.
ثم تحول الدوي إلى طنين كطنين النحل في الجبل.
ولاح جسد معاون الخليفة سامي حمدان على ضوء ألسنة الحريق مطمئناً، ساكناً.
راح يتنفس بانتظام كأنما أخذته سنة من نوم.
ببطء راحت كاجين تنزل يديها المقيدتين حتى لا ترنَّ أو تصلَّ فيهما الأصفاد، نبع العرق من كل مسام جلدها ثم فاض ثم قطر ثم سال فراح يبلل قطعاً في جلباب معاون الخليفة الأسود. دوى قصف

تبعه انفجار شديد، لحظتئذٍ، وبخفة وسرعة أنزلت يديها واستلت السكين من غمدها الجلدي المدموم، وفي لحظة انقضت بها على جنب سامي حمدان، طعنته في كبده، رش الدم، كان دماً قانياً تقطَّر في دوائر سميكة قوية الرائحة، أطلق سامي حمدان أنة طويلة وانقلب على وجهه، دفعته، طعنته طعنة أخرى مزقت أضلاعه، ثم غرست السكين في كبده، تعالى دوي انفجار، أضاءت الزنزانة بضوء الحريق أكثر مما قد أضاءت، وفي ذلك الضوء الأحمر ابتسم سامي حمدان، رفع عينيه ونظر إليها، بينما راحت هي تنظر إلى باب الزنزانة الذي تركه مفتوحاً، بالقيود والأصفاد والأغلال خطت فمد يده في وأمسك بساقها وشدها بقوة فسقطت، استل السكين الغائرة من كبده وحاول أن يطعنها، لكنها أشرعت لحظها ونظرت بكل عناد وجهُها في وجهه فأخذته الخضرة اللامعة في عينيها، أحس بوهن عظيم، بألم لا يصدق، كان ثمة حريق في كبده، وكان الطائر الذي عذبه سني عمره يتخبط بضربات جناحية ويهوي منقاره دونما هوادة، بينما نهضت كاجين فخطت مجدداً، وتعثرت مجدداً، فتح عينيه الواسعتين سعة الدنيا الآن فاضطربت حدقتاهما المستديرتان وسال منهما ظلام قد غسلته الدموع، ظلام لاح كثيف السواد بارقاً مثل قلب الشيطان، تعثرت كاجين وخضب دم كبده النازف منها أطراف القدمين، ثم أخيراً خرجت من الزنزانة، تلفتت فإذا الممرُّ الطويل خالٍ وموحش، جاءتها أصوات مبهمة من حلق سامي حمدان، خشيت أن يكون قد نهض، حاولت أن تعدو فسقطت،

نهضت، وراحت تخطو في بطء يختلط رنين الحديد في يديها وقدميها بدوي قصف الطائرات القريب.

ثم انطلقت من ورائها صرخة عالية:

"اِلحقوني أيها الحراس، لقد طعنتني السبية".

وسكت، ثم أحس لوهلة بذلك القلق الذي كان يعذبه طوال حياته، يتجمع كله كما لو في ضربة مخلب حاد موجعة في جرح كبده، وعنَّ له أنه يسمع هاتفاً يهتف به: "إنه الطائر، طائر كبدك يا سامي حمدان"، وسمع وقع الخطوات التائهة لكاجين يزيد من صخبها صليل القيود والأغلال، شعر برعدة غامضة تضرب عروقه، رعدة كالرعب، رعدة كالخوف، رعدة كالموت. تقلب في دمه والطائر لم يزل يضرب في كبده، وفكر في دوروثي، فكر في كاجين، حنَّ إلى شقرة الشعر، شقرة البشرة، حنَّ إلى الأهداب الطويلة مثل حشائش هائجة محتشدة على ضفاف بحيرة خضراء، كان كأنما قد ربطت أطراف كل هدب بحاجب، وفكر بقسوة في كل الذين عرفهم بلا عاطفة، فكأنه يسوي حساباته مع الحياة.

وهمس في إعياء بينما تدفقت جرعة دم حار من فمه:

"دوروثي! هأنذا الذي حرق الحشاشة في هواك ممزق الأضلاع مطلول النزيف!".

وطغى أزيز الطائرات فاستمر القصف واستمر الدوي.

بدا كأن الكون قد غرق في دوامة فوضى عاتية.

لكن وسط أصوات الانفجارات كان صوت خطى كاجين يُسمع

مختلطاً بصوت الفولاذ.

ومن بعيدٍ تناهى لأذن سامي حمدان أن صوت الخطى التائهة قد تحول إلى صوت للعناد.

صوت يخالط صوت الحديد.